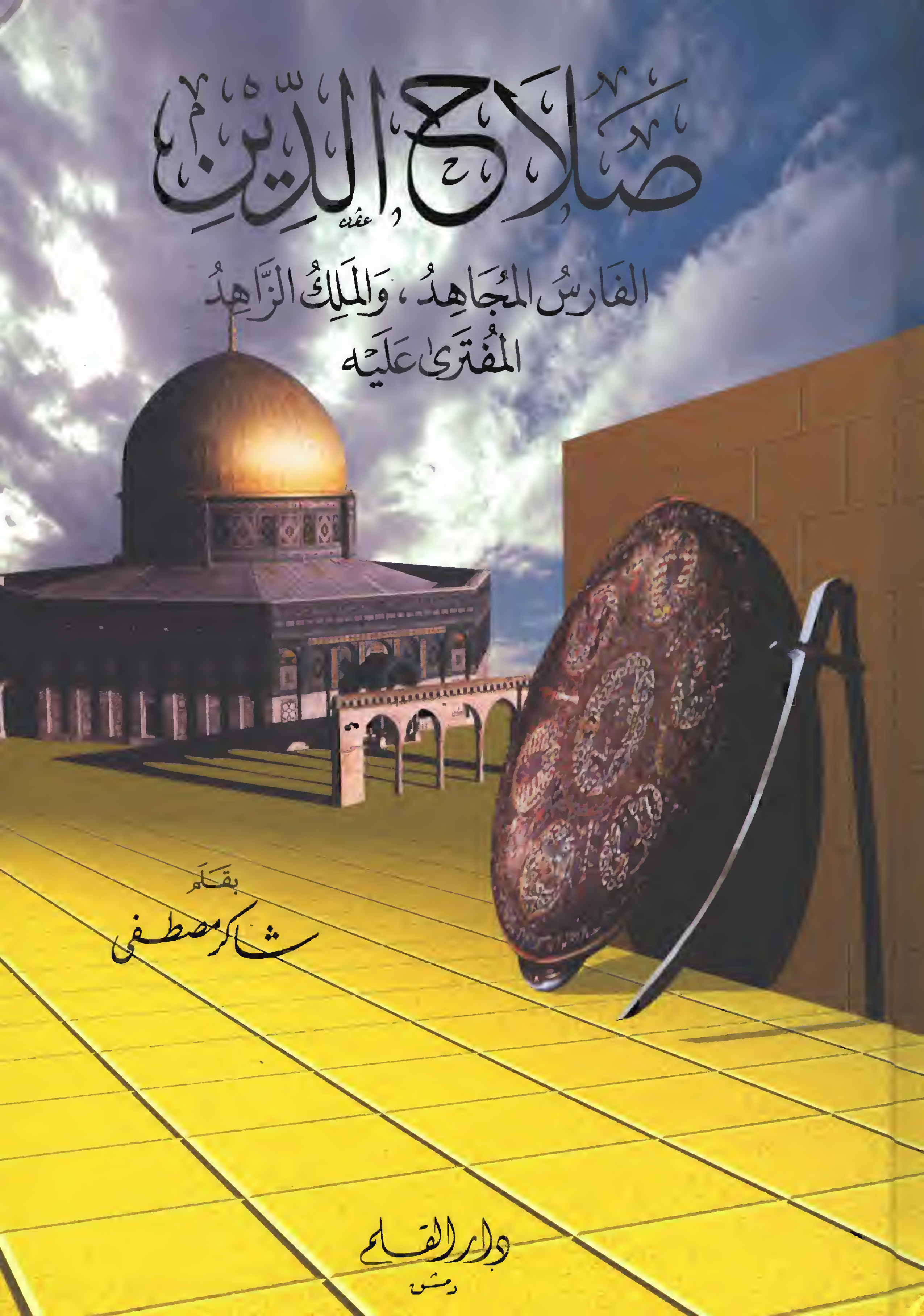
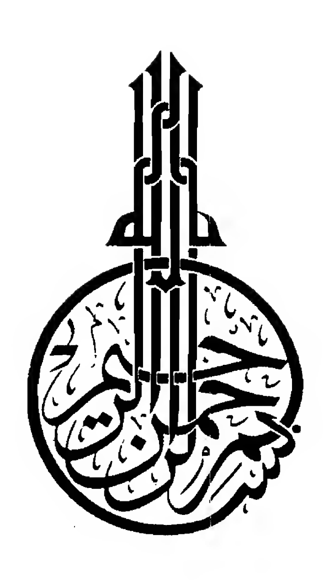

صلاح الدين
الفارس المجاهد، والملك الزاهد
المفترى عليه
بقلم
شاكر مصطفى
دار القلم
دمشق


صلاح الدين
الفارس المجاهد، والملك الزاهد
المفترى عليه

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل مَنْ وصَمهم المفتري على صلاح الدين :

- إلى أبي شامة، الذي وصفه بـ (البذيء)!!
- إلى ابن كثير الذي وصفه بـ (السفيه)!!
- إلى محمد كُرْدعلي الذي وصفه بـ (صاحب الأباطيل)!!
- وإلى مجموعة المؤرخين الزملاء الذين رماهم بالجهل المطبق والسفاهة، والتحامل، والاجترار، والعَمى، والكذب على الحق وتزييف التاريخ، ويكعوب الأحذية!!
- وأخيراً إلى صلاح الدين نفسه؛ الذي وصفه بالخِداع، والاستسلام للصليبيين، والتآمر معهم، وبأنه يستحق القتل!!

* * *



مقدمة
عودة صلاح الدين

صلاح الدين اسم كان له دوي العاصفة الهائلة في عصره قبل ٨٠٠ سنة، في أواخر القرن السادس للهجرة ـ القرن ١٢م ـ، غزا هذا الاسم العالم الإسلامي كلّه والعالم الغربي كالنسر العظيم. . ما بقي قلب مسلم على الأرض لم يصفق له، ولا بقي قلب (فرنجي) غربي إلا وارتجف رعباً منه؛ حتى مَن قطعت أعماله خبزهم أو ألغت أفكارهم وعقائدهم ـ انتظروا أن يموت. . ليحاولوا تشويه شيء من أطراف سمعته، أو نسل ريشةٍ من جناحه الممدود.

على أنَّ تألق صلاح الدين عاد فَخَفَت مع الأيام. . فالذين خلَفوه لم يكونوا جديرين به. ولقد أكمل عمله من بعده مماليك أسرته، ولكن بعد مئة سنة من غيابه، واشتركت أسماؤهم على نحوٍ ما (بيبرس، وقلاوون) بعد اسمه في الإخراج النهائي للفرنجة من المشرق العربي. . ونامت بعد ذلك سمعة صلاح الدين بين ما نام من سمعة أبطال التاريخ الإسلامي؛ من ابن الوليد إلى طارق، ومن الغافقي إلى محمد بن القاسم. وغَبرَت السنون وهو واحد من مجموعة (الأولمب) البطولي العربي التي نعتز بها. . إلى أن كانت النكبة المعاصرة بتكالب الهجوم الصهيوني، الاحتلالي على فلسطين، فإذا بطيف صلاح الدين يُبعثُ من جديد رمزاً من رموز النضال والمقاومة. . نُبش دون غيره من أبطال التاريخ العربي الإسلامي، بسبب تلك الصلة التي تربط اسمه بالقدس، وتربط تحرير هذه الأرض المقدسة باسمه. وكلَّما تأزَّم الوضع من التعنُّت الصهيوني ـ وكم تأزَّم في المذابح والحروب والعدوان ـ كلما أضحى صلاح الدين أضخم طيفاً وأكثر حضوراً. . صار رمزاً وملجأ للآمال، وللنضال ضد المعتدين الأغراب.

وما جال في خاطري يوماً أن أكتب عن صلاح الدين، فما كُتِب عنه قديماً وحديثاً يكاد يضاهي ما كُتب عن نابليون كثرة. فإلى جانب ما أُفرد لاسمه من الكتب، ما يكاد كاتب يتناول العصر الصليبي، أو الفاطمي، أو القرن الثاني عشر في المشرق ـ حتى يكون صلاح الدين هو الذي يفرض نفسه على الكاتب والقلم، ويكون محور الحديث.

وليس هذا الكتاب بالذي يزعم إضافة مجد جديد إلى أمجاد الرجل ـ الرمز ـ فمثل صلاح الدين لا يحتاج إلى من يضيف مجداً إلى أمجاده؛ وإنما هو بيان لمحاولة تشويهٍ متأخرة جداً ـ ومن المؤسف أنها أيضاً طائفية ـ ترجو أن تنال من أطراف هذه الشخصية التاريخية التي أضحت الرمز البطولي لأكثر من ألف مليون مسلم اليوم، هم أكثر الأمم حاجة لمثل هذا الرمز.

صلاح الدين ليس شخصية في مسرحية موجودة بيننا نحاكمها، ولكنه شخصية تاريخية مرَّت في الزمن الماضي، ومن المستحيل جرها لتعيش هذا العصر.. مرَّت وانتهت، ولا فائدة من محاولة جرها لمحاكمتها على ضوء مفاهيم هذا العصر.. صلاح الدين! ابن عصره في فكره السياسي والديني وفي مطامحه وأيديولوجيته كما في نقائصه؛ ولا تجوز محاكمته بعد ٩٠٠ سنة على ضوء المفاهيم التي نتطارحها اليوم.. ما وقع في التاريخ قد وقع، وقد تصرف صلاح الدين بقدر اجتهاده وبقدر مفهومه للسياسة والدين في عصره؛ ومن العبث المضحك أن ننقل اليوم عن حاقدي الأمس البعيد ما أملاه حقدهم، ونجعل لكل عمل من أعماله هدفاً (أنانياً) وغرضاً (شخصياً)، ونحكم أنه أخطأ في هذا، وأصاب في ذاك، وكان يجب أن ينحو هذا المنحى دون الآخر!!.

رموز الدول الكبرى: بوليفار، جان دارك، سان مارتين، ويلنغتون، تشرشل، نابليون، بطرس الأكبر... ما من أحد يستطيع أن يقول: أخطأوا أو أصابوا.. صاروا رموزاً، والحكم عليهم كلام في الهواء، قد يكون مجاله كتاب في الأخلاق أو السياسة، أما في التاريخ فلا مكان له على الإطلاق. ولقد

ابتلي صلاح الدين في القديم بمن لم يستطع مدافعته في المجد والجهاد والتُّقى والحلم والتسامح، فحاول الدسّ عليه هناك (كابن الأثير اتِّباعاً لولائه الزنكي، وابن أبي طي لتعصبه المذهبي)، وانكشف ذلك للمؤرخين مع الأيام.. ولم يهبط بمنزلته، ولكنَّه فَضَحَ تحيزهم ومحاولاتهم تمزيق أطراف ثوبه.

على أننا اعتدنا في هذا البُحران السياسي الذي نعيش، أن نخلط ما بين أحكام الوجود وأحكام القيم.. أن ننتقل بسهولة بين التاريخ والأخلاق، أو السياسة، أو الصراع المذهبي؛ وهذا الانزلاق الموضوعي يرافقه انزلاق آخر زمني، فنحن ننتقل من عصر إلى عصر في الأحكام كأنما التاريخ كله حاضر أمامنا على مسرح واحد، أو كأنه صورة تراكمية ذات بعدين اثنين. وتتعقد الأمور أكثر فأكثر حين تتدخل الأهواء الدهرية وعنعنات القرون المهترئة في الحاضر لتصبح من مشاكل هذا العصر ومشاغله، وتلتوي الأمور والحقائق لتتوافق مع ما نريد اليوم من الأهواء السياسية والدينية!.

ويتساءل الإنسان ما معنى أن نهجم على رمز بطولي سابق لنا فنهدمه؟ أو نحاول هدمه بتقويمٍ أعشى متأخر لا يأخذ في الحسبان لا العصر، ولا الظروف التي انقضت. ولا واقع الصراع الحالي مع الصهيونية؟ كأنما انتهينا من تقويم كل شيء، ولم يبقَ إلا هذا النصب التذكاري لتحطيمه!.

هذا الكتاب ليس ردّاً ولا فتحاً للجدل في موضوع انتهى الحكم فيه منذ ٩٠٠ سنة. وكل ما يهدف إليه هو أن ينظر إلى صلاح الدين الإنسان والسياسي والقائد الاستراتيجي والبطل الإسلامي في إطار عصره وضمن معطيات ذلك العصر ـ أوضاعه ومفاهيمه ـ، فإن استطاع ردّ بهتان أو فضح أضلولة أو كشف حق؛ فذلك يكفي بلاغاً. فمجال التاريخ هو أحكام الوجود، أما أحكام القيم فلها ألف قاضٍ وقاض؛ أم نريد لأبطالنا أو لبعض البشر أن يكونوا فوق البشر؟ ومن هو المبرأ الموفور؟

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها؟
كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه!

وبعد: أليست الشجرة المثمرة هي وحدها التي تُضرب بالحجارة؟ وقصر القامة هو الذي يغري بالتطاول على العمالقة؟ لكن ردّ الحقائق إلى أصولها فريضة علمية لئلا تبقى الشبهات وحدها في الساحة فيضلَّ بها من يضلّ، أو يستخدمها المغرض لنشر الضلال.

ولعلَّ من الضروري قبل الحديث عن صلاح الدين أن نضعه في التيار العام للتاريخ الإسلامي، وفي الفترة الصليبية بالذات؛ ليظهر في دوره الكامل ضمن إطار الحروب الصليبية التي يمكن أن تعتبر إحدى ملاحم التاريخ الكبرى في العالم بما تخللها من مئات المعارك بعد المعارك، وعشرات الأطوار والأحوال، وبما تميزت به كل مرحلة منها من الخصائص والدوافع والنتائج. ولعله ما من حرب تعددت مظاهرها وتغيرت أسبابها وامتدت أيامها قروناً كهذه الحروب، التي ما تزال إلى اليوم قائمة بأشكال وأسماء أخرى بين الغرب المسيحي والمشرق الإسلامي العربي، لا لشيء سوى وقوع هذا المشرق في الموقع الاستراتيجي على الطريق بين الغرب الأوروبي وبين القارتين الآسيوية والإفريقية، ولأنه يدين بعقيدة أخرى غير المسيحية هي الإسلام، ولأن فيه من القوى المادية والمعنوية الكثير.

«الحروب الصليبية» في أعماقها وجذورها حروب اقتصادية المضمون، وإن تكن دينية المظهر، وقد استمرت تحت هذا الشعار فيما بين مقدماتها ونتائجها أكثر من ستة قرون في الزمن، كما امتدت جغرافياً ما بين الأندلس والمغرب وبلاد الشام، وحملت هجرة بشرية متواصلة من الغرب إلى الشرق؛ فجناحها الغربي سحق العرب والمسلمين سحقاً في الأندلس (بمحاكم التفتيش)، واستمر في عدوانه الاحتلالي ضد جميع شواطئ المغرب، وجناحها الشرقي اقتُلع من أرض الشام ومصر بعد مئتي سنة، وكذا استمر يغزوهما من قبرص ورودوس مئتي سنة أخرى.

وإذا نحن قصرنا البحث في حدود المصطلح الغربي الذي أطلقه الغرب

المسيحي على هذه الحروب، أي على الحروب الصليبية التي عرفها العرب المسلمون باسم حروب الفرنجة، وعلى مدى القرنين اللذين دام فيهما الوجود الغربي المسيحي على شواطئ الشام وحاول في أواسطهما عبثاً احتلال مصر؛ فإننا نستطيع أن نقسم هذه الحروب إلى طورين أو فترتين:

الفترة الشامية: التي بدأت بدخول الفرنجة إلى الشام سنة ١٠٩٧ م، وإنشاء الإمارات الصليبية الأربع فيها. واستمرت ما يزيد قليلاً على قرنٍ حتى سنة ١٢١٧.

الفترة المصرية: التي ركز فيها الصليبيون همهم على احتلال مصر، وأخفقوا في ذلك مرتين، واستطاعت مصر في هذه الفترة ـ مع الشام ـ أن تقتلعهم من الساحل الشامي.

منذ الفترة الشامية وفور الاحتلال الفرنجي الصاعق لهذا الساحل، والذي تم فيما بين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر (٥ ـ ٦ هـ)، بدأت ردود الفعل في المنطقة العربية المسلمة. وفيما كان القوَّاد الصغار يقيمون المعارك المحدودة مع الفرنجة، كان علماء المسلمين يستعيدون ويردِّدون للناس آيات الجهاد والأحاديث النبوية لاسترداد القدس ثالث الحرمين.

وتصاعدت المقاومة تدريجياً مستندة إلى العواصم الكبرى في المشرق الإسلامي على التوالي:

١ ـ كانت بغداد ذات خلافة عباسية أشبه بالقبة الدينية ولها مركز علمي واقتصادي ولكنها لم تكن مدينة حرب. وقد قام مقامها في المرحلة الأولى مدينة الموصل وحكامها؛ لأن هذه المدينة كانت معبر السلاجقة الترك المحاربين القادمين إلى الشام، ولها المركز الاقتصادي الأول فيما بين إيران وأرمينيا والأناضول والشام، وكانت قمة قوتها ضد الصليبيين أيام مودود وجاولي ثم سنقر البرسقي، لكنه اغتيل من جانب الإسماعيلية بعد أن خطا أول خطوة نحو حلب سنة ٥١٨ هـ، وردَّ التوسع الصليبي عنها.

٢ ـ انتقل هذا المركز تدريجياً إلى حلب بعد أن توحد البَلَدان على يد زنكي، وقام محور الموصل ـ حلب، وكان من أهم إنجازاته تدمير أول إمارة صليبية قامت، وهي إمارة الرها. وعرف المسلمون عملياً معنى الجبهة الإسلامية الموحدة رغم أنها كانت في مرحلتها الأولى؛ لكنه اغتيل وهو في أوج انتصاره، فقام مقامه ابنه نور الدين محمود.

٣ ـ انتقل مركز الثقل بعد ذلك إلى محور حلب ـ دمشق، بعد أن وحَّدهما في دولة واحدة نور الدين بن زنكي، فيما صارت الموصل مجرَّد عمق استراتيجي. وعلى الرغم من أنه استطاع جمع مصر مع الشام، إلا أن أعماله لم تنتهِ إلى نهايتها الطبيعية بسبب موته المبكر.

٤ ـ ثم انتقل مركز الثقل بعد ذلك إلى محور دمشق ـ القاهرة، أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي أتم أهم مرحلة في حرب الاسترداد، وهي استعادة القدس بعد معركة حطين، وقد استند فيها إلى دولة إسلامية موحدة تمتد من ليبيا إلى اليمن إلى الشام.

٥ ـ في الفترة المصرية انتقل مركز الثقل أخيراً إلى مصر ـ القاهرة، فكانت الحملات الصليبية (الخامسة والسابعة) ضدها، واستطاعت بجدارة صدّ الحملتين ثم القيام بالهجوم المعاكس ضد الإمارات الصليبية على الساحل الشامي، واستطاعت ـ بعد الخلاص من الخطر المغولي ـ تصفيتها (أيام الظاهر بيبرس وقلاوون وابنه خليل)، واستمرت هذه المرحلة قرناً كاملاً بعد غياب صلاح الدين نتيجة الخطر المغولي ووقوع المشرق الإسلامي بين فكي كماشة من المغول والصيلبيين، ونجحت حرب الاسترداد في المشرق وإن انهارت في الأندلس ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢٥/ ٣/ ١٩٩٧

شاكر مصطفى

عَصرُ صَلاحِ الدِّين

ملامح العصر:

عاش صلاح الدين الثلثين الأخيرين من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ولعل هذا القرن كان مع نصف القرن الذي سبقه من أخطر الفترات التاريخية التي مرَّت على المشرق العربي، وأكثرها مصائب وآثاراً انقلابية في بنيتها السكانية وفي أوضاعها الاجتماعية الاقتصادية، كما في تعقيداتها السياسية وصراعاتها الحربية.

في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت تتقاسم المشرق العربي ثلاث قوى كل منها أضعف من الأخرى: الخلافة العباسية في العراق وما وراءه إلى الشرق، والخلافة الفاطمية في الشام ومصر حتى اليمن، وفي الشمال الأناضولي تقبع الامبراطورية البيزنطية. وما إن مال القرن الخامس إلى نصفه الثاني حتى فوجئت المنطقة بسيول بشرية من البراري التركية البعيدة في الشرق عرفت بالغز يتزعمها السلاجقة.. اكتسحت العراق بعد إيران واخترقت الأناضول كله، واحتلت معظم الشام عدا الموانئ التي تمسَّك بها الفاطميون.

هذه الموجة البشرية غيرت التركيبة السكانية في المنطقة كلها، وعلى الرغم من أنها كانت جموعاً مسلمة وقد دانت للخليفة العباسي بالولاء، فقد كانت عصابات نهَّابة، مدمرة، وملأت الأرضين بالدماء.. أقواسها البعيدة المدى سمحت لها بسحق جميع القوى المتهافتة أمامها، وفي الوقت نفسه سحقت القرى والزراعة؛ ونتيجة لكونها دخلت محاربة، فقد أصبح الحكم

لها. المنطقة كانت تعرف الترك من قبل بوصفهم مماليك وجنوداً في أيدي القادة السياسيين.. ولكنهم قدموا اليوم حكاماً، وتقاسمَ حكْم الأقاليم زعماؤهم مع مماليكهم المحاربين، وصار المشرق العربي يسمع لا الرطانة التركية فقط، ولكن أسماء حكام لم يعرفها من قبل: طغرل، ألب أرسلان، تتش، طغتكين، جاولي، أرتق، دقماق... وغيرها.

واضطربت الحياة الاجتماعية بدخول الجماعات البدوية التركية بسيطرتها على تكوينها، كما اضطربت الحياة الاقتصادية، لأن السلاجقة لم يكونوا تجاراً ولا بحارة، ولكن محاربين ورعاة.. وقد جرفت موجتهم معها جموعاً أخرى ليست منهم كالأكراد والكرج والفرس والخوارزميين؛ تستغل فرصة الغزو المتاح؛ فتعطلت إلى حدٍّ ما حركة القوافل البرية في التجارة، وزاد الاعتماد على البحر الأحمر ومصر والموانئ السورية الباقية في أيدي الفاطميين. وشهدت المنطقة، حتى في مصر نفسها، انتعاشاً للفكر السنّي ظهرت آثاره في الإسكندرية وفي دمشق خاصة وفي حلب، ولكنه أكثر ما ظهر في تقاطر العلماء (من الحنابلة في العراق ومن المالكيين في المغرب) إلى القدس؛ رغبة في إزالة الظل الفاطمي الشيعي عنها، وكانوا يعتبرونه ضرباً من الكفر!.

قبل أن ينتهي القرن الخامس باثنتي عشرة سنة (١٠٩٥ م) فوجئت المنطقة الشامية بغزو ضخم آخر حسبه الناس غزواً رومياً (بيزنطياً) مما اعتادوه، ولكنهم عرفوا متأخرين أنه غزو فرنجي صليبي حمل كل أطماع الغرب المتأخر وكل جهله وتعصُّبه الأعمى وراء الصليب الذي يرفعه.

كان غزواً بشرياً واسعاً فيه الكهنة والنبلاء، وفيه اللصوص والمجرمون، وفيه المحاربون الفرسان، وفيه مَنْ يربطون أقدامهم بالخرَق لكثرة ما مشوا من أقاصي فرنسا إلى المشرق، وفيه المسلَّحون بالعُدد الكاملة والسيف الصقيل، والمحاربون بالحجارة والسكاكين. نزلت هذه الغزوة البشرية على السهول عند إنطاكية بشمال الشام بعد أن عبرت البوسفور، وانتصرت على السلاجقة الذين

وجدتهم في طريقها إلى الشام، حيث يوجد قبر السيد المسيح. . صيحتها: هكذا أراد الله؛ وشعارها المحرك: تخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين الكفرة (عبدة الشيطان).

مكثت الحملة الصليبية الأولى سنة تحاصِر أنطاكية؛ والشام ممزقة الأوصال بين أمراء السلاجقة المتناحرين؛ فملك في حلب يبغض أخاه الذي يملك دمشق، وفي حمص إمارة، وفي شيزر ـ شمال حماة ـ إمارة أخرى، وفي القدس يملك أبناء أرتق ـ ممن ينتمون للسلاجقة ـ، وقد انتهز الفاطميون فرصة الكارثة النازلة عند أنطاكية فأرسلوا يتفقون مع الصليبيين على تقاسم الشام؛ للفاطميين الجنوب، وللمهاجمين الشمال، واحتلُّوا خلال ذلك القدس، وطردوا منها الأراتقة.

واطمأنت القاهرة لصداقة الصليبيين حين عاد وفدها إليهم وهو يحمل بعض رؤوس السلاجقة هدية ملكية! وحين حسبت أن الموانئ التابعة لها من طرابلس حتى الجنوب سوف تُسلَّم لها. لكن الفرنجة بعد التخاذل السلجوقي وبطء النجدات من سلاجقة العراق وإيران، وصَمْت الخلافة في بغداد؛ استولوا أخيراً على أنطاكية في مؤامرة خيانة، وأغرقوها بمذبحة مروعة، أتبعوها بمذبحة من مثلها في معرة النعمان. . مما جعل القوى الباقية الممزقة ترتجف رعباً وتفتح الطريق للحملة التي انسابت عبر وادي العاصي إلى طرابلس، ولم تقف طويلاً عندها؛ بل اخترقت الساحل مسرعة حتى وصلت السهول وراء حيفا. ورأى الصليبيون أنها قطعت الشام قطع السكين للزبدة، فعقد قوادهم العسكريون مجلساً يفكرون فيه بغزو مصر، وهم على مرمى حجر من القدس؛ أطماعهم التجارية كشفت لفترة قصيرة عن نفسها، وإنما أخمدتها الجموع الغوغائية التي قطعت أوروبا كلها وآسيا الصغرى والشام لتصل ـ حسب الشعار الذي رفع لها ـ إلى القبر المقدس، فانعطفت الحملة إلى القدس تحتلها في مذبحة وصفوها للكرسي البابوي ـ الذي حرَّضهم على الحرب ـ بأنهم فيها

خاضوا في الدماء إلى الركب، وقتلوا سبعين ألفاً، حتى لقد تعفَّنت الجثث في الطرقات تحت أرجلهم والسنابك!

خلال ما لا يزيد على عشر سنوات كان الصليبيون قد أقاموا مملكة في القدس، وثلاث إمارات: في طرابلس وأنطاكية والرها ـ أورفة ـ. وابتلعت الحروب مع هذه الإمارات والغزوات المتبادلة كل قوى المنطقة. صحيح أن بعض القوى الإسلامية جاءت تنجد من الموصل بخاصة سلاجقة الشام، وصحيح أن الفاطميين قاموا ببعض الحملات التي جعلتهم يحتفظون بعسقلان ـ وهي المدخل إلى مصر ـ. كما أن من الصحيح أيضاً أنَّ بعض القوى الإسلامية هادنت الصليبيين أو أدَّت لهم ثلث أو نصف غلاَّت المناطق التي تجاورهم اتقاءً لشرهم، أو تحالفت أحياناً معهم ضد القوى الإسلامية الأخرى؛ لكن هذا كله كان في الثلث الأول من القرن قبل أن تستفيق الحميّة الدينية من الصدمة الأولى، وتقوم بِردَّات الفعل المناسبة، ورفع راية الجهاد في سبيل الله.

تعبأت النفوس تدريجياً بهذا الشعار بعد أن نام منذ زمن طويل؛ ولا شك أن السلاجقة الحكام شعروا به أكثر من غيرهم، ولم يكن ذلك لِجدَّتهم في الإسلام، ولكن لحفظ مكانتهم وشرعيتهم في البلاد التي يحكمونها، ولأن علماء المسلمين كانوا يحرِّضون الناس في المساجد لتحرير الأرض المقدسة أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. حصل في الجماهير الشامية والعراقية خاصة نوع من اليقظة الدينية ضد (الكفار)، بعد أن طال أذاهم واستفحلت قواهم بما كان يأتيها من مدد المتطوعين الغربيين، ومن التبرعات ومن أساطيل التجار الطامعين في تجارة المشرق والتوابل وما إليها، بعد أن صارت موانئ الشام في أيدي الصليبيين، وصار للتجار فيها الامتيازات الواسعة، والكفة الراجحة والرابحة كانت في الغالب بجانب الفرنجة.

وفيما كانت القوى الصليبية تبني القلاع في المواقع الاستراتيجية، وتمتد حتى ميناء أيلة ـ العقبة ـ، وتسيطر من طرابلس على القوى الوسطى في الشام،

وأنطاكية تفرض سيطرتها مع إمارة الرها على الشمال؛ كان الداخل الشامي المسلم ومن ورائه العمق العراقي متمثلاً في الموصل يُعدّ العدة المعنوية لا للدفاع فقط، ولكن للصمود ثم الهجوم. كان التحدي الصليبي من القوة بحيث سلب المنطقة فكرة التسامح الديني التي أشاعها الإسلام، وردَّها إلى فكرة (الجهاد) بقوة، حتى صارت هذه الفكرة هي هاجس المسلمين في كل مصر وقرية.

وقد رفع هذا الشعار كثير من أمراء المسلمين؛ مثل طغتكين في الشام وأبناؤه، ومثل مودود وجاولي في الموصل؛ لكن ما انتبهوا إلى شعار الوحدة الضرورية لنجاح الجهاد. . كان كلٌّ يعمل بمفرده فيغزو ويُغزى، وينتصر وينهزم؛ تبعاً للظروف وتوازنات القوى. . حتى ظهر بعد سنة ٥٣٢ عماد الدين زنكي في الموصل، فربط الجهاد بتوحيد الجبهة؛ بعد أن استولى على حلب وأقام محور الموصل ـ حلب في إمارة واحدة بقيادته.

ولم يكن لهذا المحور أن يقوم وأن يبدأ فترة التوازن مع القوى الصليبية لولا أنه استند إلى المشاعر الدينية التي أوقد شعلتها العلماء والوعَّاظ في الناس؛ فقد بدأ الأمر بضجيج الناس والبكاء في الجوامع أيام الجُمَع، كما جرى في بغداد سنة ٥٠٥ هـ، حين كسر الصاخبون الباكون المنبر واستجاروا بنخوة الخليفة والسلطان السلجوقي؛ وجرى مثل ذلك في عدد من بلاد الشام حين خرج أهل حلب ويزاعه نساء ورجالاً وصبياناً سنة ٥٣٢ هـ، ودخلوا المساجد ومنعوا الناس من الصلاة، مطالبين بالجهاد حتى لقد كسروا المنابر.

وأخذ العلماء في تأليف كتب الجهاد، فقد كتب أبو طاهر السلمي كتاباً في الجهاد من اثني عشر جزءاً ـ حين دخل الصليبيون القدس ـ، وكتب غيره كتباً أخرى تحثُّ على الجهاد، وظهرت تفاسير لآيات القرآن الكريم، وأحاديثُ لم يُسمع بها من قبل في فضائل القدس، وأدبيات وقصائد تدغدغ مروءات الناس والحكام، وألَّف الشيخ برهان الدين كتاب (منتخب في

فضائل بيت المقدس)[1] قال فيه: « إن أرض بيت المقدس هي أول أرض بارك الله فيها، ومن تحت قبة الصخرة تخرج كل المياه العذبة. . . »!. وذكر الظاهري في كتاب (زبدة كشف الممالك) أن أرض الله هي القدس[2]. وفُسِّر قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] بأنها هي الأرض المقدسة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: « مَنْ زار بيت المقدس محتسباً، أعطاه الله ثواب ألف شهيد »!.

ونجد في كتاب (الأنس الجليل) للعليمي عشرات الأحاديث التي لا شك في أنها وُضِعت قبل تحرير القدس من الصليبيين وبعد التحرير، لتضخيم قدسيَّتها، وحثّ الحكّام والناس على تحريرها، والحفاظ عليها. حتى لقد نقل العليمي عن أبي عمرو الشيباني قوله: « ليس يُعَدُّ من الخلفاء إلا من ملك المسجدين: المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف ».

وقبل أن يصبح (الجهاد) بخاصة عقيدة متينة لدى الجماهير؛ كان الشعراء قد ركبوا الموجة، وكانوا يعتبرون كلَّ نصرٍ في معركةٍ مع الصليبيين جهاداً، مضيفين بذلك بُعداً إضافياً إلى الحماسة الدينية.

وعلى الرغم من الجوِّ العدائي الذي أوجَدته المعارك المتكررة بين الأمراء المسلمين والصليبيين، وعلى الرغم من تنامي فكرة الجهاد؛ فإن الحاجة الاقتصادية بين الطرفين كانت تجبرهما على التعاون التجاري، وعلى حماية الزروع؛ فلا سبيل للتجارة الدولية القادمة من الهند والشرق إلا أن تمر بالموانئ الشامية، ولا سبيل لتأمين الغذاء للناس في الجانبين إلا بحماية المنتجات الزراعية، وكان من أقسى معارك الانتقام محاولات الصليبيين إحراق المواسم في الأرض الإسلامية، أو تدمير المسلمين للأراضي الداخلة في حوزة الأعداء،

---

(١) مخطوط في مكتبة المتحف في بغداد رقم ١٠٢٣، الورقة ٥ و١١.

(٢) مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس رقم ١٨٩٣، الورقة ١٧.

وكانت الهدنات الطارئة بين الطرفين تنص على عدم التعدِّي على الزروع أو تتضمن النص على تقاسمها بنسب معيّنة.

على أن الصليبيين الذين توضَّعوا على طول الساحل الشامي لم يحاولوا الاختلاط بالداخل الإسلامي؛ وإن حاولوا دوماً التوسع فيه. وبالمقابل لم يكن المسلمون يدخلون الأراضي المحتلة إلا في الهدنات وإلاّ في الأغراض التجارية، وفتراتها محدودة، فكان للداخل الشامي حياته الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة، وللساحل الصليبي مثل ذلك في نوع من القطيعة والعداء المتبادل، وبهذا الشكل صارت الإمارات الإسلامية تستكثر من الجند وعُدد الحرب والقلاع بقدر ما كان الجانب الصليبي يقوى بالأمداد المتصلة عبر البحر على الأساطيل الإيطالية: (جنوا، نابولي، البندقية)، والتي كانت تذهب ثقالاً بالبضائع من المشرق وتعود ثقالاً بالجند والحجاج والعُدد الحربية. والحروب تطحن كالرحى كل ذلك، على أن الطرف الصليبي كان يتقوى بظهور منظمتين عسكريتين فيه، قوامهما الرهبان الذين نذروا أنفسهم للحرب (المقدَّسة)، وهما: الداوية والاسبتارية، ولم يكن لدى المسلمين مثل ذلك. ومع ازدياد النذور والتبرعات للمنظمتين صارت لهما قلاع في عدد من الجبال المطلّة على الساحل، وفي النقاط الاستراتيجية التي آذوا فيها المسلمين كل الإيذاء.

ضمن هذا الجو العام المتشابك لم يكن بدّ من أن تتمثَّل فكرة الجهاد في شخصية جديرة بالوقوف الجريء تجاه التحديات الصليبية المذلة. فلما قام محور الموصل ـ حلب بقيادة عماد الدين زنكي تلفتت الأعين إليه بالآمال، ولم يكن لإقامة هذا المحور من مبرر عند الناس سوى القيام بالجهاد.. ولبس زنكي هذا الدور عن جدارة، وأعانته الظروف للقيام أمام جماهير المسلمين بالمهمة التي يدَّعيها والتي يرجوها ويأملها الناس منه.

أسلاف صلاح الدين:

لقد سبق ظهور زنكي ظهور رجال آخرين من المجاهدين في سبيل الله؛ فقد ظهر مودود حاكم الموصل وأتى دمشق سنة ٥٠٥ هـ، وقام مع صاحبها الأتابك طغتكين بمعركة قريبة من موقع حطين، وسحق فيها الاثنان الجيش الصليبي سحقاً؛ فليس أمامهما إلا احتلال القدس الخالية من الجند، ولكن طغتكين خاف على إمارته بدمشق، فأقنع صاحبه بالعودة في الربيع المقبل لمتابعة الحرب. وعاد مودود إلى دمشق، فاغتاله بعض الإسماعيلية في الجامع الأموي وهو خارج من الصلاة.. وامتدت أصابع الاتهام إلى طغتكين.

وظهر حاكم آخر من الموصل أيضاً هو جاولي، ولكنه فشل في تحقيق الاتفاق مع قوى حلب، وفشل في الجهاد لوحده، وحين رضيت الخلافة والسلاجقة عن طغتكين هذا الذي تلقَّب بدل الإمارة بالأتابك، وأسس أول أتابكية.. حمل هذا الرجل لواء الجهاد فأعان حلب وقوّى حمص وشارك في تدبير أمور ميناء صور للفاطميين، كما شاركهم القتال عند عسقلان. ظل هذا المملوك السلجوقي قرابة عشرين سنة على الجهاد، وقد توفي في السنة التي ظهر فيها زنكي (سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٨ م) أتابكاً في الموصل وحلب، وكانت فكرة توحيد الجبهة الإسلامية تأتي في رؤوس الأمراء في الموصل والشام من قبل وفي بغداد العباسية وأصفهان عاصمة السلاجقة بوصفها أملاً. وأبرز التجمعات التي حاولت التوحيد كانت محاولة آقسنقر الرسقي في أواخر سنة ١١٢٥ م الذي أعطاه السلطان حكم الموصل سنة ١١١٨ م، وأتاه نداء من أهل حلب لنجدتهم ضد الصليبيين فخفَّ إليهم، وكتب السلطان السلجوقي إلى طغتكين صاحب دمشق وخيرخان بن قراجا صاحب حمص أن يتعاونوا معه، فالتقى الجميع عند حلب سنة ١١٢٥ م، وأنجدوها، ولكن البرسقي قُتل في السنة التالية على أيدي الإسماعيلية.

عماد الدين زنكي : تولى الموصل وعملية الجهاد، وقد مكَّنته الظروف أيضاً من جمع إمارتي الموصل وحلب في يد واحدة، وعند ذلك طرح زنكي الشعار الثاني مع الجهاد وهو توحيد الجبهة الإسلامية في الشام، وإذا كان هذا الشعار يساعده في التوسع السياسي، فإنه كان الخطوة الأولى في المشوار الطويل والمشروع الصخم الذي سيقطعه المشرق العربي للوصول إلى اقتلاع الاحتلال الصليبي، ويبالغ ابن الأثير فيقول:

« لولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بولاية الشهيد (زنكي) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه »[1].

والواقع أن هواجس الجماهير هي التي تصنع الأبطال، كما أنَّ البطل هو الذي يستطيع أن يمثّل تطلُّعات وآمال الجماهير بشكل متقابل، ولولا تشبُّع الناس بضرورة الجهاد وتوحيد الكلمة لكان زنكي اليوم كمثل العشرات من الولاة الذين حكموا وزالوا، ولم يتركوا في التاريخ أي بصمة. كما أن زنكي بدوره لو لم يكن يملكك من مؤهلات الشجاعة والقوة العسكرية والظروف المناسبة لانطفأ كغيره. ولا يجب أن نبالغ في انتشار فكرة توحيد الجبهة، فإذا كان الجهاد شعاراً مقبولاً من الجميع بحكم الواقع، وإمكان تنفيذ كل أمير له على هواه؛ فإن فكرة التوحيد لم تكن تروق لكثير من الأمراء الذين يفضِّلون البقاء والاستقلال بإماراتهم؛ ولهذا لقي زنكي بشعاره المطروح تأييد الشيوخ العلماء والناس، ولكنه لقي بالمقابل مقاومة الأمراء. حاول الامتداد من حلب جنوباً في الشام، وحالف أمير دمشق الأتابك بوري، وكان يملك حماة، ولكن زنكي نكث بالحلف واحتل حماه، ثم باع المدينة لصاحب حمص خيرخان بن قراجا؛ فلما وصل هذا الرجل لاستلامها غدر به زنكي وألقاه في السجن، واتَّجه للاستيلاء على حمص التي قاومته بشدة، فاضطر للرجوع عنها إلى حلب سنة ١١٣٠م، وتأجلت فكرة التوحيد سنوات.

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٣٨.

كان السبب في تأخيرها أيضاً تدخُّل أمراء الجزيرة من بني أرتق وادِّعاؤهم بأحقيَّتهم بملك حلب، وسار صاحب ماردين وابن عمه صاحب حصن كيفا وأمير ديار بكر في قوة تبلغ عشرين ألفاً لقتال زنكي، ولكنه ظفر بهذه القوة وهزمها بين ماردين ونصيبين موطِّداً بذلك محوره الأفقي الممتد بين الموصل وحلب، لكنه لم يستطع الاستفادة من اضطراب الأحوال في إمارة أنطاكية الصليبية إلا في الاستيلاء على حصن الأتارب.

ويبدو من استعراض تاريخ زنكي وماضيه أنه كان أميراً مغامراً أكثر منه صاحب مبدأ، ونهَّازاً للفرص أكثر من رجل عقيدة، ولم يكن ذلك بسبب استخدامه الغدر ونكث العهود، ولا بسبب المظالم التي أوقعها في الناس ـ وهي كثيرة ـ، ولكن لأنه أيضاً كان يتطلَّع في الآفاق بحثاً عن فرصة تزيد في سيطرته؛ وقد شغل عن الشام والصليبيين لفترة من الوقت، وتدخَّل في التمزُّقات التي أصابت سلطنة السلاجقة في بغداد وأصفهان بين أولاد الأعمام، وقد استنجد به أحدهم ضد الخليفة سلجوق شاه ابن عمه، فسار زنكي بجيشه نحو بغداد، فأنزل به جيش الخليفة وسلجوق هزيمة منكرة عند تكريت، وقتل من جنده الكثير، ففرَّ هارباً، وعلى طريق الهرب لجأ زنكي إلى صاحب تكريت نجم الدين أيوب الذي حماه وسهَّل له العبور إلى الموصل؛ وكان لهذه المروءة أثرها الكبير في مستقبل المشرق العربي الإسلامي؛ لأن الخليفة المسترشد تشجَّع فلحق بزنكي إلى الموصل، مما دعا نجم الدين أيوب إلى الهرب بدوره من بلده واللجوء إلى زنكي والدخول في جنده وحاشيته.

زحف المسترشد على الموصل صيف ١١٣٣م في ثلاثين ألف مقاتل فهرب زنكي منها تاركاً فيها نائبه لصد الهجوم. وفي الوقت نفسه انتهز صاحب دمشق إسماعيل بن بوري الفرصة فحاصر حماه ومَلَكَها قهراً. وكما أن الصليبيين أنزلوا الهزيمة بنائب زنكي في حلب الأمير سوار في معركة قنسرين سنة ١١٣٣م.

وهكذا بدا كأن (توحيد الجبهة) الذي طرحه زنكي شعاراً لإمارته قد تداعى لبنة لبنة! على أن الظروف تغيَّرت بسرعة فأعادت زنكي إلى مقدمة الأحداث؛ فقد فشل الخليفة في حصار الموصل، وولي دمشق إسماعيل بن بوري الذي ما لبث أن أصابه مسٌّ من الهَوَس، فقتل أخاه واتَّهم أمه، وانحنى على كبار البلد بالقتل والمظالم، وانتهى الأمر بأن طلب من زنكي أن يأتي ليسلِّمه البلد وإلا سلَّمها للفرنج؛ وتحرَّك زنكي نحوه، ولكن أم إسماعيل قتلته أمام عينيها وبدَّلت به أخاه. فلمَّا وصل أغلقوا أبواب دمشق في وجهه، وكان يأمل أن يقيم مثلث الموصل ـ حلب ـ دمشق، ولكن أنانية العسكر الدمشقي جعلتهم يفضِّلون الاتفاق مع الفرنج على تسليم دمشق لزنكي وقطع أرزاقهم. وفي الوقت نفسه قُتل الخليفة المسترشد على أيدي الباطنية، ولم يجد الخلفاء بدّاً بعده من الاستعانة بزنكي لتقوية الخلافة.

وهكذا لعبت التطوُّرات دورها في إعادة زنكي إلى محور الأحداث في المنطقة، فبدأ تنفيذ واجب الجهاد ضد الفرنجة من جهة، واستكمال توحيد الجبهة الإسلامية من جهة أخرى؛ فنازل الصليبيين في أطراف إمارة أنطاكية، والاستيلاء على بعض البلاد شرقي نهر العاصي (الأثارب، معرة النعمان، كفرطاب. . .)، وعاد يهاجم الإمارات الإسلامية في وسط الشام (شيزر، وقنسرين، وحمص)، وحين عاد إلى الموصل سنة ١١٣٥م قام نائبه في حلب (سوار) بمهاجمة إمارة أنطاكية في السنة التالية حتى وصل اللاذقية مخترقاً مئة قرية وبلدٍ تحت النفوذ الصليبي، وعائداً بسبعة آلاف أسير ومئة ألف رأس من البهائم! ثم عاد زنكي مرة أخرى على حمص وكانت تابعة لدمشق، وحين استجار صاحبها بالصليبيين نتيجة حلف قائم بينهم وبين أمرائها جاءت الجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمير طرابلس للنجدة، ولكن زنكي أنزل بالطرفين هزيمة قاسية جداً أسر فيها ملك بيت المقدس، ولم يطلق سراحه إلا بفدية خمسين ألف دينار سنة ١١٣٧ م، ولم ينفعه الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي الذي عاد خائباً إلى بلاده.

وهنا بدأت مشكلة زنكي مع إمارة دمشق، فإن هزيمة تحالفها مع الصليبيين كان لها من الدوي ما جعل اسم زنكي على كل لسان، ولكنه لم يستطع أخذ حمص، فأراد كسب البلد عن طريقٍ آخر هو الزواج من والدة الملك الدمشقي زمرد خاتون، وقبلت السيدة ذلك، وكان المهر إعطاء حمص إلى زنكي سنة ١١٣٨م! ولكن أمراء دمشق لم يكونوا على استعداد أبداً للتسامح مع زنكي وتوحيد الجبهة معه؛ لأنهم يعرفون أنَّ ذلك يقطع أرزاقهم وامتيازاتهم الهانئة فيها، ويفضلون بقاء التحالف مع الصليبيين على التسليم لزنكي بأي أمر. روح هذا الموقف المخزي كان الأتابك أنر وهو ثعلب ماكر أضحى بعد غياب الملكة الأم هو الجملة والتفصيل في المدينة وممتلكاتها. وحين رأى زنكي أن الزواج لم يفتح له السبيل إلى دمشق فكَّر بمهاجمتها وأخذها عنوة، ثم فضَّل سلبها أولاً آخر امتداد لها إلى بعلبك، فهاجم هذا البلد وامتلكه ١١٣٩م، ولم يحترم العهد الذي قطعه لأهله قبل تسليمها، فاعتدى عليهم أشد الاعتداء، مما جعل أهل دمشق ينضمُّون إلى أمرائهم خوفاً من أن يلاقوا على يديه المصير نفسه! وصار الأتابك أنِر هو «الجملة والتفصيل» كما يقول ابن الأثير[1]، وحين جاء زنكي إلى دمشق يهاجمها ترك والياً على بعلبك نجم الدين أيوب بعد أن شفع في الأمراء وكتب له ثلثها ملكاً[2]، ولكنه وجد وراء أسوار دمشق كتلة من الأعداء ترفضه وتحاربه.

ولعب الثعلب أنر لعبته، فأرسل رسولاً إلى الصليبيين يخوفهم من تملُّك زنكي لدمشق، وأنه «إن ملكها لم يبقَ لهم معه بالشام مقام»، وتعهَّد لهم بدفع عشرين ألف دينار شهرياً طول مدة بقاء زنكي على مهاجمة دمشق! وأضاف أنر أنه على استعداد لمساعدة الصليبيين في أخذ حصن بانياس المشرف على الحولة بعد انسحاب زنكي! وتجهَّز ملك القدس وسار، ولم يشأ زنكي أن

(١) الكامل: حوادث سنة ٥٣٣ هـ.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١، ص ٨٧.

يحارب بين نارين فانسحب. . . وجرى فتح بانياس في مذبحة رهيبة! .

وأعجبت (أنر) اللعبة فما يكاد يشعر بضغط من زنكي حتى يهدد باستدعاء الصليبيين الذين انتهزوا الفرصة؛ فبنوا حصون الكرك والشوبك على الضفة الشرقية للأردن، وأضحوا يهددون طرق القوافل والتجارة العابرة من مصر إلى الشام أو الذاهبة إلى الحجاز. وصرف زنكي عند ذلك همه إلى الشمال فهناك إمارة الرها الصليبية، وكان العداء قائماً بين أميرها وأمير أنطاكية، فاستغلَّ ذلك زنكي للقضاء على الخطر الذي تشكِّله إمارة الرها على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب، وبين بغداد وسلاجقة الروم. فالتمس زنكي عذراً للهجوم على الرها بأنها أقامت حلفاً مع الأراتقة ضده، وفي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٤٤ م كان يضرب الحصار عليها وأميرها غائب، ولم ينفعه الاستنجاد بملك القدس أو أمير أنطاكية، لأن المدينة مع إمارة الرها الصليبية سقطت في يد زنكي قبل عيد الميلاد ١١٤٤ م، رغم حصانة أسوارها وشراسة الدفاع الداخلي عنها! وغيَّر سياسته المعتادة، فمنع جنده من القتل بعد موجة الدخول الأولى وشمل الأهلين بالرعاية، وردَّ الأسرى إلى أهليهم والمنهوبات إلى أصحابها. وكان يرمي بذلك إلى اجتذاب قلوب السريان والمسيحيين المحليين بخاصة. ولم يترك بها حين غادرها سوى حامية محدودة! .

على أن سقوط الرها إذا كان قد رفع من سمعة زنكي إلى الأوج باعتبار أنها أول إمارة صليبية قامت، وأول إمارة صليبية تسقط في يد المسلمين؛ فإن الهزة التي أحدثها سقوطها في الغرب كان أشبه بالزلزلة. وفيما كان زنكي يستصفي الحصون الأخرى في الإمارة كان الصريخ يتجاوب في أوروبا الغربية كلها لاسترجاع الرها، والاتصالات بين الملوك تقوم لتشكيل أكبر حملة غربية صليبية بعد الحملة الصليبية الأولى! .

لكن زنكي لم يتمتع بهذا النصر طويلاً، ولم يتح له احتلال دمشق كما كان يشتهي، ولا استطاع تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة التي كان يحلم بها، فقد راح يحاصر قلعة جعبر ـ وهي إمارة عربية صغيرة على الفرات ـ فاغتاله وهو نائم بعض خصيانه (منتصف أيلول سبتمبر ١١٤٦)؛ وضج العالم الإسلامي كله لخسارته؛ حتى لقد قال أهل قلعة جعبر أنفسهم للقاتل: « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله ». لكن فقده لم يؤثر في قليل أو كثير على فكرة توحيد الجبهة الإسلامية وضرورتها، وإذا تفرّق جيشه الكبير كلٌّ إلى بلده؛ فقد بقي قسم منه (من جند الموصل) مع ابنه ونائبه فيها، وقسم انسحب مع ابنه الثاني نور الدين محمود إلى حلب. وانتظر الناس على العادة أن يختصم الأخوان وأن تدور الدسائس بينهما؛ ولكن نور الدين كان من العقل والحكمة البعيدة بحيث بعث يتألف أخاه ويحافظ على الصلة معه وتوحيد الكلمة؛ رغم انقسام المملكة بينهما إلى شطرين، ورغم انهيار محور الموصل ـ حلب الذي أقامه والدهما واستند إليه، وبرهن نور الدين على أنه وارث مبادئ أبيه على الفور في الجهاد حين سمع بثورة أهل الرها وعودة أميرها إليها وقتل الحامية الزنكية، فما كان أسرع منه أن عاد بقواه إليها وضرب الحصار على المدينة فهرب أميرها، وجُرح وهو هارب وقتل الكثير من أصحابه، وفتحت المدينة مرة أخرى، ولقّنهم نور الدين درساً قاسياً، وأعمل السيف في الرجال، وساق النساء والأطفال أسرى إلى حلب.

كان لهذه الغزوة التي بدأ بها نور الدين عهده صداها الرائع في الأوساط الإسلامية، فكأنما زنكي قد عاد في ابنه إلى الحياة. أما في الغرب فكان لها صداها المروع، وكان أشد وأدهى من صدى سقوطها الأول. وفيما كان أمير أنطاكية يهاجم حلب حتى يصل أسوارها، وكان صاحب دمشق ينتهز الفرصة لاسترداد بعلبك مسترضياً واليها نجم الدين أيوب ببعض الأقطاع والضياع في

غوطة دمشق؛ فترك بعلبك وأقام بها[1] لاستعادة النفوذ على حمص وحماه. وكان الأراتقة يستردُّون ما سلبه زنكي من أملاكهم في الجزيرة. كان على نور الدين محمود وحده أن يقوم بالعبء الذي ترتَّب على مقتل أبيه بعد فتح الرها. ولم يكن هذا العبء يعني فقط استرداد أملاك أبيه في الشام وإتمام مهمته في توحيد الجبهة الإسلامية، ولكنه كان يعني أيضاً الوقوف لملوك أوروبا الذين حشدوا للقيام بالحملة الصليبية الثانية.

نور الدين محمود زنكي: لم يكن نور الدين يشبه أباه في شيء إلا في الشجاعة والاندفاع للجهاد، وفيما عدا ذلك فقد كان نقيضه في التصرف السياسي وفي التدين الشديد، وإذا كان الأب فظّاً غليظ القلب، جبَّاراً حتى قُتل، فنور الدين كان ليِّن العريكة، رقيق العاطفة، عطوفاً على الرعية، حتى أعطاه الناس لقب (الشهيد) وإن مات على فراشه بالخوانيق. وطموح الأب للتوسَّع قابله لدى نور الدين تقرُّب شديد من أخيه صاحب الموصل، وحين التقيا في صحراء سنجار مفردين، ترجَّل له وقبَّل الأرض بين يديه، وطمأنه حتى كأن مملكة زنكي لم تقسم بين الأخوين. وكان نور الدين يعتبر مملكة أخيه في الموصل عمقه الاستراتيجي وسنده. وقال لأخيه يوم اللقاء: «حتى تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا»[2].

وهكذا انصرف نور الدين وهو مطمئن من حماية ظهره إلى الهجوم على إمارة أنطاكية المجاورة له في مملكته الشامية ١١٤٧ ـ ١١٤٨م، وسلبها معظم أملاكها شرقي نهر العاصي مثل أرتاح والأثارب وكفرلاثا؛ مثبتاً أن سياسة زنكي ما تزال حية فيه، وأن كابوس زنكي قد تجدَّد في نور الدين.

واتَّجه بعد ذلك إلى دمشق يحاول استمالتها إلى الجبهة الإسلامية

---

(١) انظر ابن الأثير: ج ١١، ص ١١٨ وص ٣٤٢؛ وانظر تفصيل ذلك في الروضتين ج ١، ص ١٨.

(٢) ابن واصل: مفرِّج الكروب، ج ١، ص ١١١ ـ ١١٢.

الموحدة، ونجح بفضل دبلوماسيته ومرونته في عقد صلح مع أتابكها أنر ١١٤٧م. . لعب فيه شيركوه أخو نجم الدين أيوب دوره خلال السفارات، وتزوَّج نور الدين على طريقة أبيه من ابنة أنر. . على أنَّ هذا الثعلب أبقى مع ذلك على تحالفه مع الفرنجة، وعلى حسن العلاقة معهم، حتى أصبحت دمشق بمثابة قب الميزان بين الطرفين في توازن القوى وضمن أنر إنشاء علاقات وديّة مع جيرانه من المسلمين والصليبيين.

واتَّفق أن فرَّ صاحب مدينة بصرى التابعة لدمشق إلى الصليبيين يستعديهم على أنر، ويَعِدهم بتسليم بصرى وصرخد إليهم، فارتكب الصليبيون حماقة القبول، وساروا بجيوشهم إلى حوران، فاستنجد أنر بصهره نور الدين الذي أسرع إلى دمشق وحاصر المدينتين في حوران واستولى عليهما مع أنر، وقطع طريق العودة على الصليبيين إلى طبرية، وأدرك هؤلاء بعد فوات الأوان غلطتهم، وبعثوا الرسل يرجون دمشق العودة سالمين إلى فلسطين. ولم يكن أنر يريد سحقهم، ولكن تأديبهم، ولذلك قبل رجاءهم بعد أن قاسوا الكثير من المصاعب.

في هذه الأثناء لم يكن نور الدين ولا أحد من أمراء المشرق الإسلامي يعلم بما يُدَبَّر في الغرب من أمر الحملة الصليبية الثانية التي داهمت الناس فجاءة لاسترداد (الرها) من المسلمين! اتفق على ذلك أعظم ملكين في غرب أوروبا: امبراطور ألمانيا (كونراد الثالث)، وملك فرنسا (لويس السابع). وعرض عليهما (روجر الثاني) ملك صقلية أسطوله لنقل الجيوش، فرفضا العرض لمشاكل تتعلق بالعلاقات معه. وسار الجيشان عن طريق البر الأوروبي إلى القسطنطينية، وكانا عندها فيما بين سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٤٧م، وكل من الجيشين في حوالي سبعين ألف مقاتل. وقَبِل امبراطور بيزنطة نقل الجند إلى البر الآسيوي شريطة تسليمه ما يَفْتَح الجيشان من البلاد من الأراضي البيزنطية السابقة. وكان ذلك صدمة للعاهلَين الكبيرين، لأنه يعني أن يعملا لمصلحة

الامبراطور البيزنطي. فساءت العلاقات بين الطرفين وزاد سوءها حين عمد صاحب القسطنطينية إلى سلاجقة الروم فعقد الصلح معهم رغم حروبه السابقة؛ مما كان يعني سد الطريق أمام الحملة الصليبية، وتعطيل مرورها في آسيا الصغرى؛ مما اعتبره الملكان خيانة للفكرة الصليبية وللنصرانية!.

وتدبَّر العاهل الألماني الذي سبق صاحبه أمر عبور البوسفور، واختار أن يخترق أراضي الأناضول اختراقاً بدل الدوران حوله من الجنوب على طريق الساحل. ولم يكد الألمان يبلغون أسكى شهر حتى داهمهم سلاجقة الروم وأعملوا فيهم القتل والأسر، ولم ينجُ الامبراطور الألماني إلى (نيقية) إلا في صعوبة بالغة مع فلول جيشه! وحين وصل لويس السابع الفرنسي وعَبَرَ البوسفور منع عنه امبراطور بيزنطة المؤن إلا إذا أقسم جميع الأمراء الفرنسيين يمين الولاء له (أي التبعية) وأذعنوا، وحين وصلوا (نيقية) فوجئوا بالكارثة التي حلَّت بالألمان وبحالة الإنهاك والمذلة التي وصلوا إليها.

واختار لويس السابع بالطبع الطريق الساحلي، وماشاه الامبراطور (كونراد) فترة، ثمَّ أنف من التبجُّح الفرنسي، وأصابه مرض فعاد إلى القسطنطينية، وبعد أن بقي فيها بضيافة امبراطورها عدة أشهر ركب مع فلول جيشه على سفن بيزنطية إلى عكا. أما لويس التاسع فقد تابع الطريق إلى أنطاكية في البحر بعد متاعب كثيرة مع سلاجقة الروم والبيزنطيين، وقلة سفن النقل. وعلى الرغم من أن الحملة الفرنسية أُستقبلت بالفرح العظيم، وعرض أمير أنطاكية على الملك الفرنسي الهجوم على حلب مقر نور الدين إلا أن هذا الملك وجد دعوات أخرى تدعوه، فكل أمير صليبي كان يريد استغلال القادمين لمصلحته؛ ولما لاحظ أن علاقة خاصة قامت بين زوجته وأمير أنطاكية أخذها مرغمة وترك البلد دون أن يأبه للأمير، واتجه إلى بيت المقدس في الوقت الذي وصل فيه الامبراطور الألماني إليها.

وفي المجلس الصليبي الكبير الذي عقد في عكا (أواخر يونيو / حزيران سنة ١١٤٨ م) لتقرير وجهة الحملة؛ نسي الملوك الثلاثة (الألماني والفرنسي وملك القدس) الرها واستردادها، ولم يُحضِروا معهم إلى المؤتمر أمير طرابلس أو أنطاكية أو من يمثل الرها، واستطاع ملك القدس أن يوجه الحملة لتحقيق مطامعه في الاستيلاء على دمشق! مع أن صاحبها أنر كان الحليف الوحيد والمطيع له! وفي مطلع تموز/ يوليو من السنة نفسها كانت جيوش الملوك الثلاثة أمام أسوار دمشق.

ما كان الأتابك أنر يتوقع هذه الهجمة المباغتة، وما كانت له طاقة بردِّها، وحين بدأ الصليبيون بمهاجمة الأسوار أيقن الدمشقيون بالهلاك، وأخذت جموعهم في ساحة الجامع الأموي تحثو على رؤوسها التراب والرماد، فهم عن قريب أسرى أو قتلى أو سبايا. أما أنر فبعث يطلب النجدات من صاحب الموصل ونور الدين، وطلب الرجل أن يدخل نوَّابه إلى قلعة دمشق ليلجأ إليها جنده إن انهزموا فرفض أنر ذلك بحجة أن البلد قد امتلأ بالمدافعين من الأحداث والفقهاء والمُطَوِّعة والغزاة والأتراك وأجناد الأعمال ورجال الغوطة الذين لجؤوا إلى المدينة. . . وكان يعلم أن نوَّاب نور الدين إذا دخلوا القلعة فلن يخرجوا منها!.

وعسكر الصليبيون أمام باب الجابية غربي البلد، وكانت منطقة بساتين ومياه وكان المقاومون يكمنون لهم بين الأشجار، فأشار عليهم ملك القدس بنقل المعسكر إلى الجهة الشرقية من المدينة فهي مكشوفة. . وفعلوا. وإذا بهم يجدون أنفسهم دون مياه وأكثر تعرُّضاً للقتل، وعلى الرغم من أنهم تقاسموا سلفاً أحياء المدينة ومنهوباتها؛ فإنهم اختلفوا في الأمير الذي تُعطى له، ودَبَّ النزاع بين الملوك بهذا الشأن، فتراخى الجند في الحرب، وبعث أنر إلى ملك القدس يهدده بنور الدين وأخيه القادمين للنجدة ويطمعه في الجزية التي كان يدفعها له وبالمودة التي كان يلقاها منه، وأدرك ملك القدس أن نتيجة النصر قد

لا تكون في مصلحته مع وجود مرشَّح لكل ملك، فتقاعس واتهمه الصليبيون بتلقي الرشوة من أنر، وقرَّر الملك الألماني الانسحاب، ولحق به الملك الفرنسي وملك القدس، ولقيت الحملة أشنع الخسائر خلال انسحابها.. ونجت دمشق.

ومنذ ذلك الوقت طار صيتها بأن الكفار لا يدخلونها، ووُضِع الكثير من الأحاديث بفضلها وقدسيتها. في حين فشلت الحملة الصليبية الثانية أشنع الفشل، فأبحر الامبراطور الألماني إلى بلاده، وبقي لويس السابع ستة أشهر ثم غادر فلسطين إلى أوروبا سنة ١١٤٩م، ولم يربح ملك القدس سوى بلدة بانياس! وعجيبٌ أنه كان على نور الدين أن يتلقى صدمة هذه الحملة باعتباره يحتل الرها، وباعتبارها قدِمت لاستردادها، في حين تلقَّت الصدمة دمشق الحليفة للصليبيين. ولم يخسر نور الدين سهماً ولا قتيلاً.

إثر هذا الفشل للحملة الصليبية تبين المشرق الإسلامي أن ما كانوا يخافونه من هجمة صليبية كالحملة الأولى هو توهم كاذب، وانتعشت آمال التحرير وطرح الناس الشعار الثالث والنهائي: (تحرير القدس).

صار هذا التحرير، حتى قبل توحيد الجبهة الإسلامية؛ نوعاً من التمنيات الملزمة للأمراء المسلمين ولنور الدين بوجه خاص يواجهه به الشعراء، ويستغل الشيوخ والفقهاء حميَّته الدينية وتقواه لتحريضه عليه، ما كانوا يدركون وهم في أواسط القرن مدى الجهود المضنية اللازمة لذلك، وبخاصة في ضم إمارة دمشق للجبهة الإسلامية الموحدة، وضم مصر الفاطمية لها أيضاً، وخلال ذلك في دحر القوى الصليبية المحلية التي لا يهدأ لها هجوم حتى يبدأ آخر، وفي توقع الحملات الممكنة من الغرب.

صحيح أن نجم الدين كان في صعود لدى الجماهير، وأن أسلوبه في السياسة كان يطلق ألسنة الشيوخ والفقهاء بالدعاية له على المنابر ووصفه بالعدل والصلاح، ويرفعه إلى درجة بعض الخلفاء الراشدين، ولكن هذا كان

يزيد من العبء الواقع عليه، فكلما مضت الأيام كانت الآمال التي تُعقد عليه تزداد ثقلاً، وكانت العيون التي تتطلع إليه تزداد إلزاماً مع انتصاراته في المعارك ضد الصليبيين كالنصر الذي أحرزه على إمارة أنطاكية سنة ١١٤٩ م، وقُتل فيه عدد كبير من فرسانها وزعمائها كما أُسر الكثيرون. . وإرثه بعد ذلك لمدينة حمص عن أخيه المتوفى قطب الدين، ثم انتصاره في معركة (إنب) ١١٤٩ م على أمير أنطاكية، وعلى زعيم الباطنية معاً، ومقتل هذا الأمير فيها واستيلائه على ممتلكات الإمارة جميعاً شرقي العاصي. ثم استصفاء بقية ممتلكات إمارة الرها من البلدان والقلاع، وأسر أميرها الهارب حتى مات في سجن نور الدين سنة ١١٥٩م. . . وصار لنور الدين شيئاً فشيئاً جيش من الدعاة يشيد بعدله ورعايته للعلماء والصوفية وقيامه بالجهاد.

وشغل ملك القدس (بولدوين الثالث) بتوطيد أمره في مملكته، ثم بفضِّ النزاع في إمارة طرابلس، وتنظيم أمر إمارة أنطاكية بسبب مشاكل هاتين الإمارتين في قضايا الإرث، وانتهى الأمر بزواج أميرة أنطاكية الأرملة الشابة من مغامر فرنسي هو (رونيه دوشاتيون) الذي سيلعب دوراً خطيراً في المشرق الإسلامي فيما بعد، والذي عرفه المؤرخون العرب باسم (أرناط). ولما كان ملك القدس يعرف قوة الزنكيين في شمال الشام والعراق؛ فقد وجَّه هَمَّه للتوسع بمملكة القدس في اتجاه مصر الفاطمية وخلافتها المتهالكة يومذاك، وبدأ بأن احتل مدخل الطريق وعقدة المواصلات إليها وهي مدينة (عسقلان) سنة ١١٥٣م، بعد أن حمى ظهره بتوثيق التحالف مع إمارة دمشق.

كان أهل دمشق يشعرون بالخزي في تحالفهم مع الصليبيين وفي دفع الجزية إليهم وفي رؤيتهم يدخلون البلد ويخرجون بالأموال، لكن الأمراء كانوا يرون في ذلك دفاعاً عن استقلال دمشق ضد مطامع نور الدين الذي هاجم المدينة وأطرافها أكثر من مرة؛ هذه الفجوة بين الأهلين والأمراء دعت بعض رجال دمشق إلى مكاتبة نور الدين والاستنجاد به، كما أن أهل حوران اشتكوا

له أخذ الفرنج لأموالهم وتشتيت نسائهم وأطفالهم، فكتب نور الدين إلى (أنر) ملك دمشق يعرض نجدته ومعونته لدفع الفرنج؛ ولكن الأمراء ردوا بأنه ليس بيننا وبينك إلا السيف. وحين سقطت عسقلان لم يجد أمراء دمشق عذراً لمتابعة التحالف مع الفرنج، فاتفقوا مع نور الدين على حرب مملكة القدس، ولكن هذه المحاولة فشلت في مطلع الطريق، وتفرقت قواتها؛ حتى لقد طمع ملك القدس في أخذ دمشق! فيما كان نور الدين يتردَّد في حربها خوفاً من أن يستجير ملكها بالفرنج؛ فكان يتعامل معه بالدبلوماسية الهادئة، لكن لم يجد نور الدين بُدّاً في النهاية من وضع حدٍّ لدبلوماسيته مع دمشق بمهاجمتها بشكل مباشر، وإتمام توحيد الجبهة الإسلامية بها؛ ولعب أنصاره في داخل دمشق دورهم في إثارة الناس ضد ملكها؛ وكان نجم الدين أيوب قد لحق بنور الدين وتولى باسمه ولاية بعلبك، فكان يرسل رسله سراً إلى دمشق لتحريك النقمة والدعوة لنور الدين. وهكذا ازدادت الهوّة اتِّساعاً بين الأهلين الكارهين للمذلة، وبين الأمراء الخائفين على أرزاقهم وامتيازاتهم، ولم يكن لهذا التوازن القَلِق أن يستمر طويلاً، فقد قطع نور الدين (الميرة) من الشمال عن دمشق حتى قلت الأقوات، وبدأ الجوع في الناس، وانتشر الاستياء من الحاكم المستكين؛ وقام نور الدين بمكاتبته ليفسد ثقته في قواده، ويزعم له بأنهم يكاتبونه حتى انفضَّ الجميع عنه، ثم أرسل إليه سفارة برئاسة أسد الدين شيركوه في ألف فارس ففزع (أنر) ورفض مقابلتها؛ فاتَّخذ نور الدين ذلك حجة للزحف على دمشق، ولم يجد أي صعوبة في فتحها؛ لأن أهلها تعاونوا مع جنده في فتح الأبواب. وحين اعتصم ملكها (أنر) بقلعتها أقنعه نور الدين بولاية حمص أولاً، ثم أخرجه منها ليذهب إلى الجزيرة وينتهي في بغداد. ونشر نور الدين منشوراً بإسقاط عدد كبير من الضرائب والمظالم، في حين تدفقت الأرزاق على الناس؛ فكان دخوله دمشق عرساً كبيراً للناس وفرحاً لهم، كما أبهج علماءها وأهلها بزوال الذلّ الصليبي عنهم.

وبفتح دمشق تمَّ لنور الدين إيجاد جبهة إسلامية متصلة ما بين شمال الشام وجنوبه، تقف وراء قائد واحد وتقابل الإمارات الصليبية الثلاث على الساحل ـ التي أكملت السيطرة عليه باحتلال عقسلان ـ. وبدأ ميزان القوى في التحول من جانب الفرنجة الصليبي إلى الجانب الإسلامي، وكان على نور الدين قطع المسافات الموصلة إلى تحرير القدس.

وكان من الشائع بين الناس أن ملك دمشق هو باب فتح القدس، ولهذا قال الشاعر القيسراني المتوفى سنة ٥٤٥ هـ:

إذا ما دمشق مَلَّكَتْكَ عنانها   تيقَّن مَنْ في إيليا أنه الذبحُ!

لكن اتفق أن وقعت زلزلة شديدة في الشام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، هدمت أسوار عدد من المدن مثل حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وأفامية وحمص؛ في الوقت الذي دَهَمَ نور الدين مرض خطير أشرف فيه على الموت، وحمل بالمَحَفَّة إلى حلب، وانتشر الخبر فهلل له الصليبيون. ومشى سلاجقة الروم يهددون إقليم حلب من الشمال، فصارت مملكة نور الدين لمدة سنة أو أكثر على شفا جرف هار؛ لولا أنه شُفي وعاد إلى دمشق سنة ١١٥٨م، وعادت سلسلة المعارك مع الصليبيين سجالاً. لكن أنظاره وأنظار الصليبيين معاً كانت تتجه إلى مصر؛ فالصليبيون بعد احتلال عسقلان وانغلاق باب التوسع أمامهم إلى داخل الشام، صاروا يتطلَّعون إلى مصر وغِناها وتجارتها الدولية، ويعتبرونها غنيمة سهلة مع اختلال الأحوال فيها وتناحر الوزراء، وأما نور الدين فكان يخشى وقوع مصر في أيدي الصليبيين، لأن ذلك إن وقع صار من الصعب اقتلاعهم من المشرق الإسلامي لاسيما وأن جبهته الشامية الموحدة لا تقوم عند ذلك لهم. وعرف سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أن (بولدوين الثالث) ملك بيت المقدس هدد بغزو مصر، ووعده وزيرها (طلائع بن رزيك) بدفع (١٦٠) ألف دينار ليثنيه عن عزمه، ولما لم يفِ بوعده غزا بولدوين الدلتا، ووصل (بلبيس)، ولم يُرجعه إلا انسياح

المياه في الأراضي بسبب فيضان النيل، واشتداد هجمات نور الدين على أملاكه الشامية.

وجاءت نور الدين الفرصة الشرعية لدخول مصر والتدخل في شؤونها عفواً، حين وصله في دمشق الوزير الفاطمي (شاور) ليستنجد به ضد خصمه ضرغام، ويُطمعه بمُلْك مصر، وبدفع ثلث دخلها، وبأن يكون نائبه فيها...

كان هذا الحديث يدور بين الاثنين، وهما على الخيل في المرج المجاور لدمشق، وتردَّد نور الدين في قبول المغامرة وحسب لها كل حساب، واستخار الله ثم قَبِل، وعَهِدَ بهذه المهمة الصعبة إلى أبرز قواده لديه أسد الدين شيركوه شقيق نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.. وبدأت منذ تلك اللحظة ملحمة صلاح الدين!.

* * *



صَلاحُ الدِّين الإنسانُ

حياته حتى سنة ٥٦٠ هـ:

في ثمان وعشرين صفحة كبيرة يرسم القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شدَّاد صورة صلاح الدين الإنسان في مطلع كتابه الذي كتب فيه سيرته (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية). هذا القاضي كان لصيقاً بصلاح الدين في السنوات العشر الأخيرة من حياته لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، وكان معه في مرضه الأخير وعند وفاته، فالصورة إذن أصدق الصور في رسم ملامح هذه الشخصية التاريخية الضخمة.

كان السلطان يكبُر القاضي بسبع سنوات ولكن ابن شداد توفي بعد صلاح الدين بأربعين سنة.. ولا شك أنه كتب سيرة صاحبه وهو يتولى القضاء والتدريس في حلب بعد سنوات قد تكون طويلة من وفاة صلاح الدين، ونجد فيها من جهة ملامح هذا السلطان وهو في منتهى فترة الأوج من السمعة المدوِّية، والسلطة المطلقة، والنضج في الفكر والتصرف، كما نجد من جهة أخرى أن صاحب الكتاب كتبه لمجرد الوفاء لصاحبه في فترة لا يرجو منه فيها شيئاً ولا يخشى شيئاً.

وثَمَّ اتفاق بين المؤرخين جميعاً على عدد من ملامح نشأة صلاح الدين:

- فهم يذكرون أنه من الأكراد الهكارية الروادية، ومن البارزين في هذه الجماعة «وهذا النسل من أشرف الأكراد»[1].

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٤١.

ـ وأنَّ أصل أسرته من بلدة (دوين) وهي في الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد أذربيجان.

ـ وأن والده نجم الدين أيوب هاجر مع الأسرة إلى بلدة تكريت فيها، وقد عُيِّن مستحفظاً فيها من قبل بهروز شحنة بغداد.

ـ وأنَّ عمه أسد الدين شيركوه كان من المتطوعين في الجند، وكان من الشهامة والشجاعة بحيث برز في جيش زنكي حين التحق به، «وشيركوه تعني أسد الجبل»[1].

ـ وأن الأخوين غادرا تكريت هاربين إلى الموصل؛ إما لمروءة نجم الدين وأخيه الأصغر أسد الدين شيركوه في تلقي زنكي الهارب مهزوماً أمام جيش الخليفة، وتسهيل عبوره نهر دجلة وتقديم بعض المساعدات له حتى وصل الموصل؛ وإما لأن أسد الدين شيركوه قتل أحد مماليك بهروز شحنة بغداد، فخاف انتقامه هو وأخوه نجم الدين فخرجا موليين شطر الموصل حيث يقيم زنكي، وربما كان الحادثان معاً قد وقعا. وقد أكرم زنكي مثوى الأخوين عرفاناً بجميلهما سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م.

ـ في الليلة التي غادر بها الأخوان تكريت وُلِدَ لنجم الدين أيوب ولد سمَّاه يوسف، ولُقِّب بصلاح الدين؛ وقد حمله معه إلى الموصل[2].

ـ يبدو أنَّ الأخوين التحقا بجند زنكي ونزلا معه في حلب حين نزلها، وحظي الأخوان عنده، فكان شيركوه من أبرز قواده، كما كان يعتمد على نجم الدين أيوب في عقله وحكمته، فلما فتح بعلبك سنة ٥٣٢ هـ عَهِدَ بولايتها إلى نجم الدين وعمر ابنه صلاح الدين يوسف سنتان.

ـ في بعلبك قضى يوسف بن أيوب نشأته حتى الفتوة ـ اثنتا عشرة سنة ـ.

---

(١) ابن خلّكان: وفيّات الأعيان، ج ٢، ص ٤٨١.

(٢) ابن الفرات: تاريخه (العسجد المسبوك) م ٤ : ١/ ٥٥؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٦.

وحين كان في الرابعة عشرة من العمر شهد دون شك، وقد يكون شارك في عمليات الدفاع عن البلد ومنطقته، وفي المعارك مع الفرنج الذين كانوا يغزون السهول حول المدينة، ويخربون الزروع وينهبون.

حضر وهو في هذه السن المبكرة مفاوضات أبيه ـ بعد مقتل عماد الدين زنكي ـ لجيش دمشق الذي جاء يسترد البلد منه، بعد أن اشتد القتال دون طائل؛ « وصبر نجم الدين أحسن صبر. فاتفق أنَّ الماء لِمَا شاء الله غار من حصن بعلبك حتى لم يبقَ منه شيء، وأهل القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملَك (صاحب دمشق) البلد، منع من يريد الماء من القلعة، فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين، وأقر الثلث الذي كان أتابك (زنكي) قد جعله له فيها وأقره فيها. . . »[1].

ـ أما ابن الاثير فيذكر «أن نجم الدين أخذ منه (من صاحب دمشق) إقطاعاً ومالاً، وملَّكه عدَّة قرى من بلد دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها. . . »[2]. ولا تعارض بين النصين، ولو أن حديث ابن الأثير هو الأرجح، فقد يكون صاحب دمشق أعطاها أولاً لنجم الدين ثم وجد الرجل أنه غير ثابت المقام عنده فاختار الانتقال لدمشق.

ـ ويقول ابن القلانسي: « إنه بعد نزول معين الدين أنر (أتابك دمشق) على بعلبك وشُحِّ الماء في القلعة أن هذا الشُّحّ في الماء دعاهم إلى النزول على حكمه، وكان الوالي بها (نجم الدين) ذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور؛ فاشترط ما قام له به من إقطاع وغيره وسلَّم البلد والقلعة إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسلَّم ما فيه من غلَّة وآلة في أيام من جمادى الأولى من السنة[3].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١، ص ١٢٤، (ط. قديمة ص ١٨).

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ١١٨.

(٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

يذكر ابن أبي طي: أنه « لما بلغ ذلك إلى نور الدين (يعني تسليم بعلبك وإقرار نجم الدين فيها إثر انتقاله إلى دمشق) خاف أن يَفِدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول أخيه نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر ابن الداية حتى ولاّه جميع أموره وجميع مملكته، فشقَّ ذلك على أسد الدين. . . »[1].

- ولعلَّ نجم الدين أيوب تلقَّى من أخيه بعض التأنيب أو العتب إثر تخلِّيه عن الزنكيين؛ ولعلَّ هذا هو السبب في سفر ابنه يوسف صلاح الدين إلى حلب والالتحاق بعمه سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م. ويبدو أن نجم الدين بقي في دمشق مؤثِراً البقاء مع إقطاعه، فيما شرح يوسف لعمه ظروف والده. ومن الأرجح أن يكون نجم الدين قد أوصى ابنه بأن يذكر للعم أسد الدين أنَّ مقامه بدمشق أفضل، لأنه يكون عيناً للزنكيين فيها؛ لا سيما وأنه لم ينل فيما سوى الإقطاع والمال أي حظوة، أو تقدُّمٍ لدى أمراء دمشق، وظل غريباً عن كتلتهم بوصفه زنكيَّ الهوى. وقد شاء لابنه، مع الرسالة، أن يأخذ مكانه في دولة نور الدين برعاية عمه بعد أن بدأت دولته بداية رائعة في استرداد الرها، وفي هزيمة الصليبيين إلى أنطاكية.

- ويبدو أن أسد الدين شيركوه استرد بسرعة مكانته لدى نور الدين (ولعلَّه اقتنع بوجاهة رأي نجم الدين بالبقاء في دمشق)، فأضحى شيركوه نائبه الدائم تقريباً في حلب، في حين التحق صلاح الدين بنور الدين بعد أن قدَّمه عمه إليه، وصار بعضاً من حاشيته بعد أن (أقطعه إقطاعاً حسناً).

- يقول ابن الأثير: « فلما أراد نور الدين مُلْكَ دمشق أمر (شيركوه) فراسل أخاه أيوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها؛ فأجاب إلى ما يراد منه على إقطاعٍ ذَكَرَه (نور الدين) له ولأخيه، وقرى يتملكانها فأعطاهما

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ، ص ١٢٤.

ما طلبا، وفتح دمشق...»[1]. ولعلّنا نلاحظ تحيُّز ابن الأثير لنور الدين ضد الأخوين، فليس من المعقول أن يشترطا لمعونته إقطاعاً معيَّناً، ولعلَّ الأمر بالعكس؛ كان عَرْضاً من نور الدين قِبلاه، وقد سبق مثل هذا التحيُّز في ذكره لتسليم أيوب قلعة بعلبك لإمارة دمشق.

- بعد فتح دمشق بقي صلاح الدين يتردَّد بين دمشق وحلب، وكان نور الدين قد استقرَّ في دمشق وجعل ولاية أمورها لنجم الدين أيوب، فيما كان أسد الدين شيركوه نائبه في حلب سنة ٥٤٩ هـ. ويبدو أن نور الدين جعل من صلاح الدين حلقة الوصل بينه وبين نائبه؛ فكان يرسله إلى عمه شيركوه لاستشارته في أمور الدولة، وفي أمر المكوس والضمانات وإبقائها أو إلغائها؛ لأن نور الدين كان لا يفعل شيئاً إلاَّ بمشورته. ويبدو أن صلاح الدين كان أكثر التصاقاً بعمه منه بأبيه؛ فقد ذكر ابن مخرمة أنه كان يتردَّد على بلاط نور الدين في دمشق[2].

في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م خلف صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه كنائب لعمه (شيركوه) في ديوان الجيش بدمشق، لكنه تخلَّى عن المنصب بعد زمنٍ قصير احتجاجاً على تصرُّفات المحتسب في المدينة.

ملامح من شخصيته:

عاش صلاح الدين القسم الأول من عمره، حتى السادسة والعشرين، دون عمل رسمي تقريباً، ولعله كان أقرب إلى الشاب اللاهي منه إلى صاحب المسؤولية، ولم يُذكر له من عمل سوى السفارة بين دمشق وحلب، ولكنه قضى القسم الثاني من العمر في منتهى الإرهاق والعمل المتصل، والتفكير

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١، ص ٣٤٢.

(٢) ابن مخرمة: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، م ٢: ٢/ ٧٧٢.

بأمور السياسة والجهاد وحفظ الثغور، ومكافحة الصليبيين، وإدارة الأمور الخارجية والداخلية في دولة اتسعت حتى اتصلت من ليبيا إلى اليمن إلى الشام وإلى الجزيرة العليا. ونجده في سنواته الأخيرة وهو في أزمة « ساجداً يبكي ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ». وقد تكالبت عليه الأمراض: فالملاريا من جهة، والدمامل من وسطه إلى ركبتيه؛ حتى لم يكن يستطيع الركوب ولا الجلوس للطعام من شدة المرض، «يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو صابر مرابط»[1]، « وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل. . . »[2].

مرض سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٦م مرضاً شديداً وهو في كفر زمار في الجزيرة العليا، وبلغ غاية الضعف، وجاءه أخوه العادل من حلب ومعه الأطباء؛ فاستغلَّ صاحب الموصل الفرصة لمصالحته بعد أن كان يستنجد للخلاص منه. يقول ابن شداد: « وعلم أهالي الموصل سرعة انقياده ورقة قلبه فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب لهذا الأمر. . . فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان. . . فاحترَمَنا احتراماً عظيماً وجلس لنا. . . ومات رحمه الله (بعد ١٢ سنة) وهو على هذا الصلح لم يتغير عليه»[3].

فكان صلاح الدين كأنه شعلة نار في جسد هدمته الأمراض، فلا توازن بين صورته المادية وبين الحِمْل الثقيل الذي يملأ هذا الجسد بالطموحات الكبرى، وقضاؤه السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته على ظهر حصانه يكفي دليلاً على أن وعاءه الجسدي كان أصغر بكثير من وعائه الروحي، وإذا قال ابن

(١) انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢ وص ٢٠.
(٢) ابن شداد : النوادر ص ٢٤.
(٣) ابن شداد: النوادر ص ٧٠ ـ ٧١.

الأثير عنه إنه «كان رحمه الله كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يُعلمه بذلك ولا يتغير عليه»[1].

فإنَّ هذه الصفات الخلقية لا تتوفر إلا في من أضحت نفسه كالبحر، أوسع بكثير من أن تعكره السواقي، وفي من استغرقت الأحلام الكبيرة كل ذاته، فهو في شغل بها كنسور القمم عن بغاث الطير. ولا شك أن هذا الاستغراق الفكري الروحي، هو الذي كان ينسيه آلامه الجسدية. وقد روى ابن شداد مشهداً امتزج فيه الحرب مع المرض، وكان الضعف المرضي ينزاح أمام الهم الحربي الكبير. قال: « مرض (السلطان) ونحن على الخروبة... وبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين... ورحل العدو... يطلبنا، فركب على مضَضٍ، ورتَّب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب، ونزل هو وراء القوم... حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل ويستريح ويتظلَّل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يُري العدو ضعفاً... وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرِّضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر... وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه، ولم يزل يبعث مَنْ عنده حتى لم يبقَ إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بيدهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي عن بعد أن تحتها خلقاً عظيماً وليس تحتها إلا واحد يعدُّ بخلق عظيم... (وأخذ القتل الفرنج)... وبقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار... وبتنا على مثل ما بتنا الليلة الماضية»[2].

ضمن هذا الإطار يمكن فهم مختلف مناقبه الخلقية على تعدد وجوهها:

ـ فلا قيمة للمال عنده «مَلَكَ ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢، ص ٩٦.

(٢) ابن شداد: النوادر ص ٢٤ ـ ٢٦.

الفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ومن الذهب إلا جرم واحد صوري. . .». «وكان يهب الأقاليم ولا يسأل» وأتته الوفود بالقدس فباع قرية ووزع عليهم ثمنها. وكان يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة. . .». وقال مرة: «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب. . . وقد وهب من مرج عكا وحده عشرة آلاف فرس. . .»[1]. وذكر ابن الأثير «أنها كانت ١٨ ألف دابة سوى الجمال. . .»[2].

ـ وحلمه الشديد نابع من المنبع نفسه: ذكر ابن الأثير أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بسرموز (حذاء)، فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ووقعت بالقرب منه؛ فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنه. . وطلب الماء في مجلس واحد خمس مرات حتى قال: يا أصحابنا والله قتلني العطش، فأُحضر الماء، ولم ينكر التواني في إحضاره»[3]. وكان جالساً بباب خيمته وجاءه رجل بقَصَّة يريد توقيعها، فقال: ما عندي دواة، فقال الرجل: ها هي ذي في صدر الخيمة. فالتفت فرآها ومدَّ نفسه وأتى بها ووقَّع الرقعة وقال: ماضرَّنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب! وكانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك. . . وكان عند يافا وعبَّأ الجند للحرب فجابهه بعض الأمراء بعتب فيه خشونة لعدم توفر إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمغضب. . . وانصرف وأمر بقلع خيمته، وانفضَّ الناس عن العدو متيقنين أن السلطان ربما صلب وقتل جماعة، ولم يتجاسر ابنه أن ينظر في عينيه رغم بلائه في الحرب، ومشى حتى بلدة (يازور) وضرب خيمته هناك. . . وما من الأمراء إلا من يرعد خيفةً. . . ولم تحدثني نفسي ـ كما يقول ابن شداد ـ بالدخول عليه حتى استدعاني وكانت قد وصلته

(١) ابن شداد، ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٩٦.
(٣) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٩٧.

فاكهة كثيرة من دمشق، فقال: اطلبوا الأمراء ليأكلوا شيئاً. . . وحضروا وهم خائفون، فوجدوا من بِشرِه ما أحدث لهم الطمأنينة والسرور. . . كأن لم يجرِ شيء أصلاً. . .»[1].

في إطار هذا الجو الخلقي يدور التواضع ويدور التسامح والرحمة حتى مع الكفار، فهذه الصفات من تلك، وأساسها في التكوين النفسي واحد؛ فكأنها ألوان ووجوه لطبيعة واحدة منجذبة إلى مُثُلها العليا، فلا تستطيع أن ترى ما تعتبره من صغائر الأمور، وتعتبر الترفع عنه من باب المروءة ومكارم الأخلاق. قال ابن الأثير: «. . . وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً، لم يتكبَّر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك. وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير»[2].

وقد روى ابن شداد أمثلة عديدة على هذه المواقف ومنها أن صاحب أنطاكية بعد صلحه معه سنة ٥٨٨ هـ فاجأه عند باب خيمته في الطريق بين بيت المقدس ودمشق وطلب منه شيئاً، فأعطاه سهل العمق (وكان أخذه منه سنة ٥٨٤ هـ). ودخل عليه صاحب صيدا الصليبي فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، وعرض عليه الإسلام وذكر له طرفاً من محاسنه. ومرَّ به سنة ٥٨٤ هـ رجل عالم متصوِّف، فتفرَّغ لمقابلته ثم انصرف الرجل مسافراً دون أن يودِّع صلاح الدين، فسأل عنه بعد ليال، وقال: ما أكرمناه، وشدد النكير على ابن شداد لماذا لم يخبره بسفره. فأعاد قاضي دمشق ذلك الرجل، فأمسكه عنده أياماً وخلع عليه وأعطاه مركباً وثياباً كثيرة له ولأهله وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها!. وأدخلوا عليه مرة أسيراً فرنجياً يرتجف من الرعب؛ فقال له: من أي شيء تخاف؟ فقال: كنت أخاف من أن أرى هذا الوجه، فلما رأيته اطمأنت

(١) ابن شداد: النوادر ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٩٧.

نفسي، فمنَّ عليه وأطلقه. وأضاف ابن شداد: وكنت راكباً في خدمته مرة قبالة الفرنج وقد وصل بعض اليزكية (طلائع الجيش) ومعه امرأة شديدة البكاء والتحرق تطلب الحضور إليه، فعرف أن بعض الجند المسلمين اختطفوا ابنتها؛ فرقَّ لها ودمعت عيناه، وأمر مَنْ ذهب إلى سوق العسكر ليسأل عمَّن اشتراها ويدفع له ثمنها ويستردَّها، وعاد الرجل بعد ساعة والصغيرة على كتفه فأعادها لأمها وهي تعفِّر وجهها في التراب وترفع طرفها إلى السماء، ولا ندري ما تقول. وأرسل من أوصلها إلى عسكرهم»[1].

وضمن هذا الإطار نفسه تأتي رقة القلب ودموع الحزن، فقد كان صلاح الدين «شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ـ وهم كثير يبلغون ١٧ ـ وهو صابر على مفارقتهم.. راضٍ بمرِّ العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك. وحين وصله خبر وفاة ابن أخيه تقي الدين، وهو في مقابلة الفرنج، كتم الخبر عن الجميع، حتى إذا فرغ مجلسه إلا من أصحابه بكى وأبكى الجماعة معه. يقول ابن شداد: ثم عدت إلى نفسي وقلت: استغفروا الله.. وانظروا أين أنتم؟ وفيم أنتم؟ قال (صلاح الدين): نعم، أستغفر الله، واستدعى بشيء من الماورد فمسح عينيه، ثم استحضر الطعام. وكذلك فعل يوم بلغه موت ابنه إسماعيل، فقد كتم الكتاب بعد أن قرأه ودمعت عيونه، ولم نعرف الخبر إلا من غيره...»[2].

إنَّ وحدة الشخصية لدى صلاح الدين تقتضي أن نفهم أبعاد الإيديولوجية التي كانت تقود حياته، وأخلاقه التي ألمحنا بملامحها من قبل هي الصورة الظاهرية له، أما شخصيته الحقيقية والمتمِّمة لهذه الملامح (والتي لا شك أن هذه الملامح تنبع منها) فتنكشف بكلمة واحدة: في الإيمان. هنا يكمن قطب شخصيته. صورته في التحليل الأخير كانت صورة صوفي يرى أن القرب من الله

(١) ابن شداد: ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٦ ـ ٢٧.

لا يكون في التأمُّل ولا في مجاهدة النفس، ولا في الفلسفة الميتافيزيقية (التي لا يفهمها) ولا في السماع والرقص الصوفي، ولا في الاعتزال عن الدنيا.. كان يرى ـ كما تدل أعماله ـ أن الإيمان يقتضي العمل، وأن العمل يعني الجهاد في إرضاء الله. إنها إيديولوجية مبسَّطة، شديدة الوضوح، ولكنه جعل منها ـ مع تكالب الأمراض عليه ـ هدف الحياة الوحيد؛ فإذا هجر أولاده وبيته ليبيت في الخيام، وإذا ركب الخيل ثلاثين سنة في الجبهات، وإذا احتقر المال وبذله للناس، وإذا صبر على بلوى الأمراض، وهو مستغرق في الجهاد، وإذا بكى وهو ساجد لله في الأزمات حتى بلل الدمع شيبته وسال على سجادته.. فكل ذلك يندرج تحت كلمة الإيمان الذي بلغ حدَّه الأقصى المسيطر عنده في السنوات العشر الأخيرة من حياته. لم تكن هذه الإيديولوجية الدينية كاملة الوضوح فيه من قبل، ولا كانت في الوقت نفسه بنت ساعتها، ولكنها تكاملت في تطور طويل متصل في النصف الثاني من عمره، حين تمثَّل شخصية نور الدين كبطل إسلامي.

وقد انفرد المؤرخ الشيعي ابن أبي طي ـ وهو من الذين يدسُّون عليه حتى لم يعد النسَّاخون يستنسخون كتبه رغم أهميتها وتميُّزها حتى ضاع تراثه كله مع الأسف ـ نقول إنه انفرد برواية يقول فيها ـ حسب ما نُقل عنه ـ إنه «لما استقرَّ لصلاح الدين أمره بالوزارة (في مصر) والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، وقرَّب إليه أهل الفضل والأحباب، وتاب عن شرب الخمر وعدَلَ عن اللهو، وتقمَّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين...»[1]. ولسنا لندافع عن صلاح الدين بوصفه الإنسان الكامل؛ فليس ثَمَّ إنسان كامل. وقد يكون ما ينسب إليه ـ كما يستنتج من الكلمة ذاتها ـ إنما كان في شبابه الأول في حلب ودمشق، وإن كان من المستبعد أن يقرِّبه نور الدين ويُقطعه الأقطاع وهو الشاب اللاهي، الشارب للخمر. ولا ننسى أن مثل هذه المفاسد كانت شائعة في

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٧٣؛ وابن شداد ص ٤٠.

الناس في ذلك العصر، وفي الجند أيضاً، وقد شربها صلاح الدين تقليداً شبابياً ولهواً، لا معاقرة، وسرّاً لا مجاهرة.

وعلى أي حال فالواضح أن صلاح الدين منذ تصدَّى ليكون رجل الجهاد أخذت حميَّته الدينية في التصاعد المتصل والمتكامل، ولم يكن عنده فرق بين الصلاة والجهاد، فكلاهما عبادة، وكلاهما فريضة، وكلاهما مكرَّس لمرضاة الله. وابن شداد يروي في هذا السبيل العديد من القصص التي تُكَوِّن في مجملها صورته (الصوفية) الخاصة: فهو يشهد بأنه: «كان كثير الذكر لله. وقد جمع له القطب النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه. وكان شديد المواظبة على الصلاة جماعة؛ حتى إنه ذكر يوماً أنَّ له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة. . . وكانت له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح. . . ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً. . . وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل. ولم يكن يملك ما يوجب الزكاة. أما الصيام فكان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة وبسبب الجهاد. وكان القاضي الفاضل قد تولى ثَبْتَ تلك الأيام، وشرع في قضاء تلك الفوائت في القدس في السنة التي توفي فيها، فكان يصوم وأنا أُثبت؛ مع أن الصوم لا يوافق مزاجه، وكان الطبيب يلومه وهو لا يسمع. . . وأما الحج فقد نواه في سنته الأخيرة وأمر بالتأهب له. . . وحالت المنية دون تحقيقه. . .»[1].

«وكان مبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة والدهرية ومن يعاند الشريعة»[2]. وضمن هذا الإطار من الروح الدينية المتَّقدة والحرص على سلامة العقيدة؛

(١) ابن شداد: النوادر ص ٧ ـ ٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠.

يمكن أن نفهم أمره الذي أصدره لابنه الظاهر في حلب بقتل شهاب الدين السهروردي (٥ رجب سنة ٥٨٧هـ/ ٢٩ يوليو ١١٩١م). ونقف قليلاً عند مقتل هذا المتصوِّف عند نهاية هذا الفصل. على أنه كان بالمقابل «يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده وينالوا إحسانه»[١].

ويحب الصوفية ويقف لهم حين السماع والأذكار حتى ينتهوا منها.

ولا يقف تقاه العميق عند الأمور الشخصية، ولكنه يمتد إلى الأمور العامة (كالعدل الداخلي والجهاد الخارجي) بوصفها جزءاً من الدين وواجباً إلهياً. فباعتبار أن «الوالي العادل ظل الله في الأرض» كان (صلاح الدين) يجلس للعدل في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحَضَراً؛ على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يُعرَض عليه من القَصَص؛ كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم. وكان يجمع القَصَص في كل يوم ويفتح باب العدل؛ ولم يردَّ قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قَصَّة بما يطلق الله على قلبه. ولم يَرُدَّ منتحلاً ولا طالب حاجة.. وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة... ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، فأنفذ إليه يُحضره إلى مجلس الحكم... واتَّجهت اليمين على تقي الدين...

وأعظم من هذه الحكاية قضية جَرَتْ له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي في مجلس الحكم بالقدس الشريف... «وخلاصة الحكاية أن هذا

---

(١) ابن شداد النوادر، ص ٣١.

التاجر ادَّعى أنَّ مملوك السلطان سنقر الخلاطي هو مملوكه اشتراه من فلان بتاريخ كذا، ولم يزل في ملكه بموجب كتاب في يده، وأنَّ المملوك شذ بتاريخ كذا، وهو يطلب من السلطان أمواله العظيمة التي تركها سنقر عند وفاته. وعلم السلطان فطلب من ابن شداد دعوة الرجل إلى مجلس الحكم، ولما جاء نزل السلطان عن طراحته حتى ساواه، وسمع ابن شداد شكوى المدعي، وأثبت السلطان بالشهود أن سنقر المذكور كان في ملكه قبل سنة من تاريخ الكتاب الذي يحمله الرجل»[1]. وأنه اشتراه مع ثمانية أنفس. وتبين أن الدعوى تزوير؛ فقال ابن شداد للسلطان: «هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان، ولا يحسن أن يرجع خائباً، فقال السلطان: هذا باب آخر، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة».

أما الجهاد والدفاع عن الأمة وأرضها وتحرير هذه الأرض؛ فقد كان قمة الإيمان عنده والواجب الأسمى الذي أفنى فيه جسده الدنيوي.. وليس من أحد ينكر عليه بطولته الكبرى في هذا السبيل الذي كان هدف حياته وسبب توحيده الجبهة الإسلامية وتحرير القدس. ويروي ابن شداد في بعض الصور الحيَّة لهذا الجهاد من واقع ما رأى. يقول: «كان الفرنج نازلين... قرب القدس والسلطان فيها، فوصلت الأخبار بعزمهم على حصارها، واشتدَّ خوف المسلمين؛ فاستحضر الأمراء وعرَّفهم ذلك وشاورهم، فجاملوه وباطنهم غير ظاهرهم، لكنهم أصرُّوا جميعاً على أنه لا مصلحة للمسلمين في إقامته بنفسه فيها، ويقيمون هم، ويكون السلطان مطوقاً للعدو من الخارج كما كان الأمر في عكا.. لكنه أصرَّ على البقاء؛ فلما انفضَّ المجلس جاء مَنْ أخبر السلطان أنهم لا يقيمون في البلد إلا إذا أقام فيه أخوه العادل، أو أحد أولاده؛ فعلم أنها إشارة بأنهم لن يقيموا فيه، وضاق صدره واشتدَّت فكرته...». ويقول ابن شداد: «... ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة... من أول الليل إلى أن

---

(١) ابن شداد: النوادر ص ١٣ ـ ١٦.

قارب الصباح، وكان الزمان شتاءً، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نُقسم أقساماً ونرتب على كل قسم بمقتضاه، وأخذني الإشفاق عليه، فإن اليبس كان يغلب على مزاجه، فشفعت إليه أن يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال: لعلك جاءك النوم.. ثم نهض... فما وصلت بيتي إلا وأذَّن الصبح، وكنت أصليه معه... فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه، وقال: ما أخذني النوم أصلاً. فقلت: قد علمت؛ فقال: كيف؟ قلت: لأني لم أنم وما بقي وقت للنوم. ثم شُغلنا بالصلاة...». واقترح ابن شداد على السلطان أن يصلي ركعتين ويدعو الله ـ وهو يوم الجمعة ـ ففعل «... ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته... فلم ينقضِ ذلك اليوم حتى وصل الخبر بأن الفرنج مختبطون، وجاء الخبر في اليوم التالي أن زعماءهم تشاوروا وهم كعادتهم على الخيل وجميعهم راكبون ثم جاء المبشر بأنهم رحلوا...»[1].

وكان صلاح الدين في جهاده من عظماء الشجعان، شديد البأس، عظيم الثبات، ولا يهوله شيء. ولا شك أن ذلك كان نتيجة تصعيد الإيمان بالله في الذات لدرجة التسليم النهائي للقدرة الإلهية؛ وإلا فإن الخوف في مجال الموت أمر إنساني عادي. يقول ابن شداد: «ولقد رأيته رحمه الله مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونُجَدُهم تتواصل وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، وقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس... ولقد سألت (باليابدين بارزان) وهو من كبار ملوك الساحل... يوم انعقاد الصلح عن عدتهم، فقال الترجمان: إنه يقول: كنت أنا وصاحب صيدا قاصدين عسكرنا من صور فلما أشرفنا عليه تجاوزناه، فحزرهم هو بخمسمئة ألف، وحزرتهم أنا بستمئة ألف، أو قال عكس ذلك. قلت: فكم هلك منهم؛ فقال: أما بالقتل فقريب من مئة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل...».

---

(١) ابن شداد: النوادر ص ١٠ ـ ١٣.

«وكان (صلاح الدين) لا بدَّ له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتِّب الأطلاب.. ويشارف العدو ويجاوره... وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط... وقد انهزم المسلمون في يوم (المصافّ الأكبر) بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤس والعلم، وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ويخجلهم حتى رجعوا.. ولم يزل كذلك حتى نُصِرَ عسكر المسلمين في ذلك اليوم؛ وقتل (من العدو) زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس...»[1].

«ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه (الجهاد) عظيم الاهتمام به، ولو حَلَف حالفٌ أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لَصَدَق. ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً (نتيجة الإغراق التصوفي في الإيديولوجية الدينية) بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذِّه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريِّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلا قتلته. ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً...»[2].

وهذه الصفات التي يسجلها ابن شداد لا تتفق إلا لمن وصل درجة التصوُّف في عشق إيديولوجيته. وابن شداد يضيف قائلاً: «وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثُّه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد. ولقد أُلِّف

(١) ابن شداد: النوادر ص ١٩ ـ ٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٢١.

له كتب عدة في الجهاد. وأنا ممن جمع له فيه كتاباً. . جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه. وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها؛ وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل. . . »[١].

وروى ابن شداد حديثاً جرى بينه وبين صلاح الدين، وهما عائدان من عسقلان على الساحل. . وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال. وكنت حديث عهد برؤية البحر، وخُيِّلَ إليَّ أنه لو قال قائل: إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملَّكتك الدنيا لما كنت أفعل. . . وإذا بالسلطان يقول وهو يلتفت إلي:

- أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى؛ قال: في نفسي أنه متى ما يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودَّعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبَّعهم فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت!

فَعَظُمَ وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما في خاطري؛ فقلت:

- ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى.

واستأذنت في حكاية ما كان في خاطري من هول البحر فقال:

- أنا أستفتيك. . ما أشرف الميتات؟

قلت: الموت في سبيل الله.

فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات![٢].

ثقافته:

كان الجانب الروحي في صلاح الدين أقوى وأشد بعداً وعمقاً من جانبه الفكري، ولهذا غطى على التحدث عن ثقافته كما غطت حطين على جوانب

---

(١) ابن شداد: النوادر ص ٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ - ٢٣.

شخصيته؛ فليس يذكر إلا لصيقاً بها وبمجدها.

في بعلبك ـ دون شك ـ حيث نشأ صلاح الدين كانت أولى دروسه وتعليمه، وكانت هذه الدروس على نوعين:

ـ القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وشيء من الفقه والعلوم الإسلامية، وتاريخ الرسالة.

ـ فنون الفروسية والقتال وركوب الخيل واستخدام السيف، والتمرُّس بفنون الحرب وألعابها.

ولا شك أنه باعتبار كونه ابن والي المدينة الساكن في قلعتها كان يلقى ما لا يلقى أمثاله من أبناء أواسط الناس من العناية والاهتمام. وحين انتقل من بعلبك مع أبيه إلى دمشق، ثم تركها إلى حلب وصار في حاشية نور الدين (مع عمه شيركوه). قَبَسَ شيئاً من العلوم المتداولة أيضاً على يدي بعض العلماء: كالشيخ قطب الدين النيسابوري الذي قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، واشتهر بها قبل وصول صلاح الدين إليها بست سنوات. وتردَّد على دور العلم والشيوخ وتمرَّس بفنون الفروسية وألعابها بحكم معاشرته للفرسان المحيطين مثله بنور الدين؛ وبرع في لعبة الجوكان (البولو) وهي تقاذف كرة من الخشب بمضارب طويلة واللاعبون على ظهور الخيل، وقد ذُكر أنه كان يلعبها في مرج دمشق مع نور الدين بعد فتحها. . دون أن ننسى تأثير أبيه نجم الدين الذي اشتهر بالصلاح والخير والطيبة[(١)]، وعمه شيركوه في ثقافته الإسلامية والحربية؛ فقد كانا من الطبقة الحاكمة والمحاربة؛ فلا بد أنهما تركا أثرهما الواضح في نشأته، لاسيما في وعيه الأول أيام معارك أبيه في بعلبك مع الفرنج، وفي الوقت نفسه كانت سفاراته في الخمسينات (٥٥٠هـ) بين نور الدين في دمشق وعمه شيركوه في حلب، وما يسمعه ويراه كل يوم من الأحداث الفرنجية وأخبار عدوانها

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٥٧.

وظفرها وهزائمها؛ كل ذلك ترك في نفسه بصمات واضحة لواقع الحياة التي يحياها في الشام.

ونضيف أخيراً أن مرافقته لنور الدين تركت في ذاته الأثر الحاسم؛ فقد أخذ عنه أصول الإدارة والعدل في الناس، وأخذ عنه ما أهم من كل ذلك، وهو الإيمان بفريضة الجهاد[1] ضد أعداء الإسلام والمحتلين لأرضه. ومن الواضح أن ثقافته في العلوم الإسلامية توقفت عند حد معين في حين اتَّسعت ثقافته الحياتية بعد ذلك سياسة وإدارة وحرباً. وقد ذكروا تردده في دمشق على مجالس ابن عساكر مؤرخ دمشق والمحدِّث الكبير؛ لكنه لم يأخذ عنه سوى الاحترام الشديد للحديث النبوي.

ولم يكن في طموحه أن يكون من طالبي العلم، ولكن من طلاب المناصب وأهل الإدارة والحروب. وهكذا بقيت ثقافته محدودة إن لم نقل سطحية.. وفي ظنه أن العلماء كثير، وأن طريق أبيه وعمه في الحياة أفضل، ويظهر دليل ذلك في قول ابن شداد: «إن صلاح الدين قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهَّم من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته من كدر التشبيه؛ غير ما دقَّ منهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه... موافقة لقانون النظر الصحيح، مُرضية عند أكابر العلماء...». وهذا يعني أنه كان يعرف بوضوح جميع أركان الدين على المذهب السنّي، على أنه كان يغذي مخزونه الديني ويزيده أبعاداً روحية بأمرين:

ـ الأول: «أنه كان يحب سماع القرآن الكريم حتى إنه كان يستخير إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه. وكان يستقرئ في

---

(١) ابن خلكان ج ٧، ص ١٤٩.

مجلسه العام من جرت عادته بذلك: الآية والعشرين والزائد على ذلك. . . وإذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته».

الثاني: أنه كان «شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به. وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه.. تردَّد إلى الحافظ الأصبهاني (أبي الطاهر السلفي المحدِّث المشهور المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة. وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرؤها هو، فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رقَّ قلبه ودمعت عينه»[١].

قضية شهاب الدين السُّهروردي:

نفرد لها صفحة خاصة لأن بعض أهل الأغراض ـ والغرض مَرَض ـ يتخذ من قتل هذا المتصوف سبيلاً للتشنيع على صلاح الدين، كأنما لم يُقتَل قبله متصوف ولا قُتِلَ بعده، وكأنما صلاح خرق به خرقاً في الدين.

وقصة السُّهروردي تشبه إلى حد كبير قصة الحلاّج المتصوِّف الآخر القتيل أيضاً في سنة ٣٠٩هـ/ ٨٥٧م، فالاثنان من الفرس وفلسفتهما الصوفية بدورها متشابهة، وتحديهما للشعور الديني العام واحد؛ لولا أن الحلاج قتل وهو في الخامسة والستين. والسُّهروردي وهو حوالي سن الأربعين أي في أوج النضج (ولد بين سنتي ٥٤٥ ـ ٥٥٠هـ)[٢]. وصل الرجل إلى حلب بعد أن

(١) ابن شداد: النوادر ص ٩ ـ ١٠.
(٢) وقد قتل مثلهما في بغداد سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م؛ وقبل مولد الشهرزوري بعشرين =

طوّف بعدد من مدن إيران والعراق، وبعد أن درس فلسفة التصوف الإشراقية في علوم الأوائل ولدى حكماء الفرس قبل الإسلام، وهي ما يعرف بالأفلاطونية الحديثة (فلسفة أفلوطين ومن تابعه). وكان السهروردي غريب الأطوار، يميل إلى الموسيقى ويلبس أحياناً ثوباً واسعاً طويلاً وعمامة ذات ألوان زاهية، وتارة يرتدي المهلهل من الثياب، وثالثة يرتدي الخرقة الصوفية التي نشرها الخليفة الناصر (يومذاك) عن طريق الفتوة. يقول رفيقه ابن رقيقة ـ فيما رواه صاحب طبقات الأطباء[1] ـ: «كنت أنا وإياه نتمشى في جامع (ميافارقين) وهو لابس جبة قصيرة مُضَرَّبة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجليه زربول (حذاء ضخم ثقيل)، ورآني صديق لي فأتى إلى جانبي وقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخرنيد؟ فقلت: اسكت؛ هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي. فتعاظم قولي وتعجَّب ومضى. . . ». وهذا يعني أن الرجل لم يكن يأبه للناس ويحتقر مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية لانشغاله بالعشق الإلهي وبالوجد الروحي الشديد.

وقد جاء حلب ونفق عند حاكمها الظاهر بن صلاح الدين بفصاحته وذكائه؛ لكنه مع تلك الفصاحة وهذا الذكاء كان كثير التهوُّر والاستهتار قليل التحفظ. وقال أحد أصدقائه: «إني أخشى أن يكون ذلك سبباً لتلافه»! فما الذي كان يقول به؟ كان يقول بمذهب الإشراق، أي أن ظاهرة إشعاع النور الأصيل هي الظاهرة المولدة الأصلية للوجود والكشف عن الوجود. وفكرة الإشراق تقوم في صميم الحكمة الأفلاطونية الحديثة واللاهوت المنبثق عنها. . والتي يختلط فيها الفكر الهلينستي بالزرادشتية، ويدخل عن هذا الطريق إلى الفكر الإسلامي.

= سنة متصوف مثله اسمه عين القضاة الهمذاني؛ وكان على المذهب الإشراقي نفسه، وهو تلميذ أحمد الغزالي شقيق الإمام أبي حامد الغزالي.

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٦٩.

وللسهروردي كتب ورسائل كثيرة ومقالات، في صورة أمثال ورموز. وقليل من الناس كان يُهَمْهِم يومذاك ـ واليوم ـ ما يقول به هذا المتصوف أو يبشر به، فهي منظومات فكرية تدخل في باب الميتافيزيق الروحية. على أنه في شطحاته الفكرية كان يلامس أو يخترق حدود الإيمان. ومن ذلك: أن الذي يقرأ القرآن لا يكون (هو) الذي يقرؤه؛ ولكن الله هو الذي يتلوه من خلاله، فعلى المؤمن الذي مُنِحَ مؤقتاً حق قراءته ألاَّ ينسب القراءة إلى نفسه وألا يعميه (أناه) الخاص، وألا يضع نفسه موضع (هو). وقوله: «إن التوحيد لا يقصد به ما انتشر عن إدراك الله بالوحدانية الذاتية والقيومية، وإنما يعني تجريد الكلمة (أي النفس) عن علائق الأجسام في المكان حتى ينطوي في الربوبية القيومية كل نظر في مبادئ الوجود ومراتبه. ولا مقام فوق هذا المقام»؛ وثَمَّ درجات أربع تتدرَّج حتى الكمال النهائي للتوحيد الذي هو الدرجة الخامسة.

أولاً: من يقولون لا إله إلا الله، وهي درجة سائر الناس.

ثانياً: من يقولون لا إله إلا هو، وهؤلاء ينفون عن (الهو) الإلهي كل أنواع (الهو).

ثالثاً: من يقولون لا أنت إلا أنت، وهم يسمون الله بضمير الغائب وينكرون كل (أنت) تريد أن تشهد على نفسها بهذا.

رابعاً: كل من يخاطب تقوم بينه وبين من يخاطبه مسافة ـ وهو لهذا مشرك لأنه يقول بوجود الثنائية وجوداً فعلياً ـ، ولهذا فإن الصيغة التي يكمل بها التوحيد هي: لا أنا إلا أنا.

مثل هذه المقالات والصيغ الفكرية تعدُّ كفراً عند الفقهاء والعلماء الذين لا يمكن أن يفهموا أنَّ (الأنا) عند الصوفي هي توحُّد الإنسان في الله. والمتقدمون في الطريق (الصوفية) يغرقون هذه الكلمات الثلاث (هو، أنت، أنا) في بحر الفناء. وهناك تسقط الأوامر والنواهي وتختفي كل إشارة

و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] وهذا التوحيد للواحد لايتم إذن بعملية يكفي فيها موافقة لاتحاد العقل الإنساني بالعقل الفعال الذي يتحدث عنه خاصة الفلاسفة، فهو يعلو على إمكان الاتحاد الصوفي، الذي يخلط بين الوحدة الوجودية والوحدة العددية. إن حقيقة التجربة الصوفية تعارض هذا الخلط بقلبه وبجعل الفناء شرط البقاء، أي شرط السرور بالاثنينية مع الله. وموسى بتعبير عن رغبته في الرؤية المباشرة لله قد عبَّر حقّاً عن رغبته في الموت.

في هذه القضايا وأمثالها جرت مجاولات متزايدة العنف بين السهروردي والعلماء والفقهاء، وعقدت مجالس للجدل، لعل (الظاهر) حاكم حلب حضرها وتأثر بها. وسبب الخلاف أن الطرفين يتكلمان بلغتين مختلفتين ويتناقشان، وفي ذهن كل منهما صورة من التفكير مختلفة. ويبدو أن السهروردي قد خلع مع الفقهاء والعلماء الذين يناقشونه كل تحفظ، لأنه يحتقرهم، ولأنه كان يتحداهم مستنداً إلى ما صار له من تقدير لدى (الظاهر)، ولهذا صرَّح في نوع من التحدي الخاطئ بكل ما في أعماق فكره.. مستخدماً تعبيرات شائكة تمس من وجهة نظر العلماء قناعاتهم الإيمانية؛ فما أسرع ما ضج هؤلاء وتحدَّثوا (مع الظاهر) عن كفره؛ وظاهر قوله كفر. وبلغ الأمر حدَّه حين وجَّه الفقهاء إلى السهروردي التهمة بأنه قال في كتبه: إن الله يملك إن شاء أن يخلق نبياً، فهو قادر على كل شيء؛ وقال العلماء: إلا على خلق نبي، فالرسول الأعظم خاتم الأنبياء. فقال السهروردي: هل هذه الاستحالة هنا مطلقة أو غير مطلقة. فقالوا: أنت كافر. وزعموا أنه ادَّعى النبوة! ولما لم يستجب (الظاهر) لغضب العلماء كتبوا لصلاح الدين يطلبون قتل الكافر الملحد؛ ولم يستجب الظاهر أول الأمر لأبيه، فأعاد العلماء الكرَّة وكتبوا في دعواهم أن السهروردي إذا ترك حياً أفسد عقيدة الملك الظاهر، وإذا أطلق سراحه عمَّ فساده البلاد، مما جعل صلاح الدين يأمر ابنه بقتل الرجل ويهدده بخلعه عن إمارة حلب إن لم يفعل. وهكذا قتل السهروردي بشكل غير معروف؛

بعضهم يقول مخنوقاً، وبعضهم يقول بالسيف؛ وبعض يقول امتنع عن الطعام حتى مات جوعاً.

ومن الهام هنا أن نناقش موقف صلاح الدين من القضية؛ فإنه كما هو مشهور عنه، وكما يظهر من سيرته: متسامح، وكان يعطف على الصوفية ويكرمهم ويقف لهم عند السماع والذكر، فلا يمكن أن يأمر بقتله لأنه صوفي فحسب، ولكنَّ قتْله كان لأمر سياسي: فحلب أحد المعاقل الإسلامية الكبرى بجوار الفرنج في أنطاكية، وما وصله من تهويل العلماء لخطر السهروردي ومقولاته جعله ينظر إليه نظرتهم نفسها. ولا ننسى أن صلاح الدين لم يكن واسع الثقافة، وكان يكره الفلاسفة ويكره أي زيغ عن العقيدة، ويؤمن بما يراه الشيوخ فيها ويستمع لأفكارهم، وحين بلغه خرق السهروردي لهذا الرداء الإيماني العام للناس وشهادة العلماء بكفر الرجل؛ لم يكن يسعه أن يترك مثل هذه الأفكار تنتشر في الناس، فيما كان تراص الجبهة الإسلامية ضرورة مطلقة لدحر الاحتلال الصليبي.

وإذا كانت بغداد لم تحتمل في أوائل القرن الرابع وهي سيدة المدن العالمية ـ ولا خطر عليها ـ أمثال الحلاج، كما لم تحتمل في الربع الأول من القرن السادس زميله عين القضاة، وقتلت الاثنين دون أن يؤخذ عليها ذلك؛ فهل كان على صلاح الدين أن يقبل وجود مثل هذه النابتة التي أجمع العلماء ـ وهم عند صلاح الدين الخبراء في العقيدة ـ أنها كفر، وأنّى يقبلها في حلب وهي تواجه كما يواجه هو نفسه الكَفَرة الآخرين من الصليبيين في معارك الجهاد؟ ولا ننسى أن مراسلات الأب وابنه إنما كانت وصلاح الدين على حصار عكا غارق منذ سنتين في الدفاع عنها، وأن مقتل السهروردي كان سنة سقوط عكا بيد الصليبيين!.

الواقع أنَّ مقتل السهروردي كان نتيجة تهوُّره واستهتاره، ونتيجة كلامه مع العلماء بلغةٍ لا يفهمونها أبداً. ونتيجة عقيدته التي تعتبر الموت أقصى

التوحُّد مع الله وتسعى إليه. أما عند صلاح الدين فإن الأمر بقتله كان نتيجة اصطدام وتعارض صوفيتين مختلفتين: صوفية ساذجة إيمانية تماماً لا تقبل ـ وهي غارقة في الحروب مع الكفار ـ أي زيغ. وبين تصوف فلسفي ميتافيزيقي تقوم جذوره في الأفلاطونية الحديثة والحكمة الفارسية، وتتكلم لغة التجريد واللاهوت الموروثة عن علوم الأوائل. ولم يكن العصر الصليبي مجال قبولها أو القول بها أو التسامح معها.[1] لاسيما على الثغور. وحلب مجاورة لأنطاكية.

* * *

(١) يستطيع الباحث أن يتوسع في هذه القضية لدى عبد الرحمن بدوي في كتاب (شخصيات قلقة في الإسلام)؛ وعنه أخذنا الكثير من التفاصيل عن قضية السهروردي.



صلاح الدين المحارب

تجمُّع الظروف

دخل صلاح الدين الجو السياسي من بابه الأوسع، والجو في الغاية من الاعتكار والتعقيد والترقُّب، وميزان القوى بين الجبهة الإسلامية الناشئة وبين الصليبيين قابل لكل احتمال، لا سيما وأن الجبهة المصرية الفاطمية كانت تعاني من الفوضى والضعف الشديد، والمترقِّبون من الصليبيين والمسلمين (مع نور الدين) ينظرون بعين القلق إلى تطوراتها: الأوائل يطمعون في الاستيلاء عليها لضمان استقرارهم، ونور الدين يخشى على الجناح الإسلامي الثاني أن ينهار ويحتله الفرنجة، فيستبدُّوا بالأرض الإسلامية وبالتجارة الدولية، ويصبح من الصعب اقتلاعهم من المشرق الإسلامي.

المستشرق (جب) يعتبر أن دخول صلاح الدين العمل السياسي ليس بحادثة عابرة في تاريخ العصور الوسطى، «فهو يمثِّل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري». وفي هذه اللحظات المثيرة تعاونت الظروف السائدة مع مناقب صلاح الدين نفسها في خلق (البطل) لتلك الفترة. صحيح أنه كان نهاية سلسلة طويلة من أبطال المقاومة والجهاد الذين كانوا يكبرون مع الأيام وتعاكسهم الظروف، ولكنه كان هو نفسه يتمتَّع بالصفات التي كانت تحتاجها تلك الفترة يوم ظهر، وتحتاج إلى نوع من المجاهد المتصوِّف مثله ليحقق ما حقَّق.

تجمَّعت الظروف سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م لدفع صلاح الدين في المعترك

السياسي الحربي المباشر، فقد كان شاباً مرموقاً متقدماً، في السادسة والعشرين، وقد صاحب نور الدين رغم فارق العمر بينهما (فنور الدين كان في السابعة والأربعين) وكان يلعب معه (الجوكان) في مرج دمشق بجانب القلعة، وكان يسفر بين نور الدين وبين عمه شيركوه، وهو القائد الكبير في حلب وأبرز أعوان مولاه. واتفق من الظروف أيضاً أن انفتح الباب بين الشام ومصر بوصول شخصية مصرية ذات مكانة في وادي النيل هي شخصية (شاور) الوزير المغلوب على أمره، والذي قتل (طلائع بن رزيك) الوزير السابق له، واستولى على أمواله وعلى الوزارة، لكنه رغم كرمه وشجاعته لم يستطع النجاح في الصراع مع الأمراء الطامعين في المنصب، واستطاع أمير منهم يدعى ضرغام أن يزيحه ويقتل ولديه بعد أن أضعف الصراع قواه، فإذا به في دمشق يطلب معونة نور الدين ضد خصمه ضرغام. وتفاوض مع نور الدين الذي لم يحتج إلى مَن يدفعه لمثل هذه المغامرة، وتردَّد بحسب كل حساب لها، ثم وجد ضرورتها لا لحماية مملكته من تصاعد القوة الصليبية باحتلال مصر فقط، ولكن لاستكمال الجبهة الإسلامية التي يسعى لها في الشام، وسعى لها أبوه من قبل، ولتطويق الصليبيين من الجنوب الغربي، ولأن مصر تملك ما تزوِّده به من القوة البشرية والموارد الاقتصادية.

يضاف إلى كل ذلك أن (شاور) وعد نور الدين بثلث إيرادات مصر وأنه سيكون نائبه فيها، ولم يكن نور الدين يعرف مصر إلا من خلال الأخبار، وأنها الرجل المريض من المنطقة في تلك الآونة ونقطة الضعف الجبهة الإسلامية؛ فإرسال قطعة من جيشه إليها ستكون مناسبة لمعرفتها المباشرة، ولقياس مدى قوتها من جهة، ومدى استطاعة قواته للتدخل في شؤونها أو امتلاكها من جهة أخرى.

وتخيَّر نور الدين قواده فوجد أن شيركوه هو الأفضل لهذه المهمة، وكان

هذا ظرفاً آخر فتح لصلاح الدين الباب، فاشترك مع عمه في لبِّ المعترك السياسي الحربي. . ولو لم يكن صلاح الدين أهلاً لمهمته لأفلتت هذه الفرص وضاعت.

الحملة الأولى على مصر :

كان الوزير (ضرغام) قد استبدَّ بمصر ودعا الأمراء إلى دار الوزارة وقتل سبعين منهم[1]، مما أضعف الجيش الفاطمي؛ وكتب إلى نور الدين كتاباً يُظهر فيه الطاعة له، لكي لا يمد (شاور) بالعون؛ ولكنه كان قد قرر أمره واستدعى شيركوه من الرحبة لاعتقاده بأنه ميمون الطلعة لم يُرسل في مهمة إلا نجح فيها. فجمع له العسكر وزودهم، فلما وصل شيركوه لم يكن أمامه سوى المسير. وتألم شاور لمقدمه، وكان يظن أن الحملة ستكون بقيادته؛ ولكنه رافق شيركوه حتى مصر، ونزل به قرب بلدة (بلبيس)، ولم تكن الحملة كبيرة فإن نور الدين اتَّخذ الحيطة اللازمة، وكان صلاح الدين على مقدمتها قائداً لمقدمة العسكر[2].

حين عرف الوزير ضرغام بخبر وصول الحملة النورية، استشار الأمراء فرأوا التحرك للقائها وهي على مسيرة يومين من القاهرة، لأنها تكون منهكة وقليلة الماء، لكنه فضَّل المواجهة في (بلبيس).

وتخوَّف شيركوه حين رأى كثرة عدد الجيش المصري، وهو في شرذمة قليلة، وقال (لشاور): لقد خدعتنا! فقال شاور: لا يهولنَّكَ ما ترى من الجموع، فإن كثرتهم من الحاكة والفلاحين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، والأمراء معي. وأثبت الواقع ذلك، فما حمي النهار حتى خلع المصريون عنهم عدة الحرب والخيول واستراحوا في الخيام، فما هجم أسد الدين عليهم حتى كان السعيد منهم من ركب فرسه وهرب، وتركوا كل ما معهم، وأُسر عدد من

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى أبي شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤١٦ ـ ٤١٧.
(٢) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج ٢ ـ ص ٣٧٨.

الأمراء، ثم أفسح لهم شاور الفرصة فهربوا.

وعاد ضرغام إلى القاهرة والخليفة، فلقيه غضب الناس، ثم قتل. وتسلم شاور أمر الوزارة، لكنه بدلاً من أن يدفع للحملة النورية ما تعهَّد به أرسل يستنجد بالصليبيين بعد أن أعطى أسد الدين ثلاثين ألف دينار فقط. وأصرَّ شيركوه على تنفيذ العهد، فأشار صلاح الدين على عمه بترك الخيام واحتلال (بلبيس)، فجعلها مقرَّ أعماله يُغير منها على القاهرة حيناً بعد حين..

ووصلت العساكر الفرنجية القاهرة فانضمت إلى القوات الفاطمية، وتقدَّمت القوتان فحاصرتا بلبيس ثلاثة أشهر، أظهر خلالها صلاح الدين من الحزم والصبر ما جعله ينال ثقة عمه وجنده. في حين انقطعت أخبار الحملة عن نور الدين وقلق حين علم بمسير الفرنج إلى مصر، فجمع عساكر المشرق كلها، وأخذ يغير على أطراف الإمارات الصليبية، وإمارة أنطاكية خاصة.. واحتل بلدة (حارة) وبلدة (أرتاح)، وخرَّب أرباضها وأسر الكثيرين، ثم هاجم (بانياس) في الجنوب و(طبرية)، وجمع أعلام الفرنج التي غنمها وأرسلها إلى (شيركوه) لينشرها في بلبيس ويراها الفرنج، فتفتُّ في أعضادهم، وكذلك كان. وانفصل الفرنج عن شاور ليحموا أملاكهم في الشام؛ فأسقط في يد شاور، واضطر للعمل على مصالحة أسد الدين بعد أن ذكر أنه كان يمنع الفرنجة عن (بلبيس) ويرشو أمراءهم، لكي لا يشددوا الحملة، ودفع إليه ثلاثة آلاف دينار وتمَّ الاتفاق.

وبهذا عاد أسد الدين ومن معه إلى الشام، وتفادى كميناً كان نصبه له[1] صاحب الكرك والشوبك الفارس أرناط ـ الذي قضى في سجن نور الدين ١٦ سنة ثم أُطلق ـ فأخذ إمارة الأردن الجنوبي.

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

شحنة دمشق :

حين وصلت الحملة دمشق وعرف نور الدين جميع أخبارها، أعطى صلاح الدين رئاسة شرطة دمشق (شحنكية) ونائباً لواليها تبعاً لذلك، ومهمة النائب قيادة العسكر، والمحافظة على النظام، والسهر على جباية الخراج[1]. فأظهر من البراعة والسياسة ما أطلق الناس بحمده وألسنة الشعراء باستقامته. ومنهم الشاعر (عرقلة الكلبي) ـ توفي سنة ٥٦٧ هـ ـ الذي قال :

رويـدكـم يـا لصـوص الشـام فـإنـي لكـم نـاصـح فـي مقـالـي
وإيـاكـم عـن سمـي النبـيّ يـوسـف رب الحجـى والجمـال
فـذاك مقطِّـع أيـدي النسـاء وهـذا مقطّـع أيـدي الـرجـال[2]

وكان رفيق صلاح الدين ومعاونه في إدارة شؤون الشرطة صفي الدين بن القايض[3].

فهل قنع شيركوه وابن أخيه بما قد كان؟.

الحملة الثانية :

الواقع أن شيركوه وصلاح الدين عادا من مصر وفي أنفسهما التطلُّع إليها. كانت الحملة بالنسبة إليهما رحلة استكشاف عرفا فيها غنى مصر وضعف الحكم فيها والجيش، ووقر في أذهان الاثنين أنها مغنم كبير إن لم يكن لدولة نور الدين، فلهما ولصالح وحدة الجبهة الإسلامية. وقد استطاع شيركوه أن يقنع نور الدين بحملة أخرى، استكملت عدتها سنة ٥٦٢ هـ، وتحركت من

(١) انظر التفاصيل في وفيات الأعيان: ج ٢ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢، وانظر إيليسيف (بالفرنسية) نور الدين: ج ٣، ص ٧٨٨، Elisseeff.

(٢) الأصفهاني: خريدة القصر، قسم ٣، ج١، ص٢٢٢، وسبط ابن الجوزي، ج٨، قسم ١ ، ص٢٥٢.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: قسم، ١ ، ج٨، ص٤١٣.

دمشق دون ضجيج، ولكن حركة هذه القوة العسكرية لم تخفَ على الفرنج فما راع شاور إلا ورود كتاب سرِّي من (عموري) ملك الفرنج يعرّفه فيه بالأمر، فأرسل شاور إليه يطلب النجدة، فسار بجيوشه على الساحل، وسبق أسد الدين الذي كان قادماً من بَرِّ سيناء مبتعداً عن عسقلان ورقابة الفرنج.

علم شيركوه باجتماع شاور مع الملك الصليبي في بلبيس، فتحاماها، وهاجم مصر القديمة من الجنوب.. فلما علم الحلف الفرنجي ـ الفاطمي بذلك لحقوا بأسد الدين نحو الجنوب، فأوغل الرجل نحو الصعيد، وتحيَّل في مراكب ركبها بجيشه فقطع النيل إلى البر الغربي، ولحقه شاور إليه، فخيَّم شيركوه بالجيزة، وبعث إلى شاور أنه لا غرض له في مصر، وأنه إنما يريد نصرة الإسلام، وعرض عليه الاتفاق معه ضد الفرنجة، فقتل حامل الرسالة، وقال: ما هؤلاء بفرنج.. إنهم الفرج! وأمر جنده فنصبوا جسراً على النيل ليلحق بأسد الدين الذي وقع عملياً مع جيشه في المصيدة!!

في حيرته تذكر شيركوه أن الإسكندرية ثاني مرافئ مصر مع دمياط وثاني عاصمتي مصر مع القاهرة، وأنها بجانب غناها في التجارة الدولية وأهمية ضمانها كسند خلفي له شافعية الهوى، والاستناد إليها ممكن. فكتب إلى أهلها يثيرهم ضد الفرنج وضد الوزير شاور الذي أدخل الفرنج إلى دار الإسلام وضيَّع أموال المسلمين، فلبّوه وقاموا معه، وأرسلوا إليه السلاح. ولكن شاور كاد يدركهم، فأمعنوا في التهرب منه، حتى إذا رأى شيركوه أن لا بد من اللقاء توقف والتقى معه ومع الفرنج عند (الأشمونين)! بعد أن جعل رجاله فريقين: فريق معه وفريق مع ابن أخيه صلاح الدين ليأتي من خلف شاور، وعسكر الفرنج. وكان قتال هؤلاء قتالاً عنيفاً مريراً، لكنَّ الجيش النوري تماسك ولم يكن له من حيلة سوى الصبر والقتال وإلا هلك. وفي دفاع اليائس انتصر أسد الدين، وكاد ملك الفرنج يؤسَر، وهرب شاور بعيداً، وسار أسد الدين مع جيشه نحو (الفيوم)، ثم اخترق منها الصحراء موازياً (للدلتا)، حتى أتى

(الإسكندرية) ومعه أسرى الفرنج، وحمل إليه واليها الأموال والسلاح.

ولا شك أن سنِّية المدينة وسمعة نور الدين وسوء سياسة شاور ـ ساهمت كلها في قبول أسد الدين، وترحيب وجوه الإسكندرية به. ولكن الترحيب لا يكفي، وليس وراء البلد مهرب أو ملجأ، وهو يخاف أن يلحق به شاور؛ لذلك أمر ابن أخيه صلاح الدين الذي صار عضده الأيمن أن يبقى في الإسكندرية بعد أن استحلف له الوجوه وأوصاهم به، وترك معه جماعة من الجند مع الضعفاء والمجروحين، ورحل مرة أخرى إلى (الصعيد).

وكان توقع أسد الدين في محلِّه، فقد وصل شاور مع الفرنج، وضربوا حصاراً على الإسكندرية امتدَّ ثلاثة أشهر ذاق فيها صلاح الدين الأمرَّين، وقلَّ على من بها الطعام، وضاقت الأنفس وهو صابر يقاتل مع جماعته، وصبر معه الأهلون وقاتلوا وبذلوا أموالهم وأنفسهم. وعرف أسد الدين بشدة ابن أخيه، فعاد من قوص بعد أن حصَّل أموالاً عظيمة من الصعيد ومعه جموع من العربان وأهل البلاد، لكن أهل الإسكندرية كانوا قد أُنهكوا، وقُتل منهم ومن جند صلاح الدين جماعة عظيمة[1].. مما جعله يقرر في نفسه ألا يعود إلى مصر إن قضى الله بالفرج!.

وعرف شاور أنه لن يبلغ ما يريد مع وجود الفريقين في مصر، بعد أن ضجر جنود الفرنج من الملاحقة والحرب، واستعصت عليه الإسكندرية، وجاء أسد الدين بالعربان والجموع، ففاوضه على أن يدفع له جميع ما غرمه في الحرب، وأن يعطي ملك الفرنج الذي قام بالوساطة بينهما ثلاثين ألف دينار، وينسحب كل منهما إلى بلاده. ووافق أسد الدين، ورأى صلاح الدين في ذلك فرجاً له ولأهل الإسكندرية، فوافق وطلب من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدة مراكب، لكن ركابها اعتُقلوا في عكا حتى

(١) راجع تفاصيل ذلك لدى أبي شامة ج ٢، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

وصل ملك الفرنج (عموري) فأطلقهم إلى دمشق. أما صلاح الدين فلم يخرج من الإسكندرية إلا بعد أن أخذ المواثيق على شاور بأن لا يعرض لأهلها بسوء، لكن شاور حنث بأيمانه، وقبض على من أعانوا صلاح الدين، وضيَّق عليهم، وتتبَّع أهل الإسكندرية الذين قاتلوه. وعرف بذلك صلاح الدين، فاجتمع بملك الفرنج (وسيط الصلح) وأبلغه ذلك.. فعاد هذا الملك على شاور وألزمه حفظ العهد والأيمان.. لكن الكثيرين من أهل الإسكندرية ومصر لم يطمئنوا، وخافوا إن خرج العسكر النوري من مصر سطوة شاور وانتقامه، فرحلوا بأموالهم وجموعهم في اتجاه الشام، ولحق بهم الوزير وحلف لهم على الإحسان، فعاد بعضهم ورحل الباقون.. وخاف شيركوه أن يطمع ملك الفرنج في مصر إن خرج بأصحابه؛ فطلب منهم اليمين على عدم معاودتها. وبعد تردد حلف هو وأصحابه، واشترطوا عليه أن لا يقيم في البلاد، ولا يتملك قرية واحدة، فأجاب إلى ذلك.

وخرج شيركوه يريد الشام.. لكن الفرنج لم يخرجوا حتى استقرَّ بينهم وبين شاور أن يكون لهم في القاهرة شحنة (شرطة)، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع على نور الدين إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مئة ألف دينار... وكان ذلك بالرغم عن الخليفة (العاضد).

وخرج الفرنج بعد أن تركوا فيها جماعة من مشاهير فرسانهم(1)، أما شيركوه فوصل دمشق «وفي قلبه الداء الدوي منها (مصر)، لأنه شاهدها وشاهد

(1) ابن الأثير: الكامل ج ١١، ص ٣٢٦، ولعلَّ المئة ألف دينار كانت لمرة واحدة وليست سنوية؛ ويذكر المؤرخ الصليبي (وليام الصوري) بعد أن ذكر الاتفاق أن الملك عموري مدَّ يده لمصافحة ممثلي الخليفة (العاضد)، ثم أرسل حاكم (قيسارية) لأخذ موافقة الخليفة، ثم وصف ما بهر هذا الرجل ووفده من عظمة قصر الخلافة وغناه، وذكر أنه بكلامه ألزم الخليفة بأن يمد يده خلافاً لمراسم القصر والخلافة كي يصافح هو ويؤكد تمسكه بتنفيذ الاتفاق (وليام الصوري ـ ترجمة س. زكار: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٨٩٦ ـ ٩٠٢).

فعلاتها، فوجدها أمراً عظيماً، فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها. . .»[1]. واستقرَّ صلاح الدين فيما يبدو قائداً في حملة جيش نور الدين ويسافر معه.

وفيما بين سنتي ٤٦٣ ـ ٤٦٤ هـ ساد نوع من التوازن القلق والحذر المتبادل بين نور الدين والصليبيين فيما يتعلق بمصر. وصل إلى نور الدين هدايا وكتاب شكر من شاور ليضمن حياده، كما وصل عرض جديد من (شجاع ابن شاور) وبعض الأمراء يعلنون فيه الولاء والطاعة، ويبذلون له مالاً جزيلاً كل سنة، لأن الفرنج في القاهرة ركبوهم بالأذى العظيم، وحكموهم الحكم الجائر. . وليس في البلاد مَن يردُّهم، وأنهم أرسلوا إلى الملك (عموري) يعلمونه خلوّ مصر من أي مدافع، وهوَّنوا أمرها، فلم ينالوا رداً سريعاً من نور الدين. . في حين أن الملك الفرنجي ناقش الأمر مع أمرائه وذوي الرأي عنده، فأشاروا عليه بقصدها. . ولم يكن ذلك من رأيه؛ وقال: الرأي عندي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوَّى بها على نور الدين، فإن قصدناها فإن صاحبها وعسكره وعامة بلاده وفلاحيه سيقاتلوننا، ويحلمهم الخوف على استدعاء نور الدين. . فإذا أخذها كان في ذلك هلاك الفرنج. . فلم يقبلوا وأصروا على احتلالها[2]. . وبصورة خاصة كبراء منظمتي (الداوية والاسبتارية) والقادمون الجدد من أوروبا. . ووافق الملك.

الحملة الثالثة:

قام الملك عموري، بعد أن كَتب له أصحابه بأسماء قرى مصر كلها ومقدار ارتفاقها (ضرائبها) بإقطاعه لأجناده، وسار بجيشه إليها. . ولما أرسل

(١) كلمة أبي شامة: ج ٢، ص ٤٢٨.

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٣٦؛ وانظر: وليام الصوري تاريخ الحروب الصليبية: ج ٢، ص ٩٢٨ ـ ٩٣٦ ففيه تفاصيل كثيرة عن الحملة وعن فظائع الفرنج في بلبيس بعد ذلك.

إليه شاور رسولاً في الطريق ادَّعى أن الكامل بن شاور أعطى أخته زوجة لصلاح الدين، وأن هذا زوَّجه أخته أيضاً، فذلك ينقض الاتفاقات؛ ونفى الرسول الخبر، فقال الملك: إن ضغط الأمراء عليه أوجب الحركة وهم يطلبون ألفي ألف دينار، فاستمهلهم ليخبر شاور. . ولكنهم ظلوا يتقدمون حتى وصلوا بلبيس. . ويقال إنه طلب المقرر له كل عام، وأنكر شاور قائلاً: إني قررته لك حين أحتاج إليك، فأجاب الملك الفرنجي: لا بد من حضوري وأخذ المقرر ـ مكرراً بذلك قصة الذئب والحمل ـ. وكان على شاور أن يحشد الجيش الفاطمي عند بلبيس، وحين قال له طي بن شاور: أتحسب أن البلد جبنة تأكلها؛ قال: نعم هي جبنة والقاهرة زبدة. وضرب الحصار على بلبيس وفتحها بالسيف، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وأحرق دورها وأخرج الأسرى إلى ظاهرها، ودخل بينهم برمحه؛ فأعطى قسماً للجند يبيعونه وقسماً أسرهم عنده، فبقوا في الأسر أربعين سنة! هلك خلالها أكثرهم؛ ولهذا وقف صلاح الدين حين ولي مصر غلّات بلبيس على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهلها بالخراج إلى آخر أيامه[1].

ويبدو أن الخليفة العاضد سبق سراً في هذه المرة؛ وكتب لنور الدين، لأن الفرنج تقدَّموا نحو القاهرة، فأمر شاور بإحراق مدينة مصر القديمة كلها خوفاً من أن يملكها الفرنج. وهجَّ الناس في الطرق والمساجد، وتشرَّدوا في الأزقة والبلاد، وظلّت النار تشتعل فيها أربعة وخمسين يوماً[2]. في حين وصل الفرنج مشارف القاهرة وحاصروها. . . وكتب شاور لنور الدين، وأخذ يناور الفرنج ريثما تصل النجدة من الشام، فعرض على الملك عموري ٤٠٠ ألف دينار وقيل

---

(١) تراجع التفاصيل لدى أبي شامة: الروضتين ج ٢، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٤.

(٢) يقال إنها أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل ـ أبو شامة: ج ٢، ص ٤٣٣.

ألفي ألف ـ على قول وليام الصوري ـ يعجل[1] منها مئة ألف، فأجابه بالقبول؛ فرجاه أن يعطيه المال على دفعات معللاً التأخر بأن أهل مصر نُهِبوا واحترقت بلدهم، وأهل القاهرة هم من الجند والغلمان.. فلم يتمكن شاور من جمع أكثر من خمسة آلاف دينار. وكان ملك الفرنج يبطئ في عملية الحصار للقاهرة لابتزاز المال من الوزير.

ويقال: إن العاضد حين استنجد بنور الدين أرسل مع الكتاب شعور نسائه ليثير فيه الحميَّة[2]، ولم يكن سلطان الشام بحاجة إلى من يثيرها فيه بعد أن علم نزول الفرنج على مصر؛ وكانت أركان حملته جاهزة للإسراع، فإن شيركوه كان يشتهي الرجوع. وأما صلاح الدين فيذكر ابن الأثير عن سيره في هذه الدفعة الثالثة[3]؛ قال: «حكى لي عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريباً منه خصيصاً به؛ قال: لما وردت كتب العاضد على نور الدين (في حلب) يستغيث به من الفرنج ويطلب إرسال العساكر، أحضرني (نور الدين) وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين في حمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. ففعلت.. وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى ـ وهذا يعني أنه كان يعرف ويترقب أخبار مصر ـ فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إليّ فقال لي: تجهَّز يا يوسف؛ فقلت: والله لو أُعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية ما لا أنساه أبداً! فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي فتأمره به. فأمرني نور الدين وأنا أستقيل... وتجهز أسد الدين، ولم يبقَ غير المسير. قال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطاني ما تجهَّزت به، فكأنما

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٣١.

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٣) المصدر السابق ج ١١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

أساق إلى الموت. فسرت معه ـ مع عمه ـ ومَلَكَها، ثم توفي فملَّكني الله تعالى ما لم أكن أطمع في بعضه. . . ».

ويعلِّق ابن الأثير على ذلك قائلاً: « . . . وكان سبب حضور أسد الدين شيركوه إلى حلب أن كتب المصريين وصلته أيضاً. . . واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسرَّه ذلك، وتفاءل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر وأعطاه مئتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة. . . وغير ذلك، وحكمه في العسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفي فارس. وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها في سلخ صفر سنة ٥٦٤هـ، ورحل إلى رأس العين، وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته، وأضاف إلى أسد الدين عدداً، منهم: جورديك، وقلج، وبزغش، والياروقي، وينال المنبخي، وصلاح الدين يوسف على كره منه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته. وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه. . . »(١).

ما قصدنا من إيراد هذا النص الطويل إلا كشف الهوى الزنكي الكامن وراء كتابة ابن الأثير عن صلاح الدين، فهو يجعل من صلاح الدين قائداً عادياً رعديداً، ويمتلك من الملك ما لم يكن يطمع في بعضه بدل بيت نور الدين، وينال (السعادة) على حساب الأموال والجند التي هيأها نور الدين لعمه، وعلى حساب ما قدَّمه لصلاح الدين الذي كان يشكو الضائقة وعدم البرك؛ فأعطاه ليسير مع أنه حلف من قبل ألاَّ يذهب إلى مصر، ثم سار كأنه يساق إلى الموت!!.

في النص كما نلاحظ مبالغة زائدة عن الحد لبيان فضل نور الدين، ثم

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٣٨.

تنكُّر صلاح الدين فيما بعد له ولآل بيته. وهو انحراف قد يكون له ما يبرره من وجهة نظر رجل يعيش على حساب البيت الزنكي، ولكنه غير مبرر من وجهة النظر الحيادية التاريخية. وسوف يستمر ابن الأثير ـ وهذا طبيعي ـ في خطِّه المتحيز كلما وجد فرصة لذلك، مع العلم أن كُره السفر من جانب صلاح الدين صحيح، وقد ذكره هو نفسه لابن شداد؛ فقال: «كنت أَكْرَهُ الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري»[1]؛ لكن المبالغة في ذلك هي من عند ابن الأثير.

وأسرع شيركوه في المسير، وحين شارف مصر طلب شاور من الفرنج أن يسامحوه بنصف المال المقرر، فأدرك ملك الفرنج عموري أن (شيئاً حدث) فقالوا: إن أسد الدين وصل فارْضَ بما أخذت فذلك أوفق لنا ولك، وسنرضي القادمين ببعض المال وينتهي الأمر. وقبل عموري الانسحاب، وطلبوا منه جميع الأسرى، ففعل، وطلبوا منه ألا يأخذ من بلبيس شيئاً، فوافق.. كان يعلم أن الحرب مع جيش نور الدين ستكون طويلة ومنهكة؛ ففضَّل إبقاء التحالف مع مصر قائماً ريثما ينصرف هذا الجيش، وكان الأسطول الفرنجي قد احتل (تنيس) فأعطى الأمر بالانسحاب.

لم يكن يعلم أن مجيء الجيش الشامي هذه المرة ستكون الأخيرة، وأنَّ أعماله وأعمال أصحابه الفرنجة وتعسفهم قد اقتلعت أيَّ إمكان لتحقيق أطماعهم في مصر، مع موقف أهلها العدائي ونكباتهم بسببهم؛ فقد استقبل المصريون وصول الجيش النوري بوصفه منقذاً، لكن الموقف منهم كان مختلفاً، ففيما كان النظام الفاطمي ينظر إليه على أنه خلاص موقَّت من الفرنج وينتهي بمبلغ من المال يُدفع، كان الجمهور المصري ينتظر منه الخلاص النهائي بسبب سنِّيته في معظمه، ويأسه من قوة النظام الذي إنما يطيل عمره

(١) ابن شداد: النوادر ص ٣٩.

بنور الدين فَتْحُ الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمدَ لله، إذ كان ذلك في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده.. وجلس للهنا بذلك وأنشده الشعراء؛ غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وُزِّر للعاضد واستبد بالأمر في ذلك الصقع أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي.. وأفضى بسرِّه إلى مجد الدين ابن الداية... ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين، فما تهيَّأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر؛ فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم، ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضله محسوباً لما صبر على ماجرى، ولا أغضى للملك الناصر (صلاح الدين) على القذى. ولقد كاتب العاضد عدة دفعات في أمر الأسد والصلاح، فلم يحصل له فيهما النجاح...».

فمن بعض مكاتباته: «وقد افتقر العبد إلى بعثة (أسد الدين)، وأعوز عسكره يُمْنَ نقيبته، واشتد حزب الضلال عل المسلمين لغيبته...»[1]، وقد علَّل أبو شامة هذا الموقف بخوف نور الدين من ميل أسد الدين إلى المذهب الفاطمي بعد أن وزِّر لهم، وأن يفسد جنده على نور الدين.

والواقع أن مدة الشهرين التي وزِّر فيها أسد الدين لا تحتمل لا المكاتبات العديدة بين مصر والشام، ولا الخوف من اصطناع المذهب الفاطمي.. وأكثر من هذا فإن نور الدين أعقل بكثير وأحكم بكثير من أن يغار أو يحقد على قائد من قواده لأنه وزِّر للفاطميين. ولعلَّ أمر الكراهية، وعدم النوم، والعزلة عدة أيام من مبالغات ابن أبي طي وأوهامه. وليس هناك من وقت كافٍ بين ما يسميه (فتحاً لمصر) وفرحاً وزينة وبشائر بفتحها، وبين تقلد أسد الدين الوزارة ليفرح نور الدين ثم يغضب ويطلق لسانه في قائده. ولعله بالعكس فرح لأن استلام

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٣٧.

أسد الدين للوزارة هو الخطوة الأولى نحو إقرار السُّنِّيَّة في مصر، ونحو إلغاء خلافتها الفاطمية، وهما أمران كانا من أمنيات نور الدين التقي.. ولو كان يكره سيطرة رجاله على مصر فلماذا حشدهم هناك مع خيرة جنده مثل الياروقي وجورديك وقلج وبزغش وابن المشطوب؛ علماً بأن أسد الدين حين ولي الوزارة «لم يغير على أحد شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم»[1].

وزارة صلاح الدين:

وينقل ابن أبي طي أيضاً أنه: «ساعة وفاة أسد الدين وقع الاختلاف فيمن يولَّى الوزارة بين العسكر الشامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين؛ فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه، فامتنع من ذلك وأشار بولاية (صلاح الدين)؛ وكان الحارمي أولاً قد رغب بالوزارة وتحدَّث فيها.. فلما رأى مزاحمة (ابن ياروق) وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به؛ لأنه إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته»[2].

أما ابن الأثير فيذكر «أن كل واحد من الأمراء كان يخطبها لنفسه، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها؛ فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وخلع عليه وولّاه الوزارة...»[3]. وبالرغم من أن هذا الرجل لم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين - وكان أمراء عساكر الشام أكبر سناً - إلا أن العاضد كان يعرفه مع عمه في حملتين سابقتين، ويعرف ما عانى في الإسكندرية من البلاء، وكيف دافع عنها

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٣٨.
(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٣٩.
(٣) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٤٣.

بقوة، وأن الأسدية ـ وهي ٥٠٠ مملوك ـ جماعة محاربة يستند إليها، ولم يختبر جند الأمراء الباقين في الحرب، بالإضافة إلى أنه كان على قول ابن شداد المساعد الأيمن لعمه «فهو مباشر للأمور مقرر لها. . وزمام الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتِّيه وسياسته»[1].

ويضيف ابن أبي طي أن صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتريث ولا توقَّف. وما خرج الحارمي من حضرة العاضد إلا وخِلَعُ الوزارة قد سبقته إلى الملك الناصر (صلاح الدين). لكل ذلك قلده الوزارة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ بعد ثلاثة أيام من موت شيركوه، وقُرِئَ المنشور بين يدي صلاح الدين يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوماً عظيماً[2].

ويذكرون أنَّ الفقيه (عيسى العكاري) كان له دوره في انتهاء أمر الوزارة إلى صلاح الدين، لأنه طاف على الأمراء وأقنعهم كلاًّ على طريقته بالقبول بصلاح الدين، فوافقوا إلا عين الدولة (الياروقي) الذي انسحب إلى الشام بجماعته. على أن ابن الأثير يحاول الغض منه قائلاً: «كان الذي حمله (العاضد) على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنّاً من يوسف، والرأي أن يولَّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه. . .»[3]. وعلى الرغم من أن الأمراء لم يتلقوا توليته بالرضى إلا أنهم بوساطة الفقيه عيسى العكاري مع الرافضين وافقوا عليه إلا واحداً هو (الياروقي) رفض، وقال: لا أخدم يوسف. . وعاد إلى الشام، وكان

(١) ابن شداد: ص ٤٠.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٣٩.
(٣) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٤٣.

له مركزه وعشيرته الكبيرة ومكانته في حلب. واستقام الأمر لصلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي، ونائباً في الوقت نفسه عن نور الدين وقائداً لعسكر الشام.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين لقِّب بالملك الناصر من الخليفة الفاطمي؛ فإن نور الدين كان يكاتبه بالأمير الاسفهلار ـ وهو اللقب الذي كان يعطى لقائد الجيش على حسب التقاليد السلجوقية، والكلمة فارسية ـ إلاَّ أن ابن الأثير يأبى إلاَّ أن يغض مرة أخرى من مكانته فيقول: «إن (نور الدين) كان يكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه.. وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب: الأمير الاسفهلار صلاح الدين وجميع الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا...»، وهذا يعني بوضوح أن الصلاح كان يتلقى الأوامر من نور الدين وينفذها مع الأمراء الآخرين.

أما من وجهة نظر الخليفة الفاطمي؛ فإن المنشور الذي أصدره بتسميته للوزارة يشبه المنشور الذي صدر قبله لشيركوه فيما يتعلق بالسلطات المخوَّلة له: فهو سلطان الجيوش، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة أمير المؤمنين. وقد كان هذا هو التقليد المتَّبع مع وزراء الفاطميين السابقين. ومن هنا كان الوزير يسمى بالسلطان. وأخذ صلاح الدين هذا اللقب؛ غير أن تولية القضاة والدعاة ـ دعاة المذهب ـ بقيت اسمياً للخليفة العاضد. وكانت سجلات توليتهم تخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة باعتبار شيركوه ثم صلاح الدين على المذهب السنِّي.

وعلى الرغم من أن الخلفاء الفاطميين كانوا نادراً ما يكتبون؛ فإن منشور صلاح الدين كتب بخط يد العاضد وورد فيه: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله»؛ ووصف صلاح الدين بأنه (منجد الأمة)، وكلفه القيام بخدمة أمير المؤمنين (بعد شيركوه) «وأن يسد في تقدمه جيوشه مسدَّه، ويقفو في ولائه أثره.. فوازت الفادحة فيه النعمة فيك...».

ويقول المنشور: «رعى الله له (لشيركوه) قطعه البيداء إليه (إلى أمير المؤمنين) وتجشُّمه الأسفار، ووطأه الموطئ التي تغيظ الكفار، وطلوعه على الأبواب طلوع أنوار النهار، وهجرته التي جمعت له أجرين: أجر المهاجرين، وأجر الأنصار؛ وشكر له المسعى الذي بلغ من الشرك الثار. وما لقي ربه حتى تعرَّض للشهادة بين.. مشتجر الرماح ومفترق الأجسام من الأرواح.. حتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر أدام الله قدرتك وقد أقررت ناظره.. وشددت سلطانه وسددت مكانه.. وجمعت ما بين أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب.. وأفادتك المحاسن التي هي فيك حلة.. وآثرك (عمك) على آثر ولده إمامة في التدبير وحرباً، وكنت في السلم لسانه الآخذ بمجامع القلوب، وفي الحرب سنانه النافذ في مضائق الخطوب، وساقته إذا طُلب، وطليعته إذا طَلب، وقلب جيشه إذا ثبت، وجنحه إذا وثب؛ ولا عذر لشبل نشأ في حجر أسد، ولا لهلال استملى النور من شمس واستمد...».

وبعد أن أشاد بسجاياه وأنه بالوزارة صار وزراً للأمة، وأنَّ أمير المؤمنين اصطفاه بقلبه قبل لسانه، وأنه أطلق يده في الأعمال بسطاً وقبضاً، ورفعاً وخفضاً؛ قال: «وأما القضاة والدعاة فهم بين كفالتك وهديك، والتصريف على أمرك ونهيك، فاستعمل منهم من أحسن عملاً. فأما بالعنايات فلا.. والجهاد فإنك راضع درَّه، وناشئة حجره.. وظهور الخيل مواطنك... فشمِّر له عن ساق من القنا، وأسل الوهاد بدماء العداء. والأموال فهي زبدة جلب اللطف لا العنف. والرعايا فهم ودائع الله لديك، فابسط العدل فيهم...»[1].

* * *

(١) انظر المنشور كاملاً لدى ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات (المجلد الأول، نشر حسن الشماع ١٩٦٧ بغداد).



صَلَاحُ الدِّين السِّيَاسِيّ

صلاح الدين الوزير :

لم يكن تسلم صلاح الدين للوزارة في مصر حدثاً عابراً في التاريخ، بل كان من الأحداث الكبرى التي غيرت لا مصيره الشخصي فحسب، ولكن مصير مصر والمشرق العربي، وبالتالي اتجاه التاريخ الإسلامي كله؛ فقد حققت عملية تسليم الوزارة لصلاح الدين ثلاثة انقلابات معاً:

١ ـ انقلاب في شخصية صلاح الدين: فلم يكن تتويجه بعمامة الوزارة البيضاء من الحرير التنيسي المطرز بالذهب، وبالثوب الديبقي المذهب، وعقد الجوهر، والسيف المحلّى بالأحجار الثمينة، والفرس الصفراء، والتخت والأعلام. . .[1] لم يكن ذلك كله مجرد مظهر خارجي؛ ولكن الشاب ذي الاثنتين وثلاثين سنة الذي عقدت له الوزارة انقلب شخصاً آخر. . وما لبث أن نَمَتْ فيه وعظمت أعباء المهمة التي يتصدى لها. ففي الوقت الذي هان فيه المال عنده تضخمت في ذاته مسؤولياته في الحكم، وبقدر ما جاء الحكم إليه عفواً بقدر ما صار أكثر حرصاً على خدمته والتمسك به ليبقى فيه. ويذكر ابن شداد الذي عايشه السنوات العشر الأخيرة عنه أنه: «هانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمَّص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً. . .»[2]؛ كانت قفزته كبيرة، وبقدر

(١) انظر خلع الوزارة بكاملها لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٤٣٩.

(٢) ابن شداد : النوادر ص ٤٠.

كبرها كانت خطورتها، وكان من العقل ـ رغم غضاضة سنه ـ بحيث ملأ مكانه واصطنع له ما يلائمه من التصرف.

٢ ـ انقلاب في تاريخ مصر: لم يكن بدعاً أن يلي منصب الوزارة الفاطمية وزير سني، فقد كان هناك وزراء سنيون على فترات متقطعة طيلة قرن تقريباً؛ ولكن البدع كان في اختلاف الولاء، فلأول مرة ـ بعد عهد شيركوه القصير ـ يتولى منصب الوزارة وزير سنّي لخليفة شيعي، والوزير يتبع الخلافة العباسية والخليفة عنده فاطمي معادي العباسيين السنة، وإذا كان اجتماع السلطة التنفيذية بيدٍ واحدة في مصر يحمل الاتجاهين معاً، ويشير إلى وحدة الجبهة الإسلامية ـ الشامية المصرية ـ، فإن من شأن ذلك أن يثير الكثير من المتاعب لصاحب المنصب، لأن عليه التجديف بين تيارين متضادين في السياسة، ويحتاج إلى براعة السياسي البهلوان، ليجمع بينهم دون تناقض؛ وقد استطاع صلاح الدين ببراعة أن يسيِّر الأمور سنتين ونيفاً حتى وحَّد الطرفين في الخط العباسي السني. . وماتت الخلافة الفاطمية في صمت، وتغيَّرت بذلك مصائر المشرق العربي.

٣ ـ شعر بسرعة أن الوزارة ألقت عليه حملين ثقيلين هما: تنسيق جبهتي مصر والشام في خط متماسك واحد؛ والجهاد في سبيل الله لتحرير القدس. . . قال لصديقه وصفيّه ابن شداد: «لما يسّر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل (الشامي) لأنه أوقع في نفسي ذلك»[1]. ويبدو أنه اعتبر هذا الأمر بعد الوزارة رسالة سماوية عليه أن يقوم بها. ولم تكن الفكرتان جديدتان عليه، أو خطرتا له عفواً بعد تولّيه الحكم، فقد نشأ عليهما، وكانتا من أهداف الجماهير الإسلامية، ولكنه شعر وهو في مركزه أنه مسؤول شخصياً عن تنفيذهما، وأن الناس تنتظر منه بالذات تحقيق الهدفين بعد أن صار في إمكانه أن يعمل لهما؛ وإلا فقد مكانته التي وصل إليها.

(١) ابن شداد: النوادر ص ٤١.

بهذه الانقلابات الثلاثة كان على صلاح الدين أن ينهج كل السبل السياسية والدبلوماسية الحازمة للتوفيق ما بين عِدَّة أمور قد تبدو مشتبكة معقدة وصعبة، وعليه ترتيب الأولويات فيها؛ وهكذا فعل، وبرهن بكرمه مع الصديق والعدو، وبحزمه وقوته على أنه رجل دولة موهوب.

كان عليه أولاً أن يعمل على استقرار الأمور في البلاد، وبذل في ذلك المال الكثير وحسن المعاملة للناس؛ فاستمال قلوبهم وأحبوه. وضعف أمر العاضد، ولم يكن ليخفى عليه أن الكتلة الفاطمية الموجودة في الجيش أو في القصر أو بين الدعاة للمذهب والملتحقين بهم من الناس قد لا يرضون طويلاً عن بقائه في السدّة العليا، وأنهم لا شك منقلبون عليه متى استقرَّت له الأمور، وأن مشكلة الولاء المزدوج سوف تقوم بدورها في الشغب عليه «وهو وزير متابع للقوم، ومقوٍّ لمذهب السنة.. والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفِدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصداً، ولا يعدم وافداً.. إلى سنة خمس وستين وخمسمئة»[1].

لهذا جعل همَّه في السنة الأولى من حكمه الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع جميع مراكز القوى في مصر. ويقول ابن أبي طي فيما رواه أبو شامة عنه: «حدثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة.. وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً.. فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره». وحين كانت هجمة الفرنج على (دمياط) قال صلاح الدين: «مارأيت أكرم من العاضد.. أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها»[2].

وأرضى صلاح الدين كبار الرجال في الجيش المصري و«خلع السلطان على

(١) ابن شداد: النوادر ص ٤١ (وفي الأصل ستمئة وهو خطأ).
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٥٧.

جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعمَّ الناس جميعاً بالهبات والصلات. . . وقام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بِدَدَها، وجرى في منهاج العدل على حددها. ونادى إلي رفده وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وتيقظ للتدبير. . وحفظ ناموس الشرع. . وأَمَّهُ (الناس) بنفائس الخطب والأشعار ـ ومنهم الشاعر الفاطمي عمارة اليمني ـ»[1].

ويبدو أن الخليفة العاضد كان ضعيف الرأي والإرادة، تلعب به الأهواء، فهو يتخذ القرار ثم يوسوس رجال الحاشية في صدره فيتخذ عكسه. وإذا أعجب بصلاح الدين لشخصه؛ فإنه لم يتقبَّل عساكر الشام من الترك القبول الحسن، وقد كتب إلى نور الدين بذلك. وكان السلطان يرى ذلك ويغض الطرف، ويرى من الحاشية الفاطمية بعض الازورار فينساه؛ لكن توالي الأحداث وتراكم البوادر دفعته إلى تقوية مركزه بعملين اثنين متقابلين:

ـ الإكثار من الجند الموالين له، وكان يجند الترك القادمين من الشام حتى ألَّف منهم فرقة عرفت بالصلاحية جعلها حرساً له.

ـ قص أجنحة الجند الفاطمي من الأمراء والعساكر وبخاصة عنصر السودان فيهم؛ لأن فاطميَّتهم كانت واضحة وهجومية.

جمع الشمل:

وهكذا بعث يرجو نور الدين إرسال أبيه وأهله إليه، فأرسلهم. يقول أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني: «. . . استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته. . وخيَّم بظاهر البلد. . وشرع في تفريق أملاكه. . وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده. . . وخرج نور الدين (للجهاد) فقام

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٤٠.

بتوديعه وبحقّ تشييعه، وسيَّر معه عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أُنس ومودة ما لا يعد. فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك.. فنزل عليه وحاصره. وسار نجم الدين ومن معه سالمين ـ رغم محاولة فرسان الفرنج الأقوياء أن يعرضوا لهم، لكنهم خافوا نور الدين فأمسكوا ـ. ووصل نجم الدين إلى مصر وعرض عليه صلاح الدين أن يلبسه الأمر كله، وأن يضعه موضعه؛ فأبى أن يلبسه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له؛ فما ينبغي أن تغير موقع السعادة، فحكَّمه في الخزائن كلها.. وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد...»[1].

في هذه الفترة رأى صلاح الدين أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع العمل الذي يتوافق مع فكره وعقيدته بالاعتماد خاصة على المجموعة الشامية التي وفدت عليه. وينفرد ابن أبي طي بالقول: «إن الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر؛ فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة، فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت، متطلع إلى ذلك بكلِّيته، وهو عنده من أهم أمنيته...»[2].

وليس منطقياً ربط سفر نجم الدين أيوب برسالة المستنجد بالله وأمر نور الدين له، فالعلاقات بين صلاح الدين وسيده في الشام كانت ما تزال حسنة، وحين أرسل نور الدين إليه أباه وأهله رافقهم بالحماية حتى بلدة (الكرك)، وأصحبهم هدية سنية لصلاح الدين، «وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلُّهم فعل ذلك، وأخذ (صلاح الدين) إقطاعات الأمراء

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه؛ وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة..»[١]. في حين بدأت تتشكل بالمقابل ضده أول زمرة من الناقمين.

والواقع أن وصول والد صلاح الدين وأهله؛ شدَّ من عضده وطمأنه إلى مركزه من نور الدين، كما طمأنه إلى مركزه من الخليفة الفاطمي حين خرج لتلقِّي (أيوب) إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجرِ بذلك عادة لهم. وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقَّبه بالملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا؛ وأظهر صلاح الدين من برِّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة ـ أي ساحل مصر الشمالي وموانئه ـ، وأقطع (إقليم الفيوم) لبعض أفراد أسرته، مثل أخيه (بوري) وابن أخيه (تقي الدين عمر بن شاهنشاه)، وأقطع (شمس الدولة توران شاه) أخاه: قوص وأسوان وعيذاب ـ وهي ممر الحجاج المغاربة وممر تجار البحر الأحمر ـ وكانت عَبرَتها في هذه السنة مئتي ألف وستة وستين ألف دينار. وسار شمس الدولة إلى (قوص) وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار... وكان السلطان قبل إقطاعها (لتوران شاه) قد سيَّر إليها (رسلان بن دغمش) لجباية خراجها، فخرج عليه (خارج) في جماعة من الأعراب والعبيد.. فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة.. وفي هذه السنة ـ ٥٦٤ هـ ـ رزق السلطان ولده الأفضل علياً، وفرح به فرحاً عظيماً وخلع وأعطى وتصدق بما بهر العقول...»[٢].

على أن هذه الأمور بالضبط هي التي زلزلت مكانته لدى (الفاطميين) المتعصبين وأمراء جيشهم، وكوَّنت النواة الأولى لتمردهم عله ومحاولاتهم إزاحته... ولم يكن صلاح الدين ليخفى عليه أمر هذه النقمة المحلية، فهي مشاعر طبيعية من أناس وجدوا أرزاقهم ومكانتهم تعطى لغيرهم ويُحرمون

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٤٤؛ وأبو شامة: ج ٢، ص ٤٦٦.
(٢) ابن الأثير: ج ١١، ٣٤٤؛ وأبو شامة: الروضتين ج ٢، ص ٤٦٦.

منها. والبلد بلدهم، لاسيما وهو دخيل وغير فاطمي المذهب والهوى.. ولا شكَّ أن صلاح الدين كان يعتمد في حماية تصرفاته على قوتين: القوة العسكرية: التي تجمعت حوله من الشام خاصة، ومن مصر. وقوة الجماعات السنية: التي كانت مبعدة عن نظام الحكم، وتعتبره زيغاً، وتشارك في ذلك صلاح الدين في الرضى الديني عن عمله.

ضرب الجماعة الفاطمية:

لكن السلطان ـ رغم سلطانه ـ لم ينقطع عن التفكير والتدبير للجماعة الفاطمية التي لم تكن بالهينة لا في العدد ولا في النفوذ، ولا سيما في الجيش الفاطمي... وكان المصريون ـ قبل دخول الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ ـ على المذهب المالكي في بعضهم، وعلى المذهب الشافعي في معظمهم؛ أي على مذهبين من مذاهب السنة.

وحين دخل جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر تعهد لأهلها ـ في منشور الأمان ـ أن يحترم مذهبهم. وكان غالبيتهم شوافع.. وكانت الخلافة العباسية قد أخرجت من مصر إلى العراق آل أبي طالب، واستتر من كان على رأي الشيعة. وفي أيام العزيز الفاطمي بدأت الدعوة بين المصريين دون إلزام للمذهب الفاطمي بتعيين (٣٥ فقيهاً) في الجامع الأزهر لهذا لغرض، وكان وزراء الخلافة وقضاتها يقرؤون شروحاً من تأليفهم عن الفقه الشيعي ويستمعه الناس. ثم خطا الفاطميون خطوة أخرى أيام الحاكم بأمر الله فوضعوا نظاماً دقيقاً لتحويل المصريين إلى مذهبهم وبدؤوا بالموظفين. وسمِّيت الدعوة بالدعوة الهادية، وصار لها دعاةٌ يرأسهم داعي الدعاة، وانتشروا في أرجاء مصر، لم تعد الدعوة شروحاً للفقه والتشريع ـ وهو الظاهر ـ ولكن بالدعوة للباطنية، أي أن للقرآن ظاهراً وباطناً ولايعرف هذا الباطن إلا الله والأئمة أولو العلم.. ولكل لفظ فيه معنى خفي. وأصبح الدعاة درجات، ولا يكون من المذهب إلا من أقسم اليمين على حفظ السر، ومركز الحركة في دار الحكمة أو

دار العلم، التي أضيفت للجامع الأزهر، وانبث دعاتها في جميع الأراضي الإسلامية وبخاصة في مصر. وقد بلغت هذه الدعوة غايتها حتى انتشر المذهب الفاطمي في مصر، وأصبح المذهب السني غريباً، وبخاصة في العاصمة: القاهرة[1].

كان صلاح الدين يعتبر ـ مثله كمثل كل المسلمين السنيين في المشرق ـ أن الفاطميين كفرة.. وإذا كان لديه من السياسة ما يكفي لاستيعابهم؛ فلم يكن لديه من الثقافة الدينية ما يفهم به كفرهم ومعانيهم الباطنية، وفلسفة المذهب اللاهوتية. ولما كان قد أضحى وزير تفويض مطلق اليد، والخليفة العاضد أكثر عزلة فأكثر، وليس في يده أمر سوى الشكل والاسم؛ فإن صلاح الدين أخذ في تعديل وتسوية ما كان يعتبره انحرافاً عن الدين السوي ـ بتقوية السنة، ويعتبره واجباً أمام الله، فقام بخطوات عديدة بهذا الاتجاه (التقويمي) التصحيحي حسب معتقده.. يرضي به نفسه وسيده نور الدين والخلافة العباسية وأهل السنة جيمعاً؛ ومن ذلك:

ـ أنه عزل قضاة مصر الشيعة بوصفه كافل القضاة وقطع أرزاقهم، وجعل القضاء للشافعية فقط.

ـ سرَّح الدعاة وألغى مجالس الدعوة.

ـ أزال مظاهر المذهب في العبادة ـ الأذان بحيَّ على خير العمل.. صلاة الضحى.. صيام رمضان ثلاثين يوماً.

ـ ألغى عن السكة ـ النقد ـ صيغة (علي ولي الله).

ـ منع صلاة الجمع في الجامع الأزهر وجامع الحاكم.

---

(١) انظر في ذلك كله، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٥، ص ٣ وج ٤، ص ٧٢؛ والمقريزي: الخطط ج ٢، ص ١٧٥، وج ٤ ص ١٥٦ و١٩٢؛ واتّعاظ الحنفا ص ١٤٨ وما بعدها.

ـ خطب لنور الدين في الجوامع.

ـ جعل همه في دعم مذهبي الشافعي ومالك، وكانا موجودَين بين الناس، وجعل لهم المدارس المنظمة دينياً، والتي بناها بالتدريج في مختلف أنحاء مصر (كما فعل المشارقة من المدارس النظامية).

وإذا لم يجد صلاح الدين صعوبة أو معارضة عامة في ذلك كله فقد زاد بالمقابل في عدد الناقمين عليه من أصحاب المصالح ومن المتعصبين للفاطمية أو للتشيع عامة؛ كان يعتبر هذه الأعمال عملية (إصلاح ديني) ضرورية لتوحيد الجبهة الإسلامية في منحى واحد.. ولم يكن ذلك غريباً منه كحاكم؛ ألم يفعل ذلك الفاطميون من قبل؟.

ونظر صلاح الدين في العصبية الفاطمية فوجد أنها تتمركز في حاشية القصر الفاطمي من حول الخليفة، وأنها قد تفسده عليه وقد تتآمر. ولم تكن هذه الحاشية بالقليلة في النفوذ ولا في العدد، فهي جماعة كبيرة سبق أن قتلت الوزير (طلائع بن رزيك) قبل سنين، وقد تقتله إذا شاءت وهو متردد بصورة دائمة على القصر.. ولم تعرف البلاطات الإسلامية مثيلاً لها من قبل، فقد كان عددها ـ عند سقوط الفاطميين ـ يبلغ حسب قول المقريزي ثمانية عشر ألفاً[(١)]، وهم موظفون من كل لون ودين وجنس لأعمال القصر؛ وفيهم العبيد الصقالبة البيض، والسودان السود، والخصيان وغير الخصيان، وهم الأستاذون (جمع أستاذ وهي كلمة فارسية تعني الأسطه الماهر)، ويشرف عليهم الأساتذة المحنكون (أي الذين يلفون طرف العمامة حول وجوههم من تحت الحنك) وهم الخاصة، وقد يلقب بعضهم بالأمير. وكان بعض الوزراء والخلفاء يتملقونهم بعملية التحنيك هذه مما يكشف شأنهم...[(٢)]

---

(١) المقريزي: الخطط ج ٢، ص ٣٩٦.

(٢) ابن الأثير ج ١١، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦؛ والمقريزي ج ٢، ص١ ـ ٢ (طبعة قديمة).

وهذه الجماعة كانت كالشجَى في حلق صلاح الدين، وكان يشعر بعدائها له في خائنات الأعين، وما كان منتظراً من كبارهم خاصة أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تصرفات صلاح الدين المهينة لهم.. ولكنهم كانوا يلتزمون بما قرر سيد القصر، فهم يخدمون دون اعتراض؛ وكان رئيسهم أيام السلطان صلاح الدين يدعى بجوهر مؤتمن الدولة. وهو خصي أسود وإليه الحكم في القصر.. ويبدو أنه غضب من سيطرة صلاح الدين وأراد أن يلعب لعبة شاور السابقة بالتعاون مع الفرنج، ولما لم يكن يستطيع الذهاب إليهم فقد كتب رسالة بالاتفاق مع جماعة من الأمراء المصريين يستدعيهم للخلاص من صلاح الدين ومن معه، وسيَّر الرسالة مع رجل يثق به ومكث ينتظر. كان العرض الذي عرضه على الملك الفرنجي أن يأتي بجيشه، كالعادة، فإذا تحرك صلاح الدين للدفاع، ثار الفاطميون في القاهرة فقتلوا أصحاب عسكر الشام ثم تبعوا صلاح الدين فأتوه من خلف جيشه وراء ظهره، فيكون بين نارين فلا يبقى له باقية. واتفق أن أوقف عسكري تركماني حامل الرسالة حين وجد معه نعلين ثمينين جديدين ليسا من ملبسه، وفتق النعل فوجد الرسالة فأتى به إلى السلطان.. لكن صلاح الدين كتم ذلك ولم يظهره.

واستشعر مؤتمن الخلافة بالخطر، لكن السلطان أنظره فلازم القصر لا يخرج منه، وإذا خرج لم يبعد، فلما طال انتظاره خرج إلى قرية له يتنزه، وعلم صلاح الدين بخروجه، فأرسل إليه جماعة أخذوه فقتلوه وأتوه برأسه، ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة؛ وجعل زمام القصر بيد رجل من مماليكه الأقوياء يدعى قراقوش (الطائر الأسود)، وهو تركي أو يوناني خصي، فأشرف على كل ما يتعلق بالقصر فلا يجري أمر فيه إلا بعلم صلاح الدين[1].

---

(١) انظر أبي شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٧٨ .

وشعر صلاح الدين أن مقتل مؤتمن الخلافة سوف يُغضب الجماعة السودان من الجند الفاطمي، وكان أكثر هذا الجند يتكون من عناصر عديدة كمعظم الجيوش الإسلامية في ذلك العصر، وكانت كثرته في أوائل الدولة تتكون من المغاربة البربر حين جاء الفاطميون من تونس، ثم انضم إلى الجند قبل أيام المستنصر في القرن الخامس عناصر من المشارقة والديلم وبعض الترك والأرمن وكثر النَّوْبيون. وإنما أُبعد البربر بعد ثورة أبي ركوة المغربي أيام الحاكم بأمر الله وانفصال المغرب عن طاعة الفاطميين.. ثم قلَّ عدد الترك والديلم أيام ظهور السلاجقة وأُبعدوا. وتكاثر بدلاً منهم النوبيون السودان والعربان والأرمن والمصريون منذ مطالع القرن السادس والحروب الصليبية، ولكن هذين العنصرين ضعفا كثيراً باضطراب الحكم في أواسط هذا القرن، واضطر رجال مصر في صراعهم من أجل السلطة إلى الاستعانة بالعساكر الشامية والفرنجية.. وكان العنصر السوداني والنوبي هم الكثرة في الجند ولهم طوائف واضحة القوة في الدولة؛ منها المنصورية والريحانية والميمونية والحسينية، ويقيمون في حارات بظاهر القاهرة تعرف باسم طوائفهم. وكانوا إذا ثاروا على وزير قتلوه وأذلوه واستباحوه، ولا يدينون بالولاء إلا للخليفة الفاطمي.

وكان عددهم أيام العاضد يبلغ خمسين ألفاً بمن انضم إليهم من الأمراء والعامة المصريين حتى أضحوا عالَماً عظيماً على قول المقريزي الذي وصف المعركة بالتفصيل فقال[1]: «غضب العسكر المصري وثاروا بأجمعهم (في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ)، وساروا إلى دار الوزارة (في القاهرة) وفيها يومئذ ساكناً بها صلاح الدين وقد استعدوا بالأسلحة. (وهو يتربص بهم لتحطيم قوة الخلافة). فبادر شمسُ الدين فخرَ الدين توران شاه أخو صلاح الدين (وكان جديد القدوم من الشام) وصرخ في عساكر الغز (الترك)،

---

(١) انظر ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧؛ وأبي شامة: ج ٢، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢؛ والمقريزي: الخطط: ج ٣، ص ٣.

وركب صلاح الدين وقد اجتمع إليه طوائف من أهله وأقاربه وجميع الغز ورتبهم. ووقفت الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية والطائفة الفرجية وغيرهم من الطوائف السودانية، ومن انضم إليهم من القصرين. فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين واشتد الأمر (وتوسع القتال)، وعظم الخطب حتى لم يبقَ إلا هزيمة صلاح الدين وأصحابه.

وعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على السودان فقتل فيها أحد مقدميهم فانكفَّ بأسهم قليلاً، وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا (إلى أبواب القاهرة)، وقتل حينئذ عدة من الأمراء المصريين وكثير ممن عداهم. وكان العاضد يشرف في هذه الوقعة من المنظرة، فلما رأى أهل القصر كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفُّوهم عن القتال وكادوا ينهزمون. فأمر حينئذٍ صلاح الدين النفَّاطين بإحراق المنظرة، فأحضر شمس الدولة النفاطين، وأخذوا في تطبيب قارورة النفط، وصوبوا بها على المنظرة التي فيها العاضد، فخاف العاضد على نفسه، وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة ـ أحد الأستاذين ـ بصوت عالٍ: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب. أخرجوهم من بلادكم، فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا، فحملت عليهم الغز، فانكسروا وركب القوم أقفيتهم.. فقتل منهم كثير، وأُسر منهم كثير.. وامتنعوا على الغز بمكان فأحرق عليهم. وكان في دار الأرمن التي كانت قريباً من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن كلهم رماة ولهم جارٍ في الدولة يجرى عليهم، فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا أن يسيروا إلى العبيد، فأحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً. ومروا إلى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكاناً أُحرق عليهم وقُتلوا فيه إلى أن وصلوا باب زويلة (من القاهرة) فإذا هو مغلوق، فحُصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين، ثم بلغهم أن صلاح الدين أحرق المنصورة التي هي أعظم حاراتهم، وأُخذت

عليهم أبواب السكك، فأيقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة، فصاحوا: الأمان. فَأُمِّنوا وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة (سنة ٤٦٥ هـ)، وفتح لهم باب زويلة فخرجوا إلى الجيزة، فغدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا بأموال المهزومين وأسلحتهم، وحكَّموا فيهم السيف حتى لم يبقَ منهم إلا الشريد.. وتلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد...»[١]؛ في حين انهزم العبيد الهاربون إلى الصعيد.. وعرفت الواقعة «بواقعة العبيد».

أطلنا في اقتباس وصف المقريزي للواقعة لأنها كانت النقطة الانقلابية الحاسمة:

أولاً: في موقف صلاح الدين من الخليفة العاضد الذي يظهر أنه كان متردداً بين الحميَّة لجيشه وأصحابه من العبيد والمصريين وبين تأييد صلاح الدين.

ثانياً: في موقفه من الجيش الفاطمي، فقد حسم أمره بسحقه للعبيد السودان ولمن انضم إليهم من الأمراء المصريين والعامة.

ثالثاً: في موقفه من العقيدة الفاطمية؛ فالذين حاربوه جميعاً كانوا عليها، وهزيمتهم هزيمة لها في عقر دارها.

وكان من نتائج هذه المعركة أن أُطلقت يد صلاح الدين من كل تحفُّظ بعد أن انهار الجدار العسكري ـ المذهبي الذي كان ينتصب أمامه ويداري أمره.

تحجيم النفوذ الفاطمي:

وتبع ذلك أن استبد صلاح الدين بقواد الجيش من الأمراء المصريين.. على الرغم من أنه بذل لهم المال أول الأمر فأحبوه وخدموه[٢]. ولكن بعضهم

(١) ذكر أبو شامة قصة تقلب العاضد في الروضتين: ج ٢، ص ٤٥٢؛ وقد أخذها المقريزي عنه.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة: ج ٥، ص ٣٥٥.

كانت (الفاطمية) تخالط اللحم والدم منهم فخشي انتقاضهم عليه. وبدأ فأنقص إقطاعاتهم لمصلحة الأمراء الشاميين القادمين، ثم قبض عليهم جميعاً في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرَّق إقطاعاتهم على هؤلاء(١)، وكانت هذه هي العادة المتَّبعة من قبل في الدولة ـ كما يقول المقريزي ـ من أن أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده(٢). ويضيف المقريزي قائلاً: وكان الرجل من جند صلاح الدين إذا استحسن داراً أخرج سكانها ونزل فيها بحيث أن معظم أهل القاهرة (أي مقر الخلافة) كانوا يبكون من الاستبداد(٣). وهذا الخبر سابق لأوانه لأنه إنما تم بعد موت العاضد وإلغاء الخلافة الفاطمية، وإخراج باقي أمرائها من قصور القاهرة، وفتح هذه المدينة لأمراء صلاح الدين ولجميع الناس بعد أن كانت حكراً على الأمراء الفاطميين، ويبدو أن صلاح الدين كان يغض الطرف عن ذلك ليخضد شوكة الجيش الفاطمي، وليأتي إلى القاهرة التي كانت حكراً للجند الفاطمي والغلمان والحرس بسكان جدد يأمنهم على نفسه وعسكره. وبهذا الشكل لم يبقَ من حول الخليفة الفاطمي من يتعصب له أو يحميه في قصوره.

ورافق ذلك كله وتبعه تدريجياً خطوات أخرى تتصل بالخليفة؛ ومنها:

ـ مصادرة مخصصات العاضد ومنعه من المال والخيل والرقيق، فلم يبقَ عنده سوى فرس واحد طلبه منه.

ـ منع رسوم الخلافة التي اعتاد الخلفاء القيام بها في الأعياد من الركوب في المواكب والجلوس العام للرعية في القصر الكبير.

ـ حجب الخليفة نفسه عن الناس ليعتادوا غيابه.

(١) المقريزي: الخطط ج ٢، ص ١٧٥ وج ٣، ص ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق: الخطط ج ٣، ص١٥٦.
(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٧٥.

ـ فتح القاهرة (وكانت مدينة خاصة بالخلافة) للناس يدخلونها ويخرجون كما يشاؤون ويبنون حولها.

ـ ألغى من نقش السكة كلمة (المعزية) بعد كلمة القاهرة!.

ـ خفض من قيمة (الخليفة) المعنوية أمام الناس بأن جعل العاضد يخرج لاستقبال أيوب والد صلاح الدين مع أهله؛ وكانت مكانة الخليفة عند الفاطميين تمثل ظل الله على الأرض.

كان صلاح الدين في هذا كله يدرك أنه يمشي في أرض مملوءة (بالألغام)، وعليه أن يسير بين بين وبمنتهى الحذر والتؤدة لئلا تأخذه مباغتة غير منتظرة. وكان اعتقاده مطلقاً وحاسماً بأنه إنما يقوم بما يقوم به لحسم نابتة الكفر ولمصلحة الإسلام والمسلمين؛ ولم تمضِ سنة على وزارته حتى كان قد شكَّل فرقة خاصة من الجند موالية له تدعى الصلاحية، وفيها استعان بالمماليك من الأتراك لإيجاد قوة بديلة في مصر يركن إليها في القطاع العسكري.

فيما كان صلاح الدين يقوم بهذه الخطوات لتصفية الجو الداخلي في مصر، وفي اعتقاده أنه يعمل على جعلها قوة إسلامية إضافية إلى الشام ودعماً لها، كان الفرنج قد امتلأت صدورهم بخليط من المشاعر هي بين الحسد والرعب والحقد، وعرفوا أن استقامة الأمر لصلاح الدين في مصر يعني تطويقهم وخراب مملكتهم والإمارات.

الدفاع عن دمياط:

وكان الفرنج قبل حملتهم الأخيرة على مصر وتخريبهم بلبيس وذبح أهلها أيام شاور، قد عقدوا اتفاقاً مع الامبراطور البيزنطي للهجوم على مصر التي وصفها الامبراطور ـ حسب قول وليام الصوري[١] ـ بأنها قد سقطت في أيدي

---

(١) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية.

جنس مخنث وضعيف، وأصبحت الشعوب المجاورة لها أيضاً مدركة لعجزها وضعف الحاكم (الخليفة) والأمراء فيها. ولما كان من المستحيل أن تستمر على حالها الراهن لفترة طويلة من الزمن.. فالامبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك (عموري) أن يخضعها لسلطانه بسهولة، وبسبب هذه المسألة أرسل مبعوثين من عنده للملك[١]. وقد وصلا إلى صور وقابلا الملك ثم عادا ومعهما وليام الصوري نفسه بوصفه بطريرك صور وحامل الجواب للامبراطور. وقد عاد إلى صور في تشرين الأول سنة ٥٦٤ هـ. وكان الملك عموري قد استبق الأمر وظن أن في إمكانه الفوز وحده بمصر دون إشراك بيزنطة معه، فقام بهجومه الفاشل على مصر والذي انتهى باستقرار شيركوه وصلاح الدين فيها. وهكذا عاد ينتظر الشريك البيزنطي، ويبدو أن أخبار مصر التي وصلت الامبراطور في القسطنطينية دفعته إلى نسيان غضبه على الملك عموري لخيانته العهد وتفرُّده ولإرسال الأسطول الذي وعد به، وكان الاتفاق معه يقضي بإرسال أسطول بيزنطي يجتمع مع الأسطول الصليبي في صور للهجوم على دمياط من البحر، واحتلال مصر وتقاسمها بين الملك والامبراطور، وهكذا وصل إلى صور أواخر شهر أيلول سنة ٥٦٤ هـ الأسطول البيزنطي.

«أرسله الامبراطور المتلهف والمهتم كثيراً باتفاقيته، تنفيذاً للمعاهدة التي كان عقدها مع الملك ولاقتراحنا ورغبتنا.. نفذها بجلالة امبراطورية وبسخاء كبير أكبر مما حَوتْه وعُودُه، وكان في هذه القوة البحرية مئة وخمسون سفينة حربية مجهزة بالمناقير وبصفوف مزدوجة من المجاديف. وتعرف هذه السفن باسم شواني[٢]. وكانت مصمَّمة للاستخدام خصيصاً في الحرب، وكان

(١) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية.

(٢) الشواني: سفن كبيرة من أصل مصري، وتسير بمئة وأربعين مجدافاً، وتُقدَّر حمولتها بمئة وخمسين جندياً، وهي في ذلك الوقت أهم القطع البحرية الحربية؛ وكانت تقام فيها أبراج وقلاع للدفاع، كما تُرمى منها النيران.

يوجد إضافة إلى ذلك ستون مركباً ضخماً جيدة التسليح صنعت لنقل الخيول وجهزت بفتحات كبيرة في مؤخراتها لتصبح أكثر ملاءمة لتحميل الحيوانات وتفريغها، وكان الأسطول يشتمل أيضاً على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى (درومونس)، تمَّ تحميلها حتى التخمة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع، كما تم تحميلها أيضاً بالأسلحة من كل صنف، بالإضافة إلى آلات الحرب ومعداته. . . وعين الامبراطور واحداً من أقربائه النبلاء يدعى (مايكل دوقاس) قائداً للأسطول، بمرافقة نبيل آخر يعتمد الامبراطور كثيراً على خبرته. . . وتقدم الأسطول بعد ذلك إلى عكا. . .»[1].

أمر الملك أن يتجمع الجيش بأكمله من الصليبيين والبيزنطيين في مدينة عسقلان في ١٥ تشرين الأول. . . وكان الأسطول قد أبحر من عكا قبل عدة أيام نحو مصر. وكان زحف الجيش بطيئاً لعدم إنهاك المشاة، ووصل بعد تسعة أيام إلى (العزما). وكان يريد متابعة الطريق الساحلي ولكن مياه البحر كانت قد غمرت الأرضين بسبب خراب السدود وشكَّلت بركة كبيرة، فأخذ الجيش طريق البر الطويل، ثم انتقل بالمراكب إلى دمياط تاركاً مدينة تنيس عن يساره حتى وصل دمياط أواخر أكتوبر، وعاقت الأمواج والرياح الأسطول فوصل بعده بثلاثة أيام. . وضرب الحصار على دمياط.

كانت هذه هي المرة الخامسة التي يغزو فيها الصليبيون مصر (ما بين سنتي ٥٥٨ وسنة ٥٦٥هـ). وكانوا يتمنون أن تكون هذه البلاد حليفة لهم أو حيادية على الأقل إن لم يكن بالإمكان احتلالها، وقد جاءتهم بيزنطة في هذه الحملة الأخيرة لتكون الشريك في اقتسام مصر (وهو حلم قديم من أحلامها الدائمة). ولم تؤدِّ هذه الحملات المجازفة إلى تقلص الموارد العسكرية والمالية لمملكة القدس فحسب، وإنما أدى فشلها إلى تغيير خريطة المشرق العربي بإلغاء الخلافة الفاطمية، وبقيام الجبهة الإسلامية الواحدة ما بين مصر

(١) وليام الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٩٣٨ ـ ٩٣٩.

والشام، وبانقلاب التوازن الذي قام في أواسط القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي ـ لمصلحة المسلمين، فكانت حطين من نتائجه.

كانت الحملة البحرية ـ البرية على ثغر دمياط قوية، وقد زودها النورمانديون من صقلية بعدة وافرة من أدوات الحصار والمجانيق التي تلقي بالأحجار وبالنار (النفطيّة) وبالدَّبَّابات التي تثقب الأسوار[1]، وعلم صلاح الدين بالهجوم فجعل أقصى همه وهو في القاهرة أن يمد الحامية في دمياط بالمدد لتستطيع المقاومة.

يقول وليام الصوري: «. . . أرجئ شن الهجوم. . . ومن الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزاً، لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لا يحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط، ودون أن يستطيع فعل شيء؛ فيما امتلأت المدينة حتى التخمة بعد أن كانت عملياً فارغة في وقت سابق، واتَّضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق مع أنها بدت لدى وصولهم إليها وكأنها لن تتمكن أبداً من الصمود أمام أول هجوم. . .»[2]؛ وهكذا شيد برج صخم يمكن منه الإطلال على المدينة، وشيدت آلات المجانيق لقذف الصخور الضخمة، ولحماية النقابين للأسوار، وحفر الأنفاق تحتها. ولكن المدافعين بنوا برجاً عالياً مقابل البرج الفرنجي وصاروا يقاومون بضراوة، واخترعوا كل الحيل للمقاومة، وبعد أن كانت المدينة مسكونة بأناس ضعفاء مسالمين جاهلين تماماً بفن الحرب. . . جاءتهم أمداد من المقاتلين (الشجعان) قاوموا هجماتنا؛ لا في المدينة نفسها ولكن خارجها»[3].

«وبدأت علائم الجبن واللامبالاة على المسيحيين بسبب تغير المعنويات،

---

(١) المقريزي: الخطط ج ١، ص ٣٤٧.
(٢) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٤١.
(٣) المصدر السابق، ص ٩٤٣.

نتيجة الخيانة أو الإهمال، وتصرف القادة تصرفات حمقاء في الحصار ووضع آلاته. ثم أضيفت محنة أخرى حين بدأ البيزنطيون يعانون من نقص المؤن، وكان زادهم من الخبز قد نفد تماماً، ولم يبقَ لديهم أي نوع من الطعام، فصاروا يوغلون في الحقول المجاورة بحثاً عن الطعام، وهطلت الأمطار بغزارة، وهبَّت الأعاصير العنيفة حتى امتلأت الأرض بالأوحال. وانتهز المدافعون فرصة هبوب رياح ملائمة فأرسلوا مركباً مملوءاً بالنفط فألهبوه بالنيران، وتركوه يندفع نحو سفننا المتجمعة، فحوصرت بألسنة اللهب والشرر المتطاير، فأُنقذ منها ما أُنقذ لأن مياه النهر كانت قريبة.. وخرجت على جند بيزنطة جماعة من المدينة ففتكت بهم، وهم جياع فصمدوا بصعوبة.. وبدأ التذمر بين الناس ورأوا أن الحملة فاشلة، فقبلوا مفاوضة بعض القواد الأتراك، ووافق البيزنطيون والفرنج على المهادنة؛ وأُعلن السلام على الفور بصوت المنادي»[1]، بعد حصار دام خمسة وخمسين يوماً.

وخرج المدافعون فاختلطوا مع خصومهم وتاجروا معهم بحرية كما يشاؤون، وانسحب الفرنج بجيشهم إلى الشام.. أما الأسطول فقد لقي مصيراً مشؤوماً وحظاً تعيساً؛ إذ هبت عليه حين تحرك عاصفة هائلة، وحطم الموج السفن على الشاطئ، كما أغرق بعضها؛ فلم يبقَ سليماً من الأسطول البيزنطي الضخم سوى بضع سفن بعضها كبير وبعضها صغير تمكنت وحدها من العودة.. وكانت نتائج الحملة ـ بعكس ما كان متوقعاً لها ـ فشلاً كبيراً[2].

وهذا الذي يذكره وليام الصوري هو وجهة النظر الصليبية وأعذارها للفشل، أما من الناحية الإسلامية فقد شبَّه ابن الأثير الفرنج بالنعامة التي ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين، والواقع أن الذي أنقذ دمياط من الاحتلال هو استماتة المدافعين عنها، وتواصُل الأمداد إليها من صلاح الدين الذي كان يسهر الليل ولا ينام النهار

(١) هذا من كلام وليام الصوري: ص ٩٤٣ ـ ٩٤٤ باختصار.
(٢) المصدر السابق نفسه.

خوفاً من تمركز الفرنج فيها، فكان يرسل العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدَّهم بالمال والسلاح والذخائر.. وتابع رسله إلى نور الدين يشكو له ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلَّفيه ومخلَّفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه. فجهَّز إليه نور الدين العساكر أرسالاً. كلما تجهَّزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً.. ثم سار نور الدين في مَنْ عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع[1].

وقال ابن شداد: إن الفرنج «قصدوا دمياط لتمكُّن القاصد إليها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه، فاستصحبوا المنجنيقات والدبَّابات والجروخ (آلة لرمي السهام والحجارة والنفط) وآلات الحصار... وشغل نور الدين قلوبهم بالنزول على الكرك، وبقصد فرنج الساحل»[2].

أما صلاح الدين «فبالغ في العطايا والهدايا والهبات يعطيها من ماله ومال الدولة ومال الخليفة، وأخرج منها أموالاً لا تحصى.. وبعث من يناوش المحاصرين الفرنج من وراء ظهورهم، وهو في القاهرة يراقب في الوقت الذي يدبر به سبل الإمداد والدفاع، ويحرك الأعراب ويرسل الأسلحة والمؤن والجند.. وكان من جملة من أرسله إلى دمياط تقي الدين ابن أخيه فدخلها وخاله شهاب الدين محمود فنزلها. وأنهض عسكراً ثقيلاً مع قطب الدين خسرو الهذباني ـ وكان مقداماً ـ. فوقع روعه من الكفر في كل روع». «وكان لا ينام ولا ينيم لكثرة ما اغتم واهتم واستصعب الملمّ»[3].

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٨.
(٣) المصدرا لسابق، ص ٤٥٦ و٤٥٧.

تأمين الطريق بين الشام ومصر :

وكان قد ورد قبل هذه الواقعة كتاب من العاضد إلى نور الدين بالاستقالة من الأتراك خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح الدين وأزلامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يهنِّيه بهزيمة الفرنج، كما كتب إليه: «يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك (والقنطارية نوع من الرماح الخشبية بأسنَّة حديد)، فإن الفرنج لا يُرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى مضافاً إليه نعمه التي لا تحصى[1]. وأكدت معركة دمياط سداد كلمة نور الدين ومكانة جيشه في مصر.

وبدا صلاح الدين بعد الهزيمة المزدوجة للجيشين الفرنجي والبيزنطي على دمياط كأنه رجل الساعة والمنقذ، وثبتت عملياً كفايته. وإذا كان هذا النصر قد أرعب الجماعة التي ما تزال على الفاطمية منه في مصر، فإنه بالعكس قد شدَّد من عزيمته على المضي في سياسته معتمداً على السمعة التي نالها من جهة، وعلى يده المطلقة في الحكم وفي الجيش التركي حوله. ويبدو أنه كان أول الأمر يداري أعداءه وحساده والذين لا يرون بقاءه، ثم لما وثق من قوته اتخذ مختلف التدابير لتسيير البلاد حسب الخطة السياسية التي رسمها؛ شاء (فاطميو الهوى) أم لم يشاؤوا، فإنها متصلة بعقيدته الدينية: وهي إلغاء الخلافة الفاطمية.

كان صلاح الدين يرجو السرعة في ذلك، كما كان نور الدين يلح عليه في الأمر نفسه، ومن ورائه إلحاح الخليفة العباسي في بغداد؛ لكن صلاح الدين كان أكثر رصانة وحرصاً من أن يتسرع، وهزيمة مؤتمن الدولة والجند السوداني والمصري معه، ثم هزيمة الصليبيين على دمياط لم تطمئنه بما

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٦٠.

فيـه الكفايـة. ولـم يكن نور الدين ولا الخليفـة العباسي في صورة الوضع المصـري، وهكذا بدأ نـوع من الفتـرة بينه وبين سـيده في الشام، فيما كان صلاح الدين يفكر في أمرين:

الأول: فتح الطريق حرة بين الشام ومصر من التهديد الفرنجي لضمان تحرك التجارة بين القطرين ومرور الفرق العسكرية.

الثاني: ضمـان عدم انقـلاب المصـريين عليـه، وفيهم آثار واضحة من الولاء للخليفة الفاطمي، وإن كانوا قد أعانوه كثيراً جداً أيام غزوة دمياط...

لهذا اختـار أولاً أن يطهر الطريـق إلى الشـام، ويبدو أنـه اختار طريق الساحل الذي أغلقه الفرنج باحتلال عسقلان. ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م هاجم غزة وتقدم لحصار (الداروم) وهدم بعض سورها، وأوغل في المنطقة حتى قارب الرملة. ولكنه لم يفتح أي بلد بل كاد يأسر ملك القدس الذي استجار صاحب الداروم به[(١)]. ونهب (أرباض غزة)، ثم عاد للانسحاب بعد أن هاجم مابين الرملة إلى عسقلان نفسها.. وكان لهذه الغزوة عدة معانٍ: فقد كانت أول خروج من مصر للجهاد، كما كان من الضروري إظهار القوة للفرنج بعد هزيمتهم في دمياط، بالإضافـة إلى تحذيرهـم من التعرض للقوافل التجارية الإسلامية بين مصر والشام، وتحذير الأعراب في جنوب فلسطين ـ في الوقت نفسه ـ من التعرض للتجار وقطع المرور والنهب كلما سنحت لهم الفرصة، وبخاصة في فترات الغزو الفرنجي لمصر.

ولم يقنع صلاح الدين بأنه وصل إلى النتائج الإيجابية التي يرجو من هذه الغزوة، فقد عاد في السنة نفسها ـ سنة ٥٦٠ هـ ـ بعد ثلاثة أشهر، فاختار الطريق الصحراوي المؤدي إلى مدينة أيلة (العقبة) وفتحها، وهي مفتاح الطريق إلى الحجاز والحج بالإضافة إلى التجارة. وقد بنى السفن قِطَعاً ونقلها على

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٦٥.

الجِمال والخيل إلى أيلة وطوَّقها براً وبحراً حتى سقطت. وإذا كانت حملة الداروم مجرد عرض عضلات ومظاهرة قوة فقد كانت الحملة التي تلتها فوراً، حملة تأديب ناجحة ضد الفرنج وضد البداة الناهبين الذين كثيراً ما كانوا يعملون أدلَّاء وجواسيس للفرنج.

أما الأمر الثاني وهو ضمان ولاء الناس في مصر: فقد ادَّخره لما بعد إلغاء الخلافة الفاطمية، واتخذه بعد ذلك سياسة دائمة وهو إلغاء المكوس والضرائب عن الناس؛ ولكنه خلال ذلك كان ينثر العطايا بسخاء ويظهر العدل ويُنهي المظالم، مما أسكت الكثير من أعداء الحكم الشامي ـ النوري في مصر.

إلغاء الخلافة الفاطمية :

ولم يجد نور الدين من عذر لصلاح الدين بعد أن صار قويَّ المركز، في تأجيل المطلب الأساسي، فبعث (في شهر حزيران ١١٧١ م) بأمر رسمي له باتخاذ الخطوة الحاسمة وإعلان الخلافة العباسية في مصر، وأبلغ الخليفة العباسي في بغداد ذلك.

ونفذ صلاح الدين الأمر (في أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ هـ/ سبتمبر ١١٧١ م)، وقصة هذا الإلغاء يجعلها بعض المؤرخين ذوي العواطف الفاطمية قصة مأسوية، ولكنها تمَّت بكل هدوء وبساطة بين صمت هؤلاء وترحيب أهل السنَّة في مصر، وضجيج الشام، وأفراح بغداد وزيناتها، وضرب الطبول ونشر الرايات ونثر الدنانير.

وكان العاضد قد مرض مرضاً شديداً واشتدَّ مرضه فلم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه (بما تم من) قطع الخطبة له، وقالوا: إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته. فتوفي في يوم عاشوراء (يوم استشهاد الحسين) ولم يعلم بقطع الخطبة. «وكان الخطيب في الجمعة الأولى رجلاً أعجمياً ادَّعى أنه نسي اسم الخليفة العباسي، فلم يدعُ له؛ لكن

الخطبة في الجمعة التالية كانت للمستضيء»[1]. ويظهر فرح نور الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية واضحاً في المنشور الذي أمر بأن يقرأ على المنابر في جميع المدن والقرى بمملكته وفيه:

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا. . من إقامة الدعوة العباسية بجميع المدن والأقطار والأمصار المصرية»، والإسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف. . . وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، يفتخر به على الأزمنة التي مضت. . . وما زالت هممنا إلى مصر مصروفة. . . حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها. . . وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين مموَّلة بحزب الشياطين. . . حتى أذن الله لغمَّتها بالانفراج. . (بعد أن) اجتمع (عليها) داءان: الكفر والبدعة ـ يقصد الفرنج والمذهب الفاطمي ـ فملَّكنا الله تلك البلاد، ومكَّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض ومن إقامة الفرض. وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة. . . ويقيم الدعوة العباسية هنالك (ويُورد) دعاة الإلحاد بها المهالك»[2].

وقد مهَّد صلاح الدين للأمر بتدابير احترازية، فقد وضع في الليل على كل أمير فاطمي جماعة من أمراء الشام كمنوا له حتى إذا خرج في الصباح أُحيط به، وجرى الاستيلاء على داره وسلاحه وذخائره. فلما تم ذلك وعلم العاضد أخبروه أنهم أمراء عاصون وسيعوض بهم من هم أكثر إخلاصاً. وفي خطبة الجمعة الأولى بعد ذلك لم يذكر اسم الخليفة العباسي فيها بل اسم نور الدين وصلاح الدين. وفي الجمعة التالية كان العاضد قد توفي قبل أربعة أيام دون أن يعلم بما يدبر، فخطب للخليفة العباسي المستضيء بالله. وقد أثار موته مختلف الأقاويل؛ فمن قائل: إنه سُمَّ، ومن قائل: إنه سمَّ نفسه، ومن قائل: إنه اغتم

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٦٩.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٠٢.

فمات، أو أن الطبيب امتنع عن مداواته فمات. والمراجع الفرنجية تتهم توران شاه بقتله. وقد مات وعمره ٢٣ سنة.

وكلها شائعات ماتت في مهدها لأن أحداً لم يهتم بوجود العاضد المريض أو زواله، ولم يعترض معترض على هذا الانقلاب في التاريخ الإسلامي؛ لأن الخلافة الفاطمية كانت (الرجل المريض) في الجبهة الإسلامية ضد الفرنج.

على أن ابن الأثير يتهم صلاح الدين بأنه لم يكن يريد ذلك «وكان يريد بقاء الخلافة الفاطمية خوفاً من نور الدين. فإنه كان يخاف أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه، حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه.. واعتذر صلاح الدين فلم يقبل نور الدين عذره.. وألزمه إلزاماً لا فسحة في مخالفته...»[1].

غير أن هذا الاتهام لا يقوم على ساقين:

أولاً: لأن تحطيم القوة الفاطمية سبق إلغاء الخلافة وهو عمل تمهيدي أساسي لذلك.

ثانياً: لأن صلاح الدين خرج بنفسه لتأمين الطريق مع الشام قبل ذلك.

ثالثاً: لأن الصلاح نفسه لم يبدر منه أي بادرة تمرد على أوامر نور الدين.

رابعاً: لأن الصلاح كان عباسي الهوى ولم يمل مع الفاطميين في سياسته وعقيدته السنية. بل مصالحه الشخصية تمليان عليه الخلاص من الفواطم، الفرق بينه وبين نور الدين أنه كان في الموقع وكان يفضل الحذر والتربُّص.

خامساً: لأن أعمال صلاح الدين بعد إلغاء الخلافة الفاطمية كانت سلسلة واضحة لموقفه:

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.

- فقد بعث ببشارة الإلغاء إلى نور الدين الذي أبلغها برسول خاص إلى بغداد، وقرئت في مختلف المدن والقرى. وبعث صلاح برسالة بمثل ذلك من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة، وتقبَّل مع نور الدين الخلع التكريمية والسيف المجوهر من الخليفة، فلبسها وشق بها حارات القاهرة.

- نصبت على منابر القاهرة ومصر الأعلام السوداء شعار العباسيين.

- لبس الخطباء الثياب السوء وأجبر صلاح الدين رجال الدولة وأعيان المصريين على حضور الخطبة للخليفة العباسي ونور الدين بعده.

- ضرب العملة باسم الخليفة المستضيء وباسم نور الدين فقط على الوجهين.

- عزل قضاة مصر الفاطميين، واستنابة القضاة الشافعيين بدلاً عنهم على سائر البلاد، وتعيين صدر الدين ابن درباس قاضياً لقضاة الشافعية ووزيراً للديار المصرية.

- هدم دار المعونة وهو السجن، وجعله مدرسة للشافعية؛ وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية.

- إزالة جميع مظاهر المذهب الفاطمي كالأذان بحي على خير العمل، وإحلال تدريس السنَّة بدل تدريس الدعوة.

- إثارة قضية التشكيك بنسب الفاطميين حسب الادعاء العباسي.

- وأخيراً ألقى صلاح الدين بوسيلته السياسية الأخيرة؛ يقول ابن أبي طي: «وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مئة ألف دينار. وما يستخرج بالأعمال القِبلية والبحرية مئة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك. وأمر بكتابة سجلٍّ به من ديوان الإنشاء وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر. وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لمدة سنين متقدمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمئة،

فكان مبلغه ينيف على ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلَّة، فسامح في جميع ذلك، وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين. وأُنهي إليه ما يستأدي من الحُجَّاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره وعوَّض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها...»[1].

وأما صورة المنشور الذي أصدره صلاح الدين؛ فقرئ على المنابر في ٣ صفر سنة ٥٦٧هـ، فيقول فيه بعد حمد الله: «فالبشائر في أيامنا تترى شفعاً ووتراً، تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع.. ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها ونطهر منها مكاسبنا، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، وخرج أمرنا بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليهما، وإلى ساحل المقس المينا بأبواب المكوس صادرها وواردها، فيردُ التاجر ويسفر ويقارض ويتَّجر براً أو بحراً، مركباً أو ظهراً، سراً أو جهراً، لا يحل ما شده، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يستوقف في طريقه (وقد كان الرحالة ابن جبير الأندلسي قد شكا من ذلك كل الشكوى يوم قدم الإسكندرية)، ولا يستباح له حرمة؛ والذي اشتملت عليه المسامحة من العين مئة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل، ومن عارضها ردت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن أحلَّها حل دمه، فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل من الأمر...»[2].

والمنشور عملية سياسية بارعة لاسترضاء جماعات الناس، ويقال: إن

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٤٣.
(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١، ص ٢٠٥.

نور الدين هو الذي أمر به، ويتضمن ثلاث نقاط هامة: رفع المكوس عن جميع التجارة بما في ذلك التجار الأجانب. وحرية التجارة الكاملة، تحت طائلة الإعدام للمخالف، وقد أضاف صلاح الدين أنه جلس للعزاء بالخليفة الراحل تألفاً لقلوب الناس.

تصفية الوضع الفاطمي :

وكان طبيعياً بعد ذلك أن يتخذ بعض التدابير الأخرى، فاستولى على قصر الخلافة ـ وإن لم يسكنه ـ وعلى جميع ما فيه، فحفظه مملوكه بهاء الدين قراقوش، وحمل ما فيه من مدخرات الفاطميين وذخائرهم وتحفهم وأسلحتهم وألويتهم إلى صلاح الدين[1]. وكانت من كثرتها تخرج عن الإحصاء وفيها من الأعلاق النفيسة ما تخلو الدنيا منه كحبل الياقوت ووزنه ١٧ درهماً، والنصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير. وآلاف السيوف المحلاة بالجوهر، والرماح الذهبية، وعمائم الخز وملابس الحرير، وألوان المصوغات، وقضيب الخليفة، وهو بطول شبر ونصف مرصع بالدر والجوهر وملبَّس بالذهب، واليتيمة وهي الجوهرة التي توضع على وجه عمامة الخليفة ولا تقدر بثمن. ومن حولها الياقوت الأحمر. هذا عدا الجواري والعبيد وعددهم ثمانية آلاف».

وكلام ابن أبي طي عن هذه الكنوز الفاطمية يوهم بأن صلاح الدين احتجزها لنفسه، لكن العماد الأصفهاني يذكر بوضوح وهو كاتب نور الدين (قبل أن يلتحق بصلاح الدين) «أن صلاح الدين لم يستلم شيئاً من تلك الأموال، وأنه وزَّعها جميعاً على العساكر بعد أن أرسل الثمين منها إلى نور الدين»[2]. كما أنه

(١) يمكن الاطلاع على تفاصيل هذه الكنوز الفاطمية في كتاب (الذخائر والتحف) المنسوب خطأ لابن الزبير الأسواني (طبع الكويت ١٩٦١).

(٢) البنداري سنا البرق: ج ١، ص ١٢٣.

لم ينتقل من بيته ـ بيت الوزارة ـ، وأعطى قصور الخلافة لأمراء الجيش.

«وكان كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك أَنْهَبَها ولا يبقي لنفسه شيئاً»[1].

أما مكتبة القصر وكانت في أربعين حجرة فيه ضمن خزائن مرتبة، فقد عهد بها صلاح الدين إلى كاتبه القاضي الفاضل ليتلف منها ما احتوته من كتب المذهب الفاطمي وعقائده، ثم قد بيعت للناس بعد ذلك بسنوات في يومين من كل أسبوع. وأعطى الكثير منها للقاضي الفاضل نفسه. وأصحاب الهوى الفاطمي يقولون: إنها كانت تحوي مليوني مجلَّد و٦٠٠ ألف، وهو رقم مبالَغ فيه جداً، وهو لا يزيد على مئة ألف.

ولا شك أن هؤلاء أنفسهم لم ينظروا بعين الرضى إلى احتجاز أهل البيت الفاطمي جميعاً، وفصل الذكور منهم عن الإناث لئلا يتزايدوا، و«ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم»[2].

ويقدرون عددهم بأكثر من مئتين، ويقال: إنهم استمروا معتقلين زمن الأيوبيين حسب رواية المقريزي[3]. ولنلاحظ أن هذا الأمر لم يكن زمن صلاح الدين فيما يبدو، لأن أبا شامة يذكر في موضعين لقاءه مع بعض أهل البيت الفاطمي ومنهم ولي العهد؛ لقيه سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م شخصياً.

فقال: أخبرَني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ـ وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمئة، وهو محبوس مقيَّد بقلعة الجبل بمصر ـ أنَّ أباه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: «وأحضرنا يعني أولاده وهم جماعة صغار فأوصاه

(١) ابن شداد: ص ٤٥.
(٢) أبو شامة: ج ٢.
(٣) المقريزي: الخطط ج ٢، ص ٣١٦ و ٣٩٤ ـ ٣٩٦؛ في الطبعة القديمة: ج ١، ص ٤٩٦.

بنا؛ فالتزم إكرامنا واحترامنا رحمه الله. وأما ندم صلاح الدين؛ فبلغني أنَّه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض؛ وقال: لو علمت أنَّه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت!...».

لكن ابن أبي طي على طريقته يقول: «ولما اشتدَّ مرض العاضد، أرسل يستدعي صلاح الدين، فظنَّ أنه خديعة، فلم يمضِ إليه. فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه».

ويضيف أبو شامة: «قلت: أخبرني أبو الفتوح في دار برجوان المنسوبة إليه بالقاهرة ـ وهي دار كبيرة واسعة ـ. كان عيشهم فيها طيباً، ثم نُقلوا بعد الدولة الصلاحية وأبعدوا عنها...».

وقال العماد ـ في البرق الشامي الذي كتبه بعد وفاة صلاح الدين ـ: «وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش ـ مملوك صلاح الدين ـ يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره. وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان. وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا...».

وقال العماد: «وجلس السلطان للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ العناية في إجمال أمره والتوديع له إلى قبره...»[1]. «ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكَّل لحفظهم. وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر ـ قصر الخلافة ـ وجعل عندهم مَن يحفظهم، وأخرج مَن كان بالقصر من العبيد والإماء... وأخلى القصر من سكانه»[2].

ويقول أبو شامة في موضع آخر عن أمر المكتبة في القصر: «... كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد»[3].

(١) انظر هذا كلّه لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٩٣.
(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٠٧.

حكاية الجفوة:

وأرسل صلاح الدين هدية عظيمة من الكنوز الفاطمية إلى نور الدين بدمشق. غير أن ابن أبي طي المؤرخ يقول: «إنه بعد أن شكره قال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال.. فهو يعلم أنه ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا فقر إلى الذهب.. فاستنزره وما استغزره»[1]. ويستنتج بعض الباحثين من ذلك أن نور الدين مستوحش من صلاح الدين وأنه يحتقر هديته. وابن أبي طي متهم في موقفه العدائي من صلاح الدين وهو يروي هذه الرواية نقلاً عن أبيه دون سند آخر، وكان الأب من رؤوس الشيعة بحلب فنفاه نور الدين[2].

وهو يشترك في التفسير السلبي السَّيِّئ لمواقف صلاح الدين مع ابن الأثير، ولم يذكر قصة الوحشة الشديدة بين الرجلين سوى هذين المؤرخين: صاحب الولاء الزنكي الموصلي المعادي لصلاح الدين، وصاحب المذهب الشيعي، وعنهما نقل المؤرخون الآخرون النصوص بألفاظهما مع اختلاف في الإيجاز والإطناب. وقصة هذه الوحشة ليست في أساسها مخترعة، ولكنها اختلاف في وجهات النظر بين الشخصيتين: فنور الدين يعتبر الشام أرض المعركة الرئيسية مع الفرنجة، ويتطلَّع إلى مصر كمصدر للواردات لسد تكاليف الجهاد، ومصدر للطاقة البشرية المساندة، ولإحكام الطوق عليهم. لكن ابن الأثير يدخل من هذا الباب ويروي رواية تجعل من صلاح الدين رجلاً بسيط العقل، مخادعاً، ومن نور الدين نفسه ساذجاً يُخدَع بسهولة. وملخص الرواية يقول:

«هذه السنة ـ سنة ٥٦٧ هـ ـ جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين **ولم يظهر ذلك**. وكان سببه أن صلاح الدين.. سافر عن مصر في

(١) انظر البنداري: سنا البرق ج ١، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) أبو شامة: ج ١، ص ١٧٤.

صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن **الشوبك** وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيَّق على من به، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام؛ فأجابهم إلى ذلك، فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى»[١]، وهذا يعني التعاون لا الوحشة بين الاثنين. ويذكر وليام الصوري أن موقع القلعة كان في موقع شديد الانحدار والارتفاع، لا يمكن للآلات الحربية أن تستعمل فيه ولا الأقواس، وأنَّ سكان البلد جميعاً مسيحيون، وكان ممكناً الاعتماد عليهم، وعلاوة على ذلك كانت القلعة مزوَّدة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن، وبحامية كافية من الجنود للدفاع[٢]، وكان ملك الفرنج قد خرج بجنده يرود ما بين (الداروم) و(عسقلان). وخشي صلاح الدين قطع طريق العودة عليه إلى مصر، وذلك طبيعي لو استمر في الحصار، فرفعه وعاد بسرعة إلى الأراضي المصرية.

لكن ابن الأثير ينتهزها فرصة ليقول: إن صلاح الدين (هرب) من نور الدين ولقائه، ويجعل ذلك وحده مبرراً لتركه حصار الشوبك، وفي نصّه أنه: «**قيل** لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال؛ أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها ـ أي مناطق الفرنج المحتلة ـ، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم، لم يبقَ بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين إليك وأنت ها هنا فلا بد من الاجتماع به، وحينئذٍ يكون هو المتحكِّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر **ولم يأخذه الفرنج**. وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلَّف بها فيخرجوهم

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٢) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٦٤.

وتعود ممتنعة. . وأطال الاعتذار. فلم يقبلها نور الدين منه وتغيَّر عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه منها. . . »[1].

ولو صحَّت هذه الرواية التي تبدأ بكلمة: (قيل) وهي من الأقاويل، فما الذي كان يمنع نور الدين من المسير إلى مصر، وجند صلاح الدين هم بعض جنده؟ ويفضح النص نفسه بما يخفيه ابن الأثير بقوله: «ولم يأخذه الفرنج» وهذا يعني أنهم كانوا يتربَّصون به، وأنه نجح في تفاديهم.

وأما الاعتذار بأن وثوب الجماعة الفاطمية في مصر، فلم يكن كذباً فابن تَغْري بَرْدي يذكر مدى حزن المصريين لانتهاء الدولة الفاطمية قائلاً: «إن نفوسهم كادت تزهق حزناً لزوالها».

ويعدد الباحثون الأسباب بأنها نبهت إلى مركز مصر في الإسلام وجعلتها دولة متبوعة لا ولاية تابعة، وأنها اعتمدت في أعمالها على المصريين، وكانت أيامها أعياداً متصلة ما تزال آثارها في مصر إلى اليوم في التقاليد والملابس والاحتفالات، وأنها كانت للذميين كما للمسلمين. وسُكَّت الدنانير باسم مصر، فهي (دولة المصريين) كما يسميها أبو شامة[2]. وأهم من هذا أننا سنرى للفاطميين انتفاضة مقبلة واسعة، لعبت المصادفة دورها في كشفها. ومع ذلك فإن ابن الأثير يتابع روايته قائلاً عن عزم نور الدين على قصد مصر: «. . . وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٧٢؛ ويذكر ابن شداد في النوادر السلطانية أن صلاح الدين إنما بدأ بالشوبك والكرك لأنها كانت أقرب إليه في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج (صلاح الدين) هو بنفسه يُعْبِرُها بلاد العدو. فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة (ص ٢٦).

(٢) أبو شامة: ج ١، ص ٢٢٠.

إليه، واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال (وهو معروف بالتهور): إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد. ووافقه غيره من أهلهم. فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه. وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى. والله لو رأيتُ أنا وخالك هذا نور الدين لم يُمْكِنّا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا. فإذا كنا نحن هكذا فما ظنُّك بغيرنا؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوَّابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا. والرأي أن تكتب كتاباً مع (نجاب) تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك. وما ها هنا من يمنع عنك...

وتفرَّق الأمراء على هذا، فلما خلا به أيوب قال له: بأي عقل فعلت هذا، أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذٍ لا تقوى به. وأما الآن، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أُقتل. ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده، واشتغل بغيره. فكان الأمر كما ظنه أيوب، فتوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد...»[1].

والواقع الذي جرى ذكَره صلاح الدين بنفسه لصديقه ابن شداد الذي قال: «ولقد حكى لي السلطان، قال: كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف ويخالف ويشق عصاه

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

ويلقى عساكره بمصابٍ يردُّه، إذا تحقق قصده. وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يُقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته..»[1].

ويتَّضح من هذا أن الرجلين كانا على علاقة من الثقة وطيدة، وأن أصحاب نور الدين كانوا يوسوسون إليه، وهو يعلم بطوية صلاح الدين، فيسكت، وكان أصحاب صلاح الدين يجيبون فيما بينهم على شائعات التحدي، فتنتقل والسلطان بدروه صامت لعلمه بمنزلته لدى نور الدين. وما كان لهذا الرجل الذي بذل ما بذل من المال والجند والجهد لمعونة صلاح الدين وإلى ما يريد من ملك مصر، ثم يكون من الحماقة بحيث يهدم بيديه ما بنى وأقام في حرب تمزق الجبهة الإسلامية.

ولا بد أن نضيف هنا أمراً هاماً هو ما ذكره سبط ابن الجوزي عن دوافع الحملة على الشوبك؛ إذ قال: «وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين»[2]. فعمل صلاح الدين على تمزيق تجمعاتهم، وسيَّرهم إلى الشام أملاً في الوصول إلى حل جذري لمشكلتهم، وعدم عودتهم إلى الجنوب مرة أخرى؛ وكتب إلى نور الدين يرغبه في منحهم الأراضي ليستقروا فيها. وقد حفظ لنا العماد الأصبهاني في البرق الشامي نص الكتاب، وهو من إنشاء القاضي الفاضل، وقد جاء فيه: «...وأكبر الأسباب المعينة على ما يروم من هذه المصلحة (أي محاربة الصليبيين) أن لا يبقى في بلادهم من العربان، وأن ينقلوا من ذلّ الكفَّار إلى عزّ الإيمان. ومما أجتهد فيه غايةِ الاجتهاد: ترحيل كثير من أنفارهم

(١) سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان: ج ٨، قسم ١، ص ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق: ج ٨، قسم ١، ص ٢٩٣.

والحرص على تبديل ديارهم. ولو كان هؤلاء العربان يرغبون في الديار المصرية لكان يجعل كلهم، ويسوق كلهم؛ ولكن هواهم في الشام... ولو أن المولى خلّى لهم إقليماً، وأقطعهم إقطاعاً عظيماً ليقطعهم عن الكفر وبلاده ويبعدهم من تكثير سواده؛ لكان في ذلك قد أحسن فعلاً وحمل عن المسلمين ثقلاً...»[1].

ولو كان صلاح الدين هارباً من (مولاه) نور الدين ومغضباً له؛ لما أرسل إليه هذا الكتاب، ولما اهتم هذا الاهتمام بتطهير الطريق بين الشام ومصر، من هذه الجماعة النهّابة المتجسّسة المتعاونة مع الصليبيِّين.

وأخيراً: فالروايتان اللتان رواهما ابن الأثير عن صلاح الدين ونور الدين سواء في الأقاويل عند قلعة الشوبك، وقرار نور الدين المسير إلى مصر؛ أم رواية ما جرى في مجلس الأمراء بمصر، وحديث الأب أيوب لابنه بعد ذلك، وقرار نور الدين بترك صلاح الدين ـ يسيء عملياً إلى الرجلين معاً؛ من حيث يريد الراوية ابن الأثير أن يظهر عقوق صلاح الدين وكرم صاحبه نور الدين:

ـ فصلاح الدين عند الشوبك يقال له ويوهم بأن نور الدين سيأخذ مملكة القدس، ثم يأتيك ولا تستطيع لقاءه، فالأفضل الهرب، فيصدق ذلك ويهرب. وتكون ردة فعل نور الدين على هذا الهرب ردة أحمق سريع الغضب! ولم يكن صلاح الدين أبداً بذلك الغرّ الساذج الذي يصدق كل ما يُقال. ولا كان نور الدين أبداً بذلك المتسرع الذي يقرر لأول بادرة بعدم الطاعة أن يسير إلى مصر ويُخرج صلاح الدين منها!.

ومن جهة أخرى يبالغ ابن الأثير جداً بإظهار مهابة وسطوة نور الدين على أمرائه، ولم يُعرف ذلك عنه. ويجعل من أيوب ماكراً خبيث الطوية بعكس ما تصفه به المصادر من التقى والورع والاستقامة، وأخيراً يجعل من

---

(١) البنداري: سنا البرق ج ١، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

صلاح الدين مرة أخرى ساذجاً إمعة؛ تديره الأقاويل. ويجعل من نور الدين رجلاً أكثر سذاجة بحيث يقبل ويصدق ببساطة ومرة واحدة كلام صلاح الدين فيقرر عدم قصده. وهو رجل الدولة الراجح العقل الذي يدير المنطقة كلها على أصابعه، والموصوف بأنه ذكي ألمعي فطن لا تشتبه عليه الأحوال ولا يتبهرج عليه الرجال[1]. ولنا أن نفترض صحة ما نقله ابن الأثير عن مجلس الأمراء؛ فهل كان هو نفسه شاهد الحديث السري الذي جرى بين الأب وابنه في خلوتهما؟ ومن ذا الذي روى له الحديث، وأن «الأقدار تعمل عملها»، أي انتظر موت نور الدين؟ وقصة مقاتلته على قصبة من قصب السكر؟ وهل كان صلاح الدين أو أبوه من السذاجة بحيث يذيعان هذا الحديث؟.

الواقع أن الخلاف بين وجهتي نظر نور الدين وصلاح الدين يتصل بالأموال التي كان صلاح الدين ينفقها في مصر من وارداتها لضمان ولاء الناس له، في حين كان نور الدين يحتاجها للإنفاق على جنده ومعاركه مع الفرنج في الشام. وقد عرف صلاح الدين ذلك فعاد يتحرك ضد الفرنج في الجنوب. ولو كانت الوحشة بالشدة التي يصفونها بين الرجلين، لما اتفقا على «قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما من جهة بعسكره»[2]. وفي شوال من سنة ٥٦٨هـ رحل صلاح الدين من مصر بعساكره جميعها مسرعاً يريد حصن الكرك على الفور لأن طريقه أصعب وأبعد وأشق..»[3]. ولو كان كتابه الذي أرسله إلى نور الدين من قبل رياءً لما تحرك ولأبدى الاعتذار سلفاً، ولكنه وصل قرب الحصن بعد أن اتَّفق مع نور الدين على موعد معلوم للقائه. وصله الخبر بمرض أبيه مرضاً شديداً، فعاد إلى مصر، وكان نور الدين قد اتَّجه إلى الكرك وقاربه، فأرسل صلاح الدين إليه الفقيه (عيسى الهكاري) يبسط عذره:

(١) أبو شامة فيما ينقله عن العماد: ج ٢، ص ٥٢٤.
(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٩٢.
(٣) المصدر السابق: ج ١١، ص ٣٩٣.

١ ـ بأنه «كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه علم بأنه مريض شديد المرض، وقد خاف أن يحدث عليه حادث الموت، فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجلُّ عن الوصف»[١].

٢ ـ بأنه كما ذكر وليام الصوري خشي مقابلة الملك الفرنجي الذي جاء بجيشه إلى الجنوب يطارده، ونزل يقطع الطريق عليه عند بلدة الكرمِل ـ وهي بلدة في شرق وادي عربة ـ بعد أن دمَّر صلاح الدين المنطقة وأحرق ما حول قلعة الكرك، وقطع الأحراش والكروم، ودمَّر القرى. وهو ما لم يذكره ابن الأثير ولا غيره.

«وقد لقي في تلك السفرة شدَّة، وعَدِم خيلاً وظهراً وعدة» (وكان اعتماده في الحركة في الصحراء على الخيل للسرعة)؛ وذلك ما يرويه العماد الأصفهاني[٢].

والهامُّ هنا هو مبادرة صلاح الدين بالاتفاق مع مولاه، وسرعةَ تلبيته ومسيره الفوري إليه «لأنَّ طريقه أصعب وأبعد وأشقّ». أمَا كان بإمكانه التلكُّؤ والتعلُّل بصعوبة الطريق وبُعدِه ومشقَّته؟ وقبل ذلك أما كان بإمكانه الزوغان وعدم الاتفاق على اللقاء عند الكرك مع مولاه؟.

على أنَّ الذي يقطع باختلاق ابن الأثير لقصة الاتفاق على اللقاء عند الكرك وهرب صلاح الدين عند اقتراب نور الدين منها هو ما قرَّره ابن الأثير نفسه في الفقرة التي تسبق هذه الفقرة نفسها في كتابه (الكامل)، فهو يذكر بوضوح أنَّ نور الدين كان **في أوائل ذي القعدة وما بعدها في مرعش، ثم ملاطيه وسيواس وأقصرا** ـ في الأناضول الأعلى ـ وأنَّ صلاح الدين خرج إلى الكرك في شوال وعاد عنها في ذي الحجّة. فكيف يلتقيان؟ وأين قصة الهرب؟. ومن الغريب أن ابن الأثير لم

---

(١) ابن الأثير: ج١١، ص٣٩٣؛ وانظر أبي شامة: ج ١، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٢) البنداري: سنا البرق، ج ١، ص ١١٨. وانظر قبله وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٦٤ ـ ٩٦٥.

ينتبه لذلك؛ لأنَّ رغبته فيما يبدو بإظهار صلاح الدين تحت ضوء أسود، وفي مظهر المذعور والمستريب بنوايا نور الدين ـ أملت عليه هذا الاختلاف دون أن ينتبه فيما رواه هو نفسه في الفقرة السابقة له.

فقصة ابن الأثير إذن مختلقة من أساسها. ومن المؤسف أنَّ معظم المؤرخين، حتَّى المحدَثين، ردَّدوها دون تدبُّر على أنَّها من أهم أسباب الجفوة الموهومة!.

وبجانب هذا فإن صلاح الدين عاد فوجد أباه قد مات فعلاً، والمؤرخون يذكرون أن موته كان نتيجة وقوعه عن فرسه كما يروي ابن الأثير، وما الذي يمنع أن يكون مريضاً يلعب الكرة والصوالجة على الفرس ـ وهو فارس عريق ـ أن يقع عنها لمرضه الشديد؟؟! كان ذلك في ٢٧ ذي الحجة. فوصل صلاح الدين بعد ذلك، أي أنه قضى ثلاثة أشهر بين ذهاب إلى الكرك وعودة، وهذا يعني أنه انتظر طويلاً وصول نور الدين المزعوم قبل أن يعود. وقد علَّق نور الدين على ذلك قائلاً: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها. لكن ابن الأثير يعلِّق قائلاً: «عظم عليه الأمر وعلم المراد من العودة إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً..»[1].

ويروي ابن أبي طي بدوره، حدَّثني أبي قال: «لم تخفَ حال نور الدين في كراهية الملك الناصر، ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء، وتحدَّثت به العوام، ولا سيَّما حين أنفذ إليه الهدية. واحتقر ما جاءه فيها من المال بحجَّة أنَّ لديه منه الكثير، وإنما كان في الواقع بحاجة ماسَّة إليه للقيام بجنده». فالتناقض ها هنا واضح. وقد قال ابن أبي طي أيضاً أنَّه: «لما استولى الملك الناصر (صلاح الدين) على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله

(١) انظر: ابن الأثير ج ١١، ص ٣٩١ بعنوان: ذكر قصد نور الدين بلاد قلج أرسلان، وص ٣٩٢ بعنوان: رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك، ثم التفاصيل أيضاً في الصفحة التالية ٣٩٣.

وبلاده؛ حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية كابن ياروق وجورديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام. وحدَّثني أبي . . قال: حدثتني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتَّصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظَمَ ذلك وأكبَره وتأفف منه وأنكره؛ وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري؟ وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله(!)، إلا إنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وما فارق قبول رأيه وإشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه (منها)، وكان كثيراً ما يقول: ملَك ابن أيوب!». ويعلق أبو شامة على ذلك: «إنَّ هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلا من عصم الله. . ومن أنصف عذر[1]. والذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك، وهذا ما جعله يرسل إليه رسولاً هو (خالد القيسراني) سنة ٥٦٩ هـ يحاسبه ويقدِّر عليه مبلغاً سنوياً يدفعه، وحمَّله بالهدايا والتحف، ووصل الرجل واقتنع أنَّ الاستقرار بمصر يحتاج إلى نفقات باهظة، وعاد[2] محمَّلاً بالهدايا إلى نور الدين، ولم تصله لأنه توفي قبل وصولها، وكان معها عشرة صناديق من المال.

وهكذا يبدو أن حكاية الوحشة كلها كانت مجرَّد انتقادات عابرة من نور الدين وأصحابه في مجالسه لتصرفات صلاح الدين في مصر نتيجة الخلاف في وجهات النظر حول إنفاق المال، وشائعات حاسدة قابلها أصحاب الصلاح بالتحدي. وابن أبي طي نفسه يذكر فيما روى أبو شامة ذلك (مع مبالغته) فيقول: «ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأصحابه أشياء

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ وص ٥٢٥.
(٢) المصدر السابق ج ٢، ص ٥٢٥.

تؤلمه وتُمضُّه غير أنه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب. حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز ـ وكان من خواص الملك الناصر ـ؛ قال: جرى يوماً بين يَدَيْ السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً. ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها علي فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يُصبَر على مثلها لعلي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي فما أبلغته أربه يوماً قط. . .»[1].

ويمكن أن نضيف في حكاية هذه الوحشة وثيقتين:

الأولى: ذكرها أبو شامة؛ قال: «. . . وقد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون رحمه الله، وهو بحلب، ليوليه قضاء مصر. صورته:

«حسبي الله وكفى. وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير. غير خافٍ على الشيخ ما أنا عليه وفيه. وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين. . . أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار إسلام، بعدما كانت دار كفر. . وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة وهي خالية من أمور الشرع. وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والآن فقد تعيَّن عليك وعليَّ أيضاً أن تنظر إلى مصالحها، وما لنا أحد لها اليوم إلا أنت. ولا أقدر أولي أمورها إلا لك، حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك وفقك الله أن تتولى قضاءها، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى علي حجة، تصل أنت وولدك عندي حتى أسيِّركم إلى مصر. . بموافقة صاحبي واتفاق

---

(١) أبو شامة: ج٢، ص٥٢٥.

منه: صلاح الدين وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير. وحسبنا الله ونعم الوكيل. . »[1].

أما الوثيقة الثانية: فهي الكتاب الذي أرسله الملك الصالح بن نور الدين من دمشق عقب موت أبيه سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م بخط الأصبهاني وتوقيع الملك الصالح، وقد خوطب فيه صلاح الدين بالسيد الأجلّ، ولفت نظره إلى مخاطر الصليبيين، ودعا إلى مقاومتهم باعتباره مكلّفاً بذلك من نور الدين. وقد جاء في نص الكتاب: «. . . فما كان اعتماد مولانا السعيد الملك العادل (نور الدين) إلا عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الكارث، فقد ادَّخره لكفِّ أنياب النوائب. . وأمله ليومه وغده. **ورجاه لنفسه وولده**. . . »[2].

ولو كان الأصفهاني الكاتب يعلم بضغينة نور الدين على صلاح الدين، أو بالوحشة الشديدة بينهما لما كتب بهذه الصيغ، ولو لم يكن الصالح وحاشيته يعلمون بحسن علاقة نور الدين بصاحبه، لما وقَّع الصالح الكتاب، ولما كتب له بهذه الكلمات، ولما اعتبره المدَّخر للصليبيين، والخلَف لنور الدين ورجاءه **لنفسه وولده**.

ومهما يكن من أمر، فإن وفاة نور الدين المفاجئة بالخوانيق في دمشق (في ١٥ شوال سنة ٥٦٩ هـ) ترك شائعة (الوحشة) في الهواء، وترك للمؤرخين قبولها أو إمكانها أو رفضها، لأنه لم ينجم عنها أي تصرف فعلي بين الرجلين ما دام قد غاب أحدهما.

وثمة أمر ثالث يمكن أن يُضاف هنا، هو استيلاء صلاح الدين على الملحقات الجغرافية للدولة الفاطمية. فقد بدأ بإقليم برقة في الغرب بعد مجلس حربي في الإسكندرية، ففتحها ابن أخيه تقي الدين عمر سنة ٥٦٧ هـ، ولم يمانع

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(٢) البنداري: سنا البرق ج ١، ص١٥٥.

نور الدين في ذلك، ثم اتجه جنوب مصر إلى بلاد النوبة مستودع السودانيين التي يجند منها الفاطميون الجيش، وقام توران شاه فوصل أسوان ثم بلاد النوبة أواخر سنة ١١٧٢ م (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ) للقضاء عليهم، بعد أن دخلوا بأمم عظيمة ونهبوا الصعيد[١].

لم يعتبر نور الدين ذلك هرباً، ولا شك في نية صلاح الدين بتأمين الوجود العسكري النوري في مصر وتوطيد أقدامه ـ وإن كان ابن الأثير يعتبر ذلك محاولة للبحث عن ملجأ إن جاءهم نور الدين ـ وقد انتهت الحملة بالنجاح. لكن المؤرخ الكبير يقول: إن توران شاه لم يجد البلاد تصلح للغرض. ويبالغ المقريزي فيذكر أن هذا القائد أرسل رسولاً يكشف الأمر، فوجد بلاداً ضيقة (؟) ليس بها إلا الذرة ونخل صغير، وأن نور الدين عظم همه في تلك السنة (٥٦٨هـ) بأمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد (؟)، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال. . . »[٢]. وهنا كان موضوع الخلاف، لأن نفقات جيش نور الدين في الجهاد كبيرة. لكن الفتح الذي يكشف أكثر من غيره علاقة الرجلين ببعضهما في هذه السنة نفسها (٥٦٨ هـ) هو فتح اليمن، وابن الأثير يجعلها هرباً من نور الدين؛ فيقول: « . . . إن صلاح الدين . . . وأهله كانوا يخافون من نور الدين أن يدخل مصر، فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها. . . فسيروا شمس الدولة توران شاه ـ أخو صلاح الدين الأكبر ـ إلى بلد النوبة. . . فلما عاد إلى مصر **استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن** لقصد عبد النبي صاحب زبيد (وأخذ بلده) لأجل قطع الخطبة العباسية، **فأذن في ذلك**. . . »[٣].

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٣١.
(٢) المقريزي: السلوك ج ١، ص ٥١.
(٣) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٩٦ وما بعدها.

فلو كانوا يهرعون من وجهه، فهل كان يأذن بذلك؟ ولو صحّت نواياهم، فهل يطلبون الإذن من نور الدين؟ وإنما يطلبونه لأنهم يعتبرون أنفسهم أمراء من أمرائه وتحت ظله. وقد أذن نور الدين بعد أخذ موافقة الخليفة ببغداد[1]، فهل كان هذا التصرف وفي قلب نـور الدين ما يصورون أنه فيه من الوحشـة على صلاح الدين؟ ولنذكر أن هذه الغزوة لليمن إنما كانت في سنة ٥٦٩ هـ أي في السنة التي توفي (في شوال منها) نور الدين.

وفي هذه السنة نفسها جرت مع فتح اليمن حادثة أخرى أعطت صلاح الدين مصداقيته أمام نور الدين، فقد صحَّت توقعاته حول وثوب الفاطميين في مصر قبل شهر واحد من وفاة مولاه نور الدين؛ ذلك أن نور الدين لم يكن يقدِّر تماماً أغوار مصر والتيارات الداخلية فيها تقدير صلاح الدين لها وهو يعاينها، وكان أكثر وعياً من مولاه لأخطار الفلول الفاطمية من جهة، والأطماع الفرنجية من جهـة أخرى في مصر، ولضرورة بنـاء جيش قوي للاحتفـاظ بها في جميع الظروف الطارئة، وفي الإنفاق بسخاء عليه.

فتح اليمن:

فُتح اليمن سنة ٥٦٩ هـ، وكانت اليمن الإقليم الثالث التابع للفاطميين والإقليم الأكثر خطراً، وكان على صلاح الدين أن يتم عمله بإلغاء الدولة الفاطمية نتيجة لإيمانه العميق بكفر أصحابها، وإرضاءً لنور الدين وللخليفة العباسي باستلحاق ذلك البلد القصي، لا سيما والعلاقات التجارية معه واسعة وخطيرة، ووصول المذهب الفاطمي إليه كان نتيجة هذه العلاقات. كما أن انطلاق الدعوة الفاطمية إلى شرقي إفريقيا وإلى الهند، إنما كان من اليمن، ومن هنا كانت خطورته في نظر صلاح الدين السني الشديد التمسك بسنيته، وأذن له نور الدين والخليفة بذلك. يقول العماد الأصفهاني:

---

(١) البنداري: سنا البرق ج ١، ص ١٤٢.

«وكان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل معه عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين . . .»[1]. لكنه كان مدركاً في الوقت نفسه ضرورات الأمن الداخلي، ولذلك أرسل قواته لاحتلال مراتع النشاط الفاطمي القصيَّة في الغرب (برقة) وفي النوبة بالجنوب، وفي اليمن أيضاً ليأمن من تآمرها، وقد برهنت الأحداث من بعده على صدق ما كان يحذر منه.

وابن الأثير الذي يجعل ـ على عادته ـ هذا الفتح بحثاً عن مهرب، يضيف أنه كان في مصر شاعر يمني اسمه عمارة ـ وهو من السُّنَّة الشافعية من زبيد ـ كان يمدح صلاح الدين وأهله والوزراء قبله بعدد من القصائد ويتصل بهم ويزين لهم غزو اليمن، حتى إذا تقرر الأمر وأعدت له الحملة (بالأزواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات) . . . سار شمس الدولة توران شاه في أول رجب على رأسها[2]، في أسطول بحري وجيش بري قاده إلى مكة ومنها إلى اليمن وإلى مدينة زبيد، والمتغلب عليها يعرف بعبد النبي ابن مهدي، فلما قرب منها استهان صاحبها بالجيش النوري وقلَّته (وكان يعد ألف فارس) وقال: إن حَمِي الحَرُّ هلكوا . . . لكن جنده هربوا في القتال ودخل المصريون زبيد فلم يجدوا من يمنعهم، وملكوا البلد عنوة، وأكثروا نهبه وأسروا عبد النبي وزوجته التقية المعروفة بالحرة، واستخرجوا منه ومنها دفائنهما المكنوزة، وأقاموا الخطبة للعباسيين . . .

ثم سار توران شاه إلى عدن، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة، وعمان وكرمان وكيش، ومرسى عظيم، وكانت من البر أمنع البلاد، فانهزم صاحبها

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٠٣.

(٢) انظر تفاصيل الحملة لدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٩٦ فما بعد، ويذكرون أن توران شاه ـ وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين ـ كانت تبدر منه في حالات سكره كلمات في حق أخيه؛ فأراد صلاح الدين إبعاده (انظر النجوم الزاهرة: ج ٦، ص ٨٧)؛ وابن الأثير يذكر اسم المتغلب على زبيد (عبد الغني) واتبعنا أبا شامة الذي يدعوه عبد النبي.

أمامهم، فأسروه وملكوا البلد، وأرادوا نهبه فمنعهم توران شاه؛ وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، ولكن لنعمرها. وملك بعد ذلك مدينة (تعز) وقلعة (الجَنَد)، وأحرق صنعاء، وجعل في كل قلعة أميراً من أمرائه، وأحسن إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالإحسان، فعادت زبيد إلى أحسن أحوالها».

وبعث صلاح الدين كتاباً إلى الخليفة العباسي ـ فقد كان نور الدين قد توفي ـ يوضح فيه دواعي الفتح؛ فقال: «وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضلال، وله آثار في الإسلام. وكان ببدعة دعا إلى قبر أبيه وسماه الكعبة، وأخذ أموال الرعايا... وأحل الفروج المحرمة، فأنهضنا إليه أخانا بعسكر، بعد أن تكلفنا له بنفقات واسعة وأسلحة رائعة... والكلمة هناك بمشيئة الله إلى الهند سارية...»[1].

كما كتب صلاح الدين قبل ذلك يبشر نور الدين بالفتح. فأرسل نور الدين البشارة في ذلك إلى الخليفة في بغداد.

أما قصة وثوب الفاطميين، فلم تكن حركة واحدة، ولكن حركات متوالية سرية، كان آخرها أخطرها. فقد كان الفاطميون يعملون سراً في البحث عن خليفة بعد العاضد، واختلفوا؛ ففريق يؤيد خلافة ابن العاضد الصغير، وفريق يبحث عن رجل من البيت الفاطمي يستطيع القيام بالأمر، والوقوف لصلاح الدين. وكان من نتائج هذا أن قام أحد ولدي العاضد واسمه داود (ولقبه أنصاره بالحامد لله) يطالب بملك أبيه؛ فقبض صلاح الدين عليه وسجنه سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م، ولم يخرجه إلا بعد أن أمن خطره وخطر أنصاره. ولم تستكن الدعوة السرية، فقد خرج من الصعيد سليمان بن داود، فقبض عليه صلاح الدين وسجنه حتى توفي[2]. ويظهر أن وفاته في السجن غير صحيحة، فقد رآه ابن

---

(١) انظر النص الكامل لدى القلقشندي في صبح الأعشى: ج ١٣، ص ٨٦، ولدى أبي شامة: ج ٢.

(٢) انظر: ابن خلدون ـ كتاب العبر ج ٤، ص ٨٢.

واصل صاحب (مفرج الكروب) في مصر سنة ٦٤١ هـ، ولاحظ شدة اهتمام أنصاره به وآمالهم فيه.

هذه الحركات السلبية لم تستطع القيام بعمل إيجابي حاسم، ولم تخفَ على يقظة صلاح الدين. وأما الحركة الخطرة فقام بها مجموعة من أتباع الفاطميين الذين حُرموا مناصبهم وأرزاقهم، ولم يكونوا دعاة مبادئ، ولكن طلاب مناصب، وإذا كانوا يجتمعون تحت شعار إعادة الدولة الفاطمية، فلم يكن غرضهم منها إعادة المذهب بقدر المصالح الشخصية والأرزاق. وكان من رؤوس المؤامرة الشاعر عمارة اليمني نفسه الذي عبَّر عن دخيلة المؤامرة بقوله:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها فلا تشبعوا منها ونحن جياع

وذلك بعد أن وجد نفسه وأصحابه خارج نطاق التعظيم القديم له والعطايا السخية. وكان عند الفاطميين بمنزلة الوزير[1] ولذلك قال أيضاً:

وكان لي في ملوك النيل قبلكم مكانة عرفتها العرب والعجم!
وإنما أنا ضيف للملوك ولي دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقد كان له غير الفم واللسان عقل يدبِّر التآمر ويجمع معه فيه أرباب المناصب السابقين، ومنهم داعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل ـ المعروف بالجليس ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه ولم يسمح بكشفها ـ، ومنهم قاضي القضاة ابن كامل، والكاتب عبد الصمد، وجماعة من بني رزيك الوزير، وآخرون من أسرة شاور، والعوريس ناظر الديوان ـ المالية ـ.

يقول ابن أبي طي: «في هذه السنة (٥٦٩ هـ) اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين

(١) ابن واصل (مفرج الكروب): ج ١، ص ١٩٤؛ وانظر أبا شامة: ج ١، ص ٢٢٢.

وما صاروا إليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، وتجمعوا هم وجماعة عيَّنوهم من الأمراء وغيرهم، وقرَّروا أن يكاتبوا الفرنج وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمير ابن مصال» وحتى بعض النصارى واليهود والسودانيين (واتفقوا على تولية ابن العاضد الأكبر ولقَّبوه بالحامد لله، ووزعوا فيما بينهم المناصب)، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين في ليلةٍ عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك في الساحل الشامي وراسلوا ملك صقلية النورماندي، واتفقوا مع رشيد الدين سنان شيخ الجبل الإسماعيلي في مصياف لاستغلال خناجر مريديه في اغتيال صلاح الدين. واستمالوا بعض القواد الذين كانوا مع صلاح الدين، وقالوا: إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن نصرة. وذكر بعضهم أن عمارة اليمني هو الذي أغرى توران شاه بالذهاب إلى اليمن ليتخلصوا من بعض قوة صلاح الدين بإبعادها.

ويتابع ابن أبي طي كلامه بأنهم: «قرروا معهم ـ مع الفرنج ـ الوصول في ذلك الزمن المقرر» للهجوم ـ على ما يقول المقريزي ـ على الشواطئ المصرية في حين تقوم الثورة في القاهرة.

فالمؤامرة إذن خطيرة جداً وهي داخلية وخارجية، يشترك فيها من الداخل كل أتباع الفاطميين وموظفيهم السابقين المتضررين، كما يشترك بها فرنج القدس والنورمان من صقلية، والإسماعيلية الذين بالشام ـ وهم فرع من جماعة الحسن الصباح في قلعة ألموت بجبال البورز قرب الري ـ، وهي تشبه في تخطيطها مؤامرة نجاح، وإن كانت أوسع مدى.

ويذكر ابن أبي طي أن «ابن مصال خانهم فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكَفَّر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرَّفه جليَّة ما جرى». ولكن المصادر الأخرى ومنها أبو شامة وابن الأثير يذكرون أنَّ الذي فضح المؤامرة هو الواعظ الفقيه زين الدين علي بن نجا، وأنه طلب مكافأته على ذلك «ما لابن

كامل هبة الله أبي القاسم القاضي من العقار والدور وكل ماله من الموجود والمدخور، فبذل له السلطان كل ما طلبه وأمره بمخالطتهم ورغَّبه. . . » ليعرف خطتهم كاملة. . «ثم أمر السلطان بإحضار مُقَدَّميهم واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني رمضان (قبل موت نور الدين بشهر ونصف الشهر) جماعة منهم بين القصرين؛ منهم عمارة الشاعر وابن كامل القاضي وابن عبد القوي والعوريس وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم. . وأفنى صلاح الدين بعد ذلك من بقي منهم!.

وكان عقابهم بعد أن أُحضروا واحداً واحداً وقرَّرهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأُخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم. . فأمر بصلبهم». وأعطى ابن نجا جميع ما طلب في حين قطع أرزاق الذين ناصروا المتآمرين وصادر أملاكهم ونفى الجند، فلم يبقَ في القاهرة منهم أحد.

والشاعر عمارة الذي صُلِب هو القائل في رجل صُلب يُدعَى طرخان:

أراد علو مرتبة وقدر — فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منه — يمين لا تطول إلى الشمال

ويقال إن عمارة قتل لبيتين قالهما يعرِّض بصلاح الدين، ولعلَّهما كانا من الدلائل ضده:

والله لا فاز يوم الحشر ظالمكم — ولانجا من عذاب الله غير ولي
ولا رأى جنة الخلد التي وعدت — من خان عهد الإمام العاضد بن علي

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك حذره، فأمر بترحيل الجنود المصريين إلى

أقاصي الصعيد، واشتد في مراقبة من بقي من سلالة الفاطميين.

دخائل المؤامرة: وينقل أبو شامة عن ابن أبي طي نص كتاب القاضي الفاضل الذي بعث به صلاح الدين لنور الدين، وفيه تفصيلات هامة حول هذه المؤامرة. فيقول: «لم يزل (صلاح الدين) يتوسَّم من جند مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله بدعتهم أنهم أعداء، وإن تعدَّت بهم الأيام، وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبغد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكلة، لا تخلو سنة تمرُّ ولا شهر يكرّ من مكرٍ يجتمعون عليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها. وكان أكثر ما يستريحون إليه المكاتبات المتواترة إلى الفرنج (خذلهم الله تعالى) التي يوسعون لهم فيها سبيل المطامع... ويزينون لهم الإقدام والقدوم... ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم سيَّر (جورج) كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً. عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه، في وقته علمنا. ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذا المدد رسل تتردَّد وكُتب إلى الفرنج تتجدَّد».

ثم قال: «والمولى ـ أي نور الدين ـ عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً ولا يعذبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم ـ للمتآمرين ـ الاعتقال لهم ولم ينجح السؤال وخلى سبيلهم. فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة.. وعند وصول (جورج) في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتلة وليس رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية، فأوهمناه بالإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه. فتوصَّل مرة بالخروج ليلاً، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدَّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتَّابهم، فدسسنا إليهم من

طائفتهم من داخَلَهم فصار ينقل إلينا أخبارهم. . . ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة والسرائر المنافقة. فكلاًّ أخذ الله بذنبه. فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أخر كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة. . .».

ثم ذكر الكتاب تفصيلاً، خلاصته: أنهم عيَّنوا خليفةً ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً. واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزيك وأهل شاور فكلّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة. وقد ذكر ابن الأثير أنهم رتَّبوا الحاجب والداعي والقاضي، إلا أن الاختلاف على الوزارة دعا علي بن نجا إلى كشف المؤامرة لصلاح الدين. وثَمَّ خَبَرٌ رواه أبو شامة أيضاً هو أن القاضي الفاضل كانت بينه وبين عبد الصمد الكاتب مودة، ولكنه مرَّ به مرة ولم يسلِّم عليه، فارتاب القاضي وطلب إلى علي بن نجا أن يعرف أمره، فتلطَّف حتى عرف السر، وعاد به إلى القاضي الذي حمله إلى صلاح الدين ـ وهو بالجامع ـ فأوصاه بمتابعة التعرُّف إلى أمرهم.

ويذكر ابن الأثير[1] أيضاً أن القاضي الفاضل انحنى على إذن صلاح الدين يشفع بعمارة حين حُكِم بالصلب وكانت بينهما عداوة سابقة؛ فصاح هذا بسبب ذلك: لا تصدق كلامه بحقي يا مولانا. فغضب القاضي وانسحب. وقال صلاح الدين: إنما كان يشفع فيك!.

ويتابع كتاب الفاضل عرض الأمر على نور الدين؛ فيقول: «وكانوا فيما

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

تقدَّم والمملوك (أي صلاح الدين) **على الكرك والشوبك بالعسكر** قد كاتبوهم (أي للفرنج في القدس) وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السـودان وجموع الأرمن وعامـة الإسـماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا في القاهرة... ولما وصل (جورج) كتبوا إلى الملك الفرنجي أنَّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب موسم غلاَّتهم، وأنه لم يبقَ في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور؛ أنهض فلاناً من عنده (من عند صلاح الدين)، وبقي في البلد وحده. ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة».

«وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية (شيخ الجبل راشد الدين سنان بن سليمان) بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة... واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيلة أو يبيت له مكيدة وحيلة. وكان الرسول إليهم من المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن اخته عند الفرنج...».

«ولما صحَّ الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به. وأدبُ الله أمضى فيمن خرج، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار... وشُنقوا على باب قصورهم وصُلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية، ونُفوا ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى الصعيد.. فأما من في القصـر فقد وقعـت الحوطـة عليهم إلى أن ينكشـف وجه رأي يمضي فيهم ولا رأي فوق رأي المولى. والله سبحانه وتعالى المستخار، وهو المستشار ـ أي نور الدين ـ، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسر الأطماع عنها. فإنها حبالة للضلال منصوبة...».

«ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة، فيه

أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً محتقَراً شخصه وعظيماً كفره؛ يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن. ووجدت في منزله عند القبض عليه... كتب محررة فيها خلع العذار وصريح الكفر ورقاع يخاطب بها، فيها ما تقشعرُ منه الجلود ـ وكان يدَّعي النسب إلى أهل القصر ـ، وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره وصرعه كفره...»[1].

ويتَّضح في هذا الكتاب أن الذين حاكوا المؤامرة كانوا يبيّتونها وصلاح الدين على الشوبك، ثم على الكرك، وأن اعتذار السلطان وعدم لقاء نور الدين لم يكن ادِّعاءً كاذباً، كما يظهر فيه أن من قبض عليهم لم يعدموا مباشرة وبقوا فترة قيد الاعتقال قبل أن يجري استفتاء العلماء في أمرهم، وأنهم كانوا من الطبقات الحاكمة، وليس من الشعب ولا من الأسرة الفاطمية الحاكمة. وقد سكت الناس عن أمرهم لأنهم أصحاب مصالح شخصية، وقد يعذرهم هذا لو قاموا بالثورة وحدهم، فربما قام بعض الشعب معهم، لكن اعتمادهم على تدخل الفرنج أقصى عطف الناس عنهم، ولم يعذب منهم إلا من رفض الاعتراف.

كما يتَّضح أن خبر التآمر وصل صلاح الدين من عملاء له في أرض الفرنج، وأنه كان يترصَّد التحرُّكات، ويعرف بها بشكل عام، وأنه دسَّ بعض عملائه من النصارى في مصر ليعرف التدبير الذي يدبِّرون على وجهه الكامل. وبأنه كان يعلم بالوسيط الفرنجي (جورج) ومجيئه المتكرر بالرسائل للمتآمرين، وهو يتظاهر برسائل تمويه وهدايا لصلاح الدين.

وربما كان أهم من هذا كله لهجة الرسالة، فكلها احترام وتقدير

(١) نص الكتاب لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٦.

لنور الدين ولا يعطيه إلا لقب المولى، ولا يصف صلاح الدين نفسه فيها إلا بالمملوك، وهو يبلِّغ نور الدين بتصرفاته مع المتآمرين والجند ضمن حدود الفتاوى الشرعية، ويسأله رأيه في التصرُّف بشأن الأسرة الفاطمية التي كانت ماتزال في القصر، والتي إن بقيت فيه ظلّت مادة للأطماع. ومثل هذا الكتاب لا يصدر عن رجل بلغت الوحشة بينه وبين مولاه درجة مسير المولى إليه لخلعه.

ثورات الفاطميين الأخرى:

على أن تدابير صلاح الدين رغم شدتها لم تحسم الموقف ولا منعت أصحاب الهوى الفاطمي من الثورة مرة أخرى في الصعيد أول سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. قام بذلك مقدَّم من قواد الفاطميين كان والياً على أسوان يدعى كنز الدولة، وهو مصري صعيدي. وكانت أسوان مركزاً ثغرياً للفاطميين مقابل النوبة، وكان فيها حامية عسكرية مستعدة بالأسلحة. وكان يخرج مع عسكر صلاح الدين لقتال النوبة سنة ٥٦٨ هـ. وكانت هذه المملكة المسيحية كثيراً ما تُهاجِم الحدود. وقد ثار كنز الدولة بالاتفاق مع حاكم قوص: عباس بن شادي، وكانت بلده محط قوافل الحجّاج من المغرب، ومركزاً تجارياً هاماً على الضفة الشرقية للنيل وسط الصعيد. ولحقت بهما جموع شعبية يقولون: إنَّ عُدَّتها مئة ألف من أهل الصعيد، ومن الجنود الفاطميين السابقين والسودانيين المنفيين. وقد بلغ من خطورتها أنَّ صلاح الدين فكَّر بالذهاب بنفسه لإخمادها، ولكنه خشي انتقاض القاهرة، فأرسل أخاه العادل الذي هزم عباساً وكنز الدولة مع ثمانين ألفاً من جيشهما، ونهب بلاد الصعيد عقوبةً لهما، وأخذ أسرى كثيرين صلب منهم ثلاثة آلاف، مما دعا إلى فرار عدد كبير من أهل الصعيد إلى بلاد النوبة[1].

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١.

وعادت الثورات بعد وفاة نور الدين إلى الصعيد بمدينة قفط قرب قوص سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م. وكانت هذه المدينة منذ عهد علي بن أبي طالب وقفاً على العلويين. وثار فيها داعية فاطمي سابق من بني عبد القوي جمع حوله حشداً من أهلها لإعادة الخلافة الفاطمية، وقد حاربه العادل أخو صلاح الدين، وقتل حوالي ثلاثة آلاف من أنصاره وصلبهم على الشجر في المدينة عِبرةً لغيرهم ممن يحلمون بعودة الحكم الفاطمي[١].

وبقدر ما كانت قسوة صلاح الدين مع الفاطميين تزداد نتيجة إيمانه السنيّ، كانت معاملته للناس رشيدة عادلة، كما كانت مواقفه من الفرنج حاسمة، وهذان العاملان كسبا له الرهان بين صفوف الشعب، لا سيما بعد الفترات القلقة المريرة التي عرفها الناس من قبل وزارته. يضاف إلى ذلك مشاريعه العمرانية في القاهرة ومصر تقرباً من أهلها إذ أقام بيمارستاناً في قصر من قصور القاهرة زوَّده بالأسرَّة والمقاصد والعقاقير، وعيَّن له مَن يشرف على المرضى من الرجال والنساء، واتَّخذ محابس للمجانين، وعمر المدارس الكثيرة لأبناء الفقراء والأيتام خاصة، كما هدم دار المعونة ـ وهي السجن الذي كان أشبه بجهنم الحمراء ـ على قول المقريزي ـ وجعله مدرسة للشافعية. وأغدق الأموال على من التف حوله من المصريين بعد أن ألغى عنهم المكوس الجائرة التي كانت تفرض على جميع البضائع. وهذا ما جعل الكفَّة تميل إلى جانبه في مصر بحيث أنه حين ثار ١٢ رجلاً من الشيعة في القاهرة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ـ بعد سنة من وقعة حطين ـ ونادوا بشعار العلويين في شوارعها وهتفوا: «يال علي يال علي» يظنون أن أهل البلد سيلبُّون دعوتهم ويخرجون المعتقلين من الفاطميين؛ لم يهتم أحد بهم، فأُخِذُوا بسهولة، وإن أزعج ذلك صلاح الدين كل الإزعاج[٢].

(١) المقريزي : الخطط ج ١، ص ٣٧٦.
(٢) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٢٤.

وكان قد قام قبل ذلك بالصعيد أيضاً رجلان من أهل أسنا يدعوان للفاطميين، وقضي عليهما بسهولة أيضاً، وكانا مع حركة القاهرة بعدهما من الفلول الفاطمية الأخيرة[1]، ولكن الحادثين كشفا مدى قبول الناس لصلاح الدين وتخليهم عن الولاء الفاطمي.

الذيل الأخير للمؤامرة:

يبقى أخيراً أن نرى ذيول المؤامرة الفاطمية الرباعية التي دبَّرتها الفئة الحاكمة السابقة من الفاطميين في القاهرة.

فأما الجانب الفرنجي في القدس فيبدو أنه أخذ علماً بالقبض على من يراسلونه ويتآمرون معه من فاطميي القاهرة. وقد شغل عنهم في هذه الفترة بالذات بمفاوضات أهمَّته جداً، مع زعيم الإسماعيلية في مصياف الذي ـ حسب قول وليام الصوري ـ أبدى استعداده لاعتناق المسيحية إذا ما أُعفي من دفع الجزية لفرسان الداوية المجاورين له. وتمَّ التحالف معه، وأرسل رسولاً إلى ملك القدس بقي فترة طويلة من الزمن عنده لإكمال الاتفاق. وليس ببعيد أن يكون من جملة المفاوضات الاتفاق على كيفية التدخل مع فاطميي مصر ضد صلاح الدين، غير أن بعض فرسان الداوية قتلوا هذا الرسول وهم في طريق العودة. «وأثار هذا العمل الوحشي غضب الملك بشكل عنيف جداً، واعتبره عاراً جائراً على ودّ وولاء العقيدة المسيحية وانتشارها في المشرق. واستدعى النبلاء وأعلن أن الاعتداء يعتبر إساءة إليه شخصياً». مما يدل على أن طرفين من أطراف المؤامرة الرباعية قد وقع بينهما الخلف بعد الاتفاق؛ ولهذا طلب ملك القدس من الداوية سرعة تعويض شيخ الإسماعيلية ومعاقبة المذنب. وذهب شخصياً إلى صيدا لذلك، وبعث إلى مصياف ببراءته وبراءة المملكة من هذا الحادث المشؤوم، وقرَّر عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن

(١) المقريزي: السلوك ١/١، ص ٧٦.

طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية. . لدراستها بدقة متى شفي من المرض الذي ألـمَّ به.

بهذا الشكل فشل تدخُّل فرعين من فروع المؤامرة، أو على الأقل شُغلا عن دعوة الفاطميين إلى مصر. أما الفرع الرابع والبعيد في صقلية؛ فيبدو أنه لم يعرف بكشف المؤامرة أو أنه عرف بعد أن اتخذ أهبته للسفر، فقرر المضي فيه لأن الاستيلاء على الإسكندرية، الثغر الهام، يستحق المغامرة. ولنذكر أن ملك صقلية (وليام الثاني) النورماندي، كان ثالث المتحالفين للهجوم على دمياط سنة ٥٦٥ هـ، ثم على مصر في المؤامرة الحالية سنة ٥٦٩هـ؛ لكنه لم يحضر إلى دمياط لأنه كان في تلك الآونة مشغولاً بمهاجمة دولة الموحدين في إفريقية (تونـس)، فشارك فقط في العُدَد والأدوات على دمياط، ولما فشـل وجاءته الدعوة هذه المرة من داخل مصر؛ وجدها فرصة سانحة ليسير بأسطوله الهائل العدد حاشداً فيه آلاف المقاتلين ما بين راجل وفارس، وتوجَّه إلى مصر في مئتي شيني تحمل الرجَّالة، وستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وستة مراكب كبـار تحمل آلـة الحرب، وأربعين مركبـاً تحمل الأزواد؛ وفيها من الرجالة خمسون ألفاً، عدا ألف وخمسمئة فارس يقودهم ابن عم الملك[(١)].

وصلت الحملة أواخر سنة ٥٦٩ هـ متأخرة، فقد كان الملك عموري كاتَـبَ صقليـة مع الفاطميين المصريين ثم مـات، وتولى ابنه (بفدون الرابـع المجذوم) فلم يأبه لمساعدته. وفاجأت الحملة الإسكندرية على حين غفلة، فخرج أهلها بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، وأَبْعَدوا عن البلد، فردَّهم الوالي إلى ملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة.

ولما تكاملوا حملوا على المسلمين حملة شديدة، ودخلت بعض

---

(١) انظر تفاصيل الحملة وما صارت إليه لدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٤١٢ فما بعد؛ ولدى أبي شامة: ج ٢، ص ٥٩٨ فما بعد؛ والمقريزي: السلوك ١/١، ص ٥٥ - ٥٧؛ وانظر: وليام الصوري ج ٢، ص٩٧٣.

مراكبهم إلى الميناء، وفيه مراكب مقاتلة ومسافرة، فسبقهم الإسكندريون إليها، فأغرقوا بعضها وأحرقوا بعضها، واتصل القتال إلى المساء، ونصب الفرنج لراحتهم ٣٠٠ خيمة، وفي الصباح زحفوا بالدبابات وكباشها وثلاثة مجانيق كبار، وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل. ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيّرت الكتب إلى صلاح الدين يستدعونه، ودام القتال يومين.. ووصلت الدبابات قرب السور، ووصلت أول الأمداد من عساكر الإقطاعات القريبة، فقويت نفوس أهل البلد، وخرجوا في اليوم الثالث بضجيج هائل من الأبواب، ووصلوا إلى الدبابات وأحرقوها، فيما فترت همم الفرنج.

وأما صلاح الدين فسيَّر مملوكاً إلى الإسكندرية يبشِّرهم بوصوله لتشتد عزائمهم، وقد كانت بدورها فترت. فعادوا يقاتلون بحميَّة أشد، وهاجموهم في الظلام ودخلوا خيامهم، وغنموا ما فيها. ورمى الكثير من الجند الفرنجي والفرسان بأنفسهم في البحر، وخرق الإسكندريون بعض الشواني فغرقت. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين (وبفشل المؤامرة بالطبع)، فتراجعوا إلى مراكبهم لم ينالوا خيراً. واحتمى ٣٠٠ فارس برأس بعض التلال فقاتلهم المسلمون حتى تركوهم بين قتيل وأسير.

وانتهت الحملة الصقلية النورماندية بالفشل الذريع.

تحليل الموقف الصلاحي:

ونقف لحظة عند هذه الحوادث في جملتها لنلاحظ أن الاستيلاء على مصر وتحويلها إلى الولاء العباسي، لم يكن حادثاً هيناً يشبه انتقال إقطاع في الشام أو العراق من أمير إلى آخر. فمصر بالإضافة إلى سعتها العظيمة، وإلى مواردها الزراعية والتجارية الضخمة؛ كانت (خلافة) كاملة، ولها امتداداتها

الجغرافية التي يبلغ كل منها أكبر إقطاع من الشام أو العراق (برقة واليمن)، ولها دعوة منظمة ذات فلسفة خاصة، ولها دعاتها المنتشرون. وقد استلمها صلاح الدين خمس سنوات (٥٦٤ ـ ٥٦٩هـ) في حياة نور الدين، وكان عليه أن يلغيها من الوجود المادي كدولة، وفي نفوس الناس كعقيدة، وأن يجعل مصر ولاية تابعة لا متبوعة، بمعنى أنه كلِّف القيام بانقلاب كامل سياسي وعقائدي خلال هذه السنوات الخمسة، وأن يقمع الفاطمية بالشدة سياسياً وعقائدياً نتيجة ولائه النوري وإيمانه السنّيّ. في الوقت الذي ينمِّي فيه ويثبِّت المذهب السني والولاء العباسي بين الناس، وكانت الثورات الفاطمية المتعددة على صلاح الدين لها ما يبررها، وهل من السهل قلب نظام كامل عمره ٢٥٠ سنة، وله فلسفته وتجذُّره ودعاته دون مقاومة عنيفة متكررة؟!.

من هنا نجد أن صلاح الدين كان أكثر إدراكاً وبُعْد نظر من مولاه نور الدين في أمور مصر، وأنه بذل جهده في محاولة التوفيق بين أوامر المولى وواقع السياسة في هذه البلاد. ولا شك أن ضخامة الموارد التي وقع عليها في مصر، وسعة الإقطاعات، ساعدته كثيراً بقدر ما ساعدته شجاعته وحكمته وسياسته الرشيدة مع غير الفاطميين خاصة في النجاح. إنه كان يعرف أنه يسير بين ألغام، ويداري وقته ويحسب لكل خطوة حسابها، ولكن نور الدين كان له اهتمامات أخرى في الشام؛ هي الجهاد فقط، وليس لديه في مملكته أعداء كامنون، فعبء صلاح الدين أثقل بكثير من عبء نور الدين. وإذا كان المولى يرى أولية (الجهاد) والإنفاق عليه، فقد كان الصلاح يرى أولية تثبيت الأقدام بمصر، والحرص عليها من أن تعود فاطمية كافرة في رأيه، أو أن يأخذها الفرنج. ويرى الحاضر في العادة ما لا يرى الغائب.

وقد حافظ صلاح الدين حتى اللحظة الأخيرة على علاقته الطيبة مع نور الدين بدليل الوثائق، على الرغم من أن الكثير من الظنون كانت تعطي حاسديه ومنافسيه لدى نور الدين كثيراً من المجالات للدسّ عليه. وكان من

الطبيعي جداً أن يصدِّق صاحب الشام ببعضها، فالأمراء الذين رأوا صلاح الدين وأهله يستأثرون بإقطاع يزيد في السعة وفي الموارد على مملكة نور الدين كلها، وهم أمراء صغار حول نور الدين وعند أذنه، يمكنهم إطلاق أي تهمة عليه وهو بعيد، وأبرزها أنه يبدد الأموال. وهي تهمة تجد صدى لدى نور الدين الذي يحتاج هذا المال للجهاد، ويعتبر ذلك من الأوليات الأساسية في جبهة القتال. وقد شهد بذلك العماد الأصفهاني بقوله: «وكان نور الدين منذ مُلِكَت مصر وتوجه له فيها النصر؛ يؤثر أن يقرّ له مالٌ للحمل يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ما له من الثقل، والأيام تماطله والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده...». ولم يكن نور الدين ليقدِّر أنَّ إثبات أقدام دولته في مصر الواسعة، التي تخالفه في المذهب؛ يحتاج بدوره إلى المال الكثير، ولا يقلّ شأناً عن الجهاد في الشام. وهذا هو السبب في إلحاح نور الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية بسرعة، وفي تربُّص صلاح الدين، والسبب في إرسال (المحاسب) إلى مصر بعد خمس سنوات من الحكم الصلاحي.

والذين تحدَّثوا عن (الوحشة) بين الرجلين، إنما أسقطوا عملياً ما جرى بعد وفاة نور الدين على ما كان قبل وفاته، وأرادوا أن يجعلوا لتصرفات صلاح الدين بعد غياب صاحبه جذوراً سابقة في تصرفاته قبل ذلك. ولنفترض جدلاً وجود الطمع الشخصي لدى صلاح الدين ـ وهو طبيعي ومبرَّر ـ؛ فليس صلاح الدين سوى إنسان من البشر، فهل كان نور الدين أو أمراؤه الذين حوله مبرَّئين من الأطماع الشخصية في مواقفهم من صلاح الدين ومن غيره؟ ولماذا يُتَّهم صلاح الدين وحده، وكل الأمراء النوريين كشفوا بعد وفاة مولاهم عما هو أسوأ من الأطماع؟.

* * *

مَعنى الجِهَادِ في الشَّام

كانت وفاة نور الدين مفاجأة لم يكن أحد ينتظرها. فبينا دمشق تحتفل معه بختان ولده في عيد الفطر سنة ٥٦٩هـ؛ إذا بالبلاد الإسلامية كلها تفتقده بعد أسبوعين مرة واحدة. وما عرف الخبر حتى انطلقت من عقالها كل الأطماع، لا في أسرة نور الدين الأقربين فقط، ولكن في أمرائه وقادته العسكريين أيضاً، وفي الفرنج المحتلين على السواء. كُلٌّ سعى ليستفيد أقصى الفائدة من غياب الرجل الذي كان يمسك حتى وفاته بمصير المنطقة والفرنج جميعاً بين يديه، بمهابة وشجاعة وبتقى وبُعْد نظر.

ترك نور الدين إرثاً يمتد من برقة واليمن إلى الشام والجزيرة والموصل، وهو إرث نظري لأنه عملياً بيد الأمراء الذي أُقطعوا المناطق المختلفة ضمن المملكة، وإن كان يستطيع أن يأمرهم ويسوقهم معه إلى الجهاد متى شاء.. فالإقطاع خبز لهم وللجند الذين يجنَّدون لخدمته. وإذا استعرضنا شريط الأحداث عقب وفاته مباشرة؛ وجدنا أن الصراع بين القوى قد بدأ، وأن مجموعات القوى تصرَّفت كل منها حسب قوتها:

- فالأسرة الزنكية في الموصل كان ممثلها ونائب نور الدين فيها: سيف الدين غازي - وهو ابن أخيه -، وكان قد جمع جيشه لمعاونته في حرب الفرنج، فإذا به يتَّجه إلى (نصيبين) فيملكها، ويرسل الشحن إلى (الخابور) فيملكه ويقطعه، ثم يسير إلى (حران) فيحاصرها أياماً، ويملكها بعد أن استسلم حاكمها (قايماز الحراني) مملوك نور الدين، ثم يحاصر (الرها) ويملكها من الخصي خادم نور الدين، ثم يرسل إلى (الرقة) من يتسلمها على

الفرات، وإلى (سروج). وهكذا أضحت مدن الجزيرة بيده، عدا (قلعة جعبر) يكفيه؛ فقد أعاد المكوس، وتسامح في أمور اللهو والشراب.

ـ والأمـراء في دمشـق تمسَّـكوا بالطفل الملك الصالـح الذي خَلفَـه صلاح الدين وعمره ١١ سنة، واتفقوا أن يكونوا يداً واحدة، وجعلوا الأمير ابن المقدم كالرئيـس على جماعتهم حين أعطوه أتابكيـة الطفل أي الإشراف على تربيته.

ـ والأمير شمس الدين ابن الداية مع أخويه كان يحكم حلب وما حولها، فبقي مقطوعاً ما بين الزنكيين في شرقه ومجموعة دمشق. وإن كان صديقاً لصلاح الدين وميله معه.

ـ وأما الفرنج فانتهزوا الفرصة فوراً، وهاجموا حصن بانياس عند مدخل الجولان الجنوبي (آخر شوال سنة ٥٦٩ هـ/ مايو١١٧٤ م). وأرسلت أرملة نور الدين ـ بشجاعة تفوق شجاعة معظم النساء ـ على قول وليام الصوري ـ تطلب رفع الحصار، ومنح البلد هدنة مؤقتة ودفع مبلغ كبير من المال. ورفض الملك واستمر يحاصر بانياس أسبوعين، دمَّر فيها آلاته، وأخيراً قبل المال مع إطلاق سراح الفرسان الصليبيين الأسرى. وعاد ليموت بعد ذلك ويتولى بدلاً منـه ابنه المجذوم الفتى بغدويـه الرابع[١]. وهـذه هي روايـة الفرنج. أمـا المصادر العربية فتذكر أن ابن المقدم خرج إليهم بوصفه الأتابك، وهادنهم على أن يؤدي مبلغاً ضخماً من المال، ويطلق الأسرى الفرنج ويهادنوه. ويبدو بوضوح أن زوجة نور الدين ـ وهي ابنة الأتابك الثعلب أنر ـ كانت ذات نفوذ في دمشـق وبمكـان رئاسـة بوصفها أم الملك؛ ولهذا كانـت الرسـالة باسـمها. والأتابك ابن المقدم هو قائد الجيش والمدبِّر لأمور الدولة، وقد اتَّفق مع الفرنج على «الهدنة وقطع مواد الحرب والفتنة»[٢].

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٧٣.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٨٩.

ـ أما صلاح الدين في مصر، فقد وصله الخبر عن طريق الفرنج، فلم يصدقه، وكتب إلى نور الدين يقول: ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوب والوجوه. فاشتد به الأمر وضاق الصدر... فإن كان والعياذ بالله قد تم.. فما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها. فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها.. ولاتنازعوا فتفشلوا، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان. ولهذا البيت منَّا ناصر لا نخذله، وقد كانت وصيته إلينا سبقت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه. فإن كانت الوصية ظهرت وقُبلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من عاداه، وإن أسفر الخبر عن معافاة الغرض المطلوب...»[١].

فورد عليه الكتاب من أمراء دمشق بتوقيع الملك الصالح يقول: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر السيد الأجل، وعظَّم أجرنا وأجره في والدنا، السيد العادل. وقد اجتمع أمراء الحضرة على البيعة المؤكدة والأيمان المغلَّظة للملك الصالح... وما ها هنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله... فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضي عنه إلا عليه (أي على صلاح الدين)، وسكونه إلا لمثل هذا الحادث الكارث، وقد أمَّله ليومه وغده ورجاه لنفسه وولده»[٢]. «... وولده وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر...»[٣].

وكان أمراء دمشق يريدون تطمين صلاح الدين من جهة ليبقى بعيداً، وتحديد عمله بقتال الفرنج فقط من جهة أخرى؛ لأن نور الدين كلَّفه ذلك، وكانوا يعرفون قوته ويخشون تدخله. أما صلاح الدين فجلس للعزاء ثلاثة

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٨٧.
(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٨٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.

أيام، وكتب للملك الصالح يعزِّيه، وجاء في آخر الكتاب:

«. . . وأما العدو خذله الله تعالى، فوراءه من الخادم من يطلبه ليل نهار إلى أن يزعجه في مجاثمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم. . أُصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة وهو اليوم الذي أُقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم. . . وأشبهَ يومُ الخادم أمسَه في الخدمة. ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام. والله تعالى يخلد المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه. . ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه ومضاعفة ملكه. . .».

وقد جاء في كتاب آخر بعد ذلك: «الخادم مستمر على ما بدأته من الاستشراف لأوامرها والرفع لكلمتها والإيالة لعسكرها والتحقق بخدمتها. . . والترقب لأن يؤمر فيمتثل ويكلف فيحتمل. . . وأن يُرمى به في نحر عدوه فيتسدد. . . ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده. . .»[1]. وضرب السكة باسم الملك الصالح، وأرسل له منها وخطب باسمه على المنابر[2].

على أن صلاح الدين بقي يراقب الأحوال في الشام والعراق، وحين سمع أخبارها وهو في مصر صار يكتب محتجاً تارة وناصحاً أو مشيراً تارة أخرى:

ـ سمع بما اقتطعه سيف الدين غازي من مملكة عمه، فأرسل إلى الملك الصالح يعاتبه؛ إذ لم يُعلمه بذلك ليحضر في خدمته، ويرد سيف الدين عن مقصده[3].

ـ وسمع بهجوم الفرنج على بانياس والهدنة التي اشتراها ابن المقدَّم منهم بالمال الكثير؛ فاستنكر المعاهدة وكتب إلى جماعة من الأعيان وإلى ابن المقدم وإلى القاضي ابن أبي عصرون في دمشق؛ يقول: «لما بلغني وفاة المرحوم

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.
(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٠٥؛ الباهر: ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣) المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر، فبلغني حادث الهدنة المؤذنة بذل الإسلام. . . وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه في إنكار هذا الأمر، فإن بلسانه تُغمد السيوف وتتجرَّد الحقوق»[1]. وأدرك صلاح الدين من هذا مبلغ ضعف أمراء دمشق.

ـ وسمع بالخلاف ما بين أمراء دمشق وابن الداية في حلب، ثم تمكَّن القائد (شاد بخت) ـ قائد قلعة حلب ـ من التآمر مع ابن المقدَّم، ونقل الملك الصالح إلى حلب، وتدبير مؤامرة قبضوا بها على ابن الداية غدراً ـ بعد أن وعدوه بأتابكية الدولة ـ وعلى أخويه، وأودعوهم السجن بعد ضربه بالأيدي والأرجل. ثم غضب ابن المقدم أخيراً وهو بدمشق، فكتب إلى صلاح الدين يستدعيه للتدخل!.

مكث صلاح الدين ثلاثة أشهر ونصف الشهر في مصر يتربَّص (١٥ شوال حتى مطلع صفر سنة ٥٧١هـ)، ولم يكن يكلّ من المكاتبة. وهو مشغول بأمرين: حركة كنز الدولة في الداخل، والهجوم النورماندي الصقلي على الإسكندرية، وكلاهما خطر كبير. وحين انتهى منهما وجد أن حادثة القبض على ابن الداية دليل أخير على أن الأمراء في الشام سائرون مع أنانياتهم ومصالحهم وتنافساتهم، ولم يرعوا رغبات نور الدين نفسه. «وكان صلاح الدين يعتقد بأن ولد نور الدين يتولاه بعد أبيه، مجد الدين ابن الداية، وإخوته في حلب وهم أصدقاؤه وحلفاؤه»[2]، ويطمئن إليهم، لكنَّ ضرْبهم واعتقالهم غدراً جعله يقول: أنا أحق برعي العهود والسعي المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرَّقت الكلمة المجتمعة. . وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام.

وكتب إلى ابن المقدم وهو صاحب دمشق ينكر ما أقدموا عليه من تفريق

---

(١) سبط ابن الجوزي: ج ٨/١، ص ٣٢٤؛ وأبو شامة: ج ٢، ص ٥٨٩.
(٢) البنداري: سنا البرق: ج ١، ص ١٦٨؛ وأبو شامة: ج ٢، ص ٥٩٧.

الكلمة، وكيف اجترؤوا على أعضاء الدولة وأركانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضرُّه ضرُّهم وضرُّها. فكتب ابن المقدَّم إليه يردعه عن هذه العزيمة ويقبح له (التفكير بذلك)، ويقول: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك وربَّاك وأسَّسك، وأصفى مشربك وأجلى سكونك لمُلْك مصر، وفي دسته أجلسك. فما يليق بما لك ومحاسن أخلاقك وخلاّنك غير فضلك وأفضالك...»[1].

ووقع صلاح الدين في حيرة بين الاستجابة لواجب الوفاء لبيت نور الدين وبين نار الاتهام بالطمع فيه، ويبدو أن كثرة المكاتبات التي وصلته من أكابر الشام ووجوهه من دمشق وشيوخها حسمت حيرته وقرر التدخُّل، ولو لم يفعل والناس قد نقلوا آمالهم من نور الدين بعد وفاته إليه، وعلَّقوا عليه الآمال، لم يكن صلاح الدين اليوم شيئاً مذكوراً، وكان اسماً من أسماء الأمراء العابرين في عصره.

ولم يكن صلاح الدين منذ أواخر عهد نور الدين مجرَّد قائد بارز بين أمرائه، ولكنه أضحى مؤسسة عسكرية تابعة له، وأسرة متعاونة من القادة؛ كان فيها أولاً شيركوه ونجم الدين أيوب، ثم صلاح الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ثم إخوته، وبرز منهم توران شاه وطغتكين وأبو بكر ـ العادل ـ وبوري، وبعض أبناء أخي صلاح الدين أمثال: فروخشاه وتقي الدين عمر وشيركوه الثاني ـ ابن عمه ـ، بالإضافة إلى بعض أولاد صلاح الدين: الأفضل علي والظاهر غازي والعزيز عثمان، فهم ثلاثة أجيال من القادة وضعوا أنفسهم في خدمة نور الدين، وحملوا لواءه، وقد جمعهم نور الدين بنفسه بعضهم مع بعض ليتعاونوا بسبب رابطة القربى بينهم.

وإذا كان ولاء إخوة صلاح الدين والجيل الثالث من أولاد إخوته لنور الدين فيه بعض الشك والقلق؛ فإنه كان واثقاً من صلاح الدين من جهة،

---

(١) البنداري: سنا البرق: ج ١، ص ٢٣٤.

وواثقاً من تعاونهم معه وسيطرته عليهم كمجموعة في مصر، وواثقاً أيضاً من حسن تَأَتِّيه للأمور.

ولم تكن قوة صلاح الدين في هذا وحده، ولكنها كانت أيضاً في غنى مصر ومواردها من الاقتصاد ومن البشر. وكانت الأرض التي صارت إقطاعه أوسع وأكبر في المدى والغنى من مملكة نور الدين الأصلية نفسها في الشام والجزيرة. كانت خلافته وحدها ولها من برقة إلى النوبة إلى اليمن. وهكذا كان وضع صلاح الدين لا يشبه وضع القادة الآخرين لنور الدين، ويفوقهم قوة وغنى ومكانة. وأولاد الداية الثلاثة لم يبرز منهم غير واحد، ولم تتح له الفرصة التي أتيحت لصلاح الدين؛ الذي كانت مصر بمثابة المجمع أو المختبر الذي برزت فيه قدرات الأسرة الأيوبية. وكان صلاح الدين يدرك هذا جيداً، كما يدركه الأمراء الآخرون.

وحين اجتمع أمراء دمشق على التعاون يداً واحدة ومنابذة صلاح الدين: الشيخ إسماعيل خازن المال، والحسين الجراحي، وشهاب الدين العجمي، والطواشي حسام الدين ريحان، وعلى رأسهم ابن المقدم بحضور القاضي كمال الدين الشهرزوري، وقال القاضي: «قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة أن يشاور في الذي نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجةً علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر.. وربما أخرجنا وتولَّى هو خدمة الملك الصالح... فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا...»[1]. «وظنُّوا أنه إذا دخل البلاد أخرجهم منها».

وتفرَّغ صلاح الدين من مهامه في مصر بعد أن أساءه وأغضبه ما كان

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٨٩؛ وابن الأثير: ج ١١، ص ٤٠٥، ولنلاحظ أن ابن الأثير يصف صلاح الدين بأنه مملوك نور الدين، وهو غير صحيح؛ والمصادر الأخرى تصفه بأنه نائبه أو من أصحابه كابن واصل في (مفرج الكروب): ج ٢، ص ٢.

يجري، وبخاصة ما جرى بحلب من شقاق سنّي ـ شيعي، وغدرهم بصديقه ابن الداية. وكان قد كتب إلى ابن المقدم في دمشق وإلى الأمراء: «لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق به مثل ثقته بي لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري. وأراكم قد تفرَّدتم بمولاي وابن مولاي دوني. وسوف أصل إلى خدمته وأُجازي أنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده...»[1].

وهكذا اعتبر نفسه مسؤولاً عن دولة الملك الصالح وحسن حمايته وحمايتها.

وكتب إلى الأمراء بحلب ينذرهم بقدومه إلى الشام، فكتبوا إليه يسيئون الأدب[2]، ويبدو أنهم ظنُّوا أنه لن يغادر مصر. وكتبوا إلى صاحب الموصل يطلبون إليه الحضور إلى دمشق ليملكها قبل صلاح الدين، فظنَّ ذلك مكيدة منهم ولم يلبِّ طلبهم.

وألحَّ أهل دمشق على ابن المقدم ـ الذي عاد إليهم ـ بدعوة صلاح الدين لئلا يستولي كـ(مشتكين) الذي استأثر بحلب على دمشق أيضاً.

وكثرت المكاتبات التي وصلته للحضور إلى الشام.. فقرر صلاح الدين ذلك.

بتحرك صلاح الدين إلى الشام بدأت مرحلة جديدة مختلفة في حياته، وفي مصير المشرق العربي، يمكن أن نسميها بالمرحلة الشامية بعد المرحلة المصرية[3]، وإذا دامت الأولى سبع سنوات (٥٦٤ ـ ٥٧١ هـ)، فقد دامت الثانية ١٧ سنة. وقد اختلفت طبيعة المرحلتين إحداهما عن الأخرى كثيراً؛ كان

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية: ج ١٢، ص ٢٨٦.
(٣) استانلي لين بول يقسم حياة صلاح الدين إلى ثلاث مراحل: مصرية وشامية وفلسطينية.

في مصر تابعاً لنور الدين ونائباً عنه، أما الآن فهو سيد قراره. وكان من جبهة القتال مع الفرنج في زاوية بعيدة فصار بدخول الشام ضمن الجبهة وعلى طولها. وكان يعمل لمصر وحدها، وعليه الآن أن يعمل للمشرق العربي كله.

وكبرت مطامحه وآماله حتى شملت مع القيام بالجهاد القيام بتوحيد الجبهة الإسلامية، وهو المبدأ الذي سبقه إليه عماد الدين زنكي ونور الدين من قبل. ومنذ أعلن هذا الشعار في الشام وعمل عليه؛ صار في واقع الأمر أسيره، فلا يستطيع التخلي عنه، لا سيما وهو المؤمن به والموقن أنه طريق الخلاص والوصول إلى القدس. وليست القدس عند صلاح الدين مدينة كغيرها من المدن؛ ولكنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وتحريرها من الفرنج عمل مقدَّس وفريضة على كل مسلم قادر. ولا تنفصل صفتها القدسية عن كونها مدينة؛ لأن الله وصفها بالأرض التي باركنا حولها.

وفي تحرُّك صلاح الدين إلى الشام معنى آخر لا يقل أهمية، وهو أن نور الدين بعث جنده إلى مصر لدعم الجبهة الإسلامية وتوحيدها في خط سياسي جهادي واحد، وإلغاء السياسة المتقلِّبة و(الكافرة في رأيه) فيها، وتم له ذلك بفضل صلاح الدين وأسرته والعسكر الذي زوَّده به. ويعود صلاح الدين الآن من مصر إلى الشام ليجد أن ملك نور الدين قد تقسَّم وتوزَّع وأنَّ بعضه يستعين بالفرنج. فعليه أن يجمعه ويوحده مع مصر، وأن يقمع من يتعاون مع الفرنج لإبقاء هذا التمزُّق. ولو بقي نور الدين حياً لما عمل غير ذلك؛ فعمل صلاح الدين هو في الوقت نفسه صيانة لوحدة الجبهة الإسلامية من جهة، وإتمام لأماني نور الدين ورسالته، وذهابه إلى مصر بعسكر نور الدين ثم عودته بهذا العسكر نفسه إلى الشام بعد تمزقه؛ هما أمران يتمم أحدهما الآخر. وإذا لم يتح لنور الدين استخدام الجبهة الإسلامية التي كوَّنها لأنه احتضر ومات مبكراً؛ فقد كان لا بد للقوة الأعظم بين أمرائه من أن تحلَّ محلَّه، وإلا أُغلق باب الجهاد والتحرير، وكانت أعمال صلاح الدين في مصر لتوحيد الجبهة،

وعمله في الشام أيضاً لتوحيدها.

وبهذا الشكل حلَّ صلاح الدين محل نور الدين في استكمال وتحقيق شعار الجهاد لتحرير القدس، وحُقَّ لصلاح الدين أن يعتبر نفسه بعد تنابذ الأمراء في الشام وتقسيم مملكة نور الدين أنه الوارث الروحي له.

ولقد قيل ومايزال يقال عن حركات صلاح الدين في الشام: إنها مطامح شخصية، وليس في البشر من ليس لديه مطامح شخصية، ولكن الهام أن تتَّفق هذه المطامح مع أماني الناس ورغباتهم، وأن يقوم المطمح الشخصي كعون لصاحبه في تحقيق الآمال المقصودة عليه من الجماهير. ولقد كان بإمكان صلاح الدين أن يتَّخذ مصر مقرّاً له ولأمرائه ـ وهي أكثر من كافية لهم مع ملحقاتها ـ وأن يترك الشام للنزاعات وللأمراء المتنافسين؛ لولا أن وخزة الواجب الديني كانت تُدمي صدره بضرورة الجهاد وتحرير المنطقة المحتلة على الساحل الشامي من أهل الكفر. فالجهاد بالنسبة لوضعه ـ وهو التقي المتديّن ـ فريضة كالصلاة وباقي العبادات، وعليه واجب القيام بها لقدرته عليها، وإلا فهو آثم في نظر نفسه ونظر الناس.

وأكَّد صلاح الدين مرَّات على نبل مقاصده أثناء تحرُّكاته في الشام، أعلن أنه إنما جاء لدعم دولة الصالح ورعايته، وأنه إنما جاء للجهاد ودعوة الأمراء له، وأنه لا يرجو المنافع لنفسه ولكن للمسلمين جميعاً، فلم يصدقه الأمراء والحكام، وصدَّقه الشعب بشكل عفوي تجلَّى في دعمه والفرح به، لكن تاريخ الرجل في المستقبل برهن على صدقه، وأثبت نواياه في ما أعلن من رسالته التي تصدَّى لها. وكانت أنانيات الأمراء هي التي تُغْشي عيونهم عن ذلك وعن رؤية المستقبل، وكانوا يرون فيه صدى لما كانوا يشتهون عمله ويعجزون عنه.

وعرف صلاح الدين منذ وطئت قدمه الشام أن عليه نوعين من الجهاد:

١ ـ جهاد ضد الممزِّقين للإمارات والمقدِّمين مصالحهم الشخصية وأنانياتهم على مصالح المسلمين؛ بدفعهم مرغمين أو طائعين إلى المعاونة

مادياً وعسكرياً في الجهاد ضد الفرنجة. وليس يدخل في هذا الجهاد سلبهم إقطاعاتهم وقطع خبزهم.. ولكنه يتقدَّم في الأولية على الجهاد الثاني؛ لأن صلاح الدين يجب أن يستند إليه من جهة وأن يحمي به ظهره من جهة ثانية.

٢ ـ جهاد الكفار بقيادة واحدة موحَّدة. فالاشتراك مع الآخرين في العمل لا يكفي، ولقد عبَّر صلاح الدين عن ذلك في كتاب أرسله إلى ديوان الخلافة في بغداد يشرح فيه الأسباب التي دعته للمسير نحو حلب سنة ٥٧١ هـ، قال: «الخادم ينهي أن الذي يفتحه من البلاد ويتسلمه.. إنما يعده طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار. ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتدها. ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة؛ لما عزَّ عليه أن يكون كثير المشاركين.. وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة...»[(١)].

ترك صلاح الدين أخاه العادل في مصر واصطحب أخاه طغتكين وابني إخوته تقي الدين عمر وعز الدين فروخ شاه، ولم يكن خروج صلاح الدين إلى الشام خروج محارب؛ فقد خرج في ٧٠٠ جندي فقط. وقطع الطريق متمهلاً جداً في ثلاثة أشهر (بين أول صفر ونهاية ربيع الثاني سنة ٥٧١ هـ)، وتوقف على الطريق في بلبيس وتفقَّد حصن أيلة (العقبة)، هل كان يفكر في ما سوف يشيعه الأمراء والزنكيون في اتهامه بالعقوق، وبالطمع الشخصي؟ أم كان يتأنى وهو يرسم الخطة لكسب أمراء نور الدين دون حرب أو نزاع؟ أم كان يقيس مدى شعبيته لدى الناس بهذا الجيش القليل، فيأتي الشام كالأعزل وجيشه في مصر؟ أم كان يتحدَّى الذين يريدون عزله في مصر والانفراد بإرث نور الدين وولده؟ أم كان يمهِّد بهدوء لدخوله البلاد سلماً بالاستناد إلى محبته الشعبية؟

أفكار كثيرة يمكن أن ترد إلى خاطره، ولعلَّ أشدَّها أن أعداءه سيظنون به الظنون ويركبونها، ويشنعون عليه بالمطامع الشخصية، فقد كتب كتاباً

---

(١) أبو شامة: ج ١.

بالإنشاء الفاضلي قال فيه: «إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة تظهر آثارها عند تكاثر العداة، وبالجملة فأنا في واد والظانون بي ظن السوء في واد. ولنا من الصلاح مراد، لن يبعدنا عنه مراد. ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولا لمن ألقى السلاح إنك جارح. وما مرادنا إلا مصلحة تؤثر لا فتنة تثار. فلو زدنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب. فلا يحمل أمرنا إلا على أحسنه، ولا يظن بنا إلا الخير الذي طَبْعنا أخص بوجوده من معدنه...»[1].

وذكر القلقشندي الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى دار الخلافة ببغداد في عشر صفحات يعدد فيه أسباب تقدمه إلى الشام فذكر:

١ ـ كثرة المكاتبات له بالسير نحو الهدف الكبير: فتح القدس.

٢ ـ أنه لا يتمكن وهو بمصر من جهاد الكفار بشكل ناجع «مع بُعْدِ المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب. وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية... واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة...»[2].

٣ ـ القضاء على بعض العقائد المعتلة (ويقصد الإسماعيلية) الذين دخلوا في المؤامرة الرباعية سنة ٥٦٩ هـ لقتله.

٤ ـ سوء نية ابن المقدم وكمشتكين اللذَيْن تمسَّكا بكفالة الملك الصالح، وأعلن أنهما إنما «يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء بخدمته، وهم عاملون بظلمه».

٥ ـ والمراد هو كل ما يقوي الدولة.. ويجمع الأمة ويفتح بقية البلاد

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٩٧؛ سنا البرق الشامي: ج ١، ص ١٦٩.
(٢) انظر: القلقشندي (صبح الأعشى) ج ١٣، ص ٨٥.

بما فيها القدس. ولا بدَّ لذلك الفتح من دولة قوية موحدة وشعب متماسك[1].

وواضح من هذا أن صلاح الدين ترك لمختلف أمراء الشام والجزيرة الوقت الكافي (ستة أشهر) ليكشفوا عن نواياهم تجاهه وتجاه الملك الصالح، وتجاه تراث نور الدين ومملكته، وأخيراً تجاه الفرنج. فتقدَّم ليكون العوض والبديل عن نور الدين في إنجاز مهمته الكبرى. ولم يكن في الساحة أقوى منه ولا أقدر على حملها من منكبيه.

باسم (الجهاد) في سبيل الله ضد الصليبيين تقدَّم صلاح الدين إلى الشام. والتسلُّح بالدين وأوامره كان سلاح العصر، وكان أمراء الشام يردُّون عليه بأنه يتابع طمعه الشخصي ـ الذي قد لا يكون بريئاً كل البراءة منه ـ ولكن السلاح الديني الذي رفعه كان أقوى من دعاواهم، وقد جعله صلاح الدين واجباً جماعياً لا يستطيع الأمراء إنكاره لأنه يهزُّ قاعدتهم الشعبية وشرعية حكمهم، وإذا جابهوه بالعداوة؛ فكأنما كانوا يدافعون عن إقطاعاتهم وخبزهم وسلطانهم، وكلها مهدَّدة بوجوده في الشام، وكما أن السلطة عزيزة غالية على من يطلبها؛ كذلك فإنها عزيزة غالية على من يملكها وقد يفقدها... ولكن صلاح الدين بمجيئه شبيهاً بالمسالم في / ٧٠٠/ جندي كان يحتقر قوى الأمراء، ويراهن على قوى الشعب. وكَسِبَ الرهان بالفعل.

وصل بصرى الشام، وكان صاحبها قد كاتبه فاستقبله. وابن الأثير ينفرد بالقول: إنه خدعه بأن أوهمه بأنه يحمل المال الكثير. وذكر أن القاضي الفاضل قال: إنهم يحملون / ٥٠٠/ ألف دينار فاستغلَّها الرجل؛ وقال: هلكتم وأهلكتمونا... ولم يكن معهم بالفعل سوى عشرة آلاف...[2].

«ولما تيقَّن ابن المقدم من خروج السلطان إلى دمشق أشفق من ذلك،

(١) انظر: القلقشندي (صبح الأعشى): ج١٢، ص٨٥.

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤١٧.

وتذلَّل له ووعده تسليم دمشق إليه. . .»[١] بعد أن كان قد كاتب صاحب الموصل لتسليمها.

وخرج صلاح الدين من بصرى إلى صلخد، فسار معه حاكمها إلى الكسوة على مشارف دمشق، فدخلها في نهاية ربيع الآخر سنة ٥٧١ هـ/ ٢٨ أكتوبر ١١٧٤ م. واستقبله ابن المقدم في عسكره كله، وأنزله في دار والده أيوب وهي دار العقيقي[٢]، ثم خرج إلى دار القاضي الشهرزوري فزاره، وكانت بينهما خصومات منذ كان صلاح الدين على شحنة ـ شرطة ـ دمشق[٣]. ثم حضر حفلاً في الميدان الكبير ـ المرجة غرب القلعة بدمشق ـ ابتهاجاً بقدومه. . وامتنع صاحب القلعة عن تسليمها، فلما أكَّد له صلاح الدين أنه إنما جاء لإقرار شرعية الحكم ودعم الملك الصالح؛ تنازل عنها بالأمان. . وكتب السلطان إلى الملك الصالح فور دخوله دمشق يقول: «إنما جئت من مصر خدمةً لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم. . . فلا تسمع ممن حولك، فتفسد أحوالك ويختل أمرك، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج. . .»[٤]، لكن كيف يصل مثل هذا الكتاب إلى الصبي ودون ذلك كمشتكين المسيطر؟.

على أن صلاح الدين كان يبلِّغ ذلك الأمراء أنفسهم في حلب بهذه الرسالة. وعمد معها على الفور فنشر منشوراً أعلن فيه العفو عن أهل دمشق، وتصميمه على محاربة من اغتصبوا سلطة مولاه وأملاكه، وفاءً للملك الصالح ولحقِّ والده، وتبع ذلك إنفاق الأموال والمناداة بأطراف دمشق وتوابعها باتباع

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٠٥.

(٢) مكانها اليوم في باب البريد في دار الكتب الظاهرية.

(٣) خطب الشهرزوري أمامه فقال أمام الحضور: طِبْ نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك (ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٢٤٣).

(٤) سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان: ج ٨/ ١، ص ٣٢٧.

الأوامر الجديدة[1]، وأمر بإبقاء الخطبة للملك الصالح، وارتاح الدمشقيون وعمَّهم السرور.

وعرف أمراء حلب باحتلال صلاح الدين لدمشق، فاضطربوا وشفقوا وخافوا «وأجمعوا على مراسلته، وبعثوا إليه على الفور» وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرفون أنه أقوى منهم مادياً ومعنوياً، فقد أخطؤوا بالتخطيط للتعامل معه، واعتمدوا على إمكان إثارة ثلاث قوى معهم ضده: الموصل والفرنج والإسماعيلية؛ وهكذا أرسلوا رسولاً هو قطب الدين ينال بن حسان المنبجي برسالة تبرق وترعد. ومع أن صلاح الدين استقبل الرسول بنفسه بالترحاب ثلاثة أيام؛ إلا أنه أدّى الرسالة في النهاية قائلاً: «إن السيوف التي ملَّكتك مصر (ماتزال) في أيدينا، والرماح التي حويت بها قصور الفاطميين على أكتافنا، والرجال التي ردَّت عنك تلك العساكر؛ هي تردُّكَ، وعمَّا تصديت له تصدُّك؛ فقد تعديت طورك.. وجاوزت حدك.. وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده...»، ولم يُجِبْه صلاح الدين على هذا كله؛ بل ضرب عنه صفحاً وتغاضياً، وخاطبه بكلام رقيق؛ وقال: يا هذا اعلم أني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين؛ فقال ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ المُلْك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك. ودون ما ترومه خرط القتاد.. وإيتام الأولاد؛ فتبسَّم صلاح الدين، وأومأ لرجال بإقامته من بين يديه، وتماسك بعد أن كاد يسطو عليه؛ وقال له: والله ما جئت إلا لأستنقذ هذا الملك الصالح من يد أمثالك؛ فأنتم سبب زوال دولته عليه..

وواضح أن أمراء حلب فهموا القضية كلها على أنها تقاسم إقطاعات وأملاك لا جبهة جهاد واحدة.

---

(١) انظر: النوادر السلطانية ص ٥٠؛ وأبا شامة: ج ٢.

وأرسل السلطان يطلب حضور الجند من مصر، وجمع عساكره للتحرك نحو الشمال، ولم يكن بين نزوله دمشق وحركته منها سوى عشرة أيام. في حين صارت دمشق بعد ذلك موئلاً للهاربين أو المطرودين من ظلم الزنكيين ومشاكل الأمراء في حلب. وتبارى الشعراء في ذلك؛ فقال أبو الفتح التعاويذي: (وفي البيت الثاني وصفٌ محكم لصلاح الدين):

أضحت دمشق وقد حللت بجوها مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة في قدرة وتواضع في عزة وشراسة في لين

وقال الشاعر نشر الدولة عن دمشق:

شكت بعده لما توطن غيرها وقالت ـ وكم أمثالها ـ: ليتني مصر!

في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ/ ٨ كانون الأول سنة ١١٧٤ م وصل صلاح الدين حمص، فلم تعانده سوى قلعتها فحصرها. وترك المدينة إلى حماة ـ وكانت مع حمص وسَلَمِيَّة ومرعش إلى الرها في إقطاع فخر الدين الزعفراني ـ والقلعة بيد الأمير جورديك.

في هذه الأثناء كشف أمراء حلب عن جانب من خطتهم لمقاومة صلاح الدين بالتقرب من الفرنج، فقد أطلقوا رأساً من كبار رؤوسهم الخطرين: الكونت (القومص) ريمون الثالث من السجن. وكان نور الدين قد أسره سنة ٥٥٩هـ وهو أمير طرابلس. أطلقوه مقابل ١٥٠ ألف دينار وألف أسير مسلم. وفهم صلاح الدين فوراً معنى إطلاقه، فسرعان ما أصبح هذا الرجل الخطر على الفور وصياً على مملكة القدس وملكها الصغير المريض يتصرف بها كما يشاء. ويبدو أن المفاوضات على إطلاق هذا (القومص) قد بدأت قبل موت نور الدين، وأن إطلاقه تم بعد موته وبعد أن قام الفرنج بالشروط.

حين وصل الرستن جنوب حماه؛ لقيه جورديك صاحب قلعتها ـ وهو زميله القديم في قتل شاور بمصر ـ، وقد اختار الانضمام إليه ثم اقتنع بوجهة نظره في

حفظ مملكة نور الدين، وتطوَّع في أن يكون سفيراً بينه وبين كمشتكين وأمراء حلب للصلح. ولكنه حين وصل حلب اتَّهموه بممالأة صلاح الدين، فقبضوا عليه وأودعوه السجن، فتنازل أخو جورديك لصلاح الدين عن قلعة حماه.

ويظهر أن الملك الصالح عارض أولاً في سجن جورديك، ولكنه أرغم على ذلك وهو صبي دون حول ولا إدراك ناضج. وثقل السجين بالحديد[1]، وأُنزل ببئر القلعة مع ابن الداية وإخوته. وعاد الخبر إلى السلطان وهو ينتظر عند الرستن، فرحل من ساعته إلى حماه، فتسلمها وتسلم قلعتها من شقيق جورديك، ثم مضى بالجيش إلى حلب، ونزل حيالها في ٣ جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م).

وما كان الحلبيون ينتظرون مجيئه، وما راعهم إلا نصب خيمته وأعلامه حول مشارف المدينة، وخافوا أن يتآمر السنيون في البلد مع صلاح الدين فيسلموها إليه ـ كما جرى في دمشق، لذلك قام كمشتكين بعمليتين ذكيتين جداً في حلب القلعة:

١ ـ لعب على الخلاف الطائفي وفاوض الفريق الشيعي في البلد، وهم كثرة كبيرة وتملَّقهم، فاشترطوا عليه إعادة العمل بشعاراتهم التي منعها نور الدين: من الأذان بحيّ على خير العمل، والتكبير خمساً على الموتى، وإعطائهم شرقية الجامع للصلاة، والتذكير بالأسواق، وذكر الأئمة الاثني عشر أمام الجنائز. وغير ذلك مما كان نور الدين قد منعه من قبل، فسمح لهم بكل ذلك ليدافعوا معه.

٢ ـ لعب بعواطف الجمهور، فجمع الناس وكان فيهم الشيعة بالطبع، وأخرج إليهم الملك الصالح الصبي، فخطب فيهم بما وضعه كمشتكين على لسانه: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨، وهو يروي ذلك عن ابن أبي طي.

الأب، وشابُّكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. . . ثم خنقته العَبْرة وعلا نشيجه. فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم وضجُّوا بالبكاء والعويل؛ وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. . . »[1].

ولا شك أن معظم الجمهور كان من الشيعة بعد أن أُعيدت إليهم شعائرهم. وابن الأثير يروي الخطاب بشكل مغاير، ويجعل في مطلعه قول الصالح: «يا أهل حلب؛ قد علمتم مدى إحسان أبي إليكم، وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد يأخذ بلدي. . . » وقصده التمويه بأن حلب كلها بأهاليها كانت في جانبه، ووصف صلاح الدين بالظلم والجحود.

وقد اعتمدنا النص الذي ذكره ابن أبي طي الحلبي وروايته، لأن الصالح لا يمكن أن يذكِّر الشيعة بإحسان أبيه؛ وهو الذي ضيَّق عليهم.

على أن جيش صلاح الدين تأذى من جو الشتاء «وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائلة الأهوية؛ فأرسل إلى حلب يطلب إطلاق ابن الداية وأخويه، وجعل ذلك سبباً لمجيئه. ثم أرسل رسولاً يطلب الصلح، فرفضه كمشتكين. فما كان إلا أن اشتد في قتال البلد»[2]. «وكانت ليالي الجماعة لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان. فأجمعوا أمرهم على تدبير اغتياله بواسطة الإسماعيلية، وكتبوا إلى صاحبهم سنان شيخ الجبل، فأرسل جماعة من فُتَّاكه، واختلطوا بالعسكر، وعرفهم أحد القادة فقتلوه، وجاء قوم إلى خيمة السلطان يقصدونه، فقُتِلوا دون الوصول.

وعلم صلاح الدين أن أصحاب حلب كاتبوا الزنكيين في الموصل، فأرسلوا إليهم لمعونتهم، واتَّضحت خطتهم كاملة حين علم بأنهم كاتبوا

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٠٩، وقد نقل عنه ابن العديم في (زبدة الحلب) وغيره.

(٢) رواية أبي شامة عن ابن أبي طي: ج ٢، ص ٦١٠، وعن الإسماعيلية: ص ٦١٠، وص ٦١٣.

ريموند صاحب طرابلس ليهاجم حمص ويقطع الطريق عليه. إذاً فهو حلف رباعي (حلبي ـ زنكي ـ إسماعيلي ـ فرنجي). وقد وعدوا (القومص) أموالاً يؤدونها وإقطاعات يأخذها. وكتبوا إليه: أنت طليقنا وكنت رفيقنا في الأسر، والآن أنت عتيقنا، وحقّنا عليك متعين وبرهان ذلك بيّن. وقد استجاب (القومص) لطلب كمشتكين، وتقدَّم لحمص وحاصرها (في ٧ رجب سنة ٥٧٠ هـ/ كانون الأول سنة ١١٧٤م).

وأمام هذا الحلف الرباعي وجد صلاح الدين أنه من المصلحة أن يتراجع عن حلب نحو حماه وحمص لحمايتهما، وهكذا عاد (في أول رجب)، فما إن وصل الرستن وسمع القومص بمجيئه حتى ترك حصار حمص، وهرب بجيشه إلى قلعة حصن الأكراد (الحصن)، ودخل صلاح الدين المدينة وجدَّ في أخذ قلعتها حتى فُتحت عنوة، ووجد أن ثَمَّ ثغرة باقية في المنطقة هي بعلبك، وكان أمراء حلب يعتمدون عليها في المقاومة، وعليها القائد (يمن)، فما إن وصلها صلاح الدين حتى استسلم له (٤ رمضان سنة ٥٧٠ هـ) بعد أن قطع الأمل من جماعة حلب[١]، واختار السلامة. وكتب صلاح الدين إلى أخيه بدمشق يبشِّره بفتح بعلبك سلماً: «أغمدت فيه السيوف ورغمت فيه الأنوف ـ أنوف حلب »ـ[٢]، وسُلِّمت معها قلعتها. وصار صلاح بذلك يملك من الشام ما بين أيلة إلى بصرى إلى دمشق وحمص وبعلبك وحماة، أي معظم الداخل الشامي. ومن الطريف أن نعرف الموقف الفرنجي من هذا التوسع الصلاحي السريع، فقد كتب وليام الصوري صفحة هامة حول دخول صلاح الدين إلى الشام؛ قال فيها:

---

(١) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية: ج ٢، ص ٩٧٨ ـ ٩٧٩، من الطبعة العربية؛ والكاتب كان رئيس أساقفة صور في عهد نور الدين وصلاح الدين، وقد توفي على الأرجح في أكتوبر سنة ١١٨٦ م قبل معركة حطين بحوالي سنة، وقد أدخلنا تعديلات طفيفة جداً على النص بالاعتماد على نص الكتاب بالفرنسية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

«وفي هذه السنة ـ ١١٧٤ م ـ استدعى أعيان دمشق البارزين سراً صلاح الدين من مصر، وكان الملك الصالح بن نور الدين قد جعل مقرَّه في حلب. فأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف الدين (العادل)، وأسرع عبر الممرات الصحراوية للشام، ووصل دمشق ليستولي على المملكة، وتقدَّم بعد بضعة أيام، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ضمَّها إلى سورية المجوفة ـ الوسطى ـ حيث أمل في وضع جميع مدن المنطقة تحت حكمه دون حرب. وثبت أن هذا الأمل كان صحيحاً؛ إذ استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعاً. . . وهكذا وخلافاً للولاء الذي كان مديناً به لسيده وحاكمه؛ استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الإقليم أي مدينة (هليو بوليس) ـ بعلبك ـ ومدينة حمص المسماة عموماً باسم كاميلا، وحماه وشيزر ـ قيسارية الكبيرة ـ وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة (!)، إلَّا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة. . .».

«هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة، وكان الملك ـ ملك القدس ـ قد تلقَّى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل عندما توشك تغييرات هامة أن تحدث، وتقرَّر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء وبموافقة الجميع أنه ينبغي على الكونت (القومص صاحب طرابلس) أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة، وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدُّم صلاح الدين، وكان هذا إجراءً حكيماً؛ لأن أي زيادة لقوة صلاح الدين كانت سبباً للريب في نظرنا. وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضرّ تماماً بمصلحة المملكة؛ لأنه كان رجلاً حكيماً في الرأي وشجاعاً في الحرب، وسخياً بشكل يفوق الحدود، ولهذا السبب بالذات ارتاب به نبلاؤنا الذين كانت لهم بصيرة أشد. فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل

يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم أو قلوب سواهم. . . وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء، خاصة عندما تأتي من الأمراء. ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية؛ لأن صلاح الدين إذا زاد في حجم ممتلكاته ووسع امبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة بقوات كبيرة. ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من ذي قبل. هذا وكانت جميع المحاولات للتصدِّي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها. ونرى اليوم، بعيون باكية أن مخاوفنا قد تحققت، لأنه قد نهض بقوة جبَّارة ضدنا برّاً وبحراً، وليس لدينا أي أمل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين».

«وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى (الصالح) الذي لم يكن قد بلغ سن الرُّشد بعد، ليس بإبداء بعض اللطف نحوه إكراماً له. بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خططه، وتقليل فاعلية هجماته على المملكة. . .»[1].

ولنلاحظ في النص السابق كلمة **النصيحة**، ولعلَّ كاتبه يقصد كتاب حلب بدعوة الفرنج لمقاومة صلاح الدين. ولنلاحظ أمراً آخر هو أن سلسلة: مودود جاولي ـ زنكي ـ نور الدين ـ صلاح الدين لم يمد واحد منهم يده للاستعانة بالفرنج ضد المسلمين، في حين أن عدداً من الأمراء الآخرين (مثل رضوان في حلب ـ وطغتكين في دمشق ـ وكمشتكين وغيرهم) تعاونوا في بعض الفترات مع الفرنج.

ووليام الصوري يضيف بعد هذا قوله عن نور الدين بعد ملكه الشام ومصر: «وهكذا أصبحت جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد، وتنفذ أمر رجل واحد، وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط، وأن تحمل

---

(١) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية: ج ٢، ص ٩٧٨ ـ ٩٧٩.

السلاح حتى على مضض لإلحاق الضرر بنا، ولا يجرؤ أحد على (الرفض). وصلاح الدين هذا ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع، (وهو) يسيطر الآن على جميع هذه الممالك لأن القدر ابتسم له بلطف كثير. وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ـ المعروف بالأبريز ـ وتزوده أقاليم أخرى بمجموعات لا تحصى من الفرسان والمقاتلين، رجال متعطِّشون للذهب، وهي مسألة سهلة بالنسبة لمن يملك كميات وافرة منه، ونكمل الآن القصة.. فقد جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة، وأسرع بالتوجُّه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة وتمركز في مدينة عرقة.

في هذه الأثناء كان صلاح الدين قد تمرَّد الآن على سيده الشرعي بتحدٍّ واضح للقوانين الإنسانية، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة، وبإنكار المساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الفتى».

ثم يقول عن حصار حمص من الفرنج:

«وأرسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص (وهي محصَّنة بشكل جيد ومزوَّدة بالأسلحة) رسلاً إلى كونت طرابلس وإلى قواتنا (في عرقة)، وكانت تنتظر على أنه بحدوث هذا الاضطراب الهائل لا بد أن هذا الطرف أو الآخر سيستدعيهم وفق الشروط المرغوبة؛ وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسَّلوا إليهم للقدوم دون تأجيل، وأن يَعِدُوهم بمكافئة لائقة. وكان في هذه القلعة ـ بحمص ـ رهائن كان الكونت قد أعطاها لنور الدين مقابل إطلاق سراحه كضمان لمبلغ ٦٠ ألف قطعة ذهب، كما كان يحتجز فيها رهائن قدمها (رينو) صاحب صيدا لاسترداد أخيه (يوستاس). وأسرع المسيحيون بالزحف مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إطلاق سراح هؤلاء الأسرى، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد على أقوال الكفرة؛ حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بجهود الأمير المذكور (صلاح الدين). وزادت حقيقة أن المسيحيين انسحبوا كالغاضبين من عجرفة صلاح الدين...».

وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقدمه الظافر، ويتركه للصراع منفرداً مع حلب والآخرين، وعرض أن يطلق سراح الرهائن في حمص دون دفع المال؛ فوافق الكونت، وصرف النبلاء الذين شاركوا في الحملة بسخاء. . .»[1].

ونتساءل عن السبب في إطلاق الرهائن في حمص لنجد أن تحالفاً جديداً قد تمَّ بين حلب والموصل أثناء الفترة القصيرة من الراحة التي أعطاها صلاح الدين لجنوده بعد فتح بعلبك وعودته منها إلى دمشق. فقد علم أن انسحابه عن حلب فُسِّرَ على أنه ضعف وتخاذل فاجتمعت جيوش الموصل مع جيوش حلب، وأرادوا أن يستغلُّوا فرصة انشغال صلاح الدين بحمص وبعلبك وتسريح جنده وإراحته. وكان بحمص حين مشوا بالجيشين من حلب إلى حماة، فاستنفر السلطان جنده ومشى بما عنده بعد أن استدعى الجند من مصر إلى المتحالفين الذين تأملوا أن يساندهم الكونت من طرابلس، فقام صلاح الدين بإرسال الرسالة المذكورة إليه من جهة، كما أرسل رسالة مماثلة مع فريق من الجند إلى شقيق سيف الدين صاحب الموصل، وكان عماد الدين في سنجار، وكان مخاصماً لأخيه مع أنه كبير الزنكيين، ومنَّاه فيها بولاية الموصل، فلم يشارك في التحالف، وغضب أخوه منه، وذهب لحصاره في سنجار، وأرسل الجيش مع قائده الأول (زلفندار).

وكان قصد صلاح الدين واضحاً من الرسالتين، فهو يريد أن يأمن على جبهته الواسعة مع الصليبيين والممتدة من حدود مصر حتى حماة من جهة لئلا

---

(١) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٩٨٢ ـ ٩٨٣. مع بعض الاختصار، وقد ذكر (رانسيمان) في كتابه عن الحروب الصليبية أن كمشتكين شكر الملك الفرنجي على تدخله وأطلق الأسرى في حلب، ولم نجد هذا الشكر لدى وليام الذي يستند إليه (رانسيمان)، وإنما وجدنا فقط إطلاق الأسرى (ص ٩٨٦ ـ ٩٨٧).

يضطر للحرب على جبهتين. . هذا من جهة، وأراد من رسالته إلى صاحب سنجار أن يمنعه من الانضمام إلى التحالف الموصلي ـ الحلبي. وقد نجح في الثانية، لكن الصليبيين، وإن لم يتمسكوا طويلاً بالحياد؛ إلا أنهم لم يستغلوا الفترة القصيرة التي واجه فيها صلاح الدين جيش المتحالفين، وكان هذا يكفيه منهم مؤقتاً.

وصلت جيوش التحالف إلى حماة، وطلبوا من نائبها لصلاح الدين علي بن الفوارس تسليمها بحجة أنهم جاؤوا مسالمين، وقالوا: إنما وصلنا للصلح والاجتماع فيما يعود على الجانبين بالنصح والنجح[١].

فكتب النائب إلى صلاح الدين يحثُّه على القدوم لعلَّ الصلح يتم. ووصل السلطان بجمع يسير من عسكره، وهو يرجو هذا الصلح، والتقى بالأمير سعد الدين كمشتكين أتابك حلب، وبشهاب الدين أبو صالح ابن العجمي. وقد طلب منه التنازل عن كل الحصون التي فتحها في الشام، فأجابهم إلى طلبهم شريطة أن يكون نائباً عن الملك الصالح، وتبقى له دمشق فقط، بعد أن أقسم أن يسلك مع الصالح سبيل الأمانة والرعاية لِحَقِّ والده. فرفض أعضاء التحالف وحسبوا تساهله ضعفاً، واغترُّوا بقوتهم حين رأوا قلة عسكره. . فاشتطُّوا في الطلب، وطلبوا منه منطقة الرحبة وأعمالها لكي يحرجوه أمام ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد أقطعه إياها، وغرضهم أن يشقوا صفوفه مع أقربائه بضرب قوته من الداخل، فامتنع، وقد عرف المقصد من الطلب، فأخذ يداريهم ويماطلهم لأن القوات القليلة معه لا تكفي لقتالهم في انتظار أن يلحق به جنده، فنهض مقدمو حلب والموصل من مجلسه إلى مخيمهم، ثم ساروا بعسكرهم موازين لنهر العاصي عند شيزر، وأظهروا أنهم يريدون الحرب.

ولحق بهم صلاح الدين حتى موقع (قرون حماة)، وحاول مرة أخرى

(١) البنداري (سنا البرق الشامي): ج ١، ص ١٨٦.

مصالحتهم، واجتهد في ذلك. وعرض التنازل عن حمص وحماة وبعلبك وتبقى له دمشق، فأصرُّوا على أن يتنازل عن الشام ويعود إلى مصر؛ وكان قاسياً عليه قتال المسلمين بعضهم لبعض من حيث المبدأ، لكنهم رفضوا المصالحة ورأوا أنهم يربحون حربه، فاضطر للقتال على كره، واستنفر عسكره في كردوس واحد، حتى تصل عساكره من المدن القريبة، وفي يوم الأحد (١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ/ ١٣ نيسان سنة ١١٧٥م) التحم معهم في معركة حامية، وكان كردوس صلاح الدين يحارب ميمنة وميسرة لسد النقص في عدد الجند ومشاغلة الوقت. وكانت الأمداد تأتيه تباعاً من المواقع القريبة، حتى وصل العسكر من مصر في عشرة من المقدمين الكبار؛ ومنهم تقي الدين عمر وعز الدين فروخ شاه ـ ابن أخيه ـ وشهاب الدين الحارمي ـ خاله ـ وجماعة من خواصه ورجاله، فاندفعوا في المعركة بقوة زلزلت الجيش الحلبي ـ الموصلي فانهزم مولّياً الأدبار تاركاً أثقاله وأحماله، وأسر جماعة كبيرة منه، رغم ثبات عز الدين مسعود ـ شقيق صاحب الموصل ـ بعض الثبات. وغنم صلاح الدين كل ما كان معه[1]!.

وأمر بعد فرار العسكر الزنكي الحلبي أن لا يتبع مدبر ولايذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في الأسر حتى قيل ـ حسب المقريزي ـ أنه لم يقتل في هذه المعركة أكثر من سبعة أنفس. ثم تبع المنهزمين إلى قرب حلب، وكان على عزم حصارها الثاني حين راسله الحلبيون يطلبون الصلح على أن يكون لهم ما بأيديهم، وله ما بيده من جنوب حلب حتى مصر!. فوافق صلاح الدين (في ١٠ شوال سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٠م) أي تنازلوا لصلاح الدين أيضاً عن كفر طاب والمعرة. واستوثق منهم بالأيمان المغلّظة على شروط هذا الصلح،

(١) انظر تفاصيل المعركة والمفاوضات لدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢؛ والبنداري: سنا البرق: ج ١، ص ١٩٠ ـ ١٩١؛ وأبا شامة: ج ١، ص ٦٣٦ ـ ٦٣٩؛ والسلوك للمقريزي: ج ١، ص ٥٩.

فأجابوه. وطلب إطلاق سراح ابن الداية وإخوته من السجن، وقبلوا. فانسحب عن حلب إلى قلعة بعرين، فنزل له صاحبها ابن الزعفراني عنها، فأعطاها لخاله الحارمي.

ويقول ابن أبي طي إنـه: «كان في جملة اليمين أنـه متى قصد الملك الصالح عدوٌ، حضر صلاح الدين بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولايات أصحابه، وأن تكون السكة باسمه»[1].

ويعزو ابن الأثير هزيمة التحالف إلى القائد (زلفندار) الذي كان على حدِّ قوله: «جاهلاً بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه...» وغنم الجيش الصلاحي «غنائم كثيرة وآلة وسلاحاً عظيماً ودواب فارهة...».

وأما ابن أبي طي فيعزو الهزيمة إلى أن صلاح الدين استفسد جماعة من عسكر التحالف، كما وصلته النجدة في الوقت المناسب، ولولا ذلك «لم يقدر على الثبوت ساعة»[2]. وذلك لتمام سعادته.

كانت أصداء معركة القرون خطيرة بقدر ما كانت نتائجها خطيرة، فإن السلطان ما وصل حماة في طريق العودة حتى وصلته رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام عدا حلب؛ فأصبح السلطان الشرعي والأكبر والأقوى في المنطقة كلها، والوارث الحقيقي لنور الدين في مبادئه؛ وهذا ما أحفظ عليه الزنكيين المهزومين، وزاد في حقد الحلبيين والفرنج معاً، ودفع ذلك كله إلى تجدد القتال، وكأنَّ الصلح مع حلب والأيمان كانت لغواً.

فأما الفرنج فقد استغلُّوا فرصة انشغال السلطان بحصار حلب وقلعة

---

(١) أبو شامة: ج ١، ص ٦٣٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بعرين في الشمال، فقاموا بغارة مفاجئة على حوران جنوب دمشق. يقول الصوري: « وصلت في هذه الآونة فيما كان صلاح الدين منشغلاً بانهماك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب: أخبار مفادها أن منطقة دمشق خالية من جيش يحميها.. وفريسة سهلة لأي عدوّ بموجب حق الحرب. وجمع الملك (بلدوين) قوة من الفرسان وعبر الأردن، ومرَّ خلال الغابة الواقعة قرب مدينة بانياس، وكان ذلك في زمن الحصاد، وتفرَّقت قواتنا في السهول وأودعت النيران في المحاصيل النامية والبيادر ومخازن الحبوب، فيما اختفى المزارعون في الأماكن الحصينة. وتقدَّمت قواتنا حتى داريا ـ وهي بلدة في جنوب دمشق على أربعة أميال منها ـ ثم تقدَّمت إلى عين الجسر ـ عنجر حالياً ـ عند سفح لبنان، واستولت عليه، ثم رحلت ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين.. »[1].

حين عاد صلاح الدين إلى دمشق عرف بهذه الأمور كلها، لكن ما علمه من تجديد التحالف الزنكي ـ الحلبي صرفه مؤقتاً عنها، فرحل إلى حلب بجيشه للمرة الثالثة، واستغلَّ الفرنج الفرصة مرة أخرى بدفع من جماعة حلب لمهاجمة البقاع. يقول وليام الصوري في ذلك:

«ثم استدعى الملك في الأول من شهر آب سنة ٥٧٢هـ زعماء المملكة فيما كان صلاح الدين ما يزال منشغلاً أمام حلب، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد؛ فعبر صيدا، ثم صعد الجبال الواقعة بين أراضينا وأراضي العدو.. ونزل من هناك مجدداً إلى وادٍ يدعى البقاع.. وهي منطقة تربتها خصبة ومياهها صحية وسكانها كثر في القرى الكثيرة، وفي أسفلها مدينة ذات أسوار قوية هي (عين جر)، فبدأت قواتنا منذ وصولها باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق، وأشعلت النار في كل شيء. ولم يمنعهم أحد من السكان الذين هربوا إلى الجبال ودفعوا القسم الأكبر من قطعانهم إلى الغياض الواقعة في

(١) وليام الصوري: ج ١، ص ٩٨٤ ـ ٩٨٥ (الترجمة العربية).

منتصف الوادي. وتقدَّم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده بعدما عبر سهل جبيل، حسب ترتيب مسبق. وأسرع شعبنا بتلهف إلى المنطقة المجاورة لبعلبك وشرع في إحراق كل شيء، وتلاقى الجيشان في منتصف الوادي.

كان شمس الدولة، أخو صلاح الدين في دمشق حاكماً لها، فجمع قواته، واستعدَّ للزحف، ورتَّبنا قواتنا للمعركة، وحارب الجانبان بشجاعة، وقُتل الكثيرون وجُرح عدد أكبر، ووقعت أعداد كبيرة في الأسر، إلا أنه تمَّ في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار، ونجا شمس الدولة مع قليل من أتباعه إلى الهضاب. وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغُّل في الغياض للنهب. وعاد المسيحيون بالمغانم مع قطعان المواشي وكميات كبيرة من الأغنام، كما قفل كونت طرابلس بغنيمة ثمينة ضخمة، وعاد إلى ممتلكاته مع قواته...»[1].

وواقع الأمر أن شمس الدين محمد بن المقدم صاحب بعلبك أتاه خبر بأن جمعاً من الفرنج قصدوا البقاع، وأغاروا عليها، فسار إليهم وكمن لهم في الغياض، وأوقع بهم، وقَتَّل فيهم وأكثر. وأسر نحو مئتي رجل منهم وسيَّرهم إلى صلاح الدين.

وكانت هذه الهجمة على ما يبدو مجرد استكشاف لقوة الموقع تبعها هجمة ملك القدس، وأمير طرابلس. وكان شمس الدولة توران شاه قد عاد من اليمن إلى دمشق، فسمع بخروج الفرنج إلى البقاع، فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر ـ عنجر ـ فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا بجمع من أصحابه، وأسروهم، ومنهم سيف الدين أبو بكر بن السلار ـ وهو من أعيان الجند الدمشقيين ـ. واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر

(١) وليام الصوري: ج ١، ص ٩٨٤ ـ ٩٨٥ (الترجمة العربية).

الذي نالهم من ابن المقدم. . . »[1].

ومن الصعب أن نتصور أن هاتين الحملتين كانتا من مبادهات صاحب القدس وأمير طرابلس، وأن الأخبار التي وصلتهما من حلب لم تكن مرسلة من صاحب حلب، بدليل أن الجماعة الحلبية أطلقت الفارس (أرناط) من السجن بعد ١٦ سنة من أسره، وكان يوم أُسِر أمير أنطاكية، وقد أسره نور الدين. كما أُطلق معه (جوسلين) كونت الرها وخال ملك القدس، وذلك بجهود (الكونتس) والدة الملك، وبفدية كبيرة لأرناط دفعها أصدقاؤه، وتوجَّه الاثنان إلى طرابلس؛ وسواء كان إطلاقهما قبل هذه الحملات التخريبية أو بعدها، فقد كان نتيجة اتصالات مسبقة، وكان الثمن الذي قدَّمه جماعة حلب أو البرهان الذي قدَّموه ليثق بهم الفرنج ويقوموا بحملاتهم.

وما إن عاد صلاح الدين إلى دمشق منتصراً على حلب مصالحاً لها، حتى أدرك الفرنج أنهم راهنوا على الجواد الخاسر، وأن مهادنة صلاح الدين قد تكفّ عنهم ثأره لهجماتهم «وقد خافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون ـ وهو في مرج الصفر ـ الهدنة، فأجابهم إليها وصالحهم بشروط قبلوها. . . » في المحرم سنة ٥٧٢هـ.

وأمر العساكر المصرية بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين، فيما بعد. وإنما هادن الفرنج فيما يبدو لسنتين ليريح جنده، وكانت الشام في سنة محل شديد، ونقصٍ في الغلَّات كبير، وقد هجرها الكثيرون إلى مصر وغيرها.

وأما سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقد سمع ـ وهو ما يزال يحارب أخاه في سنجار ـ بأمر الهزيمة، ثم بأمر الصلح مع جماعة حلب،

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٣٧.

فغضب أشد الغضب، وكان شاباً ضعيف السياسة في قرابة الثلاثين من العمر، فصالح أخاه بعد أن كادت سنجار تسقط في يده، وهرع إلى الموصل يجمع القوات من جديد للانتقام من صلاح الدين، وبعث إلى جماعة حلب يعتب عليهم ويوبخهم، ونسبهم إلى التسرع والضعف وعدم الحزم حتى حملهم على نقض الصلح والنكث بالأيمان، وأنفذ من أخذ عليهم المواثيق من جديد بالتحالف معه ضد السلطان الجاحد! وبعث برسول من عنده إلى صلاح الدين بدمشق ليأخذ له عهداً بعدم مهاجمته بعد أن تجاورت أرض الطرفين في الشمال، ولم يكن القصد من الرسول هو هذا العهد؛ ولكن التعرف إلى قوته وخططه المقبلة والتجسس على قواه.

واتفق أنَّ هذا الرسول حين مثل أمام صلاح الدين أخرج من كمه لسوء حظه ـ نسخة العهد التحالفي بين الحلبيين وصاحب الموصل بدلاً من العهد الذي يحمله لصلاح الدين. فلما استلمه منه وقرأه انكشفت له اللعبة، وعرف بالوثيقة نقض الحلبيين للصلح من ورائه، واتفاقهم مع سيف الدين، فأخفى ما علم. وقال للرسول: لعلها تبدَّلت.. فارتبك الرسول؛ فقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصِلَة وفي شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم منا؟ وصرف الرسول ليستعد لهذا الحلف مرة ثالثة. وأرسل إلى أخيه يستدعي عسكر مصر، وكتب إلى الخليفة كتاباً طويلاً يفصِّل فيه ما جرى ـ من إنشاء الفاضل ـ وفيه:

«يطالع أن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح.. اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات ـ الحرب ـ إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يميناً جعل الله فيها حَكَماً... وعاد رسوله ليسمع منا اليمين. فلما حضر وأحضر نسختها أومأ يده ليخرجها، فأخرج نسخة يمينٍ كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها

الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد والاستنفار لمن هو على قربنا وبعدنا. وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمين عن الأيمان خارجة وأردت عمراً وأراد الله خارجة..

وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزَّهنا الله أن يكون اسمه معرَّضاً للحنث العظيم والنكث الذميم... والمواقف الشريفة ـ يعني الخلافة ـ النبوية أعلاها الله، مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه...».

وبعد أن ذكر أمر الفرنج قال: «والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كافر فما يجاورهم إلا بلاده، ولا يقارعهم إلا أجناده». ثم طلب خروج الأمر ـ من الخليفة ـ بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للملوك ـ أي صلاح الدين ـ على المشركين أعواناً، وأن يتمثَّلوا أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنياناً؛ فيعضدوه إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدَّس؛ الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترقُّ على صخرته. والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك.. ولا أقل من أن لا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده، حريصين على إيصال المكروه إليه...»[(1)].

ويبدو أن صلاح الدين في هذه الفترة، وبعد أن رأى نقض الصلح من الحلبيين ألغى الخطبة للملك الصالح على المنابر، وأزال اسمه عن السكة المضروبة معتبراً أن نقضهم قد حلَّله من يمينه، وأن مرسوم الخليفة قد منحه السلطنة له على مصر والشام. ولهذا لن نجده ـ بعد أن انتصر في المعركة المقبلة ـ يطالب بتربية الملك الصالح، ولا بالإشراف عليه؛ معتبراً أنه أضحى

---

(1) ابن شداد: ج ٢، ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

نهائياً في الجانب الآخر المعادي له، أو أنه يُستخدم من الجانب المعادي.

وبهذا الشكل قطع صلاح الدين آخر صلة كان يحرص عليها وفاءً لنور الدين مولاه السابق وللبيت النوري.

في هذه الأثناء كان سيف الدين غازي قد جمع عساكره من الموصل وديار بكر واستنجد بصاحب حصن كيفا وماردين، وأنفق الأموال الكثيرة على إعداد الحملة الكبيرة التي نزل بها على نصيبين ـ ربيع الأول سنة ٥٧١ هـ/ أيلول ١١٧٥م ـ، وأقام هناك حتى انتهى موسم الشتاء والأمطار والثلوج والبرد، ثم سار فعبر نهر الفرات إلى حلب، وخيَّم في غربها. وراسل الحلبيين مراراً في مراسلات طويلة، كانوا خلالها يتلكؤون خائفين من هزيمة أخرى، حتى همَّ سيف الدين أكثر من مرة في العودة إلى الموصل، وترك المقاومة لصلاح الدين، وأخيراً نزل إليه كمشتكين الخادم مدبر دولة الصالح ومعه عساكر حلب. وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لأنه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة ـ ٥٧٢ هـ ـ وقد سيَّر عساكره إلى مصر فأرسل يستدعيها.. فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه، لكنهم تريَّثوا وتأخروا عنه، فجاءته عساكره، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين(١).

والتقى العسكران بتل السلطان(٢)، وكان سيف الدين قد اجتمع قرب قلعة حلب بابن عمه الملك الصالح الذي عانقه وبكى، ثم افترقا وعاد الصالح إلى حلب... وكان عسكر كمشتكين يخرج إلى خدمة سيف الدين كل يوم، ثم غادر السيف بجيشه الكبير إلى تل السلطان وسبق صلاح الدين إليه، بعد أن توثق من تصميم كمشتكين على مقاومة صلاح الدين، وعلى وجوب التعاون مع الصليبيين للهدف نفسه، ولهذا الغرض أطلقوا سراح الأسيرين المزمنين

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٢٧ فما بعد، ولديه تفاصيل عديدة.

(٢) سمي باسم السلطان ألب أرسلان السلجوقي الذي خيَّم فيه بجيش جرَّار هائل محاصراً حلب في طريقه إلى مصر

عندهم أرناط وجوسلين. ولا شك أنهم طلبوا إليهما العمل على وقوف الفرنج بجانبهم وضرب صلاح الدين من ظهره ما استطاعوا باعتباره العدو المشترك. وفي ذلك تأييد للملك الصالح لا كعدوّ ولكن كخصم لصلاح الدين.

خرج السلطان من دمشق (في أواخر رمضان سنة ٥٧١هـ/ نيسان ١١٧٥م)، وكان يجتاز نهر العاصي بعد حماة. ثم وافى جيش التحالف عند تل السلطان.. والتقى العسكران، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان، فحمل بنفسه «وركب أكتافهم وأخرجهم من خيامهم، ووكّل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فروخ شاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدَّاه، وانكسر القوم ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين (ثم مَنَّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم) ونزل في السرادق السيفي فتسلَّمه بخزائنه واصطبلاته ومطابخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجود، وفرَّقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود؛ ووجد في السرادق الخاص طيوراً، فأرسلها ليلعب بها سيف الدين مع الجواري والحظايا، وقد شنَّع عليه الناس بوجود المغنيات والخمور في عسكره.

وفيما أمر السلطان برفع السيف عن الناس، وترك التعرُّض لمن وجد منهم يقتل أو ينهب، كان سيف الدين لا يصدق كيف يصل إلى حلب، حتى أخذ منها خزائنه وتابع هربه مع من سلِمَ من أصحابه، حتى قطع الفرات وصار إلى الموصل، وهو لا يصدق النجاة، كما صار عسكر حلب إليها في أقبح حال، وبعضهم عراة حفاة، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون.. وخافوا من أن يقصدهم السلطان، فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان فعلاً، وخيَّم على حلب أياماً؛ ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والقلاع فنفتحها، فإنه إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها؛ فصوَّبوا رأيه.

وابن الأثير ينسجم مع ولائه الزنكي ومع موقفه المضاد لصلاح الدين، فيتلمس الأعذار لهزيمة مولاه سيف الدين، بل يتجاهل هذه الهزيمة تماماً في

كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية، ويشير في كتابه الكامل إلى أن سببها هو القائد (زلفندار) الذي وصل عسكر صلاح الدين إلى ساحة المعركة في تل السلطان، وهو تعِب أشدّ التعب، بالإضافة إلى عطشه، وقد وقعوا على الأرض ليس فيهم حركة، وأشار جماعةٌ على سيف الدين بالهجوم عليهم وهم على تلك الحال؛ إلا أن (زلفندار) قال: ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة. غداً بكرة نأخذهم، فلما أصبحوا واصطفوا للقتال؛ جعل زلفندار أعلام (الجيش) في وهدة من الأرض، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنُّوا أن السلطان ـ سيف الدين ـ قد انهزم، فلم يثبتوا وانهزموا»[1].

وقد ناقش ابن الأثير أيضاً عدد الجيش الزنكي لأن العماد الأصفهاني ـ وكان يعادي الزنكيين ـ ذكر أن سيف الدين كان في ٢٠ ألف فارس، فكذبه وقال: إن العدد كان ستة آلاف فقط، وأنه مطّلع على جريدته التي كانت عند أخيه مجد الدين ـ وأولاد الأثير ثلاثة إخوة كلهم لامعون ـ وأضاف يقول: قصد العماد أن يُعظّم أمر صاحبه والحق أحقُّ أن يُتَّبع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس؟»[2].

وذكر أيضاً أنَّ عسكر سيف الدين «أطال البقاء في نصيبين حتى انقضى فصل الشتاء، فضجر العسكر، ونفدت النفقات، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا مع طول المقام بالشام بعد هذه المدة».

وصرف صلاح الدين همَّه إلى السيطرة على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً ليفرض عليها الحصار الذي يدفعها إلى الاستسلام، وتقدَّم إلى بزاعة فتسلمها (٢٢ شوال/ ٥٧١ هـ)، ثم منبج فأخذها، وكان حانقاً على صاحبها (ينال المنبجي) يوم فظاظته معه، وهو رسول الحلبيين إلى دمشق..

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٢٧.

(٢) المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٢٩.

وامتنعت عليه قلعتها، فضيّق عليها وامتلكها عنوة مع أخذ مدخراتها التي يقدِّرونها بستمئة ألف دينار من عين ونقد ومصاغ وغير ذلك ما يساوي ألفي ألف دينار(١).

وفي الرابع من ذي القعدة تقدَّم إلى مدينة (عزاز) فحاصرها ٣٨ يوماً، ونصب عليها المجانيق، واتّفق أثناء الحصار أن حاول ثلاثة من بعض الإسماعيلية الواحد بعد الآخر الوثوب عليه وقتله. وكان وراء هذه المحاولة الثانية أمراء حلب مما زاده حنقاً وإصراراً، وزاد جنده حميّة لفتح المدينة، حتى كثرت الثقوب في قلعتها، وطلب حاكمها الاستسلام، وتسلّمها صلاح الدين في ١١ ذي الحجة ٥٧١هـ/ ٢٦ يونيو (حزيران) سنة ١١٧٦م، وعاد فضرب الحصار حول حلب في ١٥ من الشهر نفسه، وجبى أموال المنطقة، وأقطع ضياعها. وكان كمشتكين قد خرج إلى حصن حارم، فقطع طريق العودة عليه إلى حلب، وكان يخاف أن يقع صلح مع حلب وهو غائب، فيبقى منقطعاً؛ فراسل صلاحَ الدين يرجوه أن يفسح له في الدخول إلى حلب، فإذا فعل «سارعتُ في الخدمة، وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل الملك الصالح والأمراء يقول: قد حصلت خارجاً، وقد بلغني أمور، ولا بدَّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم، فإن الذي حصل عندي لا يمكن الكلام فيه.. فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له بدخول حلب؛ فأذن. وكان صلاح الدين يمنع دخول أي شيء إليها أو أن يخرج منها أحد»(٢).

وتبادل السلطان مع أمراء حلب نسخ اليمين على الصلح، فلم يقبلها الأمراء الحلبيون، وكانت مجرَّد حيلة احتالها كمشتكين لدخول المدينة، فاستمرَّ السلطان في الحصار حتى مطلع سنة ٥٧٢ هـ، بعد أن أطلق رهينهم

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠؛ ومرآة الزمان ٨/ ١، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥؛ وابن العديم: زبدة الحلب ج ٣، ص ٢٧ ـ ٢٨؛ وأبو شامة: ج ٢، ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩، و٦٦١ ـ ٦٦٢.

عنده؛ فلما يئس الحلبيون، عادوا إلى التذلُّل وطلب الصلح، فأجابهم السلطان وعفا عما سلف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها مع أن الخليفة العباسي أعطاه حكمها، وزاد صلاح الدين فأعطاه معها بلدة (عزاز)، إذ أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين في الليل، فلما دخلت عليه قام قائماً وقبّل الأرض، وبكى على نور الدين، فسألته أن يرد عليهم بلدة عزاز؛ فقال: سمعاً وطاعة، وأعطاها إياها، وأكرمها إكراماً عظيماً، وقدَّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً. ثم اتَّفق مع الملك الصالح أن له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد ابن الداية، وحلف أمراء حلب له على كل ما اشترطه واعتذروا عن كل ما أسخطه. وكان الصلح عامّاً لهم وللمواصِلة وأهل ديار بكر. وكتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحد وخالف؛ كان الباقون عليه يداً واحدة.. حتى يفيء إلى الوفاء.

فلما انتظم الصلح رحل السلطان لتأديب الإسماعيلية وشيخهم سنان، فحاصر حصنهم مصياث ـ مصياف ـ، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبقارهم وهدم ديارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين الحارمي حاكم حماة، وكانوا راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فكفَّ السلطان عنهم؛ لأنه علم أن الفرنج أغاروا على البقاع وقاتلهم صاحب بعلبك، وأخذ منهم مئتي أسير أحضرهم إلى السلطان وهو على مصياث؛ فصالح صلاح الدين سناناً، وعاد إلى دمشق.

وابن الأثير يعلِّل الصلح مع أمراء حلب بأن «أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنهم ربَّما ضعفوا، وصلاح الدين رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد، ولا على قتال مَن به، فأجاب للصلح، وتقرَّرت القاعدة في الصلح للجميع: للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ـ حصن كيفا ـ ولصاحب ماردين.. وتحالفوا...»، وفي قوله مغالاة بقوة الحلبيين ليحجب بذلك المبدأ الرئيسي الذي كان يعتمده صلاح الدين، وهو

العفو عند المقدرة، وقد برهن على ذلك عشرات المرَّات من قبل، وفي مختلف المواقف. وهذه السياسة بالذات هي التي كانت ترفع من شأنه، وتزيد في سمعته الشعبية تألُّقاً وتقديراً. وكان كلُّ همّه أن يصل إلى ما يريد بأقل ما يمكن من إراقة دماء المسلمين، وأن يدخل الجميع في خط واحد هو معركة الجهاد ضد الصليبيين، ومتى تمَّ له ذلك اكتفى.

ولو كان أمراء حلب من القوة بحيث لا يستطيع صلاح الدين أن يدنو من البلد، فهل يعقل أن يصالحوه بعد أن هزمهم مرات عديدة إلاَّ مرغمين؟.

كانت نقطة القوة الوحيدة لديهم أنهم يطوِّقون الملك الصالح، بمعنى أنهم كانوا يملكون الشرعية؛ وهدَف صلاح الدين أن يسلبهم هذه القوة بالذات.. فصالحهم وعفا عنهم ثلاث مرَّات في هذا السبيل دون نتيجة، حتى شعر أنه بقوته وبتوقيع الخليفة مستغنٍ عنها، فاستغنى! وكانت سنة ٥٧١ هـ بما سبقها من أشهرٍ معدودة، وما لحقها من أسابيع قليلة؛ هي فترة الغضب الكبرى في حياة صلاح الدين.. وكانت تصرُّفاته فيها نماذج للتسلح الخُلقي الإسلامي الذي نسيه الناس لمدة طويلة واستيقظ في عهد نور الدين ثم صلاح الدين.

وقد اتَّهمه أعداؤه وحسَّاده بالمطامع الشخصية.. وقد لا يكون هذا بعيداً عن ذاته العميقة. ولكن مَنْ ذا مِنَ الخَلْق يعمل دون مطمح شخصي إلا الملائكة؟ وصلاح الدين لم يكن ملاكاً؛ ولكنه أثبت بمواهبه الخلقية، وبمسلكه الشجاع؛ أنه جدير بالمبادئ التي آمن بها وأعلنها.

لقد دافع أمراء الشام وبخاصة جماعة الموصل في الدرجة الأولى وجماعة أمراء حلب عن تمزيق دولة نور الدين واقتسامها كإرث.. وتمسَّكوا منها بالشام والموصل حيث يوجدون، في حين كان صلاح الدين يدافع عن وحدتها، وقد تمسَّك بالشرعية أولاً ما استطاع، واكتفى بأن يقفوا معه ضد الصليبيين فقط، وكانت حجَّتهم الوحيدة ضده أنه يعمل لمصلحته الشخصية، وأنه جاحد لنور الدين.. ترى ألم يكونوا هم أنفسهم يعملون لمصالحهم

الشخصية ويجحدون نور الدين ويتنكرون لمبدئه في وحدة الجبهة الإسلامية؟ وماذا في المصالح الشخصية وفي الأطماع إن كان هدفها مصلحة المسلمين جميعاً، وكانت توضع عملياً في خدمة المبادئ السامية؟ ومَن هو المُبرَّأ منها في كل ملوك الأرض والتاريخ، إلا الأنبياء والرسل؟ ولم يدَّعِ صلاح الدين لا النبوة ولا الرسالة؛ ولكنه في الحياة التي عاشها كان صاحبَ رسالة معينة هي: تحرير القدس من الكفَّار.. وقد فعل!.

وإذا هادن المسلمين الذين حاربهم حتى جعلهم ينقادون لتوحيد جبهة القتال الإسلامية، ولم يكن يطلب غير ذلك منهم أو من أقربائه الذين زرعهم في كل مكان، ولم ينقض عهداً أو ينكث بيمين أقسمها لهم؛ فإنه كان يهادن الفرنج لهدف آخر، هو فقط كف شرّهم مؤقتاً لعدم استعداده لهم في حينه؛ فأساس سياسته الإسلامية هو السلم مع المسلمين ما داموا على استعداد للوقوف بجانبه ضد الفرنج، وأساس سياسته الفرنجية هو الحرب والقتال ما توفر له ذلك عدة وعدداً وتوقيتاً.. وأشرف الميتات عنده أن يموت مجاهداً للكفار.

* * *

الإعداد للبطشة الفاصلة

كانت الفترة الممتدة بين سنتي ٥٧٢ و ٥٨٣ هـ / ١١٧٦ ـ ١١٨٧ م في تاريخ صلاح الدين ـ وهي عشر سنوات ونيّف ـ، فترة الصعود المتمادي والحكيم لإعداد البطشة الكبرى بالصليبيين. ولقد تخلّلتها أحداث جسام، قابلها هذا الكهل الصلب بما يستطيع من الدبلوماسية تارة، والحرب تارة أخرى؛ وبما بين هذين الحدَّين من درجات متفاوتة.. فيما تعاظمت في ذاته أفكار الجهاد فصار لا يرى غيرها، ولا يأنس إلا إلى حديثها أو ممارستها، لبستْهُ بالتدريج (صوفية) جهادية، جعلت أمراضه ونَصبه القتالي وآلامه الشخصية كلها تأتي في الدرجة الرابعة أو ما بعدها في اهتماماته، وإلا فاهتمامه أولاً وثانياً وثالثاً هو مراقبة الجبهة الصليبية التي تمتد كلّها تقريباً على حدوده من مصر حتى أنطاكية، والمضايقة لها، والتفكير المتَّصل بطريقة الوثوب عليها.

كان عسكر صلاح الدين بعد ستة عشر شهراً من القتال المتصل، وبعد ذرع الشام جيئة وذهاباً عدة مرات؛ قد ملَّ من طول (البيكار) ـ الحرب ـ «وقد امتلأت (جعابهم) وأيديهم من عسكر الموصل وحلب ونهب بلد الإسماعيلية، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة؛ فأذن لهم» ولنفسه بالسفر إلى مصر، لا سيما والمخلُ قد حلَّ بالشام، وقلت الأقوات هذه السنة.

في دمشق قبل أن يسافر عقد على الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر أرملة نور الدين[1]، وهذه السيدة كان أبوها أتابك دمشق أيام الحملة

(١) قبرها معروف في الصالحية في نهاية طلعة حمام المقدَّم في جانبٍ تعلوه قبة بالجامع المسمَّى بالجديد.

الصليبية الثانية سنة ١١٤٩م. وقد تزوَّجها نور الدين كُرْمى لمكانتها في دمشق، فأضحت بجانبه سلطانة، وتسكن معه قلعة دمشق ـ سكنتها قبله أكثر من ١٥ سنة ـ ولمدة قد تصل إلى خمس وعشرين سنة. وقد شاء صلاح الدين أن يحفظ لها كرامتها كسلطانة، وأن يبقيها على عزِّها أيام نور الدين، وعلى سكنها في القلعة التي هي مقرّ الحكم له منذ تملُّك دمشق؛ فتزوَّجها ليحفظ لها مكانتها، ويدخل ويخرج من القلعة دون حرج ـ وكان عمرها يصل إلى خمسين سنة على الأقل ـ وقبلت هي الزواج لهذا السبب. وقد كان زنكي والد نور الدين قد تزوَّج من ملكة دمشق السابقة زُمُرُّد خاتون وهي في الستين من عمرها لسبب سياسي، ولم يجد أحد في ذلك عيباً أو عقدة جنس، أو إرغاماً لها و«كسر عين» لأهلها. علماً بأن ابنة أنر كانت لها مكانتها في دمشق، ولها التقدُّم بوصفها أم الملك الصالح، وكانت الكتب بعد موت نور الدين تصدر بتوقيعها ـ كالكتاب الذي ذكر وليام الصوري أنها أرسلته إلى ملك الفرنج وهو على بانياس ـ وقد وصفها الصوري بأنها ذات شجاعة تفوق شجاعة جميع النسوة. وتمَّت الهدنة معهم بموافقتها كوصية على ابنها[1].

تَمَّ زواج صلاح الدين في قلعة دمشق حيث كان سكنها وسكنه ومقر الحكم، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين بن أنر بحضور القاضي ابن أبي عصرون الذي تولَّى العقد، وقد بقي صلاح الدين في دمشق بعدها ليلتين ثم تحرك ركبه إلى مصر[2].

---

(١) مثل هذا الزواج كان أمراً متَّبعاً لدى السلاجقة، فالسلطان يعطي ابنه لأحد القادة عنده ليربيه، ويزوجه من أم الولد، ويصبح بذلك أتابكاً. وكذلك فعل تتش مع ابنه دقاق وأتابكه طغتكين؛ وعمل زنكي على تربية ولدين من أولاد السلطان السلجوقي وصار أتابكاً، وأقام دولة الأتابكة في الموصل؛ وانظر ما قال الصوري عن شجاعتها: ج ٢، ص ٩٦٩، وتزوج عز الدين مسعود أم الملك الصالح حين صارت إليه حلب.

(٢) البنداري: سنا البرق ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١ ص ٣٣٥.

هل عاد ليستريح؟ . . أبداً. كانت في رأسه ثلاثة شواغل تؤرقه:

ـ كيف يحمي مصر إن غاب في الشام مِنْ تحالف صليبيّ محتمل؟ ومِن انتفاضة فاطمية ممكنة في أي وقت.

ـ كيف وأين يضرب الفرنجة الضربات الموجعة ويقلِّص احتلالهم في الشام، وهو الذي أضحى المسؤول الوحيد على امتداد جبهاتهم.

ـ كيف يضمن ولاء الزنكيين وهو يدرك أنه ولاء صلح زواغ زئبقي، وقد يُنقَض عند أي هزيمة له أو قوة لديهم، أو تحسُّن في علاقاتهم مع الصليبيين؛ وكلُّها احتمالات ممكنة.

قضى في مصر سنة من المؤكد أنها كانت سنة مؤرقة باستمرار. وقد انتهزها فرصة لإكمال مشاريعه في تقوية مصر ودفاعها، وانصبَّ اهتمامه الرئيسي على:

١ ـ بناء أسطول حربي لا يحمي مصر فقط، ولكن يهاجم الفرنجة الذين يحتلون سواحل الشام، ويأتون على المراكب من صقلية وبيزنطة، ومن الموانئ الإيطالية للغزو والتجارة. وكان الأسطول قد أُهمل أواخر العهد الفاطمي، مما سمح للفرنج بالهجوم أكثر من مرة على مصر (سنة ٥٧١ و٥٧٣ و٥٧٦ هـ)، فأفرد صلاح الدين للأسطول ديواناً خاصاً عُرِف بديوان الأسطول، يقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب الحربية وتجهيزها ودفع نفقة العاملين عليها، وخصص لذلك بعض مصادر المال من الخراج والزكاة والإقطاعات وغير ذلك. كما أضاف محصول ما لا يحصى من شجر السنط في البهنسا والأشمونين وأسيوط وأحميم وبهيم وقوص وخراج النطرون. فعاد النشاط لصناعة المراكب في سواحل مصر والقاهرة، وكان الفرنج أحرقوها أيام شاور، وقام على إدارتها العادل أبو بكر أخوه. وجعل صلاح الدين الخدمة في الأسطول إجبارية، وأصدر أمراً لأخذ الرجال فيه. وهكذا تضاعف الأسطول في أيامه، وبلغت قطعه الرئيسية أكثر من ستين شينياً ـ أو شونة ـ وهي مراكب

طوال مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، مع أنها لم تكن تزيد على عشر شواني أيام الفاطميين. وكان الناس يخرجون للتبرُّك بالمقاتلين فيه عند عودتهم، ويسمُّونهم بالمجاهدين وبالغزاة في سبيل الله. وكان يلحق بالأسطول عدد من الحرَّاقات، والحراقة هي المزودة بالنفط لرميه بالمجانيق وبالسهام وبالقوارير على السفن المعادية، هذا عدا الطرَّادات والسفن الصغيرة.

٢ ـ وانصبَّ اهتمام صلاح الدين على تقوية الدفاع عن مصر داخلياً وعلى الساحل؛ فأمر بتشييد قلعة الجبل في القاهرة فوق جبل المقطَّم، وهي معروفة باسمه، ولعله أخذ ضرورة بنائها من قلاع الصليبيين في الشام؛ لأن الفاطميين لم يبنوا القلاع، وتاريخ بنائها هو سنة ٥٧٩ هـ، لكنها لم تُنجَز إلا سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م ـ بعد وفاته بخمس عشرة سنة ـ وما تزال من معالم القاهرة الأساسية، وقد استخدم الأسرى في بنائها.

٣ ـ وبنى سور القاهرة الحجري، وجعله يضم مع القاهرة مصر القديمة وموقع القطائع والعسكر في سوار واحد؛ أشرف على عمله مملوكه بهاء الدين قراقوش الخادم، وفرض على الناس فرائض لبناء هذا السور الذي امتدَّ بطول ٢٩٣٠٠ ذراع من الشط إلى الشط على شرقي النيل، وجعل حجارته من الغرانيت الصلب الذي يقتطع من أسوان، كلف بذلك أهل الذمَّة وكانوا يريدون جلب الحجارة من حجر المقطم الكلسي فألزمهم ذلك؛ وكان من نتائج شدته في ذلك أن تفجَّرت عليه النكت في حمق الحكم، وصار مثلاً للحاكم الأحمق.. وهو إجراء احتياطي لهجمات الفرنج المحتملة[1]، وقد حفر خندق حول بعض أجزائه سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م.

(١) كان جوهر الصقلي قد بنى للقاهرة عند بنائها ـ سنة ٣٥٨ هـ ـ؛ سوراً من الطين النّيء (اللبْن) الذي لم يُحرق، وقد رممه بدر الجمالي وزاد فيه، لكن معظمه كان قد تهدم في عصر صلاح الدين منشىء القاهرة الحالية؛ انظر تفاصيل السور لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٦٨٧، ط جديدة.

٤ ـ واهتمَّ بعمل سور آخر للإسكندرية، ورمى ٤٠٠ من الأعمدة الرومانية بالشواطئ لإعاقة الأعداء.

٥ ـ وقام بتقوية سور دمياط وجعله بطول ٤٦٣٠ ذراعاً، وبلغ ما أنفقه عليه مليون دينار.

٦ ـ وبنى قلعة لتنيس المرفأ الصناعي على بحيرة المنزلة مع سور لها، وكان يشرف على أعمال حماية جميع هذه الثغور بنفسه.

٧ ـ واهتمَّ بعمل نقاط حراسة في شبه جزيرة سيناء وسلسلة من القلاع خوف المباغتة الفرنجية، ولا تزال آثارها وبقايا صهاريجها موجودة إلى الآن.

ومن جهة أخرى فقد اهتمَّ بتقوية الروح الإسلامية السنِّيَّةِ في مصر.

واهتم في الوقت نفسه جدِّيّاً برعاية حركة الإصلاح الديني التي شجَّعها نور الدين في بلاد الشام. وكان تشجيعها في نظر صلاح الدين أشد أهمية في مصر. فأقام مع أخيه عدة مدارس سنّية شافعية؛ استطاعت في مدى عشر سنوات أن تُحجِّم المذهب الفاطمي إلى حدِّه الأدنى، إن لم تلغِ كل أسسه الفكرية في الناس، مما يدل على أنه كان ظاهري التأثير لم يمس إلا القشرة الظاهرية للمجتمع، والذين دافعوا في أول الأمر عنه كانوا في معظمهم ممن حرمهم التغيير الجديد مصالحهم ووظائفهم.

وتلقى صلاح الدين بقلق كبير أخباراً وصلته من صقلية بأن ملكها أنزل إلى البحر أسطولاً ضخماً ومعدَّات جبارة وقوات لا تُحصى، وخشي أن يكون ذلك ضد مصر، فأقام فترة في الإسكندرية يرصد الموقف، لكن الأسطول الصقلي لم يصل لأنه توجَّه غرباً إلى جزر الباليار وتحطَّم بأسره بالعواصف.

وفي ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ / أغسطس (آب) سنة ١١٧٧م؛ عرف صلاح الدين بوصول كبير كبراء الصليبيين مع حملة ضخمة إلى فلسطين هو الكونت فيليب الفلاندري ـ ويعرفه العرب باسم إقلندس ـ وهذه هي الحملة

الفلمنكية فأعطيت في فلسطين إشارة الاستعدادات للحرب؛ ذلك أن شروط الهدنة تسمح للفرنجة إذا وصلهم ملك أو كبير، ما لهم في دفعه تدبير، أن يعينوه ويعاونوه، فإذا عاد إلى بلاده عادت الهدنة. وحسب صلاح الدين أن الحملة ستهاجم مصر، فلما سمع بتوجُّه حملة الصليبيين إلى حارم ـ طرابلس ـ في شمال الشام؛ خطط لغزوة واسعة النطاق على جنوب فلسطين: غزة وعسقلان وما وراءهما.

كان الصليبيون قد تحرَّكوا وبقوا فترة من الزمن حول مدينتي حمص وحماة يحرقون وينهبون ويقتلون، رغم الدفاع الشديد في القلاع المحصَّنة والمزوَّدة بشكل جيد بالمؤن والذخائر والحرَّاس والأسلحة. وقد حاصروا حماة؛ يقول ابن الأثير أن الكند الكبير من الفرنج الذي قدم من الغرب كان من أكبر طواغيتهم، فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً (؟ وهذا غير صحيح) فاغتنم خلوّ البلاد لأن شمس الدولة بن أيوب توران شاه كان بدمشق، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في الملذَّات مائلاً إلى الراحات (؟ ولو كان كذلك أما كان الفرنج يهاجمون دمشق بدل غيرها)، فجمع ذلك الكند مَن بالشامِ من الفرنج وفرَّق فيهم الأموال وسار إلى مدينة حماة (وكان قد هاجم حمص قبلها مع كونت طرابلس، ولم يذكر ذلك ابن الأثير) فحصرها ـ أي حماه ـ وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض. وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا إليها وأعانوا مَن بها.

وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً، وهجموا بعض الأيام على طرف منه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً، فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية، واشتدَّ القتال وعظم الخطب على الفريقين، واستقلَّ المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين وطمعوا فيهم، وأكثروا

القتل، فرحل الفرنج حينئذٍ خائبين.. فساروا إلى حارم...»، وعند رحيلهم مات الحارمي ومات ابنه الشاب قبله بثلاثة أيام!.

وحين عرف صاحب أنطاكية بتحرك طرابلس مع كونت الفلاندر؛ انضمَّ إليهما في قوة واحدة قرَّرت حصار حارم، وهي على بعد اثني عشر ميلاً من أنطاكية. وكانت هذه القلعة تابعة للملك الصالح، فضرب المتحالفون الحصار عليها بطوق كامل، فلا يظهر عليها حارس ولا يدخل إليها أحد. بل بنوا أكشاكاً من الخشب والأغصان يشيرون بها إلى أنَّ العمليات الحربية سوف تستمرّ زمناً طويلاً، وحصَّنوا المعسكر خوفاً من الأمطار، وأعانهم السكان المسيحيون المجاورون بالمؤن. ويقول ابن الأثير: «ساروا ـ الفرنج ـ إلى حارم ظنَّاً منهم أن لا ناصر لهم، وأنَّ الملك الصالح قليل العسكر، وصلاح الدين بمصر؛ فاغتنموا الفرصة ونازلوها، وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المجانيق والسلالم، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً؛ وقال لهم: إنَّ صلاح الدين واصل إلى الشام، وربَّما سلَّم القلعة من بها إليه. فأجابوه حينئذٍ إلى الرحيل عنها، فلما رحلوا سيَّر الملك الصالح جيشاً فحصروها (لأن حاميتها كانت في الأصل عاصية عليه بعد قتل زعيمهم كمشتكين)، وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج.. وكان قد قُتِلَ من أهلها وجُرِحَ كثير؛ فسلَّموا القلعة إلى الملك الصالح...»[1].

في هذه الأثناء، وحين سار الفرنج إلى حارم، سار صلاح الدين إلى ساحل الشام تنفيذاً للعهد الذي قطعه مع أمراء حلب والموصل، وقصد غزو مملكة القدس من الجنوب، جمع لذلك عساكر كثيرة، فلم يزالوا يجدُّون السير حتى وصلوا عسقلان (في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ)، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرَّقوا في تلك الأعمال مغيرين...»[2].

---

(١) انظر في ذلك ويليام الصوري: ج ٢، ص ٩٩٨ فما بعد؛ وابن الأثير: ج ١١، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

يقول وليام الصوري: «كان صلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الجيش المسيحي بأكمله كانوا قد تقدَّموا إلى منطقة أنطاكية... بينما كان ينتظرهم في مصر في خوف شديد، وبدا له بشكل مقنع بأنه يستطيع أن يغزو بلاداً مجرَّدة من جنودها لتأمين واحد من أمرين: إما إجبار العدو على التخلِّي عن حصار حارم، أو تحقيق نصر على المتروكين في المملكة...»، ثم خرج من مصر بجيش يحمل أفضل الأسلحة، واجتاز البراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين، وترك في العريش الأسلحة الثقيلة وأخذ معه الجنود المسلَّحين تسليحاً خفيفاً ومر بقلعتي الداروم وغزة، وظهر فجأة أمام عسقلان. وكان الملك الفرنجي قد تلقَّى تحذيراً قبل بضعة أيام فجمع ما في المملكة من العسكر... مع بعض الداوية من غزة...»[1].

وتتوالى التفاصيل لدى المؤرخين المعاصرين، ويعترف الصوري أنَّ قوات صلاح الدين تفرَّقت وتوزَّعت عليها الإقطاعات، كأنها ظفرت وبدأت تتصرَّف بعجرفة وبإهمال تام في جميع الجهات.. وانتشرت قواه في المنطقة بأسرها. وتقدَّم قائد منهم شجاع يدعى (جاولي) أرمني الأصل بجنوده إلى الرملة ـ وكان أهلها قد هجروها ـ فأحرقها ثم طوَّق مدينة اللدّ وأمطرها بالسهام وأنهكها. وحلَّ الرعب بالمسيحيين في السهول والجبال، وكان سكان القدس مستعدين إلى حدٍّ ما للتخلِّي عن المدينة المقدَّسة؛ فليس لديهم أي ثقة بتحصيناتهم، ووصل بعض المغيرين إلى قلقيلية، ومنظر المنطقة بائس منهك بالمرارة. وكان الملك تحصن بعسقلان، فتركها لئلا يعرِّض شعبه للمزيد من المآسي، وفضَّل المجابهة الحربية، والتقى بصلاح الدين المخيَّم قرب الساحل. وكان منظر الحرائق والمذابح يثيرهم، ورأوا العدو فجأة أمامهم، وكانوا متلهِّفين للمواجهة، فبعث صلاح الدين يجمع جنوده المتفرِّقة بالأبواق

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٩٨ ـ ١٠٠٣ (باختصار)؛ وثم تفاصيل أوسع لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٦٩٩ ـ ٧٠٣.

والطبول والنداءات.. ونشبت المعركة، وكان عدد العدوّ يبلغ ٢٦ ألف فارس (؟) منهم ثمانية آلاف من الطواسين، ويرتدون كصلاح الدين أردية صفراء على دروعهم وهم مماليك يدافعون عن سيدهم حتى النهاية، ولكنهم هُزموا وطاردهم المسيحيُّون في الليل، فهربوا تاركين الضعفاء منهم وعتادهم والدروع وعاد الجميع بالغنائم، في حين كان الجو العاصف والبرد ينهك قوى الهاربين؛ فمات بعضهم وأُسِر بعض، وعاد الملك الفرنجي ظافراً إلى القدس، وهطلت أمطار غزيرة استمرَّت عشرة أيام متوالية، فبقي الهاربون دون ملابس أو طعام يهلكهم البرد والجوع. وبادر البدو العرب بالهرب فزعين.. وجلب الأسرى من الغابات والصحراء. وعاد صلاح الدين وليس معه إلا مئة من أتباعه..»[1].

ويذكر ابن الأثير أن صلاح الدين كان قد وصل حتى الرملة، وكان على الجيش أن يجتاز نهراً، فازدحم الناس للعبور ولم يكن عدد الجند كبيراً لأنه كان متفرقاً، ويذكرون أنه اقترح عليهم تبديل مكان الميمنة إلى الميسرة وبالعكس لتكون بعض الهضاب وراءهم، وفيما كانوا في ذلك؛ جرى الهجوم الفرنجي المفاجئ وفتك بهم، وهم على غير تعبئة الحرب، فانهزموا ولم يكن لهم حصن قريب، ولم يجْدِهم دفاع تقي الدين عمر وابنه الشاب عن المنهزمين. وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين، وكاد يُقتَل لتكاثر الفرنج عليه، ولكنهم قُتِلوا، فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر، حتى دخل الليل، فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وقل عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير. وذهب العسكر الذين توغَّلوا في بلاد الفرنج بين قتيل وأسير، ومنهم الفقيه عيسى الهكاري، وهو من الأسدية، وقد جمع العلم والشجاعة (وقد

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ٩٩٨ ـ ١٠٠٣ (باختصار)، وثَمَّ تفاصيل أوسع لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٦٩٩ ـ ٧٠٣.

افتداه صلاح الدين فيما بعد بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى).

«ووصل صلاح الدين القاهرة في نصف جمادى الآخرة، ورأيتُ كتاباً بخط يده إلى أخيه توران شاه بدمشق يذكر الوقعة ويقول فيه:

ذكـرتـك والخطّـيّ يخطـر بيننـا وقـد نهلـت منـا المثقّفـةُ السُّمْـرُ

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلاّ لأمر يريده سبحانه...».

هذه الهزيمة العنيفة بما رافقها من القتلى والجرحى والمفقودين، ومن الظمأ والجوع ومعاناة الرمال والأمطار والبرد وضلال الطرق؛ كانت أشد ما لقيه صلاح الدين من الهزائم في حياته، ويعلِّق أبو شامة: «كان وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين، وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين سنة ثلاث وثمانين».

على أنَّ صلاح الدين أخذ من هذه الواقعة درساً لا ينساه. ويبدو أنه وقد اعتاد من قبل الظفر الدائم، فاستهان بالعدو وترك لجنده التفرُّق في الأرض المحتلة دون مبالاة بما قد يفاجؤون به، ولعلَّه في هذه التجربة المباشرة مع العدو أدرك بوضوح أن قوة الفرنج ومدى تجذُّرهم في البلاد وأعداد قواهم وحماستها، كل ذلك كان أقوى من أن تقتلعه من الأرض قوة مصر وحدها، وأنَّ عليه أن يشدِّد من تماسك الجبهة الشامية معاً ومن معاضدة الجبهة الموصلية أيضاً.

وكان لهذه الكسرة ـ كما هو منتظر ـ نتائج خطيرة:

ـ فقد أخرت اللقاء الحاسم مع الفرنج عدة سنوات أخرى. وكان صلاح الدين يأمل انتهاء الأمر معهم في وقت أقرب.

ـ وقد جرأت القوى الفرنجية عليه وعلى الغارات المتَّصلة على جميع الجبهات الشامية عدا مصر، وسوف ترى السنوات التالية أعداداً منها على طول الخط الفاصل ما بين المسلمين والفرنج من أنطاكية حتى مملكة القدس؛ بعد

أن كان عندهم رعباً ورهبة.

ـ أعادت صلاح الدين إلى التفكير في إنهاك الفرنج أولاً بغارات مماثلة عديدة استغرقت سنوات قبل البطشة الكبرى.

ـ كشفت تلوُّن الزنكيين في الموصل من جديد، وعرف صلاح الدين على أثرها مدى التزام حلفائه المقيمين وراء ظهره وفي عمقه الاستراتيجي سواء في حلب أو في الموصل بالوقوف معه في جبهة واحدة، وكان عليه أن يستوثق منهم أكثر مما فعل؛ لأنه قائم بينهم وبين الفرنج، وعليه أولاً القيام بالجهاد.

وهكذا فإن أحداث السنوات المقبلة سوف تكون إلى حدٍّ كبير نتيجة كسرة الرملة وما ترتَّب على هذه الكسرة من النتائج.

وأول ما فعله صلاح الدين بعد عودته إلى القاهرة أن أعاد تكوين الجيش وطرد جماعة من الأكراد منه.. خرج بعد أربعة أشهر ـ وبعد أن أمَّن الحماية لمصر ـ بجيش جديد إلى الشام عن الطريق البرّي إلى أيلة والضفة الشرقية إلى دمشق في شوال سنة ٥٦٧هـ ومنها إلى حمص يراقب من هناك التطورات.

وكان الفرنج كما كان منتظر منهم (في أواخر سنة ٥٧٣هـ/ إبريل سنة ١١٧٦م) قد خرقوا الهدنة. وابن الأثير يذكر أنه اجتمع طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبَوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، وسبقهم ووقف على طريقهم وكمن لهم، فلما وصلوا خرج هو والكمين ووضعوا السيف فيهم؛ فقُتِلَ أكثرهم وأُسر جماعة من مقدمتهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح، واستردُّوا منهم جميع ما غنموا، فردَّه إلى أصحابه...»[1].

كما كان جمع كثير من الفرنج سار إلى مدينة حماة، وكثر جمعهم من الفرسان والرجَّالة طمعاً في النهب (في ربيع الأول سنة ٥٧٤ هـ/ آب سنة

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

١١٧٧م)، فنهبوا وأحرقوا القرى وأسروا وقتلوا، وسمع عسكر حماه بالأمر ـ وهم قليل ـ فخرجوا إليهم، وقاتلوهم وهزموهم وأسروا بعضهم واستردُّوا ما غنموه من السواد. وكان صلاح الدين قد نزل حمص فحملت إليه الرؤوس والأسرى والأسلاب. . وقتل الأسرى[١]، جزاء خرق الهدنة.

في ذي القعدة من هذه السنة سار الفرنج بجمعهم إلى بلد في دمشق قرب بانياس؛ فأغاروا على القطعان والمواشي هناك، فنهبوا وأسروا وقتلوا وسبوا. فأرسل صلاح الدين ابن أخيه فروخ شاه ليلقاهم، فلم يشعر إلا وقد خالطوه في الليل؛ فقاتلهم أشدَّ القتال، وقتل جماعة من مقدميهم؛ ومنهم هنغري الذي حمى الملك حين وقع في كمين، وما أدراك ما هنغري؛ به كان يُضرَب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاءً صبَّه الله على المسلمين فأزاح الله شره. ولم يكن مع فروخ شاه أكثر من ألف فارس[٢]، وقد حمى بذلك بقية محصولات القرى الشامية، وكانت تلك السنة سنة جفاف وقحط وغلاء في المنطقة كلها؛ حتى أكل الناس الجِيَف وانتشر الوباء.

واستمرَّت الغارات التخريبية من جانب الفرنج على شيزر وبلد حمص وبعلبك، وكان موقف صلاح الدين في هذه الفترة دفاعياً إلى أن بنى ملك القدس حصناً ضخماً عند مخاضة الأحزان ـ شمال بحيرة طبرية ـ قرب بانياس، وكانت الموقعة هناك، فحاصر صلاح الدين الحصن فأُمْطِر بوابل من السهام، وقتل بعض قواده، فترك الحصار؛ لكنه اتَّخذ معسكراً قرب بانياس لشنِّ الغارات على بلد صيدا مرَّات عديدة[٣]، وأسرع ملك القدس بصليب الصلبوت وقوى كثيرة إلى مدينة صفد (محرم سنة ٥٧٥هـ/ حزيران سنة ١١٧٩م)، وأوغلوا حتى بلدة مرجعيون؛ ولكنهم أصبحوا بذلك بين جيش صلاح الدين وبين جماعة

(١) ابن الأثير: ج١١، ص ٤٥٠.
(٢) المصدر السابق: ج١١، ص ٤٥١ ـ ٤٥٣.
(٣) وليام الصوري: ص ١٠١١، ولديه تفاصيل.

الغارات على صيدا، وخاف صلاح الدين على أصحابه، فقام بغارة مفاجئة، فلم يقف لهم الفرنج إلا برهة من الزمن، وهربوا إلى قلعة شقيف أرنون، واختبأ الكثيرون في الكهوف، فأُسِروا ومنهم مقدم الداوية الذي توفي وشيكاً في الأسر، كما أُسر صاحب الرملة وصاحب طبرية وكثير غيرهم. وذكر الكاتب عماد الدين الأصفهاني أنه كان بينهم ٢٧٠ فارساً باستثناء ذوي الرتب الدنيا.

وعـاد صلاح الدين على الفـور فحاصـر الحصن الجديد البنـاء ـ حصن الأحزان ـ وكان تحت رعاية فرسان الداوية. وعلى الرغم من أن ملك القدس استدعى جميع قوّاده وأعانه بعض النبلاء الذين وصلوا مؤخَّراً إلى المشرق؛ إلاَّ أن الحصن كان قد سقط بيد صلاح الدين! فأمر بتدميره عن بكرة أبيه. وبقي فيه حتى لم يبقَ حجر على حجر. وساق الأسرى معه، ويزيدون على سبعمئة.

ورواية وليام الصوري هذه ينقضها ما رواه ابن الأثير من أن ملك القدس «نجا فريداً من معركة مرجعيون بعد أن أُسر من جماعته ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس ومقدم الاسبتارية وصاحبا جبيل وجنين. وافتدى ابن بيرزان نفسه بمئة وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين. وكان أكثر العمل في هذا اليوم لفروخ شاه ـ ابن أخي صلاح الدين ـ، وأما حصن الأحزان فقد نازله صلاح الدين بعد ذلك ومعه جاولي الأسدي، وقاتلوا الحصن ثم علا أسواره رجل من العامَّة بقميص خلِق، ولحقه الناس، فملكوا الحصن، وهرب حماته لاجئين إلى أعلى الأسوار في انتظار المدد من الملك في طبرية، في حين تابع المسلمون القتال في الليل، ونُقب السور، ثم أشعلوا فيه النيران، فلم يسقط لعرضه؛ فإنه كان تسعة أذرع، فأطفؤوا النار وعادوا للنقب وخرقوا السور وأحرقوه. فانهار البناء وأسروا كل مَن فيه، وأطلقوا أسرى المسلمين، وبعد أن قتلوا بعض أسرى الفرنج ساقوا الباقين إلى دمشق. وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن، وعفَّى أثره[1] رغم الحرِّ وروائح الجيَف.

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٥٧.

وأعقب هذه الأحداث «أن شنَّ صلاح الدين هجوماً على طبرية، ثم بقي مع جيشه في بانياس ينتظر وصول أسطول أمر بإعداده في الشتاء السابق من مصر؛ وسبّب ذلك كثيراً من القلق لملك القدس، فأرسل الرسل إلى صلاح الدين وعقد الهدنة. ورحّب صلاح الدين بالاقتراح مع أنه ادَّعى غير ذلك ـ على حد قول وليام الصوري ـ وربما كان لديه سبب للخوف من قواتنا التي كان هزمها مرَّات عديدة خلال العام الماضي، وكان القحط وندرة الأمطار لمدة خمسة أعوام متوالية سبباً آخر. وهكذا رُتِّبت هدنة في البر والبحر، وللأجانب والمواطنين على السواء، وتمَّت المصادقة عليها بتبادل الأيمان من الطرفين، وكانت الشروط مذلِّة لنا؛ لأنها كانت بشروط متساوية ودون أي تحفظات منا، وهو ما لم يحدث من قبل أبداً»[1].

وانصرف صلاح الدين بعد أن اتَّخذ الترتيبات الأمنية لإقليميْ دمشق وبصرى، وأقام معسكره قرب طرابلس ـ كما يقول الصوري نفسه ـ في مطلع الصيف، وأرسل سرايا خيَّالته في الريف المجاور، فيما انسحب كونت طرابلس إلى عرقة في انتظار معركة لا يخسر فيها الكثير. وبقي فرسان الداوية محتجزين في حصونهم ـ من الخوف ـ يتوقعون كل لحظة حصارهم، وانسحب فرسان الاسبتارية مذعورين إلى قلعتهم المحصَّنة في الكرك، واحتلَّ الجيش التركي (صلاح الدين) موقعاً بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت؛ فلم يتمكَّن المسيحيون من مساعدة بعضهم بعضاً، ولا من إرسال الرسل بينهما.

وتجوَّل صلاح الدين فوق السهل والحقول وعاث بالموقع دون مقاومة، وأحرق جميع المحاصيل، مما كان قد تم جمعه في المخازن، وساق أمامه قطعان الماشية. . وكان هذا هو الوضع حين ظهرت قوات صلاح الدين البحرية فجأة (في نهاية شهر حزيران) في المنطقة المجاورة لبيروت. وحين علم قادة تلك القوة بحقيقة أن صلاح الدين قد عقد معاهدة مع الملك احترموا شروط

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠١٦ ـ ١٠١٧.

السلام، وخافوا من انتهاك المعاهدة ضمن حدود المملكة، ولدى معرفتهم بأن سيدهم كان مع جيشه في منطقة طرابلس؛ ذهبوا إلى هناك، فاستولوا على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس. . . ووجدوا في الميناء هناك مرفأ ملائماً للشواني».

«أرسل نزول هذه القوات في جزيرة أرواد رعشة رعب في المنطقة بأسرها، وفيما كان الجند ينتظرون أوامر سيدهم أشعلوا النار بمنزل في طرطوس، وحاولوا إلحاق الضرر بالسكان. . . وكانت جهودهم عقيمة. وكان صلاح الدين قد دمَّر المنطقة بشكل يرضيه، وأمر الأسطول الآن بالعودة، ثم جمع جنوده وعقد بعد بضعة أيام معاهدة سلام مع الكونت، وانسحب إلى مكان بعيد من بلاد دمشق»[١].

غير انَّ ابن أبي طي (في رواية أبي شامة) قال: «إنَّ الأساطيل المنصورة تضاعفت عدتها إلى أن بلغت ستين شينياً وعشرون طريدة. فسارت الشواني خاصة ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى. . . وقتلت الرفاق الكبار. . .»[٢]، وعادت الشواني بعدة أقوى، وبرجال ممن يعملون في البحر ويفتكون في البر، وبمن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر، فانقضُّوا كالسهام في ١١ جمادى الأولى على ميناء عكا، وهي قسطنطينية الفرنج؛ فدمَّروا مراكب الميناء وحطَّموا الكثير منها، وأقامت المراكب تقاتل يومين قبل أن تعود[٣].

الجديد الهام هنا أنَّ صلاح الدين أخذ يستخدم البحر والبرّ معاً في الهجوم على الصليبيين لأول مرة بعد تزعزع ثم انقراض الفاطميين، ولم يكن الذين حاربوا في الشام قبله أصحاب سلطة في البحر بما فيهم نور الدين، وهذا

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠١٧ ـ ١٠١٨، وانظر هناك التفاصيل.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ١١.
(٣) المصدر السابق: ج٢ ،ص ١٤.

ما زاد في قوة صلاح الدين جانباً هاماً آخر.

كما يلفت النظر قول ويليام الصوري: «إن المعاهدة مع ملك القدس كانت مذلَّة لنا؛ بسبب أنها كانت بشروط متساوية، ودون أي تحفُّظات من جانبنا، وهو ما لم يحدث من قبل»، وهذا اعتراف فرنجي بأنَّ صلاح الدين أضحى هو الأقوى في ميزان القوى بالمشرق الإسلامي؛ ذلك أن ضربات صلاح الدين لمملكة القدس لم تأتِ من مكان واحد في الشمال، ولكن من أمكنة متعدِّدة؛ وقد تمَّت هذه الضربات في سرعة مذهلة وبشكل متوالٍ لم يستطع الصليبيون ملاحقته ولا اعتادوا من قبل مثله، وهذا ما دعا ملك القدس إلى عقد الهدنة.

كان الزنكيون في حلب والموصل حتى الآن يبدون رضاهم عن أعمال صلاح الدين المطابقة لهدنتهم معه، واستعدادهم لمساعدته في هدفه النهائي: تحرير القدس؛ ولكنهم يعرفون كما يعرف أن اقتلاع الاحتلال الصليبي بنصر نهائي لا يمكن أن يتم بما يفيض من الجند عن حاجة الحماية لمصر، ولو اجتمعت إليها قوات دمشق؛ فمجموع هؤلاء وأولئك لا يزيد على ستة إلى سبعة آلاف فارس، يمكن أن يُحشدوا مرة واحدة ولمدة محددة، وكان هذا بالذات من أسباب اطمئنانهم لعروشهم؛ فقد كانت قواتهم نفسها في هذه الحدود إن لم تكن أكثر من ذلك، وتوازُن القوى مع صلاح الدين يرضيهم، وهم يشجعونه على استهلاك قوته هذه مع الصليبيين؛ فذلك يريحهم دنيا وديناً.

غير أنَّ صلاح الدين لم يكن بحاجة إلى رضاهم وتصفيقهم بقدر حاجته إلى جنودهم، وقد تبيَّن له ذلك من تجاربه المتكررة مع الصليبيين، ودعواه بأنه خليفة نور الدين الروحي، والتي صارت بديهية بالنسبة للجماهير لا في مصر والشام وحدهما؛ ولكن لدى الجماهير الحلبية والموصلية ولدى الخلافة؛ لا يمكن أن تستمر قوية وصحيحة دون عمل حربي حاسم، ولا تكفي الغزوات المحدودة التي تتلقى أرض الشام باستمرار ما يعادلها من الهجوم والتدمير

والإحراق من جانب الإمارات الصليبية؛ وأيقن صلاح الدين إذا لم تكن قواه هي الأرجح، فعملياته ضد الصليبيين سوف تستمر مجرَّد أعمال سلبية لا جدوى وراءها، لا سيما وأنَّ معظم ما يُدمَّر ويُحرَق ويُسلَب من المحاصيل في الأراضي التي يحتلها الصليبيون إنما هو للفلاحين المسلمين الباقين في أراضيهم بالرغم منهم!.

وكانت المشاكل أمام صلاح الدين متعددة الخيوط والتعقيد؛ فعليه:

١ ـ القتال المتواصل ضد مملكة القدس والتحالفات الصليبية؛ وما يقتضي ذلك من النفقات.

٢ ـ مقتضيات حماية مصر خاصة مع الشام من هجمة صليبية مفاجئة.

٣ ـ قضايا الإدارة الداخلية لمملكته؛ وأعقدها علاقاته مع أقاربه وتابعيه، وإرضاؤهم باعتبارهم أجنحة.

٤ ـ ضمان القوَّة الزنكية بجانبه دائماً، وهو يعرف من تجربته السابقة أنهم أعداء في إهاب أصدقاء، وينتظرون عثرة منه ليكشفوا عن عدائهم الكامن.

٥ ـ استمرار العلاقة الطيبة مع خليفة بغداد بوصفه مانح الشرعية للحكام، ولا بدَّ من رضاه الدائم في كل تصرُّف من باب التديُّن من جهة، وباب السياسة الواقعية من جهة أخرى..

الشيء الوحيد الذي يملكه لمواجهة هذه المشاكل كلها هو «جماهيريته» وتطلُّع الناس بالآمال المتزايدة إليه بالخلاص. فأي توقُّف دون هذه الآمال يعني ـ بصورة آلية ـ نقص سمعته وتألقه.. وقد أضحى ـ شاء أم أبى ـ أسير هذه السمعة وذلك التألُّق. وإذا كان العداء الصليبي له سافراً فالعداء الزنكي له كامن مستتر، ويقوم على ركنين: النزعة الإقليمية، ودعوى الشرعية. فعليه إذا شاء استمرار وقوف المعسكر الزنكي ـ وذيوله في الجزيرة ـ بجانبه؛ أن لا يستخدم السلاح ضدَّ مَنْ هم مسلمون مثله، فذلك يدمِّر سمعته في الوقت الذي يريدهم

فيه أن يكونوا حلفاء المسلمين في المستقبل، وأوفياء في الصميم لمخططاته في الجهاد، وأن لا يخرق من جانبه في الوقت نفسه التزاماته في العهود التي قطعها معهم.. إنه لا يريد النصر عليهم لمجرَّد النصر؛ ولكن ليُلزمهم بتقديم الجند للجهاد مع نفقات الجند طبعاً. وقد برهن مرَّات لا تُعدُّ على أنه أبعد ما يكون عن الرغبة في الفتوح لحيازة الأموال والأراضي (كما جرى في مصر مع كنوز الفاطميين، وفي حمص مع أموال ابن أخيه، وفي آمد التي سلَّمها بخزائنها للقائد الذي وعده بها، وفي القدس لأموال البطريرك الذي خرج بها)، إنها تثبت مرة واحدة وإلى الأبد بطلان جميع التهم التي ألصقها به أعداؤه عن الأطماع «الأنانية». أليس بذي معنى أنه يوم توفي لم يجدوا في خزائنه أبداً من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، ومن الذهب غير جرم واحد صوري؟ وهو الذي امتلك عشرات الملايين من الدنانير في حياته؟!.

والآن فلننظر كيف واجه صلاح الدين مشاكله المعقَّدة: كانت الأولية فيها، بعد تأديب الفرنج بالغزو؛ تأمين ظهره من نقض الزنكيين. ولقد تدخَّل أولاً على أطرافهم الشمالية ليقرَّ نفوذه فيها.. فقد كتب إليه سلطان سلاجقة الروم في الأناضول قبل سنة يؤكِّد صداقته له، ثم أرسل إليه فجأة رسولاً يطلب منه منطقة رعبان التي أخذها صلاح الدين من الملك الصالح سنة ٥٧٢ هـ. ورفض صلاح الدين واعتبر ذلك نوعاً من التحدي لقوته، وأرسل ابن أخيه تقي الدين للدفاع عنها في ألف فارس، فاستطاع أن يهزم الجيش السلجوقي رغم ضخامة عدده بالحيلة، وكان في ثلاثة آلاف.

وفي شعبان سنة ٥٧٦هـ/ مطلع ١١٨٠م تكرر وقوف صلاح الدين ضد السلطان السلجوقي الذي هدَّد صهره نور الدين الأرتقي صاحب كيفا ودياربكر، باحتلال بلاده. وهي قضية عائلية بينهما، لكن الأرتقي كان يميل لصلاح الدين فاستنجد به، رغم تبعيّته للموصل الزنكية، لاسيما مع وجود المعاهدة بين الجميع في الدفاع. فمشى صلاح الدين بجيشه لمساعدته متنكباً

المرور بحلب، ولكنه قنع بإقامة الصلح بين الطرفين، وقبل ذلك بشهر كان صلاح الدين قد عمل على تأديب ابن ليون الأرمني الذي استمال قوماً من التركمان ثم غدر بهم، ومع أن بلاده جبلية منيعة ملأى بالقلاع، فقد انتصر عليه صلاح الدين، وغنم وسبا وأسر وصالح ابن ليون على إعادة الأسرى والأموال لأصحابها[1]، وعاد إلى الشام.

لكن هذه الانتصارات التي وطَّدت نفوذه وزادت سمعته، أرعبت في الوقت نفسه الزنكيين؛ لأنها كانت في المناطق المجاورة لهم، والتي وراءهم في الشمال في الجزيرة العليا ودياربكر، وبخاصة أن حكَّام هذه المناطق من الأرتقيين لم يكونوا على وفاق مع الزنكيين، وكان هواهم بجانب صلاح الدين، بدليل التجائهم إليه ضد السلطان السلجوقي ولم يلجؤوا إلى الموصل؛ فكأنه الحكم القوي في المنطقة كلها، وقد وقع الصلح مع السلاجقة والدياربكرية والمواصلة عامة وعاد إلى دمشق.. لكن في هذه الأثناء جرت تبدلات هامة في المعسكر الزنكي، خلقت نوعاً من التصدُّع فيه، فقد توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل في صفر من سنة ٥٧٦هـ، ثم لحق به الملك الصالح بعد سنة وثلاثة أشهر (في رجب سنة ٥٧٧هـ)، وإذا لم يلفت النظر كثيراً موت الأول بالسل في ميعة الشباب وعمره ثلاثون سنة؛ فقد لفت النظر موت الثاني، ولم يكمل العشرين، حتى قيل: إنَّه سُمَّ! وقد استولى على الموصل أخوه صاحب سنجار عز الدين بعد أن استبعد ابنه الصغير، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب موافقته على سيادة الموصل في المدن التي استولى عليها أخوه سيف الدين عقب وفاة والده نور الدين سنة ٥٦٩ هـ. فرفض صلاح الدين ذلك ذاكراً أنه إنما تركها لسيف الدين مقابل وعده بإمداد صلاح الدين بالعساكر، وأنها مشمولة في

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٦٤، وص ٤٦٦؛ ولدى أبي شامة: ج ٢، ص ٩ وص ١٦؛ وننبِّه هنا أن الحواشي عن أبي شامة سوف تؤخذ بعد الآن عن الطبعة القديمة للكتاب لعدم توفر الطبعة الحديثة، من باقيه حتى الآن.

التفويض العام الذي منحه إياه الخليفة، وبعث في الوقت نفسه إلى بغداد مبرِّراً رفضه بأنه لا يستطيع القيام بالجهاد بعساكر الشام وحدها، كما لا يستطيع إبقاء الجنود المصرية بشكل دائم في الشام؛ فهو في حاجة إلى عساكر تلك الولايات، وطلب تأكيد التفويض الممنوح في السابق، فلم يتردَّد الخليفة في إجابته لذلك، وتوقَّف الأمر عند هذا الحد الذي لم يكن يرضي عز الدين!.

وسافر صلاح الدين إلى مصر (أواخر رجب سنة ٥٧٦هـ/ أواخر ١١٨٠م) بسبب وفاة أخيه توران شاه بالإسكندرية، لكنه عرف، وهو هناك يشرف على بناء السور وبناء الأسطول البحري ويعين اليمن بالجند؛ أن الملك الصالح توفي بدوره، فاكتمل الصدع الزنكي معه؛ لأن الصالح أوصى بملك حلب إلى عمه عز الدين ليحفظها خوفاً من صلاح الدين، وكان هذا يعني ظهور محور الموصل ـ حلب الذي قد تكون له سياسة مخالفة لسياسة الجهاد عند صلاح الدين، وقد يهدِّد الإمارات والمدن التابعة له والموالية في الجزيرة، ولهذا طلب إلى أخيه فروخ شاه في دمشق وابن أخيه تقي الدين عمر ـ المسير لاحتلال غربي الجزيرة والحيلولة دون عبور جيش الموصل إلى حلب؛ لكن فروخ شاه كان مشغولاً في أقصى جنوب دمشق بمشكلة الفارس أرناط الذي صار يملك قلعة الكرك ويستعد للهجوم على أعالي الحجاز وتيماء في البر، وعلى عيذاب في البحر الأحمر.. وتقي الدين كان أعجز من أن يمنع جيش الموصل من إدراك حلب، وكان قد وصل منبج حين وصل عز الدين حلب، فعاد منكفئاً إلى حماة التي ثارت ضده ونادت بشعار الأتابكة! وأشار أمراء العسكر على عز الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرها، ولكنه خاف الصدام مع صلاح الدين؛ وقال: بيننا وبينه هدنة!.

وأثار ذلك كله قلق صلاح الدين، فكتب من مصر إلى الخليفة مرات ينتقد تصرُّفات عز الدين، ويذكر أنه انفرد بقضية حلب واستولى على ولايةٍ يحمل صلاح الدين براءة من الخليفة بها، وإنما تركها هو لعز الدين وللملك الصالح رعاية لحق والده، وأنَّ هذا العمل يخفض من قوته الجهادية ضد الكفار، وطالب بصدور الأوامر السنِّية إن رأى الخليفة أنَّ عز الدين كفي أكثر من صلاح الدين أن

يُعطى ملك الشام ومصر أيضاً، ليواجه الضغط الصليبي! .

بقي صلاح الدين خمسة أشهر يكتب الرسائل للخليفة ويذكر احتجاجه وحججه؛ ولكن المواصِلة كانوا أقرب إلى أذن الخليفة في بغداد، ولهم أنصارهم الأقوياء فيها، وصلاح الدين بعيد في مصر، ولسنا ندري أجوبة الخليفة على الرسائل، فإن أحداً لم يذكرها؛ وزاد المشكلة إحراجاً لصلاح الدين أن عز الدين وهو مايزال في حلب، أرسل إليه أخوه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه حكم هذه المدينة مقابل سنجار بحجة أن سنجار أقرب إلى الموصل، وألحَّ في تسليمها إليه وإلاَّ سلَّمها لصلاح الدين، وكان بعض أمراء عز الدين يؤيدون ذلك. فأفرغ عز الدين خزائن الملك الصالح ومستودعات أسلحته في القلعة، وبعث بها إلى الموصل. وألحَّ عليه العسكر بطلب الزيادات، فرأى أن عليه إذا استقرَّ في حلب أن يتولَّى الجهاد وهو ذو تكاليف كبيرة. وحين علم بوصول صلاح الدين إلى الشام التقى بأخيه عماد الدين عند الرقة وقَبِلَ المبادلة، وعاد إلى الموصل بعد أن حلف كل منهما لأخيه[1].

قبل أن يغادر صلاح الدين مصر علم بأن الفرنج نقضوا بدورهم عهدهم، واستولوا على تجار في البحر وغيرهم، فقرَّر الهجوم البحري على بعض موانئهم وقواعدهم مع الأسطول في بيروت، واتَّفق أن بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية هربت من الفتن بالقسطنطينية وكانت مقلعة من بلد لهم يقال لها (بوليه) تحتوي على ألفين وخمسمئة نفس من رجال القوم وأبطالهم، (فهبَّت العواصف) وألقتهم الريح إلى ثغر دمياط، وغرق منهم الشطر وشمل الباقين الأسر، فحصل في الأسر منهم ألف وستمئة وستة وسبعون نفساً! فضربت بذلك البشائر في مصر والشام[2]، وحاول الفرنج سدىً تخليص السفينة والرجال؛ فقد صادرهم صلاح الدين، لأن أرناط خرق الهدنة. وخرج صلاح الدين من

---

(١) راجع تفاصيل كل ذلك لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٢١ ـ ص ٢٤.

(٢) ابن الأثير يجعل خبر هذه البطسة الفرنجية متأخراً، ويروي أن خبرها وصل صلاح الدين وهو على بيروت (ج ١١، ص ٤٨٢).

مصر (في مطالع سنة ٥٧٨هـ) وتبعه من التجار وأهل البلاد ومن كان قصد مصر من الشام ـ بسبب الغلاء بالشام وغيره ـ عالم كثير؛ فجعل طريقه على أيلة، وسمع بحشد الفرنج له، فلمّا قارب بلادهم أرسل الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك (بوري) إلى دمشق، وبقي مع المقاتلين ليشنَّ الغارات عليهم، ببلد الكرك والشوبك.

وفيما كان عماد الدين يصل حلب، فإذا هي فارغة من المال ومن الأسلحة، والناس يلومون عز الدين ويقولون: «ياحمار ياحمار! بعت حلب بسنجار»، كان صلاح الدين يصل الشام (محرم سنة ٥٧٧هـ/ حزيران ١١٨٢م) بعد أن ترك في مصر نصف جيشه لحمايتها بعد أن أعاد تنظيمه، وجاء الشام بقرابة خمسة آلاف فقط، وكان ما يزال ينتظر رأي الخلافة في المشكلة بعد أن أرسل ـ فيما ذكره أبو شامة ـ ست رسائل حسب التطورات في ستة أشهر، وذكر فيها الخليفة قائلاً بأنه:

ـ «شاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم، وأتوا من السبي والنهب العظائم، وشاع أيضاً أن عسكر حلب أغار على (الراوندان) وهي في عملنا ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم ويغريهم بنا، وقد راسلوا الحشيشية؛ والمراد من الرسالة غير خافٍ، وابن أخي غائب في أقصى بلاد الفرنج وهي دهليز المدينة على ساكنها السلام. والمذكور (يعني صاحب الموصل) ينازع في ولاية هي لنا، وكم بين من يحارب الكفر وبين من يتَّخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل لهم كرائم الأموال. . . ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة بأن يلزم حدَّه. وقد أسلف الخادم خدمات. . . لو بذلوا بلادهم كلها ما وفَّت بحقِّ مصر، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلّد الجميع، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك، ولمالك الأمر الحكم في ممالك المماليك. . .».

ـ وقال أيضا: «إنَّ حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء له، وإنما تركها بيد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه».

ـ وقال: «قد علم الله أنّـا لهدنتهم كارهـون، وفي مصلحـة الإسـلام راغبون، ولكنا بُلينا بقوم كالفَراش أو أخفّ عقولاً . . . ».

ـ وقال: «والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر».

ـ وقال عن عز الدين: «لقد دخل مستولياً، وحصل بها معتدياً، وعقود الخلفاء لا تُحَلّ، والسيوف في وجه أوليائهم لا تُسَلّ. ولو كانت حلب كمصر لدخلها الخادم ولم يشاور، ولكنه أتى البيوت من أبوابها. ثم ذكر أن الملاحدة الحشيشية صاروا معهم، وواسطة بينهم وبين الفرنج، ووعدوهم بقلاع وضياع ودار دعـوة بحلب، وليسـت هذه دعـوة؛ فهذا رسـولهم عند سـنان صاحبـه الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفرنج. وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سُيِّرت. . . ولاستحقاق الولاية طرق؛ أما السبق للتقليد فللخادم السبق، وأما العدالة فلو وقع الفرق لوقع الحق. وأما بالإيثار بالطاعة فلنا فيها. . . ومتى استمرَّت المشاركة بالشام أفضت إلى ضعف التوحيد، ولا يُلدغ المؤمن إلا مرة. وإذا اجتمعت في الشام أيدٍ ثلاث: يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة؛ نهض الكفر بتثليثه. . وقصرت عن الإسلام يد مغيثه. وما يريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلا الطاعة، ولا يتوخَّى إلا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ـ وقال: «إنما أثبتنا (الملك الصالح) في الولاية فرعاً لا أصلاً. وسلَّمنا إليه البلاد ونحن الغالبون لا المغلوبون، بدليل التقليد لنا الذي أشاعته المنابر. . . ».

على أن كل هذه الأقوال لم تغيِّر من الواقع شيئاً، لذلك بادر صلاح الدين بالمسير إلى الشام (في محرم سنة ٥٧٨ هـ) عن طريق أيلة والبادية، ومع ركبه جموع من التجار والسابلة. ولما علم الفرنج بذلك طمعوا في قطع الطريق

عليه، واختطاف شيء من القافلة. فأغار ابن أخيه فروخ شاه على بلاد طبرية وعكا، وفتح (دبورية) وفتح قلعة (حبيس جلدك)، ورجع بألف أسير وعشرين ألف رأس من الأغنام، وما إن وصل السلطان دمشق (في ١٧ صفر) حتى كان بعد عشرين يوماً يغير على طبرية وبيسان، ويلتحم مع الفرنج في قتال عنيف تحت حصن (كوكب)، دارت فيه الدائرة على الفرنج، وكتب بذلك إلى بغداد يصف المعركة. . . !

ليس من السهل الفصل فيما بين الواقع والدعاية الإعلامية في كتب صلاح الدين؛ لكن أحداث المستقبل أكّدت صدقه وصحة عزيمته في الجهاد، ويبدو أن معلوماته عن الاتصالات مع الحشيشية ومع الفرنج؛ كانت صحيحة، حتى لقد سمَّى أسماء بعض الرسل. . وكان هذا وحده يعطيه المبرر بعد الانتظار الذي دام ستة أشهر ليضع الخلافة والزنكيين معاً أمام الأمر الواقع، ويمشي بقواه إليهم.

كان استئجار خناجر الإسماعيلية وسيلة معتادة في ذلك العصر لاغتيال الخصوم، وإن كانت مكروهة مستنكرة. أما اتفاق بعض أمراء المسلمين الضعاف مع الفرنج؛ فكانت خيانة وعاراً، وإذا كان ذلك قد جرى في العراق وفارس، وفي الشام ومصر من قبل، فإن الجمهور الإسلامي يرفض ذلك ويثير سخطه. وقد كان صلاح الدين عازماً على المسير إلى حلب، وبلغه أن المَواصِلة كاتبوا الفرنج، ورغَّبوهم بالخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم. . لكن كان عليه قبل ذلك أن يُظهر القوة للفرنج، ويُلزمهم بهدنة يحترمونها قبل أن يغادر الشام إلى حلب والجزيرة.

يقول وليام الصوري: «. . . فجمع قوات تألفت من كل الفرسان والمشاة، وزاد من حجم جيشه بأعداد كبيرة من الرجال كانوا في سنوات سابقة قد غادروا دمشق والمناطق المجاورة، فكانوا قد ذهبوا إلى مصر لتجنُّب وطأة المجاعة. وصمَّم أن يعود بهذه القوات إلى دمشق، حيث بإمكانه أن يسبب

متاعب كثيرة؛ لأن ذلك يتم من قاعدة قريبة».

«وعقد العزم أيضاً ـ وهو زاحف إلى دمشق ـ أن يُلحق الأذى بالقدر الممكن بمواقع ممتلكاتنا الواقعة فيما وراء الأردن، وكانت المحاصيل جاهزة للحصاد.. بإحراق هذه المحاصيل أو بالاستيلاء على قلعة من قلاعنا. ويقال إنَّ الهدف كان الرغبة في الانتقام من الأمير أرناط حاكم المنطقة؛ لأنه اعتقل بعض العرب خلال فترة الهدنة، ورفض إطلاق سراحهم.

«علم الملك عن طريق كشّافته بتقدُّم صلاح الدين وبخططه، فعقد على الفور مجلساً عاماً في القدس، دُرِسَت فيه شروط الأمير التركي[1] بدقة.. ثم تنفيذاً لنصيحة بعض مستشاريه؛ قاد جميع قواته عبر وادي موسى، وعسكر في موضع منه لمقابلة صلاح الدين ومنْعِهِ من الطريق، وقد تمَّ زحف هذا السلطان عبر الصحراء في ظلّ صعوبات كثيرة، واستغرق حوالي العشرين يوماً، ثم أقام مع قواته في منطقة مأهولة بالسكان من أراضينا، وعلى بعد عشرة أميال من معقل الكرك المسيحي، في حين كان معسكر الملك عند (بطرا). وبقي كونت طرابلس ـ رغم معارضته الشديدة ـ معه؛ لأنَّ الملك زحف إلى هناك ضد إرادته، وترك مملكته دون حماية، وقد دفعه إلى ذلك بعض النبلاء لرعاية الأمير أرناط، وليس للمصلحة العامة. وأظهرت الأحداث اللاحقة كم كان هذا العمل بعيداً عن الحِكمة؛ لأنَّ الحكّام في المناطق المجاورة لدمشق وبصرى وبعلبك وحمص، جمعوا قواتهم بصمتٍ وسِرِّيَّة بعد أن عرفوا أن نخبة المملكة كانت متغيبة، وأنَّ المنطقة بأسرها خالية من الجنود.. وعبروا الأردن بالقرب من بحيرة طبرية، ودخلوا منطقتنا خلسةً، وبعد أن اجتاحوا جزءاً من الجليل.. وصلوا إلى موقع عند جبل الطور يدعى (دبورية). ولم يكن سكان تلك المناطق عارفين بإلغاء الهدنة، فلم يتَّخذوا أي إجراء لحماية أنفسهم؛ لذلك انقضَّ عليهم العدوّ في الليل وطوّق الموقع بحيث لا يمكن للمحاصَرين فيه النجاة إلى الجبال

(١) لنلاحظ أن (الصوري) يستعمل كلمة (التركية) بدل (الإسلامية) دوماً.

فوقهم. وفي الصباح انسحبوا إلى برج فوق القرية، فطوَّقهم الأتراك وبذلوا جهوداً جبَّارة لتطويق هذا البرج؛ فانهار في أربع ساعات. وهرب اللاجئون إليه حين رأوا الصدوع فيه. وجمع الكفار المغانم وأخذوا معهم حوالي /٥٠٠/ نفس أسرى، وتركوا في الميدان العديد من القتلى ـ؛ وبما أنَّ الموقع كان خصباً وموعد الحصاد وشيكاً؛ فقد كان فيه أعداد من الناس القادمين من الأماكن المجاورة للمساعدة في الحصاد. . ثم عبر الأعداء الأردن وعادوا سالمين».

«حدثت في هذا الوقت ـ والملك والجيش في وادي عربة ـ كارثة شديدة جداً عرَّضتنا لمخاطر جديدة سوف يأسف عليها شعبنا دائماً: كان المسيحيُّون يملكون موقعاً مخصباً بشكل قوي جداً في منطقة السواد وراء الأردن قرب طبرية، وكان يعتقد أنه لا يرام، وكان له نفع كثير لشعبنا، وهو أقرب إلى ممتلكات العدو منه إلينا. وبسبب الحماية التي قدَّمتها هذه القلعة؛ فإنَّ عادة اقتسام السلطة بشكل متساوٍ بين المسيحيين والكفرة ـ قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت ماتزال تُطبَّق في هذا الوقت، كما قسِّمت الضرائب والجزية بشكل متساوٍ أيضاً.

«وتقع هذه القلعة في كهف على منحدر أحد الجبال وتحت جرف معلَّق ضخم، ولم يكن هناك أي طريق من أي نوع على الجانب العلوي، في حين لم يكن على الجانب الآخر سوى ممر ضيِّق للمشاة، يجد المرء طريقه عليه بصعوبة؛ وكانت العناية بالقلعة لصاحب طبرية. . وظهرت القوات التركية فجأة أمام الموقع، فاستولوا عليه بهجوم صاعق خلال بضعة أيام، ويقال: إن الحامية رشيت وتمَّ نسف الكهف من الداخل بسهولة، وتسلَّلوا إلى الطابق الأعلى بخيانة بعض الضباط ودون أي دفاع، واستسلموا والتحقوا بالعدو. . ويقال: إنَّ هؤلاء المسؤولين كانوا من السريان، وهم شعب ضعيف مخنَّث، ولذلك وُجِّه اللوم إلى صاحب طبرية، الذي سلَّم مثل هذا الموقع الحصين جداً إليهم، وانتشر ذلك عبر المملكة، ووصل مسامع المسيحيين الذين كانوا يحاولون منع

صلاح الدين من الوصول إلى الشام. غمر هذا النّبأ قلوب الجميع بالرعب، وكان هذا صحيحاً بالنسبة لكونت طرابلس الذي كانت عليه مسؤولية حماية القلعة... إلاّ أنهم تصرَّفوا بإهمال وطيش، وسمحوا له أن يتقدَّم حتى وصل إلى موقع القريتين؛ حيث وجد وفرةً كبيرةً من الماء لجيشه الظامئ، وأرسل قسماً من قواته إلى المنطقة المجاورة، حيث قطعوا الكروم، وألحقوا بالناس الخسائر. ولو أسرع المسيحيون إلى الموقع لأجبروا العدو على التقهقر إلى مصر؛ لأنه كان يقود حشداً ضخماً من الناس غير المقاتلين. وكان ينبغي أن يهلك هذا الحشد في الصحراء..».

«وحين علم المسيحيون أنَّ صلاح الدين وصل الموقع المذكور؛ عرفوا أنه غادر بلادهم، فعاد الملك وأصدر الأمر باجتماع القوى عند صفورية قرب الناصرة، ومعهم صليب الصلبوت. وكان صلاح الدين قد جمع خلال هذا الوقت قوات من سائر أنحاء ممتلكاته ليعزِّز الجيش الذي جلبه من مصر. وتقدم وهو مصمم على غزو بلادنا إلى الموقع المسمى برأس الماء (في أقصى غرب الجولان)، على مسافة قريبة من طبرية، ودخل منقطتنا فجأة وعسكر هناك.. ونقل الكشَّافة الخبر على الفور إلى قادتنا؛ فتقرَّر شنّ هجومٍ فوريٍّ، وأرسلت القوات لحماية المدينة والأماكن المحصَّنة حوله مثل صفد وكوكب.

«وحدث أن كان كونت طرابلس ـ وهو رجل شجاع وخبير في الحرب ـ مستلقياً وهو مريض بشكل خطير لتعرُّضه لنوبة حمَّى إقليمية مضاعفة، فحُرِمَ المسيحيُّون في وقت خطير مساعدته وحِكمته، ومع ذلك فقد استدعوا قوات إضافية من المناطق المجاورة، وانطلقوا نحو العدو. وعلم صلاح الدين بذلك، فانسحب إلى بيسان، وهاجم حصناً صغيراً هناك، لكن السكان قاوموا بعنف، فانسحب الأتراك إلى قلعة كوكب. وحين أشرف (جيش الفرنج) على الموقع، وجدوا قوات صلاح الدين منتشرة في كل الأماكن بأعداد تفوق ما كانوا قد جرَّبوه من قبل، ولم يكونوا شاهدوا هذا العدد من الفرسان

المجهَّزين للحرب في نحو عشرين ألف فارس، بينما كان عدد قواتنا نحو سبعمئة فارس. وكان هدف صلاح الدين تطويق جيشنا بالكامل حتى لا يتمكَّن أحد من النجاة.

«ونظم المسيحيون صفوفهم، وبالرغم من أنَّ بعضهم هرب؛ فقد أبدى الآخرون مقاومة باسلة، ولم يقتل من فرساننا سوى عدد قليل. وكانت خسائر العدو تفوق خسائرنا كثيراً، وفرُّوا من المعركة مذعورين (!). ويجب التغاضي عن أن الحرارة كانت تلك الأيام أعلى بكثير من المعتاد؛ لدرجة أن الكثير من الجيش هلك من ضربة شمس بقدر ما هلك قتلاً بالسيوف. ونقل الأعداء قتلاهم ليدفنوهم خِلسة في الليل، ولكنَّا تأكَّدنا أنهم أكثر من ألف. وانسحب صلاح الدين وهو محبط؛ لأنَّ الأمور لم تسر حسب ما كان يرجو، وعبر الأردن من جديد عائداً إلى مواقعه، كما عاد المسيحيُّون؛ لكن الحرارة الشديدة أنهكت الملك، فوضع في محفَّة ونُقِلَ إلى جبل الطور، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة، وهلك بعض مساعديه...»[1].

أطلنا في اقتباس هذا النص لأهميَّته ولما يكشف من العقلية الصليبيّة، ولما في النص من مغالطات وتوسُّل للأعذار وادعاء.

حين عاد صلاح الدين إلى دمشق، كان يدير مشروعاً جريئاً وخطيراً في رأسه؛ هو أن يُوجِد طريقاً بحرياً مباشراً بين دمياط والإسكندرية لإمداداته واتِّصالاته، واختار ميناءً يتوسَّط الساحل الشامي المحتَلّ من الفرنج؛ وهو بيروت ليفصل في الوقت نفسه ما بين مملكة القدس وكونتية طرابلس.. وهكذا جمع قواته في بعلبك، وتحيَّر الفرنج ماذا يقصد من العسكرة فيها، فيما كان كشَّافته والراصدون في أعالي جبال لبنان يراقبون وصول الأسطول من مصر الذي تواعد مع أخيه على إرساله ليتمَّ الحصار برَّاً وبحراً؛ فما بلغه وصوله حتى

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٣٦ ـ ١٠٤٤ (باختصار).

انحدر من الجبال وأسرع يحاصر المدينة.

فيما كان الأسطول يسمى (ديغنم)، وكان في ثلاثين سفينة، وقد أحاط صلاح الدين مشروعه بالسريَّة التامة (في آب سنة ١١٨٢م/ ربيع الأول سنة ٥٧٨هـ)، وحار الفرنج في حركته وتفسيره ـ كما يذكر وليام الصوري[1] ـ الذي رواه في كثير جداً من التفاصيل حول الحصار في البر والبحر لبيروت، وكان هجوم مصري في الجنوب قد وقع على غزة وعسقلان والداروم لإشغال القوى الفرنجية على الجبهتين؛ وكانت القوَّة ضخمة، فقتلت ٣٦ فارساً من المعدودين، وأحرقت الكثير من القرى، وبذل المهاجمون والمدافعون غاية الجهد في الحصار والقتال ثلاثة أيام.. ورأى صلاح الدين أن الوقت قد يضيع في مشروع قد يربحه اليوم ويخسره غداً بسبب قوة الأساطيل الفرنجية وكثرتها ورَوْدها في البحر، ثم إن منجنيقاته قليلة، وإن بندوين الرابع ملك القدس قد جمع أسطوله في عكا في ٣٣ سفينة، وجاء صور لرفع الحصار.

وشاع بأن معاهدة الموصليين مع الفرنج معاهدة دفاعية هجومية؛ ففضَّل الالتفاف للقوى المعادية داخل أرضه، وهكذا أمر برفع الحصار، ورحل إلى بعلبك، ومنها إلى حمص ثم حماه. وما إن وصل مشارف حلب حتى لقيه صاحب حران وسار في جملته، وأشار عليه بترك حلب لما بعد، وأن يتوجَّه إلى الجزيرة العليا والموصل؛ فهناك مكمن العداء له (١٨ جمادى الآخرة سنة ٥٧٨هـ/ تشرين الأول سنة ١١٨٢م)، فتركها بعد حصار ستة أيام، وقطع الفرات، فلما وصل (البيرة) نزل إليه صاحبها والتحق به، وهو من بني أرتق، ووصل (سروج)؛ فنزل إليه صاحبها مستأمناً، وأرسل صاحب ماردين في ردّ ما كان أخذه من أعمال البيرة؛ ففعل، ثم أخذ الرها والرقة، وكتب إلى الخليفة ببغداد: «خدم الخادم متوالية إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطانها معتداً بها من صالح أعماله. ومتوقعاً من الأجوبة عنها ما يهيئ له من أمره رشداً، فإن

(١) وليام الصوري: ج٢، ص ١٠٤٤ ـ ١٠٤٨.

الآراء الشريفة لو لم يفصح عنها الإنشاءات لأفصحت عنها موالاة الخادم. . وأدناه النظر العالي بما قرَّبه نجياً من قربه. . . ولما تحقَّق الخادم أن المَوَاصِلة قد واصلوا الفرنج مواصَلة أخلصوا فيها الضمائر. . وعقدوا معهم عقداً شهده من هو حاضره ونقله إلى من سمعه من هو ناظره، وكان عقدهم إحدى عشرة سنة والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار على أن تُسلَّم ثغور المسلمين إلى الكفار؛ منها بانياس (الحولة) وشقيف يترون وحبيس جلدك. . وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم، وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة للفرنج. ولما تمَّ لهم هذا العقد وحملوا إلى الفرنج ذلك النقد ظنُّوا أن الحقَّ يجادله الباطل فيدحضه، وأن الخادم لا يمكنه أن يتوجَّه إليهم إلاَّ أن يكون للفرنج سلماً، ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قسماً وبإزائهم قسماً، وعملوا على هذا الوهم واستنهضوا الفرنج على تثاقُل الخطوة، واستخرجوهم على مابهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة، فتحاملت أرجل الكفار، وخرجَت إلى طمعها وأنفقت في رجالها مالاً حملوه إليهم جمًّا. وتواعد المَوَاصِلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يوصل المشاة إلى الخادم، ولم ينظروا إلى الإسلام في العواقب؛ فوصل المَوَاصِلة إلى نصيبين مجدِّين، وحركوا الفرنج للخروج إلى الشام متوغِّلين؛ فلا جرم أنَّ أمراء جانبهم لم يسعهم المروق من الدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، فاتَّبعوا الحقّ. . ولما رأى (الخادم) أنهم قد أمَّلوا النصر من أرضهم؛ رتَّب الخادم في رأس الماء بدمشق المملوك فروخ شاه (ابن أخيه) واستنهض أخاه من مصر إلى ما يليه من بلاد الكَفَرة، وقام الخادم بما أقامه له الله بما فرض، وسار الخادم بالعسكر المصري إلى هذا الجانب الذي هو الآن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظاراً لأن يأتوا البيوت من أبوابها. . فأبوا إلاَّ الإباء. ورأوا المُلك إرثاً ما ادَّعوا فيه تقليد الخلفا، بل الآباء. . . »[1].

(١) نص الكتاب طويل، وهو لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٣١ ـ ٣٣.

وبعد أن ذكر التحاق أمراء الجزيرة به طائعين، وحثّهم له على المسير والإنقاذ، قال: ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم.. ما يروع السامع ويشهد عليهم بالخلاف؛ لأنهم ادَّعوا تقليداً فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتَّبعوا. وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادَّعاها، هذا إلى طامة أخرى لا تقرّ عليها الجنوب، وهو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبذلوا الطاعة لها. وهذا نص في الخلاف لا يدخله التأويل (ويقصد الدولة السلجوقية في همذان وفارس).

ويبدو أنَّ صلاح الدين وجد أنَّ هذه الغارات التي دخل فيها بعمق الأراضي المحتلة في بيسان والغور، وقتل وسبى - على ما ذكر ابن الأثير - وجحف الغور غارة شعواء فعمَّ أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب؛ فأغارت بدورها على جنين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا، وأن نائبيه في الشام وبعلبك يمكنهما القيام بردع الفرنج بعد أن رموهم بوابل من النشاب، فلم يبرحوا ولم يتحرَّكوا، وقاتلهم تقي الدين عمر وعز الدين فروخ شاه قتالاً شديداً، فهمدوا. كما دخل حتى بيروت وحاصرها، فلم يتحرَّكوا نحوه إلاَّ ببطء. وجد أن جبهة الشمال أولى بالاهتمام؛ فتحرَّك من بعلبك إلى حمص وحماة لينظر في الصدوع التي تمَّت فيها.

ولم يكتفِ السلطان بإخبار الخليفة، ولكنه حقناً لدماء المسلمين، أعلن عفواً عامًّا، وكاتَبَ أمراء الجزيرة والموصل بأن يفدوا عليه. فمن جاء مستسلماً سَلِمت بلاده، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار.. وهكذا جاء صاحب حصن كيفا الأرتقي، ونزل السلطان على صاحب الرها فأذعن، وصاحب الرقة والبيرة وحرَّان وعرابان وبلاد الخابور، ورأس عين، ودورين وماكسين والشمسانية والقدين والمجدل والحصين ثم نصيبين التي استعصت قلعتها أياماً، وبلد؛ حتى صمم في النهاية على قصد الموصل، وطاف صلاح الدين حول السور، ورتَّب جيشه في أنحائه، وبدأ الحصار.

كان مجاهد الدين قايماز يدافع عن البلد، فكاتبَ الخليفة في بغداد في أن يشفع لهم لدى السلطان؛ فأُرسل إليهم شيخ الشيوخ مع شهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار...»[1]، وكان رسول الموصل إلى الخليفة هو عز الدين بن شداد الذي التحق بعد ذلك بصلاح الدين وصار من أقرب المقرَّبين عنده وكتب سيرته.

وابن الأثير الذي كان بين المدافعين عن بلده الموصل يذكر: «أن عز الدين صاحبها ومجاهد الدين قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبذلا الأموال، وشحَنا ما بقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار وإربد وغيرها بالرجال والسلاح والأموال.. وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره، وانفرد هو ومظفر الدين الأرتقي وابن عمه محمد وقربوا من البلد حتى رآه، فرأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه، ورأى السور والفصيل قد مُلِئا بالرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها رجل يقاتل.. فعلم أنه لا يقدر على أخذه.. (وندم وقال لصاحبيه: غررتماني وأطمعتماني في غير مطمع، وإذا عدنا عنه انكسر ناموسنا... ونصب منجنيقاً، فنصبوا مقابله تسعة مجانيق، وضرب رجل قائد الأسدية بحذاء فأزعجه ذلك، واحتال مجاهد الدين فكان يخرج بعض العسكر في الليل بالمشاعل ثم يطفؤونها في دجلة ويخرج غيرها.. فحملهم ذلك على الرحيل!.

وكان شيخ الشيوخ قد وصل مع صاحبه بشير الخادم، فأقاما على الموصل وتردَّدت الرسل بين الطرفين؛ فطلب صلاح الدين أن يتنازل عز الدين عن حلب، فرفض عز الدين وقال: هو أخي فيها وبيننا عهود ومواثيق لا يسعني نكثها. ووصلت أيضاً رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ورسل شاه أرمن

---

(١) انظر التفاصيل لدى أبي شامة: ج ٢، ص ٣٢ ـ ٣٣؛ ولدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٤.

صاحب خلاط في المعنى ذاته. . فلم يتم صلح. ورأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً. . وأنَّ مَنْ في سنجار يقطعون على أصحابه الطريق؛ فترك الموصل إليها. . .»[1].

ولابن الأثير عذره بهذه المبالغة، فهو يدافع عن بلده مع غيره، ولكن التماس الشفعاء لدى الخلافة ولدى شاه أرمن وصاحب أذربيجان؛ يكشف الرعب الذي أصاب الموصل وعجزها عن المقاومة. . والهامُّ هنا أن مفاوضات شيخ الشيوخ مع المَوَاصِلة كانت عقيمة، وقد انقطع مندوبا صلاح الدين (وهما القاضي الفاضل والفقيه عيسى الهكاري) عن حضور جلساتها، فانصرف شيخ الشيوخ عن الموصل فاشلاً من فراوغتهم، ثم لحق به الموصليون، وطلبوا عودته ومتابعة المفاوضة، ولكنه حين التقى صلاح الدين امتنع عن الكلام، فقال السلطان: «هذه أشهر شِـراف وميامين بقدومك، وقد عزمنا أن نرحل ونهب لوصولك الموصل. .»، وكان شيخ الشيوخ يتوهَّم أنَّ صلاح الدين لا يؤثر الصلح.

ومما يؤكِّد ضعف الموصل أنها استجارت بعدو الخلافة اللدود، وهو الأتابك السلجوقي في فارس؛ لأن عز الدين كان يفتش عن الحلفاء في كل مكان: في بغداد وأذربيجان وخلاط ولدى أعداء الخلافة السلاجقة. لكن (بهلوان بن إيلدكز السلجوقي) (٥٦٨ ـ ٥٨١هـ/ ١١٧٢ ـ ١١٨٥م) أتابك همدان عرض على صاحب الموصل شروطاً قاسية منعت من التعاون معه. وكان شيخ الشيوخ حين قدِمَ من بغداد يتوهَّم أنَّ صلاح الدين هو الذي لا يؤثر الصلح استناداً إلى قوته؛ فلمَّا تبيَّن صلاح الدين منه ذلك عمد إلى التنازل للمواصلة عما كانوا يطلبونه، فلما فعل ظنُّوا ذلك عجزاً منه وتشدَّدوا في المطالب؛ مما ترك شيخ الشيوخ يصمت لدى صلاح الدين.

ومما يجب التشديد عليه أنَّ هذه المفاوضات لم تدُرْ في أي وقت حول

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٧.

مطالبة صلاح الدين بامتلاك الموصل فعلياً؛ بل تناولت فقط الشروط التي يقف فيها وبموجبها أمير الموصل إلى جانب صلاح الدين، ويرسل عساكره للمعاونة في الحرب ضد الفرنجة؛ فالهدف الرئيسي للأمير الزنكي عند هذه النقطة الأولى كان الاحتفاظ بسيادته على حلب. ومع أن صلاح الدين كان توّاقاً للوصول إلى اتّفاق.. وقبل كل مطالبه باستثناء ذلك؛ فقد رفض (عز الدين) إبرام الشروط والتصديق عليها. ثم وافق صلاح الدين ـ بناءً على مداخلة عاجلة من شيخ الشيوخ ـ على الانسحاب من الموصل، لكنه رفض متابعة التفاوض. إنَّ حقيقة كون المفاوضات التي دارت أحدثت توتراً شديداً في ثقة تابعيه الجدد في الجزيرة، ولكي يعيد (صلاح الدين) ثقتهم؛ طمأنهم، فأعلن أمام الديوان العزيزي عزمه الأكيد على ألاّ يغادر الولاية قبل إتمام الاستيلاء عليها...»[1].

حاصر صلاح الدين سنجار التابعة للموصل؛ فاستسلمت بشروط بعد حصار دام ١٥ يوماً (شعبان سنة ٥٧٨هـ/ آخر سنة ١١٨٢م)، وأجليت الحامية إلى الموصل، وكانت القوة التي أرسلت من الموصل لنجدتها قد وقعت في يد صلاح الدين، فأوقع بها وأخذ سلاحها ودوابها، ويذكر ابن الأثير أنها سقطت بخيانة بعض الجند الأكراد، «ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحي عنها(؟) ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها، ولكنه عجز...» وآثر السلامة، وأعاده صلاح الدين إلى الموصل، بعد أن أسقط عن أهل سنجار المكوس والضرائب.. وقد راسل صاحب الموصل شاه أرمن في نصرته، فأرسل من خلاط من يشفع في سنجار، فماطله صلاح الدين، وعند ذلك أظهر الرسول رسالة أخرى فيها التهديد والوعيد، وعاد إلى شاه أرمن يخبره الخبر، فتجهّز بقواته العسكرية وخرج إلى ماردين ومعه أتابك بدليس وأرزن، والتقى بعز الدين مسعود صاحب الموصل، وقرّروا مهاجمة صلاح الدين الذي كان قد فرّق العساكر وأخلد إلى الراحة في حران؛ لكنه حين سمع بالتحالف ضده،

---

(١) «جب»: صلاح الدين الأيوبي (تحرير إيبش)، ص ١٣٦.

استدعى ابن أخيه من حماة؛ فما سمعوا بوصوله حتى تفرَّقوا بأعذار مختلفة وانفضَّ التحالف.

وبقي صلاح الدين يعسكِر في نصيبين والجو شتاء بارد. ولم يكن في نيَّته تخفيف الضغط على عز الدين صاحب الموصل؛ لذلك أرسل جملة من الكتب إلى كبار الرجال في بغداد وأهل الدولة يطلب فيها الاعتراف بسيادته على الموصل.. ولم تستجب بغداد له، ولكن منشور الخليفة جاء بولايته على آمد ودياربكر ـ وكانت تابعة للسلاجقة في همذان ـ، ولم يكن صلاح الدين قد قاربها بعد، فكأنما أراد الخليفة أن يستفيد من وجود صلاح الدين وجيشه في فتحها؛ فحاصرها وقلعتها منيعة يضرب المثل بحصانتها، فاستسلمت بعد ثلاثة أشهر[1]، فسلَّمها بمخازنها العسكرية وأموالها وما فيها من الذخائر إلى نور الدين محمد بن قره أرسلان الأرتقي أتابك حصن كيفا بناءً على وعد مسبق منه بذلك. وقد غضب بعض أتباع صلاح الدين لهذه الهبة الضخمة، وقالوا: إنَّ فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار؛ فلو أخذتَ ذلك وأعطيته جندك وسلَّمت إليه البلد فارغاً لكان راضياً، فامتنع وقال: ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع... وأثبت صلاح الدين بذلك للمرة الخمسين أنَّ اتِّهامه بالمآرب المادية غير ذي أساس.

وقد استغلَّ صلاح الدين في فتح آمد الحرب النفسية، ورقاع الوعد والوعيد يرسلها مع السهام، كما استغلَّ كره الناس للحاكم الذي طال حكمه ٤٣ سنة، والذي أرسل نساءه يتوسَّطن لدى صلاح الدين بطلب الأمان لنفسه وأمواله؛ فوافق السلطان على منحه ثلاثة أيام لنقل أمواله خارج البلد، وأعانه صلاح الدين بالحمير في النقل (وفي منتصف المحرم سنة ٥٧٩هـ/ ٦ مايو

(١) كان حاكمها منذ سنة ٥٣٦ حتى سنة ٥٧٩ هو جمال الدين شمس الملوك محمود بن ايكلدي، مِنْ قِبَل السلاجقة وكان شيخاً كبيراً، وكان يتولَّى أمرها دونه بهاء الدين ابن نيسان.

١١٨٣م) تسلّم صلاح الدين البلد بعد أن كانت نصف أموال ابن نيسان الحاكم قد سُرِقَت من قِبَل أصحابه أنفسهم. . وكان بقية ماله مايزال في البلد، وفيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار الشيء الكثير، فلم يأخذ صلاح الدين منه شيئاً[1]، ومن ذلك ذخائر بقيمة ٣ ملايين دينار، وبرج مملوء بنصول النشاب، وآخر فيه مئة ألف شمعة، وخزانة كتب فيها مليون ومئة وأربعون ألف مجلّد وهبها صلاح الدين كلّها للقاضي الفاضل؛ فانتقى منها حمل سبعين حماراً، وترك الباقي في البلد.

على أن أهمية آمد تظهر من أصداء سقوطها بيد صلاح الدين الذي أصبح سيّد الجزيرة العليا دون منازع، وكان تسليمها للأمير الأرتقي نور الدين محمود؛ أشبه بضرب مسمار قوي في جانب الموصل، وإقامة قاعدة هامة بين الأمراء الأراتقة في خدمة صلاح الدين وخدمة هدفه البعيد في الجهاد. وقد دفع سقوطها باقي القلاع التابعة للأراتقة إلى الانضمام للسلطان، مثل صاحبي ميافارقين وماردين الذيْن أرسلا إلى صلاح الدين يطلبان الأمان والدخول في طاعته. وقد أخلص الأراتقة العهد للسلطان، وسوف يبرهنون في المستقبل القريب عن إخلاصهم في مشاركة صلاح الدين بالجهاد.

وابن الأثير يُهَوِّن من أمر سقوط آمد، ويذكر أن ابن نيسان المتحكِّم بها لم يعطِ الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرَّق فيهم ديناراً ولا قوتاً؛ وقال لأهل البلد: قاتلوا عن أنفسكم، فقال له بعض أصحابه: ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم؛ فلم يفعل شيئاً. . . وابن نيسان على حاله من الشحّ بالمال. . . فلما رأى الناس ذلك تهاونوا في القتال وجنحوا إلى السلامة. وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لتضييقه عليهم في مكاسبهم، فالناس كارهون لها محبون لانقراضها».

---

(١) انظر: ابن الأثير ج ١١، ص ٤٩٣؛ وأبي شامة: ج ٢، ص ٣٩؛ مفرّج الكروب ج ٢، ص ١٣٦.

وكتب صلاح الدين إلى الخليفة ورجال دولته أكثر من كتاب حول فتح آمد يقول فيها: إن سلطة الخليفة عليها أدَّت إلى فتح أبوابها، فلماذا تمنع عنه حتى الآن بـراءة الموصل؟ إنها وحدهـا تقف عقبـة في سـبيل وحدة الجبهـة الإسلامية واسترداد القدس.. وليقارن أمير المؤمنين بين سلوك عملائه، ثم يحكم من منهم الذي خدم راية الإسلام في منتهى الإخلاص، وإذا ما ألحَّ صلاح الدين في إدراج الموصل ومنطقتها تحت سيادته، فلأنها نقطة الفصل ومركز المقاومة، ومتى قدِّر لها أن تتَّخذ مكانها في سلسلة التحالفات فإنَّ قوة الإسلام المسلَّحة سوف تكمل للاشتباك مع قوى الكفر...[1].

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يضع الخليفة أمام الأمر الواقع بالانصراف لفتح حلب الزنكية، فقد كانت في الواقع جزيرة معادية الآن ضمن ممتلكاته؛ فالتفتَ إلى تصفيتها بعد أن استند بقوة إلى دياربكر والجزيرة العليا. فقصد بجيشه تل خالد من أعمال حلب، وامتلكها بعد الحصار والرمي بالمجانيق، فنزل أهلها وطلبوا الأمان، وتسلَّمها (في المحرم سنة ٥٧٩ هـ)، ثم سار إلى عين تاب، فنزل صاحبها عنها لخدمته في الشهر نفسه. ثم نزل على حلب وأظهر أنه يريد الحصار لا القتال، فبنى مساكن لجنده، وكان صاحب حلب عماد الدين شحيح اليد، فلما رأى كثرة النفقات مال إلى التسليم، وأخذ العِوض عنها؛ لئلا يطول الحصار وتكثر المصروفات اليومية عليه للعساكر، وكانت في حوالي عشرة آلاف دينار كل يوم. وقد قال له بعض الجند يوماً: من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع حلي نسائه، فرأى أن أمواله لا بدَّ نافدة؛ فأرسل من عنده قائده حسام الدين طمان الياروقي في السر يفاوض في التسـليم على أن يعيد إليـه بلاده. ولم يشعر أحد من الرعيـة والمقاتلين والمعسكر إلاَّ وقد رُفعت أعلام صلاح الدين على المدينة والقلعة (في ١٧ صفر سنة ٥٧٩هـ)، وسُلِّمت إليه البلد بعد أن أقسم بحفظ عسكرها وأهلها. ثم

(١) انظر: نص الكتاب لدى أبي شامة ج ٢، ص ٤٠ ـ ٤١؛ وكتب فتح حلب ص ٤٢ ـ ٤٣.

خرجت العساكر إلى خدمته ومقدمو حلب؛ فخلع عليهم وطيَّب قلوبهم، وظلَّ عماد الدين ينقل حاجاته من القلعة حتى ٢٣ صفر، واتَّفق أن توفي أخوه تاج الملوك بوري، وهو أصغر إخوة صلاح الدين من جرح أصابه، فحزن عليه السلطان كل الحزن.. ونزل عماد الدين فعزَّاه فيه، وأخذ العوض سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج.

وكتب صلاح الدين إلى بغداد بفتح حلب قائلاً: «تسلَّمنا مدينة حلب وقلعتها بسِلْمٍ وضعت بها الحرب أوزارها، وعوِّض صاحبها بما لم يخرج عن اليد، لأنه مشترط عليه الخدمة بنفسه وعسكره، فهو أحد الأولياء... وقد أخذنا الدنانير وأعطينا الدراهم ونزلنا عن المنيحات، وأحرزنا العواصم.. واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فأصبح المؤمن بأخيه كثيراً وأخذت للغزاة الإهب...»، «لأنَّ مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها. والأوامر بحلب نافذة... وجاء أهل المدينة يستبشرون. وقد بلغوا ما كانوا يأملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون...».

ونشر على قلعة حلب سنجق السلطان الأصفر بعد أن اشترط على عماد الدين أنه لا يريد من البلد إلاَّ الحجر فقط، وأذن لعماد الدين في أخذ جميع ما في القلعة وأهداه عشرين بقجة صفراً فيها مئة ثوب من الأطلس والعتابي والمعتَّق والممرس، وخمسة خلع برسمه ورسم ولده وجوادين عربيين، وبغلتين مسروجتين، وعشرة جلود قندس وبغال وجمال، وأجلسه بجانبه، ثم خرج لوداعه، ثم عاد فصلَّى شكراً لله؛ وقال: ما سُرِرْتُ بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة.. الآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمتُ أنَّ ملكي قد استقرَّ وثبت. ثم أطلق المكوس والضرائب الكثيرة وسامح الناس بأموال عظيمة على عادته في جميع البلاد التي فتح، وكان منها ضرائب على الأثواب التي تلبس وعلى الدواب المركوبة، وعلى معاش الناس.

وابن الأثير يذكر: «أنَّ عماد الدين باع حلب بأوكس الأثمان، فعجب الناس كلّهم من ذلك، وقبَّحوا ما أتى؛ حتى إنَّ بعض العامة جاءه بأجانة وماء ونادى: عماد الدين أنت لا تصلح للملك وتصلح لغسل الثياب! وأسمعوه وأنكروه. واستقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار. . .[1]»، وهذه أحكام كان على ابن الأثير ألاَّ يذهب فيها مع الأهواء؛ وهل يكون ملك مصر واليمن والحجاز والشام والجزيرة مزلزلاً وعلى شفا جرف هار، إن لم تكن حلب في هذا الملك؟!

وبعد أن امتلك صلاح الدين حلبَ وأعمالها مثل تل خالد وعينتاب، لم يبقَ أمامه من القلاع الهامة المجاورة سوى قلعة حارم، وكانت بعد أن قتل الملك الصالح صاحبها كمشتكين عليها بيد مملوك له يدعى سرخك، فراسله صلاح الدين على تسليم القلعة ووعده بمبالغ كبيرة من المال إضافة إلى ولاية بصرى وضَيعة في غوطة دمشق وحمام العقيقي وأربعين ألف دينار منها عشرة آلاف لأخيه، إلاَّ إنه اشتطَّ في الطلب؛ ويبدو أن بعض أصحابه كانوا ميالين لصلاح الدين أو يطمعون في مكافأته، فقبضوا عليه أثناء نزوله من القلعة ونادوا بشعار صلاح الدين، وأرسلوا يعرفونه بأن سرخك كان يراسل الصليبيين ويطلب تدخُّلهم فخافها لذلك؛ ولكن أحد قواد صلاح الدين وهو بدر الدين حسن بن الداية كشف كذبهم وأن نقيب القلعة كان يتطلَّع إلى الإمارة. . فلم يؤذِ سرخك بل أكرمه وبذل له العطاء الذي وعد به، وقال لأصحابه الذين عارضوا ذلك: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفِ بما نعد ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد. . .»[2]. وتسلَّم المدينة في ١٩ صفر سنة ٥٧٩هـ، وبعد أن وزَّع البلاد بين القوَّاد إقطاعات لهم عاد إلى دمشق في شعبان سنة ٥٧٩هـ/ آب سنة ١١٨٣م.

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٧٠.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٦.

استغرقت هذه الحملة من صلاح الدين إلى شمال شرقي الشام سنة كاملة (ما بين أيلول سنة ١١٨٢ وآب ١١٨٣م/ جمادى الأولى سنة ٥٧٨، وجمادى الآخرى سنة ٥٧٩هـ)، عاد بعدها يتلقّى رسائل الطاعة والولاء من سنجرشاه أتابك الجزيرة، ورسل صاحب إربل، وغيرهما. ولم يبقَ فيما بين بلاد برقة ومصر والنوبة إلى اليمن والحجاز والشام والجزيرة والعراق الأعلى سيد سواه.. غير أن الموصل وحدها كانت النشاز الوحيد في الجبهة.

وإذا كانت ردود الفعل في المشرق الإسلامي على احتلال حلب ردوداً مؤيدة إيجابية جدّاً وتتّسِم بالفرح الشديد والأمل بتحرير القدس الذي صار يلهج به كل لسان؛ فإن ردود الفعل الفرنجية كانت بالعكس ذعراً شديداً.. يقول وليام الصوري بعد احتلال حلب (حزيران سنة ١١٨٥ م):

«استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ، لأن النتيجة التي كانوا يخافونها خوفاً شديداً قد حدثت، فقد كان واضحاً للمسيحيين منذ البداية أنه إذا نجح صلاح الدين في إضافة مدينة حلب إلى إمارته فإن أراضينا ـ جميعها ـ سوف تكون محاطة بسلطته وقوته، وستغدو كأنها في حالة حصار وتطويق، لذلك حاولوا تعزيز تحصينات مدنهم وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة وبخاصة تلك المدن التي كانت تقع بالقرب من حدود العدو، ووسّعوا في المقام الأول مدينة بيروت التي كان ضعيفة بشكل خاص... كان أمير أنطاكية مذعوراً بلا حدود إزاء مجاورة عدو قوي جداً، وبعد أن أدرك أنَّ عدواً مروعاً للغاية كان مقابلاً له الآن توجَّه نحو الملك الذي كان مقيماً آنذاك في مدينة عكا، ولم يأخذ معه سوى مرافقة صغيرة لكي لا يترك المنطقة مجرَّدة من المدافعين عنها، وأخذ معه كونت طرابلس كرفيق له، وطلب هناك ـ بحضور أمراء المملكة ـ المساعدةَ ضد صلاح الدين. وتقرَّر الإصغاء لشكواه وتلبية طلبه، وتمَّ منحه نحو ٣٠٠ فارس من فرسان المملكة من مختلف المراتب، فتبعوه إلى أنطاكية، وهم جاهزون للقتال؛ غير أنَّهم عادوا بعد زمن قصير، فقد

كان عقد هدنة مؤقتة مع صلاح الدين، وبدأ يشعر ببعض الثقة والهدوء. وتنازل عن مدينة طرسوس إلى (روبين) الحاكم الأرمني القوي لقاء مبلغ ضخم من المال، وأقدم عليه ليقلّل من قلقه وليتمكّن من الإشراف بحذر أكثر على منطقة أنطاكية.. وقد أظهر حكمة كبيرة في عمله؛ لأن طرسوس بعيدة جداً عن أنطاكية.

«وبعد أن رتّب صلاح الدين جميع الأمور بشكل يرضيه، غادر مع فيالقه إلى دمشق، فسببت هذه الحركة خوفاً كبيراً بالنسبة لشعبنا، وخاصة لأنه كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشّافة بخصوص هدفه الحقيقي.. بعضهم اعتقد أنه سيهاجم بيروت كما فعل في العام السابق، وبعضهم اعتقد أنه سيهاجم حصن (تيرون) وهونين المطلّين على صور، واعتقد آخرون أنه كان ينوي اجتياح المناطق فيما وراء الأردن ـ وادي عربة ـ والمناطق المحصّنة هناك، وبعضهم اعتقد أنّ صلاح الدين سينتهز فرصةَ الهدنة ليعود إلى مصر، ويعيد تأهيل جيشه ويجمع الأموال اللازمة للحملات المستقبلية بعد أن أزهقته الحملات الطويلة الأمد في مناطق بعيدة.

«أبقت هذه التخمينات المتنوعة ـ وجميعها غامضة ـ الملك والنبلاء في حالة قلق وترقُّب دائمَيْـن، وأخيراً حشدت القوّات المتوفّرة في المملكة عند نبع الصفورية حيث اعتادت التجمُّع، وتمّ ضمّ أميرَي طرابلس وأنطاكية بقواتهما بعد توسُّل وإلحاح.. وانتظروا غزوة من صلاح الدين...

«على أن الملك كان يعاني من حمّى حادة إضافة إلى مرض الجذام، وتفاقم ضعف بصره وشُلّت أطرافه تماماً؛ ومع ذلك رفض التنازل عن منصبه الملكي، وكان قوياً من الناحية العقلية عاجزاً من الناحية الجسدية؛ وحين هاجمته الحمّى في الناصرة، استدعى نبلاءه بحضور والدته والبطريرك وعيَّن (غي لوى لوسينيان) كونت يافا وصيّاً على المملكة، واحتفظ لنفسه بالمنصب

الملكي ومدينة القدس وعائداتها السنوية عشرة آلاف قطعة ذهبية . . . »[1] .

وقبل أن نذكر ما تمَّ بين الصليبيّين (سنة ٥٨٠ ـ ٥٨٢هـ) وبين صلاح الدين ـ وقد شغل بهم في هذه الفترة ـ نتابع علاقاته مع الموصليين، فقد ساد بينه وبينهم شيء من التباعد المبرّر بعد أخذ حلب؛ لكن خصومة قامت بين صاحب الموصل وبين بعض الأمراء المرتبطين معه في الجزيرة دَعَتْ هؤلاء إلى اللجوء إليه. ووصلته أخبار صاحب حرّان المظفَّر بن زين الدين تُعلمه أن عسكر الموصل وعسكر قزل صاحب العجم نازلوا إربل حليفته، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه انتصر عليهم وكسرهم؛ فقرَّر صلاح الدين العودة إلى الجزيرة مرة ثالثة.

وابن الأثير يعزو السبب إلى أنَّ صاحب حرَّان استدعاه وتكفَّل بدفع خمسين ألف دينار له إن فتح الموصل ـ وكان يطمع بها ـ. وما كان صلاح الدين ـ وهو الذي يهب الملايين دون حساب ولا يسأل ـ ليؤجر نفسه وجيشه ويذهب إلى فتح الموصل بهذا الثمن البخس ولا أضعافه، وقد اتَّهمه ابن الأثير بمثل هذا السبب في الحملة الأولى؛ وقال: إنها كانت بإشارة من ناصر الدين الذي وعده بدفع بعض الأموال إليه إن احتلها. وقد يتبيَّن سخف هذه الدعوى إن عرفنا أنَّ صلاح الدين ما إنْ وصل حرَّان حتى قبض على صاحبها زين الدين وسجنه تأديباً له لظنّه أنه يميل إلى أصحاب الموصل، ولما تحقق غير ذلك أطلقه وأحسن إليه، وإنما كانت حركة صلاح الدين هي لكفّ أيدي الموصليين عن الأمراء الذين أصبحوا تابعين له. ويتَّضح ذلك في المنشور الذي أرسله صلاح الدين إلى زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وأوضح فيه أن هدفه الجهاد في سبيل الله، فمن ساعده على إتمام هذا الغرض وإلا تُزال يده عن منصبه ويعزل. . .[2]

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٩٣ ـ ١٠٩٥ باختصار، وينتهي هذا الكتاب قبل أن يسجل صاحبه ردود الفعل الفرنجية على الصلح مع الموصل وظهور الجبهة الإسلامية الموحَّدة.

(٢) انظر نص المنشور لدى مفرج الكروب: ج ٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

«والموصل هي الطريق الموصل إلى فتح القدس».

غادر صلاح الدين دمشق في مطالع سنة ٥٨١هـ/ نيسان (إبريل) سنة ١١٨٥م، والتقى بأخيه العادل صاحب حلب فعبر الفرات إلى حران، وقبض على صاحبها، ثم غادر حران في مطلع ربيع الأول إلى رأس العين، ووصله فيها رسل السلطان السلجوقي (قلج أرسلان بن مسعود) صاحب الروم يخبره أنَّ ملوك الشرق جميعاً اتَّفقوا على محاربته إن لم يعد عن الموصل. ولم يأبه صلاح الدين لهذا الحلف؛ ليقينه أنه شكلي أكثر منه واقعياً. وانضمَّت إليه قوَّات نصيبين، وخيَّم قرب الموصل، وأرسل من عنده إلى الخليفة القاضي ضياء الدين الشهرزوري لتعريفه بخطواته وما عليه المَوَاصِلة من التواطؤ مع الصليبيين وتبعيتهم لسلطان العجم ـ السلجوقي المعادي للخلافة ـ، وأنهم ينقشون السكة باسمه ويخطبون له، وأنه إنما جاء لنصرة الإسلام ولردِّهم إلى طاعة الخليفة[1].

كان الوقت صيفاً شديد الحرّ، وقد اقترح عليه خبير بعمل الهندسة هو الفقيه أبو شجاع ابن الدهان ـ تحويل نهر دجلة عن الموصل ليعطش أهلها ويسلِّموا دون نزال[2]، فرفض أو وجد المشروع أكثر كلفة من الحرب. وأن ليس من قصده قتل الناس ولكن التسليم برأيه.

وشغل بهذه الفترة بمشكلة في خلاط لم ينجم عنها شيء، فعاد إلى (ميافارقين) وهي تابعة لصاحب ماردين، فضيَّق عليها وكانت بيد الخاتون ابنة فخر الدين الأرتقي، فرغَّبها في الموادعة والتسليم وضمن لها ما تطلبه فسلَّمت البلد، ووفى لها بوعده؛ ثم طلبت منه حصن الهتاخ في دياربكر، فأعطاها إياه. وبعد أن تسلَّم ميافارقين؛ عاد يحاصر الموصل في شعبان سنة ٥٨١ هـ، بعد أن قضى بالقرب منها فصل الشتاء البارد...

(١) ابن شداد: ص ٦٧ ـ ٦٨؛ أبو شامة: ٢/ ٦١ ـ ٦٢؛ سبط ابن الجوزي ـ مرآة ٨/ ص ٣٨٣.
(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥١٣.

ولم يجد صاحب الموصل من حيلة في دفعه سوى إرسال وفدٍ من النساء والأتابكيات إليه، لما عرف عنه من رقة العاطفة والإحسان لآل نور الدين خاصة والناس عامة «وفيهنّ ابنة نور الدين نفسها، فأكرمهنّ السلطان ووعدهنَّ بالإحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لا بدَّ من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم. . .»، واستقرَّ الأمر على أن يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وأخو عز الدين «وسيطاً في إصلاح ذلك البين، وحكماً فيما يعود لمصلحة الجانبين».

روى ذلك كلٌّ من العماد الأصفهاني وأبو شامة. ومن المؤسف أنَّ ابن الأثير وحده تفرَّد بخطيئتين نقلهما عنه ابن العديم في زبدة الحلب (٣/ ١٨) وابن خلدون (٥/ ٩١).

الأولى: أنه جعل هذه الوساطة عند وصول صلاح الدين إلى الموصل؛ لا كما أثبتها الآخرون، ومنهم العماد الكاتب في الحصار الأخير بعد ذلك؛ وقال: «لم يكن إرسالهنّ عن ضعف ووهن وإنما لدفع الشر بالتي هي أحسن»[(١)].

الثانية: أنَّ ابن الأثير ذكر أنَّ صلاح الدين ردَّهن خائبات، ثم ندم على ردِّهنَّ وعاد إلى الذين أشاروا عليه بذلك (كالفقيه الهكاري الذي قال: لا تترك مثل الموصل لشفاعة النساء) باللوم والتوبيخ. ولا سبيل إلى الجدال في أنَّ رواية العماد الأصفهاني وابن شداد وأبي شامة هي الأصح والأكثر طبيعية والأشد تماسكاً في ذاتها ومع الظروف؛ لأن الوفد النسائي كان آخر ما يمكن أن يكون من الوسائل لدفع صلاح الدين. وقد قام ابن الأثير بتحريفها لإظهار صلاح الدين «في أسوأ ضوء ممكن. . .»؛ وقال: «. . . وكنت إذ ذاك بالموصل، وبذل العامة نفوسهم غيظاً وحنقاً لردِّه النساء، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه، فندم على ردِّ النساء ندامة الكسعي، حيث فاته الذكر وملك

(١) انظر: ابن الأثير ج ١١، ص ٥١٢؛ وانظر معه أبا شامة: ج ٢، ص ٦٤؛ ومفرج الكروب: ج ٢، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

البلد. . . وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممن ليس له هوى في الموصل يقبحون فعله وينكرونه. . . ».

وهي مبالغات يعذر ابن الأثير عليها لأنه يتكلّم عن بلده ويدافع عنه، لكنه لا يُعذَر في التحريف بشأنها؛ فمجيء هذا الوفد كان في الحصار الأخير، الذي وافق فيه صلاح الدين على المصالحة، وعلى أن يكون عماد الدين هو الوسيط الذي يقرر شؤونها بينه وبين صاحب الموصل. . ويعذر ابن الأثير أيضاً في تمويه معنى إرسال النساء؛ فقد جرَّب صاحب الموصل الدفاع، وجرَّب أكثر من مرة عقد التحالفات حتى مع الفرنجة والعجم، وجَرَّبَ الاستنجاد بالخليفة، ومجيء وساطته؛ فلم يكن له إلا نقطة الضعف عند صلاح الدين، وهي الإشفاق والرحمة، فنجحت، ولو استطاع ردّه بالقوة لفعل، ولم يلجأ إلى التي هي أحسن.

ولعلَّ إشاعة رد النساء خائبات؛ كانت في تلك الفترة التي كان عماد الدين فيها يجري وساطته ويضع الشروط للطرفين[1] ويفاوض فيها.

يقول العماد الأصفهاني عن الوفد: إن السلطان «تعطف وتلطَّف لأجلهنَّ وإجلالهنَّ، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهنَّ، وكنّ ظننَّ أنه لا يقيم لحرمة قصدهن ولا يصدِّق ظنونهنَّ ولا يعرف حقوقهنَّ. . . فدخلنَ البلد متلوِّمات متذمِّمات وبلطف الله لائذات معتصمات. . . »[2].

«ودخل شهر رمضان وكان الصيام يضرّه فصام، فتغيَّر مزاجه ومرض وندم على رد السفراء ـ المفاوضين ـ وسيَّر إلى عماد الدين في إنفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله، فوصل رسوله، وكان قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وضياعها وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلة وبني قفجاق، فدخل (وفدنا) إلى الموصل لأخذ العهد، ورحل

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥١٢.
(٢) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٤.

السلطان قبل عيد الفطر بيوم، وخيَّمنا على نصيبين في شوال، ولم نترقب عود الرسول بنجاز الأشغال. . . ثم استمر الصلح وصلح الأمر وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية. وفي دياربكر أيضاً والولايات الأرتقية، وضُرب باسمه الدينار والدرهم. . .»[1]. ويظهر أنَّ توقيع صاحب الموصل لم يتم في هذه المرة، وتردَّدوا لوصول أخبار مرضه إليهم. فابن شداد يقول: «ومرض السلطان بكفرزمار (مقر المعسكر) مرضاً شديداً، خاف من غائلته؛ فرحل طالباً حرَّان، وهو مريض، وكان يتجلَّد، ولم يركب في محفَّة، ووصل حرَّان شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضعف، وأيس منه وأرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل ومعه الأطباء، وكان سبب صلحه مع المواصلة أنَّ عز الدين صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجد به فلم يحصل منه زبدة، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة، فلمَّا وصلت من بغداد وأديتُ جواب الرسالة أيس من نجدة. فلمَّا بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصةً وعلموا رقَّة قلبه وسرعةَ انقياده فندبوني لذلك الأمر وبهاء الدين بن الربيب، وفوّض إلي أمر النسخة وقالوا: أمضِ ما يصل جهدكم وطاقتكم إليه. فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلّهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة ـ بعد شهرين من مرضه وانسحابه ـ، فاحترَمَنا احتراماً عظيماً، وجلس لنا، وكان أوَّل جلوسه من مرضه، وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين ـ وكان أخذها من سنجرشاه ـ فأعطاها المواصلة وحلَّفته يميناً تامة، وحلَّفت أخاه العادل. . ومات قدَّس الله سرَّه وهو على ذلك الصلح لم يتغيَّر عنه، وسرنا عنه بحرَّان وقد تماثل. ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص يوم عرفة، ونحن في العسكر، والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله. . .»[2].

---

(١) أبو شامة: ج٢، ص٦٤.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٦٥.

ويقول العماد: «ثم رحل السلطان إلى حرَّان والقلوب بمرضه متخاذلة القوى، والأيدي إلى الله مرفوعة، وأنا ملازمه ليلاً ونهاراً، سرًّا وجهاراً، وهو يملي علي في كل وقت وصاياه، ويفرق على عُفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء وغلب القنوط، فلمَّا أصبح اجتمع الوافدون إلى بابه، وضجُّوا ضجَّة ارتجَّت منها الدهماء، ولانت الصخرة الصمَّاء، فسأل عن ذلك؛ فقيل: هؤلاء وفدك اجتمعوا على بابك متأسفين على ما بكَ. فدعاني وأمرني بكتابة أسمائهم وتفريق ما اجتمع في خزانته من المال عليهم. وأمسينا وما على الباب سائل... ونذر أنه إذا خلصه الله تعالى أن يصرف بقية عمره في جهاد أعداء الله وإنجاد أهل الإسلام...»(١). وناب عنه في مرضه أخوه العادل في الجلوس كل يوم للمصالح حتى عوفي.

وفيما كان في أشد المرض بحرَّان توفيت زوجته ابنة معين الدين أنر التي كانت زوجةً لنور الدين من قبل، وتزوَّج بها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ، وكانت من أجلّ النساء وأحزمهن، ولها أمرٌ نافذ ومعروف وصدقات؛ بنَتْ للفقراء الصوفية مدرسة ورباطاً. «وكان السلطان في بحر المرض وعنف الألم، فما أخبرناه بوفاتها خوفاً على تزايد علّته، وهو يستدعي في كل يوم درجاً ويكتب إليها كتاباً طويلاً، ويلقي على ضعفه من تعب الكلمة والفكر حملاً ثقيلاً. حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، فنعيت إليه الخاتون..».

أما شروط الصلح التي انتهى إليها ووقِّعت بنودها في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ/ ٣ آذار سنة ١١٨٥ م؛ فكانت خمسة:

١ - يسلم عز الدين مسعود أتابك الموصل إلى صلاح الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجيمع ما وراء الزاب من أعمال مع ولاية بني قفجاق.

٢ - يترك صلاح الدين لعز الدين الموصل وأعمالها يتحكم فيها بأمره

(١) أبو شامة: ج٢، ص٦٥.

على أن يكون تابعاً له.

٣ ـ وافق عز الدين على أن تكون الخطبة باسم صلاح الدين في كل البلاد التابعة له (الموصل، ودياربكر، وبلاد الجزيرة) وأن تقطع الخطبة السلجوقية من هذه البلاد، كما وافق على سك النقود باسم صلاح الدين فيها.

٤ ـ على عز الدين الحضور بعساكره في خدمة صلاح الدين متى استدعاه، وأن يشترك الطرفان في جهاد الصليبيين.

٥ ـ تعهّد الطرفان وأقسما على الحفاظ على هذه المعاهدة ووقعت بالقبول.

بهذا الصلح ـ الذي استمرّ قائماً حتى وفاة صلاح الدين ـ انتهت إقامة الجبهة الإسلامية الموحّدة التي حلم بها زنكي ثم ابنه نور الدين، وصار الجيش الإسلامي في قيادة واحدة، كما كان قد حقّق قبل ذلك إزالة الخلافة الفاطمية المنافسة للعباسيين، وكانت من أمنيات نور الدين، وبقيت أمنية أخيرة للمسلمين جميعاً هي تحرير القدس، ولم يكن أحد من المسلمين ليعذر صلاح الدين لو تخلّف عن تحقيقها.

ولم يغادر منطقة الموصل حتى أهدى صاحبها ووالدته وزوجته وابنة نور الدين وعدداً آخر من رجال الدولة هدايا عظيمة بما يزيد على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والتحف الغريبة والثياب. وتوجّه بعد أن زال عنه المرض مع أخيه العادل أوائل سنة ٥٨٢ هـ إلى حلب ثم دمشق، وكتب إلى جميع عماله بالأقطار بإخراج الصدقات.. وقد تصدّق في دمشق وحدها بخمسة آلاف دينار مصرية.

وهكذا بعد ١٢ سنة من النضال المر أضحى صلاح الدين سيد المشرق العربي وقائده، واستجمع في يده بخاصة القوى الحربية لهذا المشرق طائعة في الغالب، ومسايرة في بعض الأحيان.

والسمات العامة لمواقف صلاح الدين في محاولاته لإقامة الجبهة الإسلامية الموحدة بقيادته، تتمثَّل في عدَّة أمور، بالإضافة إلى اعتماده على المؤسسة العسكرية الأيوبية التي أوجدها:

ـ الكرم بالمال واحتقاره. ويظهر ذلك في كثرة ما وهب وأعطى لأتباعه وللوافدين عليه أو المستسلمين لحكمه، أو الموعودين منه بالعطاء، ومسامحته لجميع البلاد التي فتحها بديون الضرائب السابقة، وإلغاء المكوس والمظالم عدا الجبايات الشرعية. ولا شكَّ أنَّ ذلك لعب دوره في اجتذاب الناس إلى صفوفه وفي إسكات خصومه.

ـ خلقه السمح. فكان يحارب المعادين لقيام الجبهة، فإذا هزمهم لم يسمح باللحاق بهم، ولا بقتل جرحاهم، ويطلق أسراهم. ويتسامح أحياناً مع من يعرف أنهم أعداؤه، ولا يظهر ذلك بل يغض على بصيرة؛ لأنه يريدهم أن يكونوا بعد الخصومة حلفاء له.

ـ إيمانه الإسلامي العميق الذي كان يتمثَّل لا في العبادات فقط؛ ولكن في الإيمان بأنَّ الجهاد فريضة عليه أولاً وعلى الآخرين، فهو لا يرضى إلا بحملهم عليه.

ـ ترك الأمراء لإماراتهم أو إطعامها لقواده والمقرَّبين أو للأعداء أحياناً لأنه لا يريد بعد ملك مصر ودمشق أن يملك أرضاً، ولكن أن يكسب حلفاء وجنداً يقدمون له القوة اللازمة عند الطلب. وهذا ما يفسِّر تنازلاته ومفاوضاته الدبلوماسية ومنحه الأمان لمن يعاديه.

ـ لم تظهر في البيت النوري خاصة ولا في أمراء نور الدين الآخرين شخصية سواه قوية قادرة على أن تحقق المبادئ التي يعمل عليها نور الدين وأبوه من قبله.

ـ محاولته بجانب كسب الجمهور الإسلامي كسب رضى الخليفة العباسي الذي ظلَّ يؤمن أنه مصدر الشرعية الروحية لجميع المسلمين؛ فكان يواليه

بالكتب تباعاً بمختلف المواقف يفسرها أحياناً ويتّهم خصومه أحياناً أخرى، ويستأذن ثالثة ويُبشِّر رابعة؛ دون انقطاع.

ونخلص من كل ذلك إلى أن قوة صلاح الدين إنما كانت بما ربَّاه من الجماهير الإسلامية بأعماله، وبوقوفه ضمن هذه الجماهير لا فوق رأسها ومع تطلُّعاتها لا حاكماً فرداً لها. وقد أوضح سياسته تجاه النوريّين بالكتاب الفاضلي الذي أرسله إلى خليفة بغداد سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م؛ والذي جاء فيه: «وما كنّا بشهادة الله في قتال المذكورين ـ المواصلة والزنكيين عامة ـ إلا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حَدّ السِّنان مضطراً في حكمه...»[1]. وإذا حارب صلاح الدين المسلمين؛ فإنما حارب فيهم مصالحهم الشخصية الخاصة لا سيادتهم، وأنانياتهم الصغيرة التي تدمر أحلام الناس لا أشخاصهم.

وقد قضى في إقامة الجبهة الإسلامية الموحَّدة اثنتي عشرة سنة (٥٧٠ ـ ٥٨٢هـ / ١١٧٤ ـ ١١٨٦م)، وكانت طموحاته خلالها أضخم بكثير من قوى جسمه وأمراضه، فهو عملاق حربي وكتلة أمراض جسدية. وكان هوسه للجهاد هو الذي ينسيه آلامه ويجعله يتجاوزها.

* * *

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٢.

حِطّين

في هذه الفترة ما بين سنتي ٥٧٨ ـ ٥٨٢ هـ كانت أحوال مختلف الإمارات الصليبيّة تسوء بشكل متمادٍ؛ فمملكة القدس كان ملكها المريض بالجذام يتفاقم مرضه، وحين حاول أمير أنطاكية (برهيمندا الثالث) بالاشتراك مع (ريموند الثالث) صاحب طرابلس زيارة القدس سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، دون موعد سابق؛ تشكك في أمرهما وظنَّ أنَّهما يتآمران على عرش المملكة، ومنعهما؛ مما فصم العلاقة الواشجة بين إمارتي طرابلس والقدس، والتي تأسَّف ويليام الصوري على انفصامهما، لأن الأمير الطرابلسي كان شجاعاً وصاحب رأي، وخسرت المملكة معونته. وكانت وراثة عرش القدس لأخت الملك التي زوجوها من نبيل ما لبث أن توفي بالملاريا. وكان سوء صحة الملك الشاب سبباً في تسلُّط أمه وخاله على العرش. أما أمير أنطاكية فكان منصرفاً لشهواته، وعلى الرغم من أنه كان متزوجاً من أميرةٍ بيزنطية، إلا إنه تزوَّج من أخرى وطلَّق الأولى، ثم وقع في غرام ثالثة كانت تتصل بصلاح الدين وتفضح له أسرار الإمارة وتحركات جيوشه، ويقابلها بسيل الهدايا.

ولم ينفع في ردعه عن غرامه حتى الحرمان الكَنَسي. وفي ذلك الوقت خسر الفرنج حليفاً هاماً بموت الامبراطور البيزنطي (مانويل كومنين)، لأن الأباطرة الذين أتوا بعده كانوا يعتبرون الفرنجة أعداء. وأرسل خليفته (ألكسيوس كومنين) مبعوثاً إلى القاهرة يصالح ويصادق صلاح الدين، ويطلق له ١٨٠ أسيراً مسلماً كانوا عنده.

وقبيل وفاة ملك القدس انتقل ثقل الدولة إلى أيدي الفارس الفرنجي

الأحمق الذي يسميه المسلمون أرناط ـ رينه دوشاتيون ـ. وكان قد قضى في الأسر في حلب ١٦ سنة، وعاد بعد أن أطلقَ سراحه الملك الصالح إلى طرابلس ثم القدس، ثم تزوَّج من وريثة حصن الكرك والشوبك، ليحظى بإقطاعها[١]. وصار صاحب القول الأول والأعنف في المملكة، ونسي أن أوضاع المسلمين تغيرت جداً خلال أسره، أو أنه أراد أن ينتقم لهذا الأسر، وكان في الأصل أهوج الفعل والرأي، وصاحب مشاريع تفوق قدرته، فورَّط مملكة القدس بالمشاكل.

وكان من مشاريع هذا الفارس أن أعدَّ حملة كبيرة خرج فيها في البر إلى شمال الحجاز متجاهلاً الهدنة المعقودة مع صلاح الدين الذي كان في الجزيرة العليا إذ ذاك. وكان ذلك في صيف سنة ١١٨١م/ ربيع الأول ٥٧٧هـ، وأوغل حتى بلغ تيماء، وهي الواحة التي تقع على منتصف الطريق إلى المدينة المنورة «للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة»، ولكن فروخ شاه ـ ابن أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق ـ، أسرع إلى غزو الأردن وحصني الكرك والشوبك ونَهَبَ وخرَّب؛ مما جعل أرناط يُعَجِّل بالعودة للدفاع عن بلده، ونَهَبَ في عودته قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة، وسلب منها ثروة ضخمة، وظلَّ جيش دمشق يراقبه طويلاً حتى لا يعود، ففرق جيشه.

وقد أفزع هذا العمل جميع المسلمين، وانتبهوا إلى هذه الجبهة الجديدة، كما يبدو أن ملك القدس فزع من خرق أرناط للهدنة مع صلاح الدين لأن مملكته كانت في حاجة إليها، وردع صاحبه فلم يسمع له. فجهَّز جيشاً كان في الظاهر ـ وعلى حد قول ويليام الصوري ـ لقطع الطريق على صلاح الدين في عودته من مصر ـ مطلع سنة ٥٧٨هـ ـ وفي الواقع لمعاقبة أرناط وتأديبه لمخالفته أوامر الملك. وقد زاد في فزع الفرنج؛ أنَّ صلاح الدين كتب إلى ملك القدس يطلب أن

---

(١) كانت هذه الوريثة ـ إيتين دوميلي ـ قد تزوَّجت رجلين قبله، ولكنها ورثت عن أبيها حصني الكرك والشوبك.

يوقف صاحبه عند حدّه، وأن يسرع في رد أموال المسلمين وأسراهم، ولكن أرناط رفض الإصغاء للأوامر، واضطر بغدوين الرابع إلى إخبار صلاح الدين بعجزه عن إخضاع فصيله، وهذا يعني سقوط هيبة ملك القدس من جهة، كما يعني إمكان تجدُّد الحرب مع المسلمين من جهة أخرى.

واتَّفق في هذا الوقت أن تحطَّمت البطسة ـ السفينة ـ التي ألقتها الرياح إلى بحر دمياط وعليها ١٧٠٠ من الحجاج والجند، وكانوا يتصوَّرون أنَّهم محميُّون بالهدنة، لكنَّهم لقوا مصيراً مختلفاً، لأن أرناط كان قد نقضها وألقى بهؤلاء إلى الأسر. «وقدم صلاح الدين بتحدٍّ مباشر ـ كما يقول ويليام الصوري ـ بمطالب يستحيل عملياً تلبيتها، وأضاف كإنذار إذا لم يستجب ملك القدس لهذه المطالب فسوف يحتفظ بالسفينة كتعويض وسيلغي اتفاقية الصلح...»[١]، ولم يتمكَّن رسول الملك من الفوز بجواب إيجابي من صلاح الدين «فاسحاً المجال لعدائه الذي أبقاه في ذهنه منذ زمن طويل...»[٢].

ولقد كنَّا ذكرنا من قبل خروج صلاح الدين من مصر أول محرم سنة ٥٧٨هـ، وما قام به من الغزوات للأراضي المحتلة، وغزواته السريعة المتعدِّدة للأراضي المحتلة في بيسان وصفد والغور، والتي أنهاها بحصار بيروت برّاً وبحراً، وسار بعد ذلك إلى الجزيرة ينهي مشاكلها.

استغلَّ ملك القدس غياب صلاح الدين في الجزيرة ومشاغله فيها الاستغلال الكامل. يقول وليام الصوري: «بدت بلاد العدو مجرَّدة من المدافعين عنها، ولذلك اعتقد الملك ونبلاء المملكة بدون سبب واضح أنَّ الفرصة المرغوبة منذ زمن طويل لإلحاق الضرر بالعدو قد حلَّت، وازداد غضبهم ضد صلاح الدين كثيراً بحكم أنه كان بعجرفته وتعاليه قد احتقر القوة العسكرية للمملكة.. ورحل دون الدخول في هدنة مع الملك؛ ولذلك جمعوا

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٣٦ ـ ١٠٣٧.
(٢) المصدر السابق نفسه.

بعد التداول قواتهم، ودخلوا بصحبة البطريرك وصليب الصلبوت بلاد الكفرة ليعيثوا فيها فساداً».

«مرُّوا خلال بلاد حوران التي تشكِّل جزءاً كبيراً من أراضي بصرى، ودخلوا الشام الصغرى التي عاصمتها دمشق، ثم وجَّهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة، وشقوا طريقهم إلى مدينة درعا المشهورة والآهلة بالسكان. . واجتاحوا المنطقة من هناك، ودمَّروا جزءاً كبيراً من المواقع النائية والمعروفة باسم القصور؛ حيث حرقوها أو خربوها بكلّ وسيلة ممكنة. وكان سكان هذا الإقليم قد علموا باكراً باقترابنا، فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم وجشارهم ـ دوابهم ـ إلى مواقع كانت فيها تحصينات أفضل. . وهكذا لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لا شيء من الغنائم أو الثروات؛ لكن حرقوا أو دمروا المحاصيل ومستلزمات الحياة التي لم يتمكن العدو من أخذها معه أثناء هروبه»[1]. ومن الواضح أنَّ الفرنج لم يكونوا يبتغون أكثر من الأذى والهرب دون لقاء.

وهكذا يتابع الصوري فيقول: «وتوجَّب عليهم أن يمرُّوا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى، وتداول شعبنا حول إمكانية الاستيلاء على أحوازها بيد أنه تبين أنَّ هذا لا يمكن **إنجازه بسرعة**، بل يتطلَّب إقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء، لذلك قرَّروا العودة خشية أن يكابدوا مع مواشيهم من العطش» وكان السكان قد أفسدوا أماكن تجمُّع الماء بالقاذورات وبتحطيمها، وتسريب الماء منها، وكانت محاصيلهم تختزن في مغائر مبنية تحت الأرض، فلا يمكن العثور عليها ولا إحراقها؛ لأنَّ الحبوب لا تُحرَق وحدها إلا مع التبن، وتعذَّر إلحاق الضرر بالبيادر بعد أن بعثرها السكان، ولم تكن قوة الجند الصغيرة التي تُركت في ذلك الإقليم لدى مغادرة صلاح الدين قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بالصدام مع المسيحيين. . إلاَّ أنَّهم

---

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٤٧ ـ ١٠٤٩.

تعقَّبوا عن بُعد على شكل زمر مؤخرتنا، وحاولوا إلحاق بعض الضرر بنا؛ لكن لم يتمكَّنوا من تقديم أي عائق. . .».

ثم يقول وليام الصوري: «. . . توقف شعبنا لدى عودته في الإقليم نفسه الذي يُدعى السواد وهو الإقليم الذي تقع فيه تلك القلعة التي كان العدو قد أخذها من المسيحيين بالحيلة قبل وقت قصير، عندما كان جيشنا في وادي عربة. . ويشتهر السواد بمنتجاته من الخمر والحبوب والزيتون وبالمناخ الصحيّ والموقع البهيج ـ ويقصد حصن جلدك ـ».

«ورأى المسيحيُّون أنَّ من المرغوب فيه الاستيلاء على الحصن، ولهذا أُقيم معسكر أمامه وبُذِلَت جهودٌ فعَّالة لإجبار الموجودين فيه على الاستسلام. . كانت القلعة محصَّنة بشكل جيد للغاية، وكان موقعها لا يسمح بمهاجمتها إلا من الجزء العلوي بعد أن تقطع الصخور منه حتى موقع القلعة. وأخذ الحجَّارون في العمل، وكهف القلعة على جانب جبل شديد العلو، والطريق إليه شاق لا يمرُّ منه سوى جندي بعد آخر، ولا يتجاوز عرض الممر أكثر من قدم، والجرف عميق ومروع حتى أسفل الوادي، وتناوبت فرق الحجَّارين العمل ليلاً ونهاراً، وقسم جيشنا مجموعتين، بقي قسم منه معسكراً فوق هضبة الكهف، وبقي القسم الثاني في السهل في الأسفل. وكانت القوة في الكهف مؤلَّفة من سبعين جندياً اختارهم صلاح الدين بنفسه. . وبدأت الكتلة بأكملها تهتز وترتعش مع توالي ضربات المطارق حتى لقد خُشيَ من انهيار الكهف فجأة وسحق من بداخله، فأرسلوا سفارة إلى الملك بعد ثلاثة أسابيع أو أكثر بقليل من الحصار، وحصلوا من خلال وساطة كونت طرابلس على إذن بالرحيل بحرِّيَّة إلى بصرى بعد التخلِّي عن أسلحتهم ومعدَّاتهم. وبعد عملية التسليم رأى الملك وبقية النبلاء بحكمة وضرورة تزويد القلعة بالأسلحة والمؤن، وعهد بها إلى رجال مخلصين[1]، حدث هذا في تشرين الأول سنة ١١٨٢م/ رجب سنة ٥٧٨هـ».

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٥١ ـ ١٠٥٣ باختصار.

«ثم ما لبث قادتنا أن أدركوا بعد زمن قصير في شهر كانون الأول والثاني أن صلاح الدين كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية في بلاد الموصل؛ فاجتمعوا من جديد وهم كارهون لفقد الفرصة التي قدَّمها غيابه، وقرَّروا بالإجماع أن يلتقوا في قيسارية على الساحل، وأن يتزوَّدوا بكل ما هو ضروري لاستخدام الجند والحيوانات في حملة أخرى تستغرق ١٥ يوماً؛ حتى لا تضيع الفرصة. وشنَّت في البدء غارة سريَّة، لم يشارك فيها سوى الفرسان، على منطقة معادية بالقرب من بصرى، وعادوا سالمين مع كثير من المغانم والقطعان والجشار وعدد كبير من العبيد، وكانت انطلقت من طبرية بقيادة كونت طرابلس».

«ثم اجتمعت قوى المملكة من المشاة والفرسان بصحبة صليب الصلبوت قرب طبرية في ١٥ ديسمبر، وعبروا عند مخاضة يعقوب، ودخلوا بلاد العدو وتقدَّموا خلال السهل ـ الجولان ـ ووصلوا بيت جن فدمَّروا الموقع تدميراً كاملاً، وخرَّبوا كلَّ شيء، وأحرقوا، ثم وصلوا إلى مسافة قريبة من داريا ـ على أربعة أو خمسة أميال من دمشق ـ فخرَّبوها على الطريقة نفسها».

«كان الناس في هذه الأجواء قد هربوا؛ بعضهم إلى الجبال اللبنانية، وبعض إلى دمشق؛ نتيجة لذلك ما أخذوا أسيراً في تلك الغزوة، وفقدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش. وكان بعض الفرسان الأتراك (؟) الواثقين من سرعة خيولهم قد انطلقوا من دمشق يحومون حول صفوفنا على مسافة قريبة ويترصَّدون لإلحاق الأذى بنا، وقد انقضُّوا فجأة على الغزاة المهملين وقتلوهم في هجوم ضارٍ. كما انطلق الدمشقيُّون من مدينتهم أيضاً، وحشدوا أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة، وواصلوا هذه المسافة مراقبة جندنا مراقبةً دقيقة؛ إلا أنهم لم يجرؤوا على الزحف مسافة أقرب، ولم يجرؤ المسيحيون على مهاجمتهم، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورِهِم إلى داخل المدينة...».

حين بلغت هذه الأخبار أسماع صلاح الدين وهو في الجزيرة كان

تعليقه: «إننا نأخذ مدناً ويأخذون قرى نستعيدها». وذلك كان منتهى الاستهانة بالفرنج. وكان حين ترك الشام «قد جعل نائبه ابن أخيه فروخ شاه وهو ثقة من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعاً كريماً فاضلاً عالماً بالأدب وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك، ولكنه توفي في جمادى الأولى من هذه السنة»[1]، وذلك ما جعل المنطقة شبه مفتوحة لعدوان الفرنج المتكرِّر ولاستطالتهم على سواد دمشق، دون الجرأة على الهجوم على إحدى مدنها أو معاقلها.

إلَّا أن الذي تجرَّأ هو صاحب الكرك: أرناط، وخارج إطار دمشق؛ فهو لم يعد عن مشروعه الواسع بضرب المسلمين في أمرين: الوصول إلى قبر صاحب الرسالة في المدينة المنوَّرة، والاستيلاء على منابع التجارة الإسلامية عبر البحر الأحمر.. كان المشروعان أكبر بكثير من قوَّته، كما كانا أخطر بكثير من أن ينالهما مثله، ولكنه في رعونته الهوجاء تخيَّل الأمر سهلاً؛ فقد شيَّد «أسطولاً وفرغ منه بالكرك، ولم يبقَ إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر أيلة ـ خليج العقبة ـ وجمعها في أسرع وقت، وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة.. فساروا في البحر وافترقوا فرقتين؛ فرقة أقامت على حصن أيلة ـ العقبة ـ وهو للمسلمين يحصرونه ويمنع أهله من ورود الماء، فنال أهله شدَّة عظيمة. وأما الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عيذاب ـ وهي مدينة مرور الحجاج المغاربة على الضفة الغربية للبحر الأحمر، وتقابل جدَّة، كما أنها مرفأ التجارة الهامّ ما بين اليمن ومصر ـ، وأفسدوا في السواحل، ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومَن فيها من التجَّار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم؛ فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر ـ الأحمر ـ فرنجياً قطّ لا تاجراً ولا محارباً».

كانت هذه الغزوة المفاجئة من أسوأ ما وقع للحركتين الدينية والتجارية

---

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٩١.

للمسلمين يومذاك، كما مثّلت أقصى ما يصل إليه الحقد الفرنجي من مشاريع النكال والهجوم غير المتوقَّع الذي أفزع البلاد الإسلامية الآمنة، وبخاصة بسبب جرأتها على طعن المسلمين في قبلتهم وفي أماكنهم المقدَّسة.. كان البحر الأحمر مغلقاً عليهم إلا من هذه النقطة: أيلة المجاورة للكرك في الجنوب.. وأرناط كان نموذج الفارس اللص بجشعه ووحشيَّته وغدره وتعصُّبه الأعمى، وبعدم التزامه بالعهود؛ وصفه بذلك المؤرِّخون في الغرب والشرق.

وعرف بالأمر الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين ونائبه في مصر «فعمَّر أسطولاً وسيَّره ـ من خليج السويس ـ وفيه جمعٌ كثير من المسلمين، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً شجاعاً كريماً؛ فسار لؤلؤ مُجدّاً في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيلة، فانقضَّ عليهم انقضاض العُقاب على صيدها، فقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقي، وسار من وقته بعد الظفر يقصُّ أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا مَن لقوه عندها، وساروا إلى غير ذلك المرسى، ليفعلوا كما فعلوا فيه، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة وأخذ الحجاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك إلى اليمن.. بعد أن أحرقوا وأسروا نحو ١٦ مركباً، وأخذوا مركب حُجَّاج في عيذاب وقافلة كبيرة منهم وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين بضائع اليمن وأشياء كثيرة كانت مُعدَّة لميرة الحرمين[1].

«سار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ وساحل الحوراء وغيرهما، فأدركهم بساحل الحوراء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البرّ واعتصموا ببعض تلك الشِّعاب الجبلية.. فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم

---

(١) انظر: السلوك للمقريزي ج ١، ص ٧٩؛ ويقول أبو شامة: إنهم أغاروا على بعض القوافل على ساحل الحوراء قبل العثور عليهم، وأنهم اشتروا بعض البدو ليدلُّوهم على داخلية البلاد (أبو شامة: ج ٢، ص ٣٧).

وقاتلهم أشدَّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك؛ فركبها وقاتلهم فرساناً ورجَّالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، وأرسل اثنين منهم إلى منى ليُنحرا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحَرَمِ رسوله، وعاد بالباقين إلى مصر فقُتِلوا جميعهم في القاهرة والإسكندرية ودمياط؛ وقد شهد ابن جبير الرحَّالة الأندلسي مصرع بعضهم في الإسكندرية وتحدَّث عنه.

كلُّ هذا كان فيما كان صلاح الدين مايـزال في الجزيرة، وجاءت سـنة ٥٧٩هـ؛ وهو بين ماردين وآمد، ثم لما فرغ من هناك سار إلى عينتاب في شمال حلب وفتحها، وأبقى صاحبها فيها. لكن الفرنج أرادوا متابعة استغلال غيابه، فسارت «عصابة كبيرة منهم من نواحي الداروم إلى مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون؛ فخرجوا إليهم عن طريق أيلة، فهرب الفرنج منهم إلى ماء يقال له العسيلة، وسبقوا المسلمين إليه.. فأتاهم المسلمون وهم عطاش، قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، وكان الزمان قيظاً والحرُّ شديداً في بر مهلك، فأرسل الله بلطفه سحابة عظيمة أمطرت الكثير؛ فقويت نفوسهم، وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنموا ما معهم من سلاح ودواب»[1].

وفي الوقت نفسه في العاشر من محرم لقي أسطول مصر في البحر بطسة فيها نحو ٣٠٠ من الفرنج بالسلاح التام «ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم، وصبر الفريقان، وكان الظفر للمسلمين وأخذوا الفرنج أسرى؛ فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضاً للأسر، وغنموا ما معهم، وبعثوا يبلغون بذلك صلاحَ الدين، الذي كان مايزال على حلب يأخذها ويصالح أهلها ويفقد عليها في الوقت نفسه أخاه تاج الملوك بوري، ثم يفتح حارم». ولما فرغ من كل ذلك «سار إلى دمشق وتجهَّز للغزو (في أواخر أغسطس سنة ١١٨٣م/

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٤٩٥.

جمادى الأولى سنة ٥٧٩هـ) ومعه عساكر الشام والجزيرة ودياربكر، وسار إلى بلاد الفرنج»[١].

«عبر نهر الأردن في جمادى الآخرة، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأحرقها وخرَّبها وأغار على ما حولها. . فاجتمع الفرنج وجاؤوا إلى قبالته، فحين رأوا كثرة عساكره، لم يقدموا عليه؛ فأقام عليه وقد استند إلى جبل هناك، وخندقوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا، وأقاموا كذلك خمسة أيام. . وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعلَّ الفرنج يطمعون ويخرجون، فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضاً؛ فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا في غير السلامة. وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه، فلما كثرت الغنائم لديهم رأوا العودة إلى بلادهم معها. . . »[٢].

ويروي وليام الصوري هذه الغزوة نفسها على شكل آخر فيقول: «كان صلاح الدين قد استدعى بعد دراسة متمعّنة قواته مما وراء الفرات واجتاز حدود المملكة مع جميع قوات الفرسان التي استطاع أن يجمعها من كل مصدر يتبعه جيشه الضخم المدجَّج بالسلاح. . وظهر فجأة بعد اجتياز منطقة حوران على طول بحيرة طبرية مع فيالقه في فرق عديدة في موقع يدعى الأقحوانة، وتقدَّم من هناك مع مجرى النهر إلى بيسان، وليس هناك سوى عدد قليل من السكان المتفرِّقين، وقرية صغيرة في مكانٍ مستنقعي».

«ومع أن الناس القاطنين هناك كانوا مجهَّزين بشكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبة لأعدائهم؛ إلاَّ أنهم لم يشعروا بأي ثقة في دفاعات قلعاتهم، ولذلك تخلّوا عن القلعة قبل وصول الجيش المعادي، وذهبوا إلى طبرية تاركين جميع ممتلكاتهم خلفهم. وهكذا وجد العدو بيسان فارغة. . . ونقل أفراده جميع الأسلحة والمواد

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥٠١.
(٢) المصدر السابق: ج ١١، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢.

الغذائية وكل ما كان مفيداً، وانطلقوا في كتائب منفصلة (يخرِّبون) وخيَّمت إحدى الكتائب بجانب نبع يدعى عين جالوت. . وكان المسيحيُّون مخيِّمين قرب نبع صفورية، وكانوا منتظرين بقلق ليعرفوا الجهة التي سوف تغزو منها القوات المعادية منطقتنا، وأمسكوا بالإجماع بالأسلحة حين وجدوا الأتراك قد استولوا على سهول بيسان، وأنَّ فيالقهم اجتاحت تلك المنطقة. . وعبر المسيحيُّون الجبال التي تقع فيها الناصرة، ونزلوا تابعين صليب الصلبوت والألوية الملكية إلى السهل الكبير مرج ابن عامر. . ووجَّهوا مسيرهم هناك بقوات بتشكيل المعركة وقواعد العلم العسكري نحو ينابيع عين جالوت؛ حيث أقام صلاح الدين مع فرقة قوية من الفرسان المشهورين ببسالتهم».

«كانت مقاصد المسلمين طرد العدو والحصول على منابع الماء لاستعمالهم الخاص؛ إلاَّ أنهم شعروا لدى وصولهم أنه من المستحيل الاستيلاء على الموقع دون تجشُّم مصاعب جمَّة، وخوض معارك خطيرة مع العدو. . . وصل صلاح الدين إلى المعسكر وتخلَّى عن الينابيع بشكل مفاجئ للغاية، وخيَّم قبالة بيسان على بُعد ميل واحد منا. وقبل أن يتمكَّن المسيحيُّون من الوصول إلى الموقع توزَّع الكفرة إلى زمر صغيرة خرجت من الجيش الرئيسي، وبدأت باجتياح المنطقة ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية، وكانت إحدى هذه الزمر قد هاجمت جبرين الصغرى، وأتلفوا تماماً كلّ ما كان فيها، وعثروا على عدد قليل أو لا شيء من السكان؛ لأنهم هربوا إلى أماكن محصَّنة. وصلت زمر أخرى إلى عقربلا؛ فاستولوا عليه بالقوة وعاثوا فيه بطريقة عدوانية، وفعلوا الشيء نفسه في كل ماراًوه، وسلك آخرون الطرق العامة وترافق وجودهم مع مخاطر عامة على الفرسان والمشاة؛ لدرجة أنَّ الذين كانوا يسرعون للانضمام إلى جيشنا وصلوا هناك بعد تعريض حياتهم للخطر. وصعد بعض هؤلاء الأعداء جبل الطور وإلى الدير الإغريقي هناك، وحاولوا شقّ الطريق إلى داخل الرواق الكبير فيه، وانسحب الرُّهبان والناس من القرى المجاورة إلى داخل الدير الذي كان محمياً بسور وأبراج، وأبدَوا هنا دفاعاً شجاعاً، وهزموا عناصر العدو التي تسلَّقت الجبل.

قبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة؛ فقد كان لدى المسيحيين قوات من الفرسان بلغ تعدادها ألف وثلاثمئة فارس، وقيل: إنَّ عدد المشاة المجهَّزين جيداً قد تجاوز ١٥ ألف جندي، وعلاوة على ذلك كان الجيش تحت إمرة قادة عظماء ومشهورين؛ وهم ريموند كونت طرابلس، وهنري دولوفان، وآخرين مثل كونت يافا وأرناط صاحب الكرك، وبغدوين صاحب الرملة. . . ويقال إن بعضهم كره العمل مع كونت يافا (غي لوسينيان) الذي كان الملك قد عَهِدَ إليه قبل يومين بالوصاية وضمان مصالح المملكة، وهو رجل غامض وعاجز. . . وبالاختصار سمحوا للعدو بصبر أو بالأحرى بخزي أن يبقى ثمانية أيام متوالية مخيماً في المنطقة المجاورة لجيشنا وعلى بُعد أقل من ميل، وهو أمر لم يحدث في المملكة من قبل. . وقد اجتاح الأتراك المنطقة بأسرها. . . ».

«ويقال في سبب عدم نشوب معركة مع العدو أنَّ صلاح الدين كان قد طوَّق المنطقة على شكل دائرة بقوَّات تنقضُّ عند هجوم المسيحيِّين، كما أنه كان يعسكر في منطقة صخرية ومن موقع دفاعي قوي. . . وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم التاسع وانسحب. . وليس أحد من الناس مقتنعاً أنه لن يعود. . . »[(١)].

وذكرنا هذا النص لبيان مدى رعب مملكة القدس من وحدة القوى المسلمة أولاً، ولبيان جمع الفرنج لمختلف القوى، حتى من الحجَّاج والتجار الإيطاليين من ناحية ثانية؛ ولكشف طريقة المؤرِّخ الصوري في إخفاء جبن الفرنج وفي انتقادهم، وهو يعزو ذلك إلى غضب الربّ على آثامهم، بالإضافة إلى الحديث المتكرِّر عن العدوان والتخريب من المسلمين، فيما نراه يذكر الأعمال نفسها للفرنج في الأراضي الإسلامية بروح من التشفِّي والانتقام.

ما إن عاد صلاح الدين من غزوة بيسان حتى كان بعد شهر واحد يسير

(١) وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٦٠ ـ ١٠٦٥.

بالجيش إلى الكرك، وكتب إلى أخيه العادل في مصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إليها مع أهله وماله؛ لأنه عيَّنه لحلب وقلعتها. . ونزل صلاح الدين على الكرك في رجب، ووافاه العادل بالعسكر المصري، وتمكَّن من حصره، وصعد المسلمون إلى ربضه وملكوه. . وحصر الحصن، وكان صلاح الدين يظنُّ أن الفرنج لن يمكِّنوه من حصره؛ فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لذلك الحصن العظيم المنيع، فرحل عنه في منتصف شعبان بعد أن سيَّر ابن أخيه تقي الدين نائباً عنه إلى مصر. . وسار أخوه العادل معه إلى دمشق، فسيَّره في رمضان إلى حلب.

وفي ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ـ أي بعد ستة أشهر ـ عاد صلاح الدين مرة أخرى على الكرك بالغزو؛ فأتته العساكر من كل ناحية، وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها إليه على الكرك، فنازله وحصره. . وملَكَ المسلمون الربض وبقي الحصن، وهو والربض على سطح جبل واحد؛ إلا أنَّ بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بطمره بالحجارة والتراب؛ فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي بالسهام والأحجار من المجانيق؛ فأمر أن يُبنى غرف من الأخشاب لحماية المهاجمين مع استمرار المجانيق في العمل ليلاً ونهاراً.

وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم، فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا إلى نجدتهم عجلين، فلمَّا بلغ صلاح الدين مسيرهم؛ رحل عن الكرك ليلقاهم ويصافقهم ثم يعود للكرك، فقرب منهم وخيَّم، ولكن خشونة الأرض وصعوبة المسالك لم تسمح له بالهجوم، فمكث ينتظر خروجهم من ذلك المكان أياماً ليتمكَّن منهم؛ لكنهم لم يبرحوا خوفاً على أنفسهم، ولما رأى ذلك رجع عدة فراسخ وجعل بإزائهم من يُعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما عرف صلاح الدين ذلك علم أنهم فاتوه، وأنه لا يتمكن من غرضه، فسار إلى مدينة نابلس ونهب كل ما في طريقه من البلاد، فلما وصل المدينة أحرقها وخربها ونهبها، وقتل فيها وأسر وسبى فأكثر، ثم سار عنها إلى

سبسطية وبها مشهد زكريا، فمنح أهلها الأمان إكراماً له، وبها أسرى من المسلمين فاستنقذهم، ورحل إلى جنين فخرَّبها ونهبها، وفي عودته إلى دمشق نهب ما على طريقه وبثَّ السرايا يميناً وشمالاً يغنمون ويخرِّبون[1].

والمؤرخ الفرنجي وليام الصوري يجمع على ما يبدو الحملتين على الكرك في حملة واحدة، ويصف بخاصة ما جرى في الحملة الثانية (حملة ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/ حزيران ـ تموز سنة ١١٨٤م).

وهكذا يذكر أنَّ صلاح الدين جمع ما يستطيع من آلات الحصار وزحف، وما علم أرناط عن طريق كشافته بالأمر حتى خفَّ إلى هناك مع قوة من الفرسان بدت كافية لحماية الموقع.. وهو إرث زوجته، فوصل قبل يوم واحد من صلاح الدين الذي ضرب الحصار في دائرة كاملة حول البلدة.

ويسهب وليام الصوري في ذكر تأريخ بناء القلعة بيد الصليبيّين الذين أقاموها فوق رأس الجبل الذي كانت فيه مدينة بطرا القديمة، وقد نشأت بجانب القلعة قرية أَهِلَها السكان، وعند الحصار منعهم أرناط من الانتقال للقلعة بحجَّة أن لا خوف عليهم، وحاول بالفرسان والمشاة منع المسلمين من الوصول إلى الربض حول القلعة ففشل، كما فشل في وضع العقبات على الطريق الموصلة إلى الأعلى. ودمَّر المسلمون مقتنيات السكان الذين زاد في محنتهم أنَّ الخارجين من القلعة دمَّروا الجسر الموصل إليها بعد. أن امتلأت القلعة بالناس بأعداد كبيرة، ومن البائسين من الجنسين، فكانوا عبئاً على المحاصرين. واتَّفق أن عرساً ملكياً كان سيقام في موعد الهجوم فكان هناك عدد كبير من الممثلين أيضاً والبهلوانيين والموسيقيين والمدعوِّين والقادمين لحضور مهرجانات الزفاف، وأحبطت توقُّعات هؤلاء بشكل محزن؛ لأنهم بدل الأفراح واجهوا معارك حربية، ورمي النشاب؛ وعلاوة على ذلك كان الكثير من المسيحيِّين السريان من الريف المجاور قد أتوا مع زوجاتهم وأبنائهم فصار الازدحام بالقلعة من الكثافة

(١) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

بحيث ضاق المرور فيها وتعطَّلت حركة المدافعين.

في هذه الفترة كان الملك الفرنجي (بغدوين) يعزل (غي لوسينيان) ويتوِّج ابن أخيه الصغير (بغدوين الخامس) بالتاج الملكي؛ لأن مرض الجذام قد أقعده عن أي عمل. . ولم يكن لهذه الأحداث من صدى سوى أنها كشفت ضعف مملكة القدس؛ بين ملك مريض يموت وملك قاصر في الخامسة من العمر، ونبلاء يتزاحمون حول الوصاية والسلطة. . .

وأمر الملك بحشد القوات لمساعدة أرناط. . وكان صلاح الدين قد نصب على القلعة ثماني آلات حربية؛ ستٌّ منها في الداخل حيث كانت المدينة القديمة، واثنتان في الخارج أي في الربض، واستمرَّ الهجوم في الليل والنهار حتى استحوذ الرعب واليأس على المحاصَرين؛ لدرجة أنَّ بعض المسلمين تدلوا بالحبال وأخذوا بعض البهائم من خندق القلعة وأكلوها، فلم يجرؤ أحد على الظهور أمامه. . ووضع الطبَّاخون في جيش العدو ورشات عملهم في منازل أهل الربض، التي كانت مجهَّزة بشكل جيد بالحبوب والشعير والخمر والزيت، فاستولوا عليها واستخدموها، وحاول المحاصَرون في القلعة تشييد آلة حربية لقذف الحجارة، لكن آلات القذف الحربية بين المسلمين سددت إليهم قذائف الصخور بخبرة متناهية لدرجة فضَّلوا معها اللجوء إلى الصبر بدل تعريض أنفسهم للموت. . وزأرت القنابل وارتجف الجنود برعب، وترقَّب الناس انهيار البناء من الضربات الصاعقة.

وأخيراً خرج ملك الفرنج بنفسه مع صليب الصلبوت بعد أن جمع من المملكة القوى من كل مصدر، وزحف حتى إذا وصل البحر الميت جعل كونت طرابلس قائداً للجيش، وحين عرف صلاح الدين بذلك أمر برفع الحصار بعد شهر كامل، وعاد صلاح الدين فيما كان جيش الملك يتابع السير إلى الكرك[1].

ولم يذكر وليام الصوري ما جرى بعد ذلك، فقد انتهى كتابه بذكر حملة الكرك

---

(١) انظر وليام الصوري: ج ٢، ص ١٠٦٥ إلى ص ١٠٧١.

الآخرة، فلم يكتب عمّا تلاها من الحملة الصلاحية على نابلس وسبسطية واللجون وجنين، قبل عودة الجيش إلى دمشق.

ما عاد صلاح الدين إلى دمشق حتى وجد سفارة من لدن خليفة بغداد تنتظره برئاسة شيخ الشيوخ تحمل براءات الخليفة بولايات صلاح الدين الجديدة.. وكان هذا الرئيس نفسه قد غادر الوساطة مع الموصل مغضباً، وذهب إلى بغداد، وبقيت قضية الموصل معلّقة، وسمع صلاح الدين ـ وهو في دمشق ـ أنَّ صاحب الموصل عز الدين مسعود تلقّى تعزيزات لجيشه قوامها ٣ آلاف فارس من أتابك أذربيجان مظفّر الدين قزل أرسلان لشنِّ هجومٍ على إربيل؛ ومع أن الهجوم كان فاشلاً إلاّ أنّ حاكم إربيل ناشد صلاح الدين الوفاء بوعده وحمايته؛ فأتاح بذلك أمام صلاح الدين للعودة من جديد إلى منطقة الموصل.

لكنه قبل أن يتحرَّك نظَّم توزيع مملكته بين أخيه وأبنائه وأبناء إخوته وأقربائه وأمرائه، وعرف من مراقبته مملكة القدس أنها أعجز من أن تقوم بهجوم على الشام لو تغيَّب بسبب مشاكلها الداخلية العويصة، ونزاع أمرائها على سلطة العرش. وجاءته دعوة من ريموند كونت طرابلس للاتفاق على هدنة مدتها أربع سنوات، فاستغلّها ووافق، وبهذا الشكل تفرَّغ تماماً لإيجاد حلٍّ مع الموصل كان يريده سلميّاً، ولكن تحت ضغط القوة؛ وهكذا توجَّه إلى حلب وظهره آمن، وحشد جيشه هناك (في صفر سنة ٥٨١هـ/ أيار (مايو) سنة ١١٨٥م)، وسار إلى الموصل.. ومع أنه تلقى تحذيراً من السلطان (قلج أرسلان) صاحب سلاجقة الروم بأنه سوف يجابه بائتلاف يضم أمراء الشرق ضده؛ إلا إنه لم يأبه له لأن الائتلاف تفكَّك من تلقاء نفسه وتُركت الموصل لمصيرها. ورفض الخليفة في بغداد التدخُّل؛ لأن صلاح الدين ظلَّ يذكره بأن الموصل أجبرت على الاعتراف بسيادة السلطان طغرل السلجوقي عليه.. وقد كان هذا السلطان على عداء مع الخليفة...

وجرت بعد ذلك أمور التدخُّل في خلاط وماردين، وأمور الوساطة، ثم مرَض صلاح الدين، ثم إقرار بنود السلام التي سعى فيها عماد الدين زنكي؛

وانتهت بصلح استمرَّ حتى وفاة صلاح الدين.. بالقيام العملي للجبهة الإسلامية الموحَّدة.

كانت عودة صلاح الدين إلى دمشق (في المحرم سنة ٥٨٢هـ / مارس آذار سنة ١١٨٦م) على أنَّ ابن الأثير الذي كانت تنازلات الموصل للصلح قد جرحت قلبه؛ يأبى إلا أن يفضح غلّه ويسيء إلى صلاح الدين وأهله، ولو بالتلفيق؛ فيذكر «أنَّ مرض صلاح الدين في الجزيرة جعل ابن عمه محمد بن شيركوه يعود إلى حلب، ويعطي بعض أحداثها **مالاً**، ثم يراسل مَنْ بحمص جماعة من الدمشقيين ويواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين، **وأقام بحمص ينتظر موته**، ليسير إلى دمشق ويملكها.. فعوفي صلاح الدين وبلغه الخبر على جبهته؛ فلم يمضِ غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى.. فإنه شرب الخمر وأكثر منها وأصبح ميتاً، فذكروا والعهدة عليهم (على مَن؟) أنَّ صلاح الدين **وضع عليه إنساناً** يقال له: الناصح بن العميد، وهو من دمشق، فحضر عنده ونادمه **وسقاه سمّاً**، فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح، فسألوا عنه؛ فقيل: إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين، فكان هذا مما قوّى الظن؛ فلما توفي (محمد) أعطى (صلاح الدين) إقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلّف ناصر الدين محمد من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدين في حمص واستعرض تركته **وأخذ أكثرها** ولم يترك إلا ما لا خير فيه، **وبلغني** أنَّ شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة؛ فقال له: إلى أين بلغت من القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] **فعجب** صلاح الدين **والحاضرون من ذكائه!!**».

وفي هذه القصة اتِّهامان على الأقل تنفيهما سيرة صلاح الدين كلها:

- قتل ابن عمه بالسم، وكان صلاح الدين كثير الأعداء، ومع ذلك فلم

يُعرَف عنه أبداً استخدام هذه الوسيلة أو غيرها في التخلُّص من أعدائه، ولا اتَّهمه أحدٌ من المؤرِّخين أو الناس إلا ابن الأثير؛ وبخاصة أنه يتَّهمه بقتل ابن عمه، والمعروف عنه بالعكس أنه كان يعتمد على أقربائه في مُلكِهِ.

ـ أنه استولى على إرثه، وهذه بدورها تهمة باطلة؛ فلو كان صلاح الدين من هذا النوع الجشع من الأمراء، لظهر ذلك في أكثر من مناسبة في حياته، وبخاصة أمام كنوز الفاطميين، أو أمام قلعة آمد، أو أمام القدس يوم خرج بطريركها بأموالها؛ وهذا إذا لم نضف مسامحته جميع المدن التي فتحها بالمكوس والضرائب، ويده المبسوطة دوماً للعُفاة، وخزانته التي مات وليس فيها سوى دينار واحد وبضعة وأربعين درهما من الفضة، وتحت يده أموال امبراطورية واسعة تضم المشرق العربي كلّه مع اليمن.

ـ ويظهر تهافت هذا الاتِّهام من قول ابن الأثير «ذكروا والعهدة عليهم» «وبلغني أن. . . » كمن يريد أن يتهرَّب من رواية السوء التي سمع أو اختلق.

ـ ونضيف أيضاً أنَّ ابن الأثير البعيد في الموصل لا يمكن أن يكون أصدق قولاً من العماد الكاتب الذي كان يرافق صلاح الدين، وكان معه في حمص عند استعراض الإرث. . ولو اقتطع منه شيئاً لغمز العماد غمزة في هذه الناحية لا يحاسبه عليها أحد؛ فإنه كتب ما كتب عن هذه القصة بعد وفاة صلاح الدين بفترة، وقال: «إنَّ السلطان كان على وشك الشفاء من مرضه (المشهور) في حرَّان، فسمع ضجَّة على بابه، وقيل له: هؤلاء وفدك المجتمعون ببابك يرجون شفاءك، فأمر بكتابة أسمائهم وتفريق ما اجتمع بخزانته من المال عليهم، فأمسينا وليس على الباب سائل»(1). . . وسمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه مع نعي زوجته الخاتون وهو بحرَّان. . . ثم قال: «وصل السلطان إلى حمص وقرَّر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين (محمد) وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، وكتب له منشوراً

(1) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٥.

بما قرَّر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسَلَمِيَّة وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزلبية، وكتب منشوراً آخر بإسقاط المكوس بالرحبة؛ وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع؛ وهي الخراج والأجور والزرع. واعتمد الأمير الحاجب بدر الدين الهكاري في ولاية قلعة حمص، ورتَّب مع أسد الدين (الفتى) بحمص أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان بغا. . . يتولَّى مصالح بابه حتى تفرَّد أسد الدين بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونُعت بالملك المجاهد. . وأقمنا بحمص أياماً حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين، وقسمنا ميراثه. وكانت أخت السلطان زوجة ناصر الدين وهي مستحقة للثُّمن والباقي بين البنت والابن، وخلف عيناً وورِقاً مجتمعاً ومفترقاً، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ما عظم عن أن يقدَّر بمقدار، وأناف على ألف ألف دينار، فما أعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة. . . »[1].

وقال القاضي ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية: « . . . ثم رحل في ثامن عشر المحرم (من حلب) نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بتلِّ السلطان ومعه أخته، وقد صحبه خدمة عظيمة. . ومنَّ عليه بحمص وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب دمشق. . . ».

- وثَمَّ قرائن أخرى نافية: فلماذا أبقى صلاح الدين على إقطاع الأب للابن ولم ينقصه، وزاد في مساندته بإيجاد أميرين معه لمساعدته في القلعة والإدارة؟! وهل يجرؤ الفتى أسد الدين أن يذكر الآية الكريمة التي ذكر أمام صلاح الدين في مجلسه، فلا يزيد صلاح الدين مع الحضور على أن (يعجب) بذكائه؟! ولماذا زوَّج السلطان ابنه الملك الأفضل من أخت أسد الدين في شوال من تلك السنة؟! . . لقد قصدنا من هذا أن نبيِّن أن ابن الأثير كان يتجنَّى ويفتري على صلاح الدين في الأمور الشخصية التي تدينه، لكي يكافح سمعة

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٦٩.

صلاح الدين المتألقة؛ لكنه فيما يتعلّق بانتصاراته على الفرنج لم يكن يستطيع ذلك لئلا يُتَّهم بالطعن في عملية الجهاد للكفار، من خلال ذلك.

قضى صلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ ـ ١١٨٧ م في معظمها بدمشق مشغولاً بخمسة أمور:

الأول: تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه: ولم يكن صلاح الدين إدارياً بارعاً ولكنه برع بالتسويات الرضائية، وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع، فِكْرُهُ المبسط لم يكن يحتمل تعقيدات الإدارة، فكان يتركها لغيره بسبب انشغاله الكامل بالمهمة الحربية. ولمّا كان المتطوعون بالولاء الشخصي له قد كثرت نسبتهم في الجيش، وجُلّهم من الأكراد، فقد قلّت نسبة المماليك فيه، وقام هذا الولاء مقام الكابح المشترك للجميع؛ فلم تظهر المناقسات ولا التحاسد على الإقطاعات، وإن نال أفراد أسرته ـ وهم المؤسسة العسكرية الأم ـ النصيب الأوفى من ذلك، ولمّا كان لا يشترط على نوّابه وحكّامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات إلاّ معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوماً للقتال. فقد ترك الأمور الإدارية كلّها وراء ظهره، وكان لا يهتم بسوى الولاء المخلص من أتباعه؛ لأنه كان يعرف أن هذا الولاء هو الذي يجمع القوى بيده، ولذلك كان يهتم به، وقد قال مرة لصديقه المصاحب له ابن شداد: «إنّني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر»[1]. وقد كتب منشوراً في الرقة ذات مرة قال فيه: «إنّ أشقى الأمراء من سَمَّنَ كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق مَنْ أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوَّضه، ومَن أقرض الله قرضاً حسناً وفّاه ما أقرضه».

قال العماد: كتب له النوّاب بدمشق مرة: «إن الأموال ضائعة، وإن الأطماع فيها رائعة، وإن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وإن أرباب

(١) ابن شداد: ص ٢١٨.

العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي إفراد جهات لما سنح من مهمات. . .»[١]، «وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعاً بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلتُ: أما أتلو عليك الأسماء، فقال: لا! بل نزِّهني عن هذه الأشياء. . فبقيَتْ تلك الرسوم دارّة. . .»[٢].

وكان صلاح الدين يبني فكره الإداري بكل بساطة على الثقة بنُوَّابه وعُمَّاله، ويقبل شكوى الناس فيهم أحياناً ـ كما جرى مع أبي الهيجاء السمين ـ وقلَّما كانت تقوم الشكوى، ومشَّى مع هذه الثقة، وربما كان ذلك سبباً لها أريحيَّته المبالَغ فيها في كثير من الأحيان؛ فقد كان سفَّاحاً للمال لا يدَّخره لوقت الحاجة. وهذا ما أحرجه كل الإحراج أيام الحرب ضد الحملة الصليبية الثالثة. . . وقد كتب القاضي الفاضل: إنَّ المولى أنفق مال مصر في الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل»[٣]. وقد قال مرة: «يمكن أن يكون في الناس مَن ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب. . .»[٤]. وكانت هذه الناحية نقصاً في إدارته؛ لأنَّ عدداً من وُلاته أَثْرَوْا الثراء الفاحش ولم يُحاسَبوا، وكانت حملاته العسكرية مناسبات لحملات من السخاء كانت تُغضِب أحياناً أمراءه وخواصّه، وتُحرج القائمين على خزائنه.

الثاني : تنظيم أطماع أسرته وإرضاؤها : وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشاغله في وقت معاً. . وكانت مطامع أفرادها متَّفقة مع مفاهيم عصره، لكنها لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة. . كانوا جديدين على عمليات الحكم، ويفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم؛

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) أبو شامة: ج ٢، ص ١٧٧.
(٤) ابن شداد: ص ١٨.

لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها. . ومفهومه أتاه من توقُّد حماسته الدينية؛ أمَّا أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر. . وقد عانى صلاح الدين من تباين الحالين، وعبَّر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل ـ وهو يطلب عقد تملُّكٍ لحلب مقابل ١٥٠ ألف دينار اقترضها صلاح الدين منه ـ:

«أظننت أنَّ البلاد تُباع وتُشرى، أَوَ مَا علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خَزَنَةٌ للمسلمين ورعاةٌ للدين وحرَّاسٌ لأموالهم؟»(١).

وقد انتهى الأمر بعد عدد من التغيرات والمبادلات (في سنة ٥٨٢هـ) كما يلي:

ـ أُعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة ولا إقطاع كامل؛ ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.

عيَّن ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين ودياربكر بعد أن تمرَّد في مصر أو كاد يخرج عن الطاعة وعن مصر. . وقد أقنعه القاضي الفاضل بعدم التهوُّر.

ـ وتمَّ إعادة ابن صلاح الدين: الظاهر غازي لولاية حلب.

ـ وبقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه بحمص لم يتغيَّر.

الثالث: العمل الدبلوماسي الخارجي: فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أنَّ الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيراً خطيراً، وأنَّ القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي، ولا بدَّ من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم مع القوى الخارجية؛ بل ومع المعادية أحياناً.

---

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٥٢.

وهكذا وجَّه دبلوماسيته إلى القسطنطينية ـ بيزنطة ـ وقد جاء وقت كانت فيه هذه الامبراطورية ـ في عهد مانويل كومنين ـ حليفةً لملك القدس، وكانت لها جهود في إقناع الفرنجة بالهجوم على مصر، وقامت معهم بتجهيز أسطول لغزوها، وشكَّلت خطراً عليها، ولكنَّ سياستها انقلبت إلى نوع من العداء في عهد ألكسيوس كومنين ومن بعده. وكان التقرُّب منها من جانب صلاح الدين يؤدي في الوقت نفسه إلى إغضاب أعدائها سلاجقة الروم.. ولكنَّ الأمور تغيَّرت أيضاً بعد أن هزم السلاجقة الامبراطور مانويل سنة ٥٧٢ هـ في موقعة ميريو كغالون وبعد وفاة مانويل؛ لأنَّ خلفاءه بادروا بإقامة العلاقات الحسنة مع صلاح الدين وأيَّدوها بمعاهدة سنة ٥٧٧هـ، وعودة القسطنطينية إلى فتح الجامع الإسلامي فيها، وإطلاق حوالي مئتي أسير مسلم عندها. وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام؛ مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص.

الرابع : ومن جهة أخرى فإنَّ الأساطيل الإيطالية ـ أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأمالفى ـ كانت متَّصلة الورود والتكاثف على السواحل الشامية، ولها امتيازاتها في المرافئ كلها، وهي تحمل الرجال والمال والسلاح إليهم دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب.. ودورها الفعَّال هو الذي ساند الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن؛ ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت.. فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع؛ لا بحربها في البحر، فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك؛ وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أنَّ مصلحة هؤلاء التجَّار تغلب تديّنهم وتجعلهم ينسون حتى الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به البابا؛ كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغلَّ منافساتهم، وبذل كثيراً من الجهود لاجتذاب تجَّارهم إلى مرافئ مصر، مما لا يؤدي إلى تأمين منافعهم؛ ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجَّار المصريين من وراء الفرنج. وقد أقام مع

البيازنة ـ البياشنة تجار بيزا ـ معاهدة سنة ٥٦٩هـ، كان من نتائجها أن شاركوا القوات المصرية في دفع الهجوم الصقلي عن الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ. وثمَّ فقرة في كتابٍ أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد تؤكِّد وجود اتفاق مماثل مع جنوا والبندقية.. تقول الفقرة: «وما منهم إلاَّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ـ أسلحة ـ ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد تقرَّرت معهم المواصَلة وانتظمت معهم المسالمة...».

الخامس: قضية الجهاد وهي القضية المركزية التي شغلته حتى وهو في صيده أو صلاته أو في خلوته مع أولاده.. وكانت الأشهر الأخيرة من سنة ٥٨٢هـ هي أشهر المكاتبات والرسائل لنوَّابه وعمَّاله والتابعين له في مصر والشام والجزيرة والاستعداد للحرب، وكان لا يجهل بالطبع ما يجري في مملكة القدس من منازعات، ويعرف معنى الهدنة التي منحها لريموند أمير طرابلس الغاضب على ملك القدس.

فقد ساءت أحوال مملكة القدس في أواخر أيام ملكها المريض المجذوم (بغدوين الرابع)، ولم يلبث تحت تأثير بارونات المملكة، أن أبعد (غي لوسينيان) عن وصاية المملكة وأعلن ابن أخته الصغير (بغدوين الخامس) شريكاً في الحكم، ولمَّا رفض لوسينيان ذلك واعتصم بإقطاعه في يافا؛ قرَّر مجلس المملكة اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصيّاً على المملكة. ثم توفي بغدوين الرابع، فأُعلن بغدوين الخامس الصغير ملكاً تحت وصاية ريموند، وكان في السادسة من العمر، كما كان بدوره معتلّ الصحة.. وخشي الوصي أن يموت هذا الطفل بدوره ويتَّهم به وتتعقَّد الأمور.

كما كانت بلاد الشام عامة في قحط شديد تلك السنة (سنة ٥٨١ ـ ٥٨٢هـ/ ١١٨٥م) فطلب من صلاح الدين هدنة لمدة أربع سنوات؛ فوافق عليها (١١٨٥ ـ ١١٨٩م) لأنَّه كان ينوي تصفية علاقاته مع الموصل.. ثم مرض وصفَّى الأمور. فلما عاد إلى دمشق سمع بأن بغدوين الخامس توفي

آلاف يقودها أمير حرّان (مظفر الدين كوكبري)، وأمير عسكر حلب (بدر الدين الياروقي) و (صارم الدين قايماز النجمي) أمير عسكر دمشق ـ للإغارة على إقليم عكا. وكان لا بدَّ لهذه القوة من المرور بالجليل، أي في أراضي ريموند الحليف المحايد؛ فحار في الأمر، ولكنه قَبِلَ السماح لهم بالمرور، وأعطى تعليماته للمدن ـ التابعة لطبرية كالناصرة وغيرها ـ بإغلاق أبوابها لئلا تداهمها، وكان هو نفسه مع زوجته في طبرية.. وهذا يكشف مدى المبالغة التي وُصِفَ بها تحالفه مع صلاح الدين.

وعلم مقدَّم الداويّة بالحملة، فجمع حوالي ٥٠٠ فارس، وحاول التصدّي لها قرب صفورية، فدارت معركة عنيفة بين الطرفين ـ أوائل مايو ـ انتهت بالفرنج بين القتل والأسر، فلم ينجُ منها سوى عدد لا يجاوز الخمسة منهم مقدم الداوية، وكان بين القتلى مقدم الاسبتارية.. وجاءتهم نجدة من الفرسان بعد انتهاء المعركة فأُبيدت عن آخرها، وعادت الحملة تحمل رؤوس الفرنج على أسنَّة الرماح.

كان هذا النصر المحدود مقدِّمة للمعركة التي عُرِفَت (بحطين)، وقد بُحِثَتْ هذه المعركة ودُرِسَتْ وحُلِّلَتْ بشكل واسع من قبَل المؤرخين العرب والغربيين، ودرسها العسكريون، فليس ثمَّ ضرورة للتفصيل فيها، غير أننا نلمُّ بأهم خطوطها[1].

عبّأ صلاح الدين جيشه تعبئة الحرب، وحدَّد لكلٍّ أمير موقعه وعمله لا يفارقه، ثم نزل بكتلة القوى إلى الأقحوانة ـ شمالي طبرية ـ. وبلغ الفرنج كثرتها، ولم يشاؤوا ترك ريموند ينفرد عنهم، فأرسلوا إليه الرسل من القسس والرهبان مع بطريرك صور وبعض الفرسان؛ ينكرون عليه موقفه المجامل

(١) نجد تفاصيل المعركة بشكل موسَّع لدى أبي شامة: ج ٢ ما بين صفحتي ٧٥ ـ ٨٦ ومابعدها أيضاً؛ وانظر لدى ابن الأثير: ج ١١، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٨ وما بعدها؛ والعماد الأصفهاني في سنا البرق الشامي، وفي الفتح القسّي.

للمسلمين وسماحه بمرورهم في أرضه، وذكّروه بالقتلى والأسرى الذين وقعوا نتيجة ذلك. . وتهدَّده البطريرك بالحرمان والفصل بينه وبين زوجته؛ فلما رأى شدَّة الأمر، خاف فاعتذر وتنصَّل وتاب. . وكانوا قدموا عليه لهذا فطلبوا انضمامه إليهم، فسار معهم إلى ملك الفرنج في عكا، فقدم له الولاء، وضمَّ جيشه إليهم في صفورية؛ أما أمير أنطاكية فلم يكن معهم، ولكن ابنه البكر هو الذي كان واشترك في المعركة.

كان الحاجز بين الجيشين هو تلك الآكام والمرتفعات في نهايات الجليل ما بين سهل حيفا وعكا ومنخفضات بحيرة طبرية، وقد اجتازها صلاح الدين أكثر من مرَّة ليراقب تحرُّك الفرنج، ويحاول أن يجرَّهم إليه نحو الداخل، ولكنَّهم بقوا في مواقعهم، وفيها الماء الوفير والظلال الواقية من الحرِّ ـ في مطالع تموز (يوليو) سنة ١١٨٧م ـ؛ فلم يجد من وسيلة لتحريكهم عن هذا الموقع إلاَّ بالهجوم على طبرية، فزحف إليها ـ وقد نقض ريموند الهدنة بالطبع ـ واقتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها، إلا أنَّ قلعتها قاومت، وكانت زوجة القمص فيها (وهي أخت ملكة القدس).

حين سمع الفرنج بسقوط طبرية ووصلهم استنجاد زوجة ريموند بملك القدس؛ عقدوا مجلس الحرب لبحث الموقف، وكان رأي بعضهم الصبر وانتظار مجيء الجيش الصلاحي إليهم، وتزعَّم هذه الفكرة القمص ريموند نفسه قائلاً: إن المسلمين لن يستطيعوا عمل شيء بعد أخذ طبرية، وسوف ينتظرون طويلاً، ثم تملُّ جيوشهم فينسحبون ونستعيد المدينة، فإن مشينا إليهم وصلناهم والجيش متعب، وإن مشوا إلينا كنَّا في موقف أفضل. . وثار عليه أرناط واتَّهمه بالجبن وبالميل للمسلمين، وقال: لا ترهبنا كثرتهم فالنار لا تهمّها كثرة الحطب. . وتقرَّر المسير، وقال القمص: إنَّما أنا واحد منكم!.

حين سمع صلاح الدين بمسيرهم؛ قال: جاءنا ما كنا نريد. . واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإنَّ الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر

الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلاّ بعد الجد والجهاد، وقال للجند: لا تقاتلوا عني ولكن قاتلوا في سبيل الله، وتوضّع الجيش الصلاحي فيما بين بحيرة طبرية والآكام المشرفة عليها. ووجد الجيش الفرنجي الزاحف العطش لشدة الحر، ولم يكن في طريقهم ماء، وقد أفنوا ماء الصهاريج، فوصلوا لمواجهة جيش صلاح الدين وباتوا وهم عطاش. وفي الصباح حاول بعض فرسانهم الوصول إلى الماء فصدَّهم كثرة السهام والنشاب وقتلت الخيل. وكان صلاح الدين قد وزّع النشاب في العسكر، وترك لمجموعاته مستودعات احتياطية منه..

وانتصف النهار والحر الشديد يصهر النفوس، والقتال محتدم، ومرَّ اليوم الأول، وقد بلغ الجهد من الفرنج كل مبلغ.. وأدرك القمص أن المعركة إذا دامت بهذا الشكل خاسرة، فحمل على المسلمين ناحية الغرب فشقَّ له تقي الدين عمر الطريق، فهرب بأصحابه، ولم يلحقه المسلمون لانشغالهم، ودامت الحرب في الليل، فانحازت كتلة الجيش الفرنجي إلى مرتفع جبلي ذي قمتين اسمه حطين(١)، فألقى بعض المتطوعة النار في النباتات اليابسة، فاحترقت؛ وكان المسلمون يطوقون موقع الفرنج، ويزحفون مكبِّرين مهلّلين إليهم، فاجتمع حرّ النار إلى حرارة تموز إلى حرارة العطش على الفرنج، فكانوا رغم المقاومة القاسية يتساقطون من الإعياء، ولم يتمكّنوا أن ينصبوا على الجبل إلا خيمة الملك وأمامها صليب الصلبوت بيد البطريرك؛ فلما سقطت الخيمة عرف صلاح الدين أنه انتصر! وسجد شكراً لله، وصار يبكي من الفرح!! (آخر جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/ ٣ ـ ٧ تموز (يوليو) سنة ١١٨٧م).

كانت ساحة المعركة ملأى بالجثث والدماء والأشلاء المبعثرة من بقايا الدواب والأسلحة والفرسان، فيما كان الأسرى يُلتقطون بالمئات ويُساقون فوق الضحايا كالأغنام الطيِّعة.

---

(١) ولهذا يُعرَف أيضاً باسم (قرون حطين).

«كان مَن يرى القتلى لا يظن أنَّ أحداً أُسر، ومن يرى الأسرى لا يظنُّ أنَّ أحداً قُتِل.. خسر الفرنج في هذه المعركة جيشهم كله، وكانوا في حوالي ثلاثين ألفاً، وخسروا ما هو أهم؛ وهو الرهان على بقاء الإمارات الصليبية في المشرق أو زوالها.

نزل صلاح الدين في خيمته، وسيق كبار الأسرى إليه: ملك الفرنج غي، البرنس، أرناط، البطريرك، صاحب جبيل، وابن هنغري، ومقدم الداوية، وكبار الاسبتارية وقد أرهقهم العطش؛ فاستقبلهم صلاح الدين وقدَّم الماء المثلج للملك، وأخرجهم إلى دهليز الخيمة، واستدعى أرناط فندد به وذكَّره غدره ونكثه وجرائمه وأعماله ضد الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم وفى نذره بقتله بيده.. فلما جرُّوا بأشلائه من الخيمة ارتاع الملك، فطمَّنَه صلاح الدين قائلاً: ليس من العادة قتل الملوك. وأمر بسوق الجميع إلى دمشق.. وزحفت الناس بالأسرى، فما من جندي إلا وعنده الواحد والعشرة والعشرون يسوقهم مربوطين بعمود خيمة! ورخصت أسعارهم بسبب الكثرة؛ فبلغ سعر الأسير بدمشق ثلاثة دنانير! وباع أحدهم أسيره بحذاء.. أما أسرى الداوية والاسبتارية؛ فقد أمر صلاح الدين بقتلهم؛ لأنَّهم ألدُّ الأعداء، ولا ينفعون في الخدمة[1].

لم تكن حطين كارثة حربية، ولكنَّها كانت نصراً على أكبر حركة استيطانية غربية شهدتها العصور الوسطى.. حرَّرت المشرق العربي وأرضه بالذات من المجموعات البشرية التي غزته للبقاء فيه؛ وإذا أخذ هذا التحرير مئة سنة أخرى بعد حطين، فقد كانت هذه المعركة هي المؤشر الأول والأساسي لرفض استقرار الغرباء على هذه الأرض.. ولم يفقد الفرنج جيشهم فيها فقط، ولكن زهرة شبابهم ورجالهم أيضاً، وسوف يضطرون باستمرار إلى حمل المزيد من

(١) وَصْف المعركة مبذول في جميع الكتب، وكلها تستقي التفاصيل من ابن الأثير (ج ١١، ص ٥٢٩ فما بعد)؛ وأبي شامة (ج ٢، ص ٧٥ فما بعد)؛ ومن العماد الأصفهاني: الفتح القسِّي (ص ٥٨ فما بعد)؛ وسنا البرق الشامي.

الرجال والأموال لسدِّ النقص البشري الذي كشفته هذه المعركة. ولم يكن بقاء الإمارات بعد حطين بقوتها، ولكنه كان بقاءً اصطناعياً، وقد حاول الغرب إعاشتها بالحملات المتتالية عبثاً حتى انقرض آخر ممثليها في عكا سنة ١٢٩١م.

غدا المشرق العربي بعد حطين في يد صلاح الدين، ومشت قواه العسكرية فيه تتسلَّم المواقع تسليماً في الغالب رغم المقاومة الشرسة أحياناً في بعض البلاد والقلاع العصيَّة.. ويسترعي الانتباه في هذه المرحلة من الحروب الصليبية؛ أنَّ صلاح الدين لم تستبدَّ به نشوة النصر، ولم تُخرجه عن خُلُقه الطيِّب المتسامح الذي أخذه عليه أحياناً أمراؤه وبعض المؤرِّخين.. ظلَّ يعتبر الأرض المسلمة واستردادها أهم من محو مَنْ عليها من الأعداء، وكانت فكرة إجلائهم لا إبادتهم هي محور اهتمامه وسياسته، وكانت بساطة إيمانه بذلك تجعل الخداع يمرّ عليه أكثر من مرَّة دون أن يتنكَّر للتسامح والرحمة ـ وقصة خداع الملك (غي) ملك القدس الذي حلف لا يرفع سيفاً في وجهه ثم نكل؛ معروفة.. ولم يكن الوحيد في ذلك؛ فهناك باليان الثاني وصاحب جبيل وغيرهم ـ.

حين فرغ صلاح الدين من حطين خيَّب ظنَّ الفرنج، فلم يذهب لأخذ القدس؛ ولكن إلى عكا ليتسلَّم الموانئ التي يأتي منها مدد السلاح والرجال إلى الفرنج، وخرج أهلها يتضرعون إليه، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيَّرهم بين البقاء فيها أو الخروج، فاختاروا الرحيل إلى صور؛ فاستلمها مع قلعتها، وكانت المرفأ التجاري الأول للفرنج ومقصدهم من أنحاء الأرض، ووجد جنده فيها من البضائع والأموال ما لا يُحصى.. وتفرَّق عسكر صلاح الدين، فأخذوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من بلاد عكا، ونهبوا وسبوا. وسار تقي الدين عمر على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور. وحسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى سبسطية وقلعتها، ثم إلى نابلس؛ فاستلمها مع قلعتها بالأمان، وأقرَّ أهل البلد على أملاكهم، وكتب

صلاح الدين إلى أخيه بمصر بالنصر، وأمره أن يأتي بجنده من جنوب فلسطين فيتسلَّم البلاد؛ فجاء وتسلَّم (مجدل يابه) وغنم ما فيه، ثم أخذ يافا وملكها عنوة، ونهبها وأسر رجالها ونساءها.

أما صلاح الدين فسار إلى تبنين الحصن العصي، فاستسلم حماته وسيَّرهم إلى أهليهم، ثم زحف إلى صيدا، وأخذ في طريقه صرفند، وهرب صاحب صيدا؛ فاستلسمت.. وقاومت بيروت أياماً، ثم خضعت بالأمان. واستعصت جبيل رغم أنَّ والد صاحبها أسير لديه؛ فرفض تسليمها ولو قُتِل أبوه، فتركها وأطلق الأسير! وأمر أسطول مصر بالخروج لقطع طريق البحر على الفرنج. واتَّفق في تلك الفترة بالذات أن وصل عكا نبيل فرنجي هو (دي مونتفرات) ويسميه العرب (المركيش)؛ فدخلها بتجارته وماله وسفينته، فرأى فيها من الناس ما استغربه، ثم عرف بكسرة الفرنج، فاحتال حتى هرب بسفينته إلى صور، وقد تجمَّع فيها معظم الفرنج في خلق كثير وهم عازمون على التسليم، فلما وصلهم ـ وكان من شياطين الإنس ـ اجتمعوا إليه، فشدَّ عزائمهم وتسلَّم زعامة البلد وشرع في تحصينها، وجدَّد حفر خنادقها وأسوارها، وهي شبه جزيرة في البحر وحمايتها سهلة من البر، فتركها صلاح الدين وفي ظنّه أنها ليست أهم من عسقلان التي تربط مصر بالشام، ولا أهم من القدس وهي هدف هذه المعارك كلّها ومهوى أفئدة المسلمين؛ لذلك اتَّجه من بيروت إلى عسقلان، واستقدم ملك الفرنج ومقدم الداوية من دمشق ليطلبوا من حُماتِها التسليم مقابل فكاكهم من الأسر، فرفضت الحامية بأقبح ردّ؛ فنصب صلاح الدين المجانيق وحاصر المدينة ونقب أسوارها، وأضرم فيها النار؛ حتى استسلمت بالأمان بعد ١٤ يوماً.. ثم بثَّ السرايا، ففتحت الرملة والداروم وغزة والخليل ويبنى وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون، وكل ما كان للداوية من القلاع.. وتفرَّغ بعد ذلك لبيت المقدس (رجب سنة ٥٨٣هـ/ أيلول ـ سبتمبر ـ ١١٨٧م).

كان في هذه المدينة بطريرك القدس وملكتها وباليان بن بارزان ـ صاحب الرملة ـ والفرسان الذين نَجَوا بالهرب، من حطين وعسقلان والمدن الأخرى التي استسلمت، وكثير من الخلق، لدرجة أنَّ الأزقَّة والطرق اكتظَّت بهم، وكلُّهم يفضِّل الموت على التسليم بالقدس.. وبقي صلاح الدين خمسة أيام يعرض السلم عليهم مرتين، ويطوف حول المدينة ويسمع الجلبة والضجيج فيها، والسور في غاية الامتناع.. ثم بدأ رمي المجانيق، وخيَّالة الفرنج يخرجون كل يوم فيقاتلون في ظاهر البلد، ثم يرجعون؛ فحمل المسلمون مرة واحدة عليهم حتى أزالوهم، ووصلوا الخندق فجازوه وبدؤوا نقب الأسوار، فلمَّا رأى الفرنج عبث المقاومة خرج وفدهم يفاوض على التسليم بالأمان.. وكان صلاح الدين حزيناً على مقتل أميرين من كبار أمرائه، فرفض إلاَّ أن يذيقهم ما فعلوه بأهل القدس يوم دخلوها من المذابح. ثم خرج ابن بارزان يطلب الأمان لنفسه، فرفض، فلما يئس قال: إذا كان لا بدَّ من الموت فإنَّا نقتل أطفالنا ونساءنا وندمِّر الصخرة وقبَّتها والمسجد الأقصى، ونحرق أمتعتنا وأموالنا، ولا نترك لكم شيئاً تنتفعون به، ولا دابة أو حيواناً، ونقاتلكم حتى الموت.

واستشار صلاح الدين أصحابه، فرأوا قبول منح الأمان، على أن يدفع الرجل فدية عن نفسه عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينارين من الجميع.. وسلِّمَت المدينة في ٢٧ رجب، ورتَّب السلطان على كل باب من أبوابها من يجبي الأموال؛ وازدحم النساء والأطفال والناس خلف الأبواب، وأساء الكثيرون الجباية بالرشاوي، وتهرَّب كثيرون، وتدلَّى بعضهم بالحبال عن الأسوار، ودفع ابن بارزان ٣٠ ألف دينار عن الفقراء.. وكان الاتفاق لمدة أربعين يوماً، غير أنَّها انقضت، وبقي في المدينة فقراء ليس يملكون الفدية؛ فافتداهم صلاح الدين من ماله. ولم يعتبرهم مماليك حسب الاتفاق، وبعض الأمراء أخرج بعضهم على أنهم من رعاياه.

أما ملكة القدس، فقد طلبت المسير إلى زوجها الذي نُقل إلى قلعة

نابلس؛ فأذن صلاح الدين لها، وأطلق مالها وحاشيتها، كما أطلق امرأة أرناط على أن تطلب من حاميتها في الكرك والشوبك التسليم؛ وعلى الرغم من رفض الحامية؛ فقد أطلقها مع أتباعها وحاصر الحصنين حتى استسلما له مرغمين، وأسر الحامية. وخرج بطريرك القدس، ومعه أموال البِيَع والكنائس وكنوزها في أحمال محمَّلة، فلم يعرض له صلاح الدين بشيء رغم غضب الحاشية، ودفع عشرة دنانير، ومضى صلاح الدين يقول: لا أغدر به. وقسم صلاح الدين الخارجين ثلاثة مجموعات، سيَّرهم إلى صور بحماية الجند خوفاً عليهم من البدو وقطَّاع الطرق. وكان في القدس نساء أخريات منهن أرملة عموري الأول وزوجة باليان فسيَّرها محروسة إلى طرابلس، وهناك أميرة بيزنطية مترهِّبة فأطلقها[1]. وفي ٢٧ رجب/ ٢ أكتوبر دخل المسلمون البلد وتسلَّق بعضهم قبة الصخرة، وعليها صليب مذهَّب كبير فاقتلعوه، فلمَّا سقط؛ صاح المسلمون بصوت واحد بالتكبير فيما صاح الفرنج بالخارج متفجعين، «فسمع الناس ضجَّة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها» كما يقول ابن الأثير.

وأمر السلطان بإعادة الأبنية الإسلامية إلى حالها الأول، وكانت الداوية قد اتَّخذت في غرب المسجد الأقصى دوراً للسكن؛ فهدم ما بنوا وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار، وفي الجمعة التالية رابع شعبان صلَّى صلاح الدين والمسلمون في المسجد الأقصى، ثم نقل المنبر الذي كان صنعه نجار حلبي اسمه (الاختريني) لنور الدين برسم هذا المسجد، فنصب فيه[2] بعد أن جلبه من حلب، وكان قد بقي فيها عشرين سنة ينتظر. وطلب بعضهم هدم كنيسة القيامة لقطع أمل الفرنج بالعودة؛ فرفض. وأمر السلطان بترخيم المسجد وتزيينه وتزويده مع قبة الصخرة بالمصاحف والرُّبَع. كما سمح للنصارى

---

(١) كانت كثرة الموجودين في القدس من النساء، حتى قال رانسيمان: إن فيها رجلاً واحداً لكل خمسين امرأة وطفلاً (ج ٢، ص ٤٦٤).

(٢) وهو نفسه المنبر الذي أحرقه الصهيونيّون سنة ١٩٦٨ م.

المحليين بالبقاء في المدينة. ودعا المسلمين للسكن فيها بعد أن فرغت، وغادرها في ٢٥ شعبان لفتح صور، بعد أن أطلق آخر اليتامى والأرامل والشيوخ المعوزين من الفرنج دون فداء، ومنحهم مساعدات مالية تعينهم على السفر.

فيما كان صلاح الدين يتَّجه بقواه إلى صور؛ كان الصليبيُّون يرفضون إخوانهم، ويغلقون أبواب مدنهم وبلادهم في وجه المشرَّدين منهم وينهبونهم، حتى وصل بعضهم إلى إمارة أنطاكية بعد طردهم من إمارة طرابلس التي كان أميرها (ريموند) بعد هربه من معركة حطين قد أصابته حمى ذات الجَنْب؛ فمات، وتولَّى أمرها أحد أبناء الأمير الأنطاكي، ويُعْرَف باسم (بوهيمند الرابع).

وقد ذكر أبو شامة أنَّ الفتح في فلسطين شمل ٥٢ مدينة وبلداً عدَّدها بأسمائها، وأضاف أنه لم يذكر ما تخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى القلاع، ولكل واحدة من هذه البلاد أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع.. فلم يبقَ في أيدي الفرنج منها موضع إلاَّ صور في أقصى الشمال؛ على أن هذه المدينة كانت مجمع الهاربين والشاردين من الفرنج، وملتقى البقايا العسكرية منهم، وكان المركيز (دي منتفرات) قد انتهز فرصة انشغال صلاح الدين بفلسطين، فحصَّنها ونظَّم المقاومة فيها.. وحين رأى صلاح الدين أنه انتهى من أمر القدس سار إلى صور، وكان أكثر من يستعجله في المسير إلى صور هو الأمير علي المعروف بالمشطوب؛ ويقول: «الفرصة تدرك بالحثِّ وتفوت باللبث»، وقد صارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء.

ووصل صلاح الدين إليها تاسع رمضان بعد حوالي شهر ونصف الشهر من فتح القدس، ونزل قربها ينتظر اجتماع العسكر، وزحف عليها بالمجانيق والعرادات والدبابات وأولاده وأخوه وابن أخيه يتناوبون القتال عليها، ولكن الشقَّة البرية التي تربطها بالبحر ضيِّقة، والفرنج يخرجون بالشواني من البحر

ويغيرون من الطرفين على الجند والمدينة كالكفّ في البحر؛ فكثرت الجراحات في الجند، وجاءت الشواني المصرية إلى صلاح الدين من عكا وهي عشر قطع، وكانت تمنع أهل صور من الخروج في البحر، فتمكّن المسلمون من أن يقتربوا من السور. . واتّفق في بعض الليالي أن هاجم الفرنج خمساً من هذه الشواني على غرة عند الفجر فوقعوا بها وقتلوا أصحابها أمام أعين الجيش المسلم في البر، فأمر صلاح الدين الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت، فتبعتها الشواني الفرنجية، فساق البحارة المسلمون بشوانيهم إلى البر للنجاة، فأخذها صلاح الدين، لكنه وجد أنَّ الإقامة على محاربة صور من البرّ قليل الجدوى، وأمْرُها يطول ويضيق الوقت وأنَّ العسكر ملُّوا الإقامة والحرب. . قرَّر الرحيل عنها، وابن الأثير يقول: «لم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين؛ فإنه قد جهَّز إليها جنود الفرنج وأمدَّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس، وغير ذلك. . وكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بأموالهم وأموال التجّار، وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدُّونهم، فأجابوهم لدعوتهم. . . والملك لا ينبغي أن يترك الحزم فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً، وأعذر له عند الناس. . . ».

هذه هي الغلطة التي أطال فيها ابن الأثير لسانه، ولو كان صاحب حرب وقتال لعرف أنَّ من يده في النار غير من يده في الماء، وهو عالم أنَّ صلاح الدين قبل الرحيل استشار أمراءه «فاختلفوا؛ فجماعة قالوا بالرحيل لأنَّ الرجال جُرحوا وقُتِلوا وملُّوا، وفنيت النفقات، وهذا الشتاء قد حضر؛ فنريح ونستريح في هذا البرد، ثم نعاود الاجتماع في الربيع، وكان هذا قول الأغنياء منهم، وكأنهم خافوا أن يقترض السلطان منهم ما ينفقه في العسكر لخلوِّ الخزائن من الدرهم والدينار، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها؛ وقالت الطائفة الأخرى: الرأي أن نصابر البلد ونضايقه، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم، ومتى أخذناه انقطع طمع مَنْ داخل البحر، وأخذنا باقي البلاد صفواً عفواً. . فبقي صلاح الدين متردِّداً بين الرحيل والإقامة، فلمّا رأى من يرى

الرحيل إقامته (وبقاءه) أخلَّ بما ردَّ إليه من المحاربة والرمي بالمجانيق، واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم... إلى غير ذلك من الأعذار؛ فصاروا مقيمين بغير قتال، فاضطرَّ إلى الرحيل آخر شوال/ أول كانون الثاني - يناير - إلى عكا...»[1]. فإذا كان ذنب صلاح الدين في جمع الفرنج في مكان واحد كبيراً - وليس عنده معتقلات ولا أماكن لأسرى مدن بكاملها - فإنَّه يتقاسم هذا الذنب مع الذين تخاذلوا عن الحرب؛ فلم يكملوها.. ومن المؤكَّد أنَّ صلاح الدين لو علِمَ بما سيكون من وصول الحملة الصليبيَّة الثالثة لأصرَّ على البقاء، وأنَّى له أن يعلم بالغيب؟ ولذلك أذن للعساكر بالعودة إلى أوطانهم والاستراحة في الشتاء، على أن يعودوا في الربيع؛ فعادت عساكر الشام والموصل وغيرها، وعساكر مصر، وبقي في حلقته الخاصة - متحسِّراً - مقيماً بعكَّا نازلاً بقلعتها، وردَّ أمر البلد إلى قائده عزّ الدين جورديك».

وكان حين استولى على حصن تبنين ترك على الحصن المجاور له (هونين) من يحصره حتى استسلم بالأمان، وصلاح الدين على صور، وحين حاصر عسقلان جعل على قلعة كوكب من يحفظ الطريق. وسيَّر طائفة من عسكره إلى قلعة صفد، وكانت كوكب للاسبتار، وصفد للداوية، وهما قريبتان من حطين، وقد لجأ إليهما؛ ولكن الفرنج أوقعوا بالمحاصرين ذات ليلة، وبقوا إلى أن استسلمت القلعتان أواخر سنة ٥٨٤ هـ.

قضى صلاح الدين الشتاء سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ - ١١٨٨ م في عكا.

---

(١) ابن الأثير (ج ١١، ص ٥٥٦)؛ والعماد الأصفهاني يذكر أنَّ الأمراء المتخاذلين حاولوا إقناعه بالرحيل مرَّتين، وأنَّه صبَّ لهم أكياس الأموال في المرة الأولى، وقال: إن الفرصة لا تُعوَّض، وراسلهم بالهبات وقال: ما عذرنا إلى الله وإلى المسلمين إذا تركناه. ولم يكن من رأيه إلا أميران هما (جرديك) و(طمان)، ثم عادوا فتباطؤوا مرة أخرى حين اشتدَّت الثلوج والأمطار وقسا البرد، وكان أشدهم تهرُّباً تقي الدين عمر ص ١٦٨ - ١٧٦.

وفي مطالع الربيع سنة ٥٨٤ هـ توجَّه إلى دمشق معرّجاً في طريقه على قلعة كوكب، فحاصرها وهو في قلّة من العسكر بعد أن تملّك البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب ماعدا صفد والكرك، وهذه القلعة؛ فلما رأى امتناعها، رحل عنها تاركاً حصاره لبعض قادته، وسار عنها في ربيع الأول إلى دمشق، وكتب إلى جنده بالمجيء إلى شمال الشام للحرب، فنزل على بحيرة قدس ـ بحيرة حمص على العاصي ـ وأتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن أقسنقر، صاحب سنجار ونصيبين والخابور، وتلاحقت العساكر من الموصل والجزيرة وغيرها فاجتمعت له، فسار حتى نزل على حصن الأكراد ـ قلعة الحصن ـ (وكنت ـ أي ابن الأثير ـ معه حينئذٍ)، فأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل بلد الفرنج، فأغار على صافيتا والعريمة ويحمور، وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين سلك منها، ثم عاد إلى معسكره سالماً. . وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حدَّ له، وأقام تحت حصن الأكراد حتى آخر ربيع الآخر. . .»[1]، وأتاه قاضي جبلة ليسلِّمها إليه، وكان مسموع الكلمة وافر الحرمة عند أمير أنطاكية، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفَّل له بفتح اللاذقية معها والبلاد الشمالية؛ فسار صلاح الدين معه، فنزل بأنطرطوس، فرأى الفرنج قد أَخْلَوْا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة ومعقل منيع، فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم.

«وكان الداوية بأحد البرجين فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه مَن في أحد البرجين وسلَّموه. . وخرب البرج وألقى حجارته في البحر. وكان معهم مقدَّمهم، وكان من أسرى صلاح الدين يوم حطين، وأطلقه يوم فتح المقدس، . . فخرب صلاح الدين ولاية أنطرطوس، وأتى مرقبة، وقد أخلاها

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٥؛ وقد حضر ابن الأثير جندياً في هذه المرحلة وكان له من العمر ٢٩ سنة.

أهلها، وسار إلى (قلعة المرقب) وهو من حصونهم التي لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوِّه وامتناعه، وهو للاسبتار، والطريق تحته مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد (وأمامه البحر)، فاتفق أن صاحب صقلية قد سيَّر نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلس. . فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام، فلما رأى صلاح الدين ذلك؛ أمر بالطارقيات والجفتيات فصُفَّت على (سيف البحر) من أول المضيق إلى آخره ووراءها الرماة؛ فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم، وعبروا المضيق إلى جبلة، فلما وصل صلاح الدين رفع علَمه على سورها وسلَّمها القاضي إليه. . وتحصَّن الفرنج بقلعتها، فسار إليهم القاضي يخوفهم حتى استنزلهم بالأمان، وأخذ رهائنهم إلى أن يطلق الفرنج رهائن المسلمين الذين أخذهم بيموند (بوهميند) أمير أنطاكية رهائن عنده؛ فأُطلقوا. وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من أمنع الجبال وأشقِّها مسلكاً، وفيه حصن يُعرف ببكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة؛ فملكه المسلمون، فأمن المسلمون الطريق، وعهد صلاح الدين بجبلة إلى صاحب شيزر»[1].

وسار صلاح الدين إلى اللاذقية (٢٤ جمادى الأولى) فهرب أهلها إلى حصنين في الجبل، وحاصر المسلمون القلعتين ونقبوا السور ستين ذراعاً، فلما اشتدَّ الأمر على المحاصَرين؛ طلبوا الأمان ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين بعد ثلاثة أيام من الحصار، وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه. . فخرب المسلمون كثيراً منها، وشعثوا بِيَعَها الثمينة؛ وسلَّمها صلاح الدين لابن أخته تقي الدين، فعمرها وحصَّن قلعتها حتى مَن يراها اليوم ينكرها، وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة.

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٨.

وجاء أسطول صقلية فوقف بإزاء ميناء اللاذقية، فلما رأوا سرعة تسليمها حنقوا على أهلها وعزموا على أخذ مَن يخرج منها، ولكن سكانها بقوا فيها ورضوا بدفع الجزية.

وقبل الرحيل عنها طلب مقدَّم الأسطول الحضور عند صلاح الدين فأمَّنَه وحَضَرَ وقبَّل الأرض بين يديه؛ وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت ما فعلت بالفرنج فذلُّوا؛ فاتركهم يكونون مماليكك وجندك، وتفتح بهم البلاد، وتردّ عليهم بلادهم، وإلاَّ جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم الأمر ويشتد الحال. فأجابه صلاح الدين بنحوٍ من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكلّ من يجيء من البحر، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما ذاق أصحابهم من القتل والأسر؛ فصلَّب على وجهه ورجع إلى أصحابه[1].

هذا تعبير ابن الأثير، وأما العماد الكاتب فقال المعنى نفسه: لقد أمرنا الله بالجهاد ونحن قائمون بطاعته وعلينا الامتثال لأمره، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد، ولو اجتمع أهل الأرض لتوكَّلنا على الله في اللقاء، ولم نبالِ بأعداد الأعداء...[2].

ثم رحل صلاح الدين إلى قلعة صهيون وهي منيعة وشاهقة في الهواء على جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يُرى قعره، وخمسة أسوار منيعة. فنزل صلاح الدين على الجبل الملتصق بها، ورماها بالمجانيق والسهام، ورغم شجاعة الحلبيين المشهورة؛ فقد أظهر حُماة القلعة التجلُّد والامتناع، حتى زحف المسلمون من منطقة وعرة حتى السور الأول حتى ملكوه، ثم ملكوا الأسوار الباقية وما اجتمع فيها من الدواب والذخائر، واحتمى الفرنج أخيراً بالقلعة حتى طلبوا في النهاية الأمان،

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ١٠.
(٢) الفتح القدسي: ص ٢٤٠.

حتى استسلم الحصن وسلَّمه صلاح الدين إلى من يعيد تحصينه القوي. .
وتفرَّق المسلمون يستولون على الحصون التي حوله.

وتوالى فتح الحصون بعد ذلك من قلعة بكاس إلى قلعة الشعر، وكان حصناً لا يرام، وقد يئس المسلمون منه، ولكنهم فوجئوا بطلب الأمان لحماته إن لم تصلهم النجدة خلال ثلاثة أيام؛ وسلَّموها لصلاح الدين في اليوم الثالث، ثم حاصر (سرمين) وفتحها وهدم الحصن، وكان فيه من أسرى المسلمين الجمّ الغفير، فأطلقهم بعد أن أعطاهم الكِسوة والنفقة. . وكانت هذه الفتوح كلها في ستة أسابيع، وهي جميعها من أعمال أنطاكية.

ورحل صلاح الدين من بعد إلى قلعة (برزية) مقابل حصن أفامية وبينهما بحيرة من ماء العاصي، وكان أهلها أضر شيء على المسلمين، يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى. . ولم يكن قتالها ممكناً أبداً من الشمال والجنوب؛ لأنَّ الجبال على الجانبين هاوية، وأما من الغرب؛ فالوادي مرتفع يسمح بوصول حجارة المجانيق والسهام. . وكانت النساء فيها يدافعن مع الرجال، فقسَّم صلاح الدين جيشه إلى ثلاثة أقسام تعمل على التوالي حتى يتعب الفرنج ويُسَلِّموا. . وهكذا توالى الزحف حتى ضعف الفرنج وأُنهِكوا قتالاً وحرّاً، فصعدت طائفة من الجيش المسلم من الجهة الأخرى، وملكوا الحصن عنوة، وكان الفرنج قد أخرجوا أسرى المسلمين من القيود والخشب إلى أعلى القلعة؛ فلما سمعوا تكبير المسلمين ألقى بعضهم بأيديهم إلى الأسر، وألقى بعضهم النار في منازلهم، وأُسر صاحب الحصن وأهله، فاشتراهم صلاح الدين، ولما بلغ أنطاكية أطلق سراحهم؛ لأن الزوجة كانت أخت زوجة بوهميند، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال»[1].

ثم فتحت قلعة (دربساك) بالقوة، وأُخرج مَنْ فيها بثيابهم إلى أنطاكية، ثم

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ١٥ ـ ١٧.

سار صلاح الدين إلى قلعة (بغراس) قرب أنطاكية فتسلَّمها بالأمان، وتسلَّم المسلمون قلعتها بما فيها وهدموها لقربها من أنطاكية، لكن المسلمين تضرَّروا بذلك؛ لأن ابن ليون صاحب الأرمن أعاد بناءها، فصار يغير منها على حلب. وعزم صلاح الدين على التوجُّه إلى أنطاكية، وخاف أميرها من الهزيمة؛ فأرسل يطلب هدنة، وبذل إطلاق الأسرى المسلمين عنده.. فمال أكثر الأمراء إلى القبول، وأقرَّ الهدنة معه على مضض ثمانية أشهر اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين الأول - سنة ١١٨٨ م. وكان صاحب أنطاكية يملك أيضاً إمارة طرابلس وليس أبرز منه في فرنج المشرق.

وعاد صلاح الدين إلى حلب ثالث شعبان ثم إلى دمشق بعد أن فرَّق العساكر الشرقية، فدخلها أول رمضان سنة ٥٨٤ هـ، وأُشير عليه بتفريق عساكر مصر؛ فقال: العمر قصير والأجل غير مأمون، وبيد الفرنج حصون كوكب وصفد والكرك، ولا بدَّ من الفراغ منها. وقد تمَّ بالفعل الاستيلاء على حصن الكرك بعد أن فنيت فيه الأزواد وأكل أهله آخر حصان عندهم، وسلَّم أهله بالأمان سنة ١١٨٨م. وبعد أشهر استسلم حصن الشوبك. وفي منتصف رمضان سنة ٥٨٤هـ - أكتوبر ١١٨٨م - مشى صلاح الدين من دمشق إلى قلعة صفد التي طاولت الحصار طويلاً؛ فنصب عليها المجانيق ليلاً ونهاراً، وخاف أهلها من إصراره مع نفاد الأقوات لديهم، فسلَّموا القلعة بالأمان وساروا إلى صور، وبقيت قلعة كوكب التي حاول الفرنج من صور نجدتها بمئتين من المحاربين، فوقعوا في أيدي المحاصِرين، وكان معهم مقدَّمان من الاسبتار. وتهدَّد أهل كوكب بالقتل والسبي، وزحف إليهم على دفعات متتالية بالنشاب حتى استسلموا في الخامس من يناير سنة ١١٨٩م - منتصف ذي القعدة -. وسيَّرهم إلى صور التي لم يبقَ غيرها على الساحل للفرنج مع طرابلس وأنطاكية. وسار صلاح الدين في عيد الأضحى إلى القدس، ثم أتمَّ سنة ٥٨٤هـ في عكا.

تمّت هذه الفتوح وتمّ تقليص الإمارات الصليبية في الشام إلى ثلاث مدن فقط مع بعض القلاع في فترة لا تزيد على ١٨ شهراً، ولم يكن ذلك راجعاً إلى كون صلاح الدين قائداً استراتيجياً عظيماً وصاحب خطط حربية مبتكرة؛ ولكن إلى أنه كان يملك جميع صفات القائد العسكري الشجاع والنبيل في وقت واحد.. شخصيته ومناقبه الخلقية هي التي مكّنته من جمع القوى حوله وتوجيهها إلى الهدف الذي آمن حتى الأعماق به. إنَّ استدراج العدو ـ كما جرى في حطين ـ والحصار الشجاع للقلاع، والقتال ٢٤ ساعة كل يوم بدفعات متتالية، واغتنام الفرص المناسبة؛ كانت من الأمور التي يعرفها جميع القادة قبله، ولكن ميزته الكبرى كانت في رعايته الدقيقة لمبادئه الخلقية، مما جعل أتباعه والأعداء على السواء يثقون به ثقة كاملة كما يثق هو نفسه حتى بعهود أعدائه؛ يضاف إلى ذلك أنه كان لا يستبدُّ برأيه أو كان من بساطة الطبع بحيث يترك للآخرين حتى مجال نقده، وكان يشاور أمراءه في كلِّ موقف ليكونوا هم أصحاب القرار معه عند تنفيذه؛ وكثيراً ما كانوا يغلبونه على قراره، وبصورة خاصة على إصراره بدوام الجهاد، فقد كان مأخوذاً بعقيدته الدينية لدرجة تشبه التصوُّف، وهذا ما جعله يتحمَّل أمراضه وآلامه الجسدية الممضَّة دون أن يشعر بها، فثمّت ما يشغله عنها. وصفاته الخلقية استطاعت أن تمسك قواته الخاصة دوماً ولعدة سنوات بجانبه، لكنها لم تستطع أن تتغلّب على مصالح وأهواء الأمراء الذين ضمهم إليه، وتُلزمهم بما ألزم نفسه به.

ولقد نشأ صلاح الدين على الحرب الهجومية، وتمرّس دوماً بها، وما عرف أبداً الحرب الدفاعية والمقاومة إلاّ مرة واحدة في أول عمره في الإسكندرية، وهي النوبة التي جعلته يتردد كثيراً في معاودة الذهاب إلى مصر.. صار الهجوم الحربي جزءاً من كيانه، ولذلك كان يحزن لتخاذل بعض أمرائه وطلبهم الراحة؛ لأنه هو نفسه لا يعرفها ولا يقرّها، وللدفاع أو المقاومة

أساليبها، ويبدو أنه لم يكن يتقنها لأنه ما كان بحاجة إليها، لذلك فشل حين فوجئ بها فيما بعد يوم نزلت به الحملة الصليبية الثالثة.

وصفاته الخلقية الخاصة به هي التي مكَّنته من الانتصار على تقليد عسكري كان متّبعاً منذ قرون في المشرق العربي وفي المغرب؛ وهو تسريح الجنود بعد كل معركة أو مهمة.. فقد استطاع ـ وهو يحارب الفرنج في المرحلة المقبلة ـ أن يمسك قواته الخاصة بجانبه تحارب ثلاث سنوات متتالية على عكا دون راحة؛ وكان صراعه مزدوجاً ضد الفرنج وضد هذا التقليد العسكري في وقت واحد، إلى أن انتصر هذا التقليد عليه في النهاية وأجبره على الهدنة.. وكان ثمن هذا النصر نكسات وكوارث عسكرية مع الفرنج وانتقادات مُرَّة من قوَّاده، وتراخياً في القتال حتى رضخ لمقتضياتها برغمه، رغم شجاعته وقوة إيمانه وقدوته الحسنة.

والذين يلومون صلاح الدين على ترك الفرنج يتجمعون في صور لا يسألون أنفسهم عن أمرين:

١ ـ أين يمكن أن يحشر الفرنج لو أُسروا، وليس تحت يديه أسطول ينقلهم إلى بلادهم؟.

٢ ـ ماذا كان يمكن أن يكون مصير المشرق العربي لو أخذ صلاح الدين صور بعد مطاولتها وحصارها، وترك ظهره غير محمي وأمين من القلاع الفرنجية حين نزلت بالسواحل الحملة الصليبية الثالثة؟.

ومن جهة أخرى فقد كان لعقيدته السنية دورها في تكوينه الروحي.. فالخلافة العباسية كانت قد أضحت في هذا العصر في مستوى من القداسة الروحية يعادل مستوى قداسة البابوية بالنسبة للفرنج الكاثوليك.. صحيح أن كل متمرِّد منذ القرن الثالث الهجري كان يقتطع من أرضها قطعة تكبر أو تصغر، ولكن نادراً ما استغنى أحد المتمرِّدين عن رضى الخليفة؛ لأنه بحكم استقرار

شرعيته خلال القرون صار مصدراً للشرعية عند كل مغتصب، وقد بلغ إيمان الناس بقدسيّة هذه الخلافة وخلودها درجة اعتبارها جزءاً من نظام الكون الإلهي. وحين سقطت بغداد بيد المغول بعد حوالي سبعين سنة من وفاة صلاح الدين؛ خشي الناس من انهيار النظام الكوني، ومن طلوع الشمس من المغرب.. فلا عجب إذا كان صلاح الدين على هذا الإيمان بها، وكان يوالي دون انقطاع الكتابة لها بكل أمر منذ خدمها الخدمة الكبرى بإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر.. وحتى وفاته كان يعتبرها شاهداً أمام الله بأنه قام بأوامره وعَبَدَهُ أكثر من غيره بالجهاد في سبيله، وكان لا يرى العبودية إلاَّ لذا المقام القدسيّ، ويَقْبَلُ عتبه ولومه حتى في بعض الأمور التافهة؛ لأنه يعتبره السلطة الأولى والوحيدة في العالم، ورضاها من رضى الله، ويعتبر فتوحاته لها إنما تتمّ ببركتها، ولقد عبَّر عن ذلك مرات عديدة؛ وفي كتاب فاضلي أرسله من حارم بعد فتحها، قال: «وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكفّ عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله؛ هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها؛ والله يعلم أنه لا يقاتل لعيش ألْيَن من عيش، ولا لغضب من نزَق أو طيش، ولا يريد إلاَّ هذه الأمور التي توسَّم أنها تلزم، ولا ينوي إلاَّ هذه النية التي هي خير ما يسطر في الصحيفة»[1].

فهو نموذج من البطولة، مزيج من النفس الطيبة، والخلق المتين، والورع الديني، والشجاعة المتناهية، والرحمة الإنسانية.

وفي أوائل صفر سنة ٥٨٥هـ (بعد سنتين وثلاثة أشهر من فتح القدس ومن كتاب العتب الذي أدرك الخليفة الناصر سعي الوشاة فيه، وعاد يواصل صلاح الدين بمنتهى الرضى.. وصل رسول خاص من دار الخلافة يبلغه كما هي العادة الجارية دوماً للخلفاء العباسيين مع أتباعهم وولاتهم البارزين بإعلان

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ٤٨.

الخطبة على المنابر لولي العهد الذي عيَّنه أبوه وهو عدة الدين أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر. . فابتهج السلطان بالرسول ضياء الدين ابن سكينة، فتلقَّاه يوم دخوله دمشق مع أولاده في يوم مشهود، وأعطاه العهد بذلك، وأمر بأن يخطب لولي العهد بعد أبيه على منابر مصر والشام وجميع دار الإسلام، وبأن يُنقش اسمه على السكة. . وخطب له بدمشق في ١٣ صفر، ونثر الدنانير على الناس، وندب لجواب الرسالة القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وسُيِّرت معه الهدايا والتحف مع تاج ملك القدس وأسارى الفرنج[1]. وقد جاءت الرسالة في ثلاث صفحات كلها تهنئة واستبشار؛ ومن جملة التهنئة إبلاغ الخليفة أن يطمئن إلى قيام صلاح الدين بواجب الجهاد إلى أن «يظهر الحق ببطلان الباطل ويغرق بحر المجر الجرار ـ جيش صلاح الدين ـ ما تخلف من ساحات الساحل، فلم يبقَ به من المدن المنيعة إلا صور وطرابلس ومعالم الكفر بهما في هذه السنة بعون الله تدرس. وأما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة الاتجاه؛ لأنَّها مأخوذة. وحدود العزائم عند انقضاء هدنتها مشحوذة. وقد خرج الخادم ـ يعني صلاح الدين نفسه ـ ليدخل البلاد ويستأنف الجهاد. . .».

---

(١) العماد الأصفهاني ـ الفتح القدسي ص ٢٧٨ وما بعدها؛ وانظر الخبر أيضاً عن ولي العهد لدى ابن الأثير يقول: «وفي صفر. . .»: ج ١٢، ص ٤٢. ومن المؤسف أن الباحث الذي استغلَّ الرسالة الأولى قبل سنتين وثلاثة أشهر، وأوَّلها على هواه؛ ألصق بها في الصفحة نفسها من كتابه ص ١١٦ هذه الرسالة رغم تباعدهما الزمني، وعاد إلى تأويلها التأويل نفسه، والتخمين من عنده لمضمونها رغم وضوح الرسالة كالشمس ووضوح الجواب عليها، وزعم أن فيها أشياء خطيرة فَضَّل العماد كتمانها. وأن هذه الأشياء تعود إلى إصرار الخليفة على إرسال جيشه إلى فلسطين، واستشهد على ذلك بما ذكرته الرسالة عن بقايا الفرنج بالساحل. وهو الواقع والحق، وأبدى له الهوى أن ذلك إنما كتب لتثبيط عزيمة الخليفة!! وليس من الأمانة التأويل والهوى مع وضوح النص، ولا القفز سبعة وعشرين شهراً فوق الأحداث لابتلاعها وتزوير مضمونها بالخيال.

وبعد أن أقام السلطان شهر صفر في دمشق خرج في ثالث ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ إلى بانياس ومرج عيون لاحتلال قلعة (شقيف أرنون) التي أخذ صاحبها مهلة ثلاثة أشهر لإخلائها، وكان خلال ذلك يراوغ السلطان مرة بعد مرة، حتى انتهت المهلة، فرماه بالسجن لامتناع حاميته عن التسليم، وقد تسلَّمه بعد سنة من ذلك بالحصار الدائم، وسار السلطان إلى صور، فرتَّب اليزك ـ الحرّاس المراقبين ـ حولها وانتهى إلى منطقة عكّا.

* * *



الحَمْلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ الثَّالِثَةُ

كانت سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م سنة القلق الأعظم بالنسبة لصلاح الدين؛ فالاحتفاظ بالمواقع أهم من الاستيلاء عليها. وإذا عادت القوى التي جمعها بعد حطين وفتح فلسطين، ثم بعد فتح الشمال إلى مصر من جهة، وإلى الشرق من الموصل والجزيرة من جهة أخرى؛ فإن القوى التي بقيت لديه في الشام كانت بدورها موزعة على حاميات المدن والقلاع المفتوحة.

ولم يترك له الفرنج مجالاً للراحة والهدنة كما لم يترك لهم، وكان ذلك طبيعياً من الطرفين؛ على أن الهزيمة المرة التي قاساها الفرنج بتقليص إماراتهم جعلهم يستنجدون بأوروبا كلها وبكل القوى الممكنة فيها. . وكانت صور هي رأس الجسر الباقي من مملكة بيت المقدس، فكانت أشد المدن استنجاداً، وكان تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين يهز لوحده أوروبا كلها، ويهز بالذات ملوكها وتجّارها بالإضافة إلى البابوية؛ فقد رأى الجميع في هذا الحدث خيبة لآمالهم في التوسع وفي التجارة وفي السمعة الدينية. . وكان أكثر ما آلمهم أن رئيس أساقفة صور(جوسياس) صار إلى البابا فشرح له الموقف وطلب النجدة والتدخل الفوري، ثم طاف أوروبا بصورة تمثل السيد المسيح مطروحاً وأحد العرب يضربه بالعصا ويسيل دمه، وقالوا للناس: هذا محمد نبي المسلمين يضرب المسيح وقد جرحه وقتله! وسَرَتْ هذه الدعاية في جميع الغرب.

كان البابا الذي سمع بسقوط القدس قد توفي حزناً (أكتوبر سنة١١٨٧م) وخلفه بابا آخر لم يبقَ سوى شهرين وتوفي، وخلفهما البابا كليمنت الثالث

الذي أسرع للاتصال بالملوك يهز حميَّتهم الدينية. . وكان وليام الثاني ملك صقلية النورماني أول من استجاب للدعوة، فعقد صلحاً مع أعدائه البيزنطيين (مارس سنة ١١٨٩م / صفر سنة ٥٨٥هـ)، وبعث يطلب إلى ملوك أوروبا التضامن معه، وبادر إلى إرسال الأسطول وعليه بضع مئات من الفرسان، وهو الأسطول الذي لقي قائده صلاح الدين وهو في اللاذقية. . . لكن مبادرة النورماني هذه لم يكن لها غد فقد شغل بعد ذلك بتعقّد علاقاته مع بيزنطة؛ وانتهت مشاركته في إنجاد الصليبيّين بهذه المساعدة البحرية، وبجعل بلاده لفترة قصيرة محطة للحملة الأوروبية القادمة.

وصلاح الدين خشي أن يكون هذا الأسطول مقدمة لحملة صليبية كبرى فحاول أن يكون ليناً رفيق الكلام مع قائده وليام البرنديزي حين قابله، وربما كان ذلك من أسباب مهادنته المحدودة لأنطاكية. وحين عاد إلى دمشق لم يهدأ لأنَّه أراد أن يحمي ظهره كاملاً قبل الانصراف إلى صور، وقد تسلم الحصون المستعصية الباقية بالفعل حتى مطالع ١١٨٩ م. . لكن الفرنج المتجمعين في صور كانوا في هذه الفترة قد وردتهم الكثير من الإمدادات في الرجال والسلاح، وأهم من ذلك وصلتهم الوعود البابوية بأن ملوك أوروبا قادمون لنجدتهم؛ وهذا ما جعل مقاومتهم أشد ضراوة وعنفاً لصلاح الدين حين عاد إليهم. وفيما كانت أوروبا كلها تضطرب حماسة للهجوم على المشرق واسترجاع القدس، كان صلاح الدين يحاول عبثاً بجنده فتح صور، التي أصبحت تعج عجيجاً بالسلاح والرجال، وكان روح المقاومة فيها هو الكونت كونراد دي منتفرات الطامع بعرش المملكة، ولهذا لم يقبل أن يسمح لغي لوسنيان ملك القدس، حين أطلقه صلاح الدين من الأسر أن يدخل المدينة، فبقي ستة أشهر في نواحي طرابلس بمعسكر بعيد عنها يجمع بعض القوى حوله ليقف بوجه الزعيم الجديد مونتفرات! ثم اصطلح الاثنان على الاشتراك في قتال صلاح الدين وترك مسألة القرار بالعرش للبابوية وملوك أوروبا القادمين. . وهكذا قرروا الخروج من صور التي ضاقت بهم لحصار عكا.

كان صلاح الدين قد عهد بإعادة تحصين عكا وتزويدها بالسلاح والمؤن إلى خادمه بهاء الدين قراقوش، الذي جعلها مع قلعتها وسورها تحفة معمارية منيعة، وجلب ـ بأمر صلاح الدين ـ المقاتلة إليها، والأسطول من مصر إلى مينـائها. وقد خرج الفرنج في رجب سـنة ٥٨٥هـ/ أغسطـس سـنة ١١٨٩م، وسارت مراكبهم معهم بحذائهم في البحر، ولم يؤخذ صلاح الدين على غرة بمقصدهم إلى عكا، فقد كان اليزك(الطلائع والحرس) التي تركها عند صور قد نبهت حامية عكا لتكون على استعداد.

ونزل الفرنج على عكا من البر والبحر يحاصرونها بأعداد كبيرة (رجب سنة ٥٨٥هـ / أغسطس ١١٨٩م) وكان رأي صلاح الدين مقاتلة الفرنجة أثناء تحركهم نحـو عكا، لأنهم إن وصلوا إليها لصقـوا بأرضها، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم إلا إذا وصلوا إلى عكا بحجة أن الطريق التي سلكها الفرنجة وعرة وضيقة ولا يسهل قتالهم فيها، للإجهاز عليهم دفعة واحدة. ورغم ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة كمائن على شـكل عصابـات من البدو تتخطفهم أثنـاء سـيرهم، لكنهم تابعوا المسـير حتى عسكروا أمامها من البر والبحر، وانقطع اتصال الجيش الإسلامي بها.

وكـان صلاح الدين قد كتـب يسـتدعي عسكره المتفرق أمـام أنطاكيـة وطرابلس وصور وعلى سواحل مصر في الإسكندرية ودمياط مع أخيه العادل، فجاءه منهم الأعداد الغفيرة ثم جاء جند الشـام والجزيرة، وطوَّق بهذا الجند الطوق الفرنجي لعكا؛ فكان الفرنج بين حامية المدينة وبين الجند الصلاحي.. يقول العماد: «وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب فإنَّ نزالهم عند نزولهم صار أصعب، وقد نزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر». وقـامت المعارك سجالاً مع الفرنج كل يوم، وقد كانت تحتدم في بعض الأيام احتداماً كبيراً، ومن أهم المعارك تلك التي أراد المسلمون فيها إدخال المدد من الرجال والعتاد إلى عكا، فحملوا على الفرنج حتى أزاحوهم عن الأسوار وأدخلوا بعض

الأمراء وأعداداً كبيرة من الجيوش القادمة من مصر إليها تشد أزرها، وبالمقابل قام الفرنجة قبل وصول بقية الأمداد من مصر بهجمة على المسلمين هزموهم في أولها حتى وصلوا إلى خيام الملك العادل وإلى خيمة صلاح الدين وقتلوا من حولها؛ ولكن السلطان صاح في عسكره: ياللإسلام! وكرَّ معهم على الفرنج الذين هُزِموا، وتناولتهم حامية عكا بالسهام من خلفهم فتشتتوا متراجعين. ويؤكد العماد الأصفهاني أن قتلاهم في تلك الموقعة كانوا عشرة آلاف، وقد عُرِفت هذه المعركة بالوقعة الكبرى (٢٠ شعبان). . . واستدعى صلاح الدين الأسطول من مصر للمرابطة في ميناء عكا ورقابة البحر.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان من رأيه الإجهاز على قوة الفرنج قبل أن ينفتح البحر ـ على حد قوله ـ فإن أمراءه الذين بدأت بوادر الشتاء والبرد تزعج جندهم، أقنعوا صلاح الدين بتوسيع حلقة الحصار للفرنج لينتشروا فلا يتكاثفوا على الأسوار؛ فازداد الانقطاع بينه وبين حاميتها بهذا الانتشار.

وفيما كان هذا يجري حول عكا كان صلاح الدين يواصل الاتصال بامبراطور بيزنطة وبسلطان سلاجقة الروم وبسلطان الموحدين في المغرب، وقصده من هذه الاتصالات المعونة واستغلال المودة خوفاً ممن قد يأتي من نجدات الغرب عن طريقي البر والبحر. . **فأما بيزنطة**: فقد كان امبراطورها قد هنَّأ صلاح الدين بعد حطين، ولعله كان يطمع في الإشراف على الأماكن المقدسة، فقد أرسل إليه الهدايا، وحين عرف بتحرك الألمان للمجيء إلى الشام بادر بإبلاغ صلاح الدين، وهو على عكا، صيف سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٨ م بهذا التحرك، ووعد بألاَّ يمكِّنهم من العبور ببلاده، ووافق على فتح جامع القسطنطينية والخطبة فيه للخليفة الناصر، ثم أرسل سفارة أخرى سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٨٩ م يبلغ بوصول الألمان إلى بلاده وعدم تمكنه من إيقافهم لكثرتهم[1].

---

(١) ذكر هذه السفارات ابن شداد في النوادر: (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦)؛ وأبو شامة: ج ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

وأما سلاجقة الروم فقد كان سلطانهم قلج أرسلان الثاني بن مسعود غارقاً في المتاعب مع أبنائه الذين قسم ملكه بينهم، وقد حالف صلاح الدين، ولكن تقارب بيزنطة عدوته الأولى مع صلاح لدين جعلت هذا التحالف غير ذي معنى، ومحور دمشق ـ بيزنطة جعله يقبل الألمان حين وصلوا أراضيه ويتفق معهم ويساعدهم على المرور؛ مما أثار غضب صلاح الدين.

وأما سلطان الموحدين أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدي، فقد تبادل مع صلاح الدين رسالتين إحداهما في شعبان سنة ٥٨٦ هـ[(١)]، ولكن هذا السلطان كان غاضباً من صلاح الدين، لأن أحد مماليك ابن أخيه واسمه قراقوش التقوي هاجم برقة وطرابلس الغرب ثم تونس، وكان تقي الدين عمر مولاه يأمل في إقامة ملك له هناك، وفشل المشروع؛ ولم يكن الموحدون في الوقت نفسه يدينون ـ كصلاح الدين ـ للخليفة العباسي، ويعتبرون كل الملوك ـ عدا سلاطينهم ـ كفاراً[(٢)] غير موحدين، ولهذا لم يقم السلطان بأي عمل لمنع أو لإيقاف سيل السفن الفرنجية بما تحمل من الجند والسلاح إلى الشام.

وفيما كان الفرنج يعملون على حفر خندق حول عكا من البحر إلى البحر ويُخرجون من السفن ما حملوا من آلات الحصار، وصل خبر تحرك الألمان إلى صلاح الدين عن طريق الامبراطور البيزنطي وعن طريق التجار البنادقة في الإسكندرية الذين أهملوا المصالح الصليبية للمحافظة على مصالحهم التجارية. ولا شك أنه لم يكن يعرف حين وصله الخبر أولاً حجم هذه الحملة، ولا يعرف بالطبع حجم الحملات التي سوف تتلوها، فأقام على عكا يطاول المحاصرين لها، ولم يكن يخلو يوم من موقعة معهم، واستدعى صلاح الدين من مصر

---

(١) نجد إحداها لدى القلقشندي في صبح الأعشى: (ج ٦ ص ٤٦ ـ ٥٣ و٣٣٩) دون تاريخ؛ ونجد الثانية لدى أبي شامة: ج ٢، ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢) انظر: رحلة ابن جبير ص ٥٢ وما بعدها؛ و(المعجب) لعبد الواحد المراكشي ص ٢٨٤.

خمسين شينياً من المراكب الحربية الكبيرة، وعلى ظهرها عشرة آلاف بحار مصري بقيادة لؤلؤ الشيخ الذي تصيَّد مراكب أرناط في البحر الأحمر. وأمر بتعميد أسطول ثان ليرود بذلك كله البحر ويقطع خطوط تموين الفرنج، وقد استولى الأسطول مرة على خمسة مراكب إنكليزية وطريدة، وعمل على تموين عكا وحاميتها بالمؤن بالبطسات ـ وهي سفن من عدة طبقات ـ وبقلوع كثيرة تصل إلى أربعين قلعاً. وتأخرت الأزواد مرة من الإسكندرية فعمل صلاح الدين بطسة في بيروت وألبس رجالها ملابس الرهبان ورفع أعلام الفرنج عليها حتى دخلت ميناء عكا سالمة. واستخدم الحمام الزاجل في المراسلات مع الحامية، كما استخدم الغواصين لإيصال الأموال إليها، ومنهم الشهيد عيسى الغواص.

وإذا برع الفرنج في ابتكار بعض آلات الحرب ومنها الأبراج المتحركة والكباش وآلة الزنبرك بطول الذراع والتي ترمي بأسهم سريعة نافذة؛ فإن عسكر المسلمين كانو يرمون بالجرخ ويعدد من الأسهم من قوس واحدة، ويرمون على الأرض قطعاً حديدية مثلثة بأحجام مختلفة كالألغام لإعاقة حركة الفرسان، ويستخدمون النفط الأسود ـ الزفت ـ بكثرة (وهو من جبل على البحر الأحمر) والنفط الطيار الآتي من العراق، ويرمونه من قوارير أو قدور كالقنابل المحرقة، وصارت منجنيقاتهم دقيقة الرمي جداً.

في هذه الأثناء (وفي حوالي أبريل أول مايو من سنة ١١٩٠م/ جمادى الأولى سنة ٥٨٦هـ) وصل صلاح الدين من امبراطور القسطنطينية: أن ملك الألمان وصل في أواخر مارس (آذار) في عدد هائل من الرجال والخيل بقصد العبور إلى بلاد الإسلام. وأنه في ٣٠٠ ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرَّع. وكتب إليه مقدَّم الأرمن وهو في قلعة على الفرات يبدي تنصُّحاً وإشفاقاً، ويصف من هذه الحملة الألمانية ما يُرْعِب. وانتشر الخبر وشمل المسلمين في الشام خاصة هلع عظيم.. . فأرسل صلاح الدين العيون والجواسيس إلى الأناضول، وأرسل في الوقت نفسه إلى ديوان العزيز (دار

الخلافة) في بغداد مع القاضي ضياء الدين الشهرزوري يبلغها الخبر، ويرجو تحرك الخليفة لنجدته. وقبل أن يعود هذا الرسول بلغه أن ملك الألمان اجتاز البوسفور، واعتذر امبراطور القسطنطينية إلى صلاح الدين بأنه لم يستطع منعه.. كما بلغه أن سلطان السلاجقة لم يقف في وجهه، بل إن الألمان دخلوا قونية في ١٨ مايو سنة ١٦٩٠م، وأن السلطان اتفق معهم على معونتهم، وأرسل معهم الأدلاء ليجتازوا الطريق إلى الشام. فعاد صلاح الدين مرة أخرى فأرسل رفيقه القاضي بهاء الدين بن شداد إلى بغداد، والتقى الرسولان الذاهب والعائد في حلب، فغضب الشهرزوري وقال: إنه بلغ المراء واستجدى وأجاد واستكمل للعِدَة الاستنجاز، فما هذا الرسول الرائح، وإذا اختلف الحديث حدث الاختلاف. وما هذا العجل؟... فصدقه الملك غازي صاحب حلب، وكتب بذلك إلى والده، ووصل ضياء الدين الشهرزوري مغتاظاً، وأبلغ صلاح الدين أن «الشغل قد فرغ، والمقصود قد بلغ، والسؤل قد أجيب.. فكن للإمام يكن لك، واقبل أمره ليقبلك...» فماذا كان الأمر؟.

«جمع السلطان أمراءه على المشورة وأوقفهم على المعنى والصورة، وقال لهم: قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزوري بشهرزور واستدعيت عسكره المنصور، وربما قدم إلينا الحضور فيكمل لنا النصر والسرور. فقالوا: هذا رأي رائب وأمر عنه الصواب ناء، وكيف تَعِدُ الإمام بما لا يقرن بوفاء، وكيف ينجز هذا الوعد ودونه إيحاش من هو في طاعتك، فكنت تبذل ما يدخل في استطاعتك. أما صاحب الموصل طلبها فمنع؟ وصاحب أربل عنها دفع؟ ومملوكك بها لما يجاوره خائف وكل إيوائي لحدها وحقها حائف؟ وما من هؤلاء إلا من بذل عنها أموالاً وأحوالاً، والتزم من الجنود والنقود أنجاداً خفافاً وحمولاً ثقالاً، وإذا عرف أنك أخرجتها لمن له الأمر (أي الخليفة) دخل عليه الضر، وملك مالك الأمر ضرهم وأبدوا في انقطاعهم عنك عذرهم، وانقطع الواصل وارتفع الحاصل، وما جاءنا من المذكورين فارس واحد، ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد. أما هذا بكتمر في خلاط قد جمع الأخلاط

وجهر بالعداوة، وأقام على الغباية والغباوة. فقال السلطان: «الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد، فكيف شهرزور، وسيحدث الله بعد الأمور الأمور. . .».

وكان صلاح الدين قد علم برغبة الخليفة الناصر بتوسيع إمارته فوعده تقرباً منه في إعطائه شهرزور وكان يرغب بها. فلما عاد ضياء الدين الشهرزوري إلى بغداد وجد أن ابن شداد أخفق في سفارته وقيل له: جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيِّره، وننديه فيما نتخيره[1]. وكان الخليفة الناصر يطمح في هذه الفترة إلى توسيع إمارته. فلما قبل صلاح الدين بإعطائه شهرزور عاد الشهرزوري في ١٦ ربيع الأول ومعه رسول دار الخلافة بالنجدة والعارفة والرحمة وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام، فتلقاه السلطان بالاحترام والإكرام، واحتفل بوصوله، وتلقَّاه الأمراء على الترتيب ثم إخوة السلطان وأولاده واحداً بعد واحد، ثم ركب السلطان إليه وعانقه وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلاً. . فماذا كانت النجدة؟.

وصل معه حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطي، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار؛ فاعتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه رد التوقيع (أي المال) وقال: «كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين وعارفته، ولقد نعشني ما شملني من عاطفته، ولعل الله يوفقني للقيام بالفرض ويغنيني عن الالتزام بالقرض. . .»، وأركب الرسول مراراً، وأراه مَبَارِك النزال، ومعارك القتال. . .[2].

(١) العماد ـ الفتح القدسي: ص ٣٢٢ حتى ص ٣٢٤ ومرة أخرى اجتزأ (الباحث الأمين) من هذا الأمر جميعه بكلمة «كن للإمام يكن لك واقبل أمره يقبلك» وفسرها على أنها أيضاً وأيضاً إصرار من الخليفة على المجيء إلى الجهاد في فلسطين، وإصرار من صلاح الدين على الرفض. ولله في خلقه شؤون.

(٢) الفتح القدسي: ص ٣٦٥ ونسأل هنا: أهذا هو الخليفة الذي يريد أن يأتي إلى فلسطين=

كان الامبراطور الألماني فريدريك، المعروف بلقب بربروسا ـ أي ذي اللحية الشقراء ـ وهو في طريقه إلى الشام، من الأناضول؛ قد أرسل كتاباً إلى صلاح الدين ـ على طريقة الفروسية ـ يدعوه إلى تسليم الأراضي المقدسة، فرد عليه صلاح الدين برسالة مؤداها أنه سيقاتله أقسى القتال إلا إذا جنح للسلم؛ فإنه يسهل لحجاجه زيارة بيت المقدس، ويسمح لمندوب له بالبقاء فيه.

ولمّا وصل جيش الامبراطور أراضي سلاجقة الروم كانت أحوال هذه السلطنة مضطربة وقد تقسمت بين أبناء السلطان، واختلفت ردود الفعل أمام الألمان بين مختلف القوى في السلطنة، مما أقام لهم الكثير من المتاعب مع وعورة الطرق وقدوم فصل الشتاء والثلوج وندرة الزاد حتى احتاجوا إلى أكل الدواب؛ في الوقت الذي كانت فيه قبائل التركمان تتناوش هذا الجيش وتهاجمه. وقد حاول الابن الأكبر للسلطان الوقوف في وجههم، فهزموه على باب عاصمة السلاجقة قونية، ودخلوها في ١٨ مايو سنة ١١٩٠م، وكانت حيرة السلطان واضحة بين رفض الألمان كما رفضهم أعداؤه البيزنطيون وبين قبولهم والتعاون معهم، وقرَّر طلب الأمان من الامبراطور بربروسا بعد أن أحرقوا أسواق قونية ونهبوها.. وعندئذ بعث الامبراطور بهدية إلى السلطان وقال له رسله: ما قصدنا بلادك وإنما قصدنا بيت المقدس. فاتفق معهم الاتفاق الذي وصفه العماد الأصفاني بأنه: «حادث كارث فاجع لأهل الحميَّة والدين» وبمقتضاه يمد السلطان الجيش الألماني بالأدلَّاء وبالرهائن ليعبروا إلى الشام، بعد أن كان قبل أشهر فقط يَعِدُ بالوقوف في وجهها برسائل متعددة منه ومن أولاده، ثم انقطعت أخباره منذ أواخر الشتاء حتى شهر أيار سنة ١١٩٠م، وكان في عزم صلاح الدين ـ رغم شائعات التخويف والأراجيف ـ إرسال العساكر الإسلامية إليه لتساعد جنده، وانتظر طويلاً حتى عرف انقلابه عليه، وأن

= للجهاد ويمنعه صلاح الدين.. وهذه هي معونته: كمية من النفط، وعشرون ألف دينار بالدين؟ ما كنا نقف على هذا لولا الافتراء.

الألمان أرفقوا بعشرين أميراً سلجوقياً غدر بهم الامبراطور. وتوسطوا بلاد الإسلام، وأنهم على قصد الشام.. فازداد الهلع لدرجة أن حامية قلعة بغراس هربت.

وتحدث المؤرخون عن تلك الفترة بعبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ بالشام أمام ضغط الألمان وما سمع من قدوم الفرنسيين والإنكليز الوشيك[1] وقال ابن الأثير: «لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنّا أنه ليس لنا بالشام مقام...» ولو وصلوا «لكان يقال: كانت هذه بلاد الإسلام»، وبلغ من الجزع أن الجيوش الصلاحية المقيمة على عكا أخذت في الانسحاب حسب أمره، وهي جيوش أمراء الشام، فقد صمم صلاح الدين على البقاء بنفسه على عكا مع الجيش المصري بقيادة أخيه؛ فأول من سار ناصر الدين محمد بن الملك المظفر صاحب منبج، ثم عز الدين ابن المقدم، ثم مجد الدين بهرامشاه صاحب بعلبك، ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر، ثم الياروقية إلى حلب، ثم رحل الملك الأفضل مريضاً، ثم بدر الدين والي دمشق، ثم الملك الظاهر صاحب حلب؛ لاضطرابها في غيبته حتى غلت الأسعار وخلت الأماكن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة وكان آخر من سار.

ورتب صلاح الدين العساكر الباقية ثم وقع المرض في الفرنج والمسلمين وكثر الموت والوباء، وهدأت المعارك قليلاً حول عكا. ورأى صلاح الدين الاحتياط فأمر بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وهدم أسوار صيدا وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت[2].

---

(١) الفتح القدسي: ص ١٩٦ ـ ١٩٧ وفيه تفاصيل كثيرة، أما رغبة الخليفة في توسيع إمارته فقد سجلها ابن الأثير في عدة أخبار ومنها أخذه عانة على الفرات، وتكريت شمال بغداد؛ وحربه الفاشلة لأخذ همذان (انظر: ج ١٢، ص ٥٨، ٤٢، ٢٤).

(٢) انظر أبا شامة: ج ٢، ص ١٥٦؛ وانظر في هذا كله ابن الأثير: ج ١٢، من ص ٣٢ حتى ص ٤٤.

وكتب صلاح الدين بتطورات الموقف إلى خليفة بغداد وقال في ختامه: «وقد تعيَّن الجهاد على كل مسلم وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملمّ غير مؤلم، والاهتمام بدفعه من أهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه... (كان هذا في حزيران أو تموز/ يونيو، يوليو سنة ١١٩٠ م) وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه...»[(١)].

ويبعث صلاح الدين بكتب مماثلة إلى سلاجقة الشرق، وكان انفراد صلاح الدين بالعبء وحده هو الواقع ما دام الجيش الألماني قادماً إلى الشام، ولم يكن لدى الخليفة ما يساعد به صلاح الدين سوى حملين من البترول، ومثلهما من الرماح، وعشرين ألف دينار رُدَّت إليه، وقبض ثمن ذلك شهرزور؛ على أن مفاجأة غير منتظرة قلبت الموقف، فقد وصل الامبراطور الألماني بقواته إلى منطقة بلاد سيس، وهي إمارة أرمنية مسيحيّة جمعها صاحبها الذي يعرفه المسلمون باسم ابن ليون أو لاون (ليون الثاني) على الحدود الجنوبية من الأناضول من مجموعة من القلاع، وتعاونت مع الفرنج دوماً ضد المسلمين،

---

(١) الفتح الشامي: ص ٢١٧ ـ ٢١٨، ويأبى الباحث الذي ذكرناه من قبل إلا أن يشم من هذه الكلمات الأخيرة أن صلاح الدين يثبط همة الخليفة، ويلحق ذلك بذكر رسول صلاح الدين إلى بغداد بهاء الدين ابن شداد بمهمة إقناع الخليفة بعدم إرسال جيشه إلى فلسطين مما أغضب الخليفة وجعل الرسول يذم صلاح الدين على ما قدَّمه وأن يقول: «كن للإمام يكن لك...»، ولم يكن أمر الخليفة إلا دخول جيشه إلى فلسطين (!) وهكذا جمع أمراءه وجعل الرفض منهم لا منه، وتظاهر بالقبول وهو يضمر التمرد... إلخ.
فأين هذا من النصوص؟ وأعجب ما في الأمر أنه ينتقل من هذا الكلام (وهو في أواسط سنة ١١٩٠ م) رأساً إلى كتاب صدر عن صلاح الدين بعد سقوط عكا في يوليو/ تموز سنة ١١٩١م، فيسرد ما ذكره صلاح الدين فيه بعد سنة كاملة من الكتاب السابق من أسباب سقوطها وتخاذل الأمراء وملل الجيش وإنهاكه ليعلمه العجز عن الحرب، ويثبط همته (وسوف نرى الرسالة فيما بعد).

وأخذ أمراؤها منهم المعونة والألقاب، وقد حاربهم صلاح الدين وأجبرهم على السكون، فلما وصل الألمان رحبوا بهم، وبعث ابن ليون إلى صلاح الدين يهدِّده بهم وبقوتهم بعد أن وعده الامبراطور الألماني بلقب ملك؛ والغريب أن بطريرك الأرمن بعث في الوقت نفسه إلى صلاح الدين يخبره بأمر الألمان، ولعله كان سيحتاط للمستقبل.

لكن الأوبئة أخذت هذا الجيش الجرار، وفتكت به فتكاً ذريعاً قبل أن يصل حدود إمارة أنطاكية. وكان حزم الامبراطور هو الذي يمسك هذا الجيش ويجمعه، واتفق أن كان يعبر نهراً قوي التيار على معبر واحد، وتدافع عليه وازدحم، فأراد الامبراطور العبور من مكان آخر فدلُّوه على مخاضة سريعة الجريان فخاضها، ولكنه كان عجوزاً مُسِنّاً، فوقع به حصانه في الماء واصطدم رأسه بالشجرة على المجرى، فجرح جرحاً بليغاً ما لبث أن لفظ بسببه أنفاسه؛ وإذا بالجيش كله يضطرب ويتفرق شَذَرَ مَذَر، واختلَّ نظامه.. فبعضه عاد إلى ألمانيا، وبعضه تاه في الدروب الجبلية. وبعد هذا التمزق والوباء لم يبقَ منه إلا القليل الذي جمعه ابن الامبراطور المعروف بفريدريك سواب، فقاد الفلول التي جمعها حتى وصل أنطاكية، فيما كان الشاردون صيداً هيِّناً لأمراء المسلمين في الشمال وعلى الدروب وللأسر وأسواق النخاسة، وبقدر الرعب الذي أخذ الناس فيهم كانت الجرأة عليهم والاستهانة بجماعاتهم المتفردة لدرجة جعلت المؤرخ ابن واصل يصفهم بأنهم (ركاب الحمير وحَمَلَة العصا)، وذاب هذا الجيش الضخم ذوبان الثلوج، وطمع الأمير الأرمني بأخذ أموال الملك لمرض ابنه وضعفه، فلما جاء أنطاكية كان يحمل جثة أبيه في جرة نبيذ ليدفن في القدس، وضاق به أمير أنطاكية بعد أن رفض أن يعاونه على مهاجمة حلب؛ ولو أنه طمع بدوره أن يموت الابن المريض عنده فيأخذ ماله.. ولكن فريدريك سواب فضَّل المسير إلى عكا؛ وتعرضوا في الطريق الساحلي لمختلف الهجمات والإهانات، فلم يصل معه سوى ألف، ولم يستطع ابن الامبراطور أن يفعل شيئاً للفرنج وقرر ركوب البحر إلى بلاده، ولكن لعنة القدر لحقت به

فغرقت بهم المراكب في الطريق. . . وانتهت ملحمة الصليبيّين الألمانية بأبشع الشؤم، في حين تَنَفَّست البلاد الإسلامية كلها الصعداء. . .[1].

غير أن الحملة الصليبيّة الثالثة لم تكن في الواقع قد ظهر منها إلاَّ جانب واحد، وكان لها جوانب أخرى؛ وإذا تبخرت الحملة الألمانية كالضباب، فقد كـان لها جناحان آخران يتكونـان في فرنسـا وفي إنكلترا، ويعمل البابا على جمعهما:

فبعد أن نجح كليمنت الثالث ـ البابا ـ في تحريك فريدريك بربروسا، تحول إلى ملك إنكلترا هنري الثاني، وملك فرنسا فيليب أوغسطس؛ أرسل أولاً إليهما جوسياس أسقف صور بلوحته الدعائية، وكانت بينهما حروب طويلة وعداء عميق الجذور يمنعهما من الاشتراك معاً في أي عمل ولو كان لتحقيق مصلحة دينية عليا، وقد استجاب كل منهما على حدة لدعوة البابا وجوسياس، وكانا على حدود نورمنديا من مطالع سـنة ١١٨٨م (أواخر سـنة ٥٨٣هـ سنة حطين)، فوعدا بالتحرك معاً إلى المشرق؛ لكنهما أهملا التنفيذ، بل عادا إلى الحرب من أجل ملك نورماندیا التي تحتلها إنكلترا (يونيو/ حزيران سـنة ١١٨٨م) ثم ما لبث الملك الإنكليـزي أن توفي، فخلفه ابنه ريتشـارد المعروف بقلب الأسد.

وفي صيف سنة ١١٩٠م رجب سنة ٥٨٦ هـ أبحر الملكان: واحد من مرسـيليا والثاني من جنوا ـ وهما على الخلاف ـ على رأس جيوشهمـا إلى المشرق؛ لكنهما قضيا الشتاء في صقلية (سبتمبر ١١٩٠م حتى مارس/ آذار سنة ١١٩١م). واصطبغت هذه الحملة الثالثة إذن بما فيها حملة بربروسا بالصبغة الفردية دون تعاون بين القوى، ووقع خلاف بين جند الطرفين في صقلية جعل الملك الفرنسي ينطلق بمفرده إلى ساحل الشام في أسطول صغير لا يتعدى ستة مراكب حربية وكأنه في نزهة صيد حاملاً معه بازاً. . ووصل صور في ٢٠ أبريل

(١) الفتح الشامي: ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

نيسان سنة ١١٩١م (ربيع الثاني سنة ٥٨٧ هـ)، ورحب به كونراد دي منتفرات، ثم صحبه إلى الجيش الفرنجي المحاصر لعكا.

وكان لوصول فيليب رد فعل عنيف لدى الفرنج والمسلمين، ففيما ابتهج الصليبيون وفرحوا بوصوله إذا بالمسلمين يحسبون ألف حساب لتدخله.. وكان عظيماً عندهم، ومن ملوكهم الكبار؛ وعلى الرغم من أن القوة التي أتى بها لا تتفق مع سمعته الضخمة، فقد كانت أعداد وجماعات كثيرة من بلاده ومن غيرها قد سبقته في الانضمام إلى الفرنج في صور وأمام عكا.

ولم يشأ فيليب أن ينتظر وصول ريتشارد فبدأ بمهاجمة عكا على الفور، وقاموا بعمل آلات الحصار والأبراج المتحركة، وبقذف المدينة قذفاً متواصلاً ليل نهار، وردموا الخندق بجثث الأموات وجيف الخنازير والدواب التي نفقت[١]. أما ريتشارد ـ الملقب بقلب الأسد ـ فاضطر إلى أن يحارب ملك صقلية بسبب مشكلة عائلية. ثم حملت الرياح أسطوله إلى جزيرة قبرص وكان حاكمها إسحاق الثاني قد استقل بها عن البيزنطيين والفرنج، فاستقبله بالعداء لميله إلى المسلمين ضدَّ أوروبا، فنزل بها وطلب نجدة من فرنج الساحل ليحارب القبارصة، فأنجده الملك غي ببعض القوى. وحين طلب إسحاق الصلح غدر ريتشارد به واستولى على الجزيرة وأعلن نفسه ملكاً لها.. ومنذ ذلك الوقت أدرك الإنكليز والفرنج أهمية الموقع الاستراتيجي لهذه الجزيرة بين القارات الثلاثة، فكانت جسراً لكثير من الحملات الصليبية، وقاعدة ومركزاً للصليبيّين في الاعتداء على سواحل مصر والشام، وكانت مركزاً لذيول الحملات الصليبية بعد طرد الصليبيين من الشام.

ثم سار ريتشارد بأسطول كبير يبلغ خمساً وعشرين شينية كأنها القلاع إلى صور، فلم تسمح له حاميتها بدخولها حسب تعليمات دي مونتفرات، لذلك لم يجد بداً من الاتجاه إلى سهل عكا، وزاد ذلك في حرج الموقف الإسلامي

(١) أبو شامة: ج ٢، ص ١٨٤.

جداً؛ سواء منه موقف المحاصرين ضمن المدينة أو صلاح الدين الذي يطوق الفرنج من الخارج (في ٦ يونيو / حزيران سنة ١١٩١ م).

كان المسلمون قد قضوا حتى الآن أمام عكا سنتين، وهم في معارك لا تنقطع، بعد أن كانوا قد قضوا سنة وبعض السنة ما بين حطين وفتح القدس وفلسطين ثم فتح شمال الشام (من أوائل مارس/ آذار سنة ١١٨٧ حتى يونيو سنة ١١٩١م / محرم سنة ٥٨٣ ـ جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ، تخللها راحة الجند في شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨م/ سنة ٥٨٣ ـ ٥٨٤هـ).

بطولة صلاح الدين كانت في أنه استطاع كسر التقليد العسكري السائد منذ قرون وإبقاء جيش حوله دائم الحركة والحرب لمجرَّد الولاء الشخصي له ومحبته، وفي أنه استطاع بالقدوة والشجاعة والإخلاص للمبدأ والجهاد أن يرفع سوية التسلح الخلقي لدى هذا الجيش إلى درجة كانت الجيوش المسلمة في المشرق قد نسيتها منذ زمن طويل.

ولم يكن ثمَّة توازن فيما بين قواه الثابتة أثناء هذه السنوات ـ والتي كانت تتموَّج في أعدادها حسب أهواء الأمراء المشاركين معه ـ وبين الفرنج الذين جاءتهم في هذه الفترة نفسها بجانب قواهم الفرنجية المحلية خمس نجدات ضخمة انضمت إليهم وفيها كتل القوى من قارة كاملة:

ـ نجدة كونراد مونتفرات أولاً التي أنقذت صور وحملت مقاومتها.

ـ نجدة الكوندهري (الكونت الكبير هاري).

ـ نجدة الملك الفرنسي فيليب أوغسطس.

ـ نجدة الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد.

ـ نجدة الدانمرك التي أوجدت (وهي في الطريق إلى المشرق) دولة البرتغال.

يضاف إليها المجموعات المتفرقة من المتطوعين ومن النسوة المتطوعات الذين كانوا يقدمون على دفعات كبيرة وصغيرة متوالية خلال

السنوات الأربع، كما يضاف إلى ذلك: أساطيل أمالقى والبندقية وبيزا وجنوا والمدن الإيطالية، ويضاف أخيراً السدة البابوية المحركة في روما، ولم يكن هناك نسبة بين قوتها في أوروبا وقوة الخلافة العباسية في بغداد من ناحية النفوذ الديني وتحريض الجموع على الجهاد. يقول ابن الأثير: «وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده (حد تجنيد النساء)، فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فج عميق»[1]. ولا ننسى أخيراً أن موارد الأخشاب في الغابات والمعادن المختلفة في القارة الأوروبية كلها كانت تصب في هذه الحروب، بالإضافة إلى أن التجنيد في فرنسا وإنكلترا صار في هذه الفترة ذاتها إلزامياً، فقد فرضت فيهما ضريبة عشرية على من لا يشترك من الرعايا في الحرب الصليبيّة للاستعانة بريع هذه الضريبة على سدّ نفقات الحرب ضد المسلمين، وقد أطلق على هذه الضريبة اسم: عشور صلاح الدين. «فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء».

لهذا كانت المعارك حول عكا والتي دامت ثلاث سنوات نموذجاً لبطولة صلاحية ـ إسلامية معاً تخللها من الوقائع الكبرى والصغرى ما يعادل عدد أيامها. وقد بدأت هذه المعارك المتصلة اعتباراً من خروج الفرنج من صور، فقد كان عزمهم على المسير أولاً إلى صيدا، وخرجوا وقامت بينهم وبين اليزك (الحرس) حرب شديدة عنيفة أسر فيها جماعة منهم، وقتل سبعة من مشهوريهم، وعجز الفرنج عن الوصول إلى صيدا، فعادوا. وتورط بعض المتطوعة ظناً منهم أن صلاح الدين خرج للقتال فأوغلوا في أرض العدو فحمل عليهم الفرنج، ولما عرف السلطان بذلك حمل في عسكره فدحرهم فتزاحموا على الهرب فوق جسرٍ لنهر الليطاني فغرق في الماء نحو مئة مدرع منهم وعادوا إلى صور. وفي وقعة ثالثة وضع صلاح الدين كمائن لمسيرة الفرنج على الطريق إلى عكا، وأمر مَنْ يستدرجهم إليها بالانسحاب، وأَنِفَ المسلمون في

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٣٣.

المعركة أن ينسحبوا وطال على الكمين الانتظار فخرجوا ليجدوا أصحابهم في المعركة، وكان فيهم أمراء من ربيعة ومضر يجهلون تلك الأرض، ففتك بهم الفرنج.

كانت صور قد ضاقت بالفرنج باطنها وظاهرها وهذا ما شد معنوياتهم ودفعهم بسبب الضيق للخروج إلى عكا. ورأى صلاح الدين حربهم على الطريق فلم يطاوعه أمراؤه.. وحين وصلوا عكا وخيموا في سهلها الضيق استطاع تقي الدين عمر أن يزيحهم عن السور ويصل الطريق إلى المدينة «ولو أن المسلمين لزموا القتال إلى الليل لبلغوا ما أرادوه، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا للراحة وتركوا القتال وقالوا: نباكرهم غداً»[1]. ودخل جملة من الأمراء إلى عكا لمساعدة الحامية.

و ندم الفرنج على ما فرطوا بالأمس فبدؤوا بحفر خندق من البحر إلى البحر حول أسوار عكا.. وكانت بعد ذلك الوقعة الكبرى، إذ قال الفرنج: هذا هو الحال وصلاح الدين لم يحضر فكيف إن حضر؟ وكان كثير من عسكره موزعاً على الحاميات من شمال الشام إلى دمياط والإسكندرية. وأصبح المسلمون الموجودون على عادتهم منهم من يتقدم للقتال ومنهم من يتشاغل عنه، فخرج الفرنج كالجراد المنتشر يدبُّون على الأرض قد ملؤوها طولاً وعرضاً، وهاجموا ميمنة الجيش وعليها تقي الدين عمر، فلما رأى صلاح الدين ذلك ـ وهو في القلب ـ أمده برجاله، فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب حملوا عليه حملة رجل واحد فاستشهد جماعة من الأمراء؛ ولم يبق في القلب من يردَّهم، فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين، وقتلوا هناك جماعة أخرى

(١) وتفاصيل هذه المعارك نجدها لدى ابن الأثير: ج ١٢، ص ٢٩ فما بعد. ويبدو أن هذا المؤرخ الذي حضر فتوح شمال الشام مع صلاح الدين، وحضر بعضاً من حصار عكا، كان يكتب ذلك بشكل مذكرات له، ثم وضعها مكانها من مؤلفه الكبير (الكامل)، ولذلك سوف نتابعه في ترتيبها ووصفها.

وانحدروا عنه يضعون السيف في من لقوه، ثم نظروا وراءهم وخافوا قطع طريق العودة عليهم، فحمل المسلمون على المتراجعين، ووقف صلاح الدين ينادي في الجند، فتكاثروا من كل جانب فسيطروا على الموقف وأخذوا الفرنج قتلاً وأسراً، وكان في من أُسر مقدم الداوية الذي كان صلاح الدين قد أطلقه بعد أن استحلفه، فقتله.

وكانت عدة قتلى الفرنج في هذه الواقعة نحو عشرة آلاف، فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب منه الفرنج، وكان عامة القتلى من الفرسان، وكان فيهم عدد من النساء، كما كان في الأسرى كثيرات منهن. واتفق أن بعض جند المسلمين ظنوا الهزيمة ففروا في اتجاه طبرية والأردن، ونهب أوباش العسكر وغلمانه متاعهم، فلما جاءهم الصريخ بالواقع وعادوا ووجدوا أنهم نُهِبوا، أمر صلاح الدين بإعادة ما نُهب «فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعِيَب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك، فرد الجميع إلى أصحابه»[1].

وجافت الأرض من نتن ريح الجثث وفسد الهواء «وانحرف مزاج صلاح الدين نفسه وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده، فأشار الأمراء بالانتقال عن الموضع بسبب ضيقه، وأنه لو تفرق الفرنج كان ذلك أسهل للنيل منهم بدل تكاثفهم. «ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد ولو وقع إرجاف لهلك الناس، والرأي على كل تقدير في البعد عنهم، ووافقهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه؛ فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان، وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله».

«فلما رحل أَمِنَ الفرنج وانبسطوا في الأرض وعادوا فحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ومراكبهم أيضاً من البحر تحصرها، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه، وكان اليزك كل يوم يواقفهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون. إنما هم مهتمون بعمل الخندق

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٣٩.

والسور. . . فحيئذ ظهر (خطأ) رأي المشيرين بالرحيل. . .»[1]. وكان اليزك يبلغون صلاح الدين بما يجري وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها لمنعهم من الخندق فقال: إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجو من الخير، وتأخر الأمر إلى أن عوفي[2]، فتمكن الفرنج مما أرادوا.

مشكلة صلاح الدين كانت مزدوجة أو مثلثة:

١ ـ فإنه اعتاد الحرب الهجومية ولم يتمرس بالحرب الدفاعية، وكان يقودها من قلب عكا وهو خارجها.

٢ ـ أن الحرب حول عكا تحولت إلى حرب خنادق وليس إلى ميدان معركة فيها الكر والفر، وصلاح الدين مع جيشه لم يتمرس بحرب الخنادق الثابتة.

٣ ـ أن هذه الحرب طالت سنتين على الأقل، وجيش صلاح الدين ككل جيوش المشرق الأخرى، لم يعتد الحرب الطويلة، ولكن الحرب في معركة محددة؛ أما المطاولة في حرب مستمرة فقد دفعت الجيش الإسلامي والصليبي إلى الملل. ويذكرون أن بعض الجنود من الطرفين تصادقوا. . وقد برز طفل مسلم لآخر فرنجي عند الخنادق فصرعه المسلم وأخذه أسيراً فافتداه أصحابه.

وقد كان لهذه العوامل أثرها الواضح في معركة عكا وفي نتيجتها السيئة.

وعلى أي حال ففي منتصف شوال وصلت العساكر المصرية وفيها الكثير من السودان السمر بقيادة الملك العادل أبي بكر، فقويت به النفوس، ومعه من آلات الحصار الشيء الكثير، وجمع صلاح الدين من رجَّالة الشام عدداً كبيراً وهو على عزم الزحف، ووصل بعده الأسطول المصري ومقدمه لؤلؤ، ووقع

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٤٠.
(٢) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٤١.

بغتةً على بطسة كبيرة للفرنج فأدخلها عكا وفيها أموال كثيرة[1].

وفي صفر من سـنة ٥٨٦هـ/ مارس سنة ١١٩٠م سمع الفرنج بخروج صلاح الدين للصيد ورأوا اليزك قليلاً والأرض موحلة فخرجوا من خندقهم عصـراً، فقامت معركـة قتـل فيها من الفريقين جماعـة كثيـرة. ولما عـاد صلاح الدين وكان الشتاء قد ذهب، وجاءته عساكر الشام من دمشق وحمص وحماة فتقدم بها إلى عكا، فقاتل الفرنج ليشغلهم عن عكا وهم يقاتلون على الجانبين لا يسأمون. «وعمر الفرنج بعد ذلك ثلاثة أبراج من الخشب طول كل برج في السماء ستون ذراعاً، وعملوا كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة، وقد جمعوا أخشابها من الجزائر (أوروبا) فإن مثل هذه الأبراج لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغَشَّوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها وقدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا في العشرين من ربيع الأول فأشرفت على السور، وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها فأشرف البلد على أن يُملك عنوة وقهراً. . فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنساناً سبح في البحر فأعلمهم ما هم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وقاتلوا الفرنج قتالاً عظيماً دائماً من جميع جهاتهم، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا؛ إلا أن الأمر قد خف عمن في البلد، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر، وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً. . والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا عجز من فيه عن دفع الأبراج، فإنهم لم يتركوا حيلة إلا وعملوها، ولم يغن ذلك عنهم شيئاً، وتابعوا رمي النفط الطيار فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده!.

ذلك أن رجلاً من أهل دمشق كان مولعًا بجمع آلات النفاطين وتحصيل

---

(١) ابن الأثير: ج١٢، ص٤١.

عقاقير تقوِّي عمل النار، وكان مولعاً بذلك. . وحضر عند الأمير قراقوش وهو متولي الأمور بعكا، وطلب أن يأمر بإلقاء ما يعطيه من الدواء من المجانيق ليحرق الأبراج، واستهان قراقوش بالعرض، ولكنَّ مَنْ حضره قالوا: لعلَّ الله يجعل الفرج عل يديه، فصنع عدة قدور وطلب إلقاءها وفيها خليط من المواد لا تحترق، فكان الفرنج يصيحون ويرقصون لفشلها وهي تغسل بدن البرج، ثم أعطى في القدر الأخير ناراً تحترق، فما أن وصلت البرج حتى التهب كله وأحرقت من فيه بطبقاته الخمس وأعجلتهم عن الهرب، وكان خيراً من السلاح والدروع بكثير. . فهرب من في البرج الثاني والثالث، واستبشر المسلمون، فليس فيهم أحد إلا وله من البلد قريب أو صديق، وجيء بالرجل بعد ذلك إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال: «إنما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلا منه»[1]. وسُيِّرت الكتب حتماً إلى دار الخلافة بالبشائر.

وأرسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية، فأتاه أول من أتى عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والجزيرة، ثم علاء الدين ولد عز الدين بن مسعود صاحب الموصل، ثم زين الدين يوسف صاحب إربل، ووصل الأسطول من مصر؛ فلما سمع الفرنج بذلك جهزوا أسطولاً ليلقاه، فركب صلاح الدين في العساكر جميعاً وقاتلهم على جهاتهم ليشتغلوا به ويتمكن الأسطول من دخول ميناء عكا، «وكان القتال بين الفريقين براً وبحراً وكان يوماً لم يؤرخ مثله. . . ووصل الأسطول الإسلامي سالماً».

نجدة الكندهري:

وفي هذه السنة (سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) في العشرين من جمادى الآخرة، خرج الفرنج في عدد لا يحصى وقصدوا عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل،

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٤٧.

واقتتلوا ودخل الفرنج خيامهم، فتوجه المصريون إلى خنادقهم وقطعوا المدد عنهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة يزيد ضحاياها على عشرة آلاف[1]، وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر، فشاركوا في النيل منهم، ولم يشارك في القتال أحد من الحلقة الخاصة مع صلاح الدين ولا من الميسرة.. وفيما كان الصلاح يريد مباكرتهم وهم في هذا الهلع وصله من حلب كتاب يخبر بموت ملك الألمان وبما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة. واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن القتال، وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم الخبر ازدادوا وهناً وخوفاً؛ فلما كان بعد يومين أتتهم الأمداد من البحر مع كند (كونت) كبير من الكنود البحرية يقال له الكندهري، ابن أخي ملك الفرنسيين لأبيه وابن أخي ملك إنكلترا لأمه.. ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء، فجنَّد الأجناد وبذل الأموال، فعادت نفوسهم فقويت واطمأنت، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا وحفظوا مكانهم، وأظهروا أنهم سيخرجون للقتال؛ فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة(في ٢٧ جمادى الآخرة) ليتسع المجال.. وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى.

ثم إن الكندهري نصب منجنيقاً ودبابات وعرادات، فخرج مَنْ بعكا فأخذوها وقتلوا عدداً من الفرنج، وأراد أن ينصب منجنيقاً فلم يتمكن لأنَّ المسلمين بعكا كانوا يحولون بينه وبين عمل ستائر لرماة المجانيق، فعمل تلاً من تراب على مبعدة من البلد. وكانوا ينقلون التل الى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين، وصار التل ستراً لهم. وكانت الميرة قد قلَّت بعكا، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمر بإرسال الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا، فتأخر إنفاذها، فسير إلى نائبه في بيروت فسيَّر بطسة عظيمة

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٥١.

مملوءة من كل ما يريدونه» وتنكر من بها بملابس الفرنج ورفعوا الصلبان، ولما وصلوا عكا لم يشك الفرنج أنها لهم، فلم يتعرَّضوا لها، فلما وصلت ميناء عكا فرح بها المسلمون وانتعشوا وتبلَّغوا بما فيها حتى وصلت ميرة الإسكندرية[١] .

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحي الإسكندرية، ووصل الفرنج كتاب من البابا بأن يصمدوا لأنه أمر جميع الفرنج بالخروج براً وبحراً لنجدتهم. ولما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجنَّد لهم الكندهري جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه؛ عزموا على مناجزة المسلمين، فتركوا على عكا مَنْ يحصرها، وخرجوا (١١ شوال) في عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرةً؛ فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين بعيداً عن عكا، وكانت فرق عساكره التي أرسلها لحماية الشام من الألمان قد عادت، فلقي الفرنج بجميع عسكره؛ لكن أصابه مغص يعتاده فألزمه خيمته، وشاهد الفرنج كثرة المسلمين، فارتاعوا وأمطرهم الشاليشة بالسهام التي سترت الشمس ، فتحولوا وتوقفوا. . ثم عادوا في اليوم التالي إلى خنادقهم، والشاليشة في أكتافهم، فكانوا يخفون قتلاهم «فلولا ذلك الألم الذي حصل بصلاح الدين لكانت هي الفيصل»[٢] .

«ثم قَلَّت الأزواد لدى الفرنج، وغلت الأسعار حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مئة دينار؛ فصبروا على هذا. وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام؛ منهم الأمير أسامة مستحفظ بيروت، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من صيدا، وكذلك من عسقلان وغيرها. . ولولا ذلك لهلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم لهياج البحر[٣] .

«ولما هجم الشتاء وعصفت الريح خاف الفرنج على مراكبهم لأنها لم تكن في الميناء، فسيروها إلى صور والجزائر (بلادهم) فانفتح الطريق إلى عكا

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٥٣.
(٢) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٥٤.
(٣) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٥٤ ـ ٥٥.

في البحر؛ وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والسأم، فأمر بإقامة البدل وإنفاذه إليهم وإخراج مَنْ فيها، ونزل تحت جبل حيفا يراقب التنفيذ، فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون! وكان الداخلون أقل، وأهمل نوّاب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم؛ وكان على خزانة ماله قوم من النصارى فأقاموا العقبات للمتطوعين، فتفرق خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه، وإهمال النواب؛ فانحسر الشتاء والأمر كذلك.. وعادت مراكب الفرنج إلى عكا، وانقطع الطريق إلا من سابح في كتاب[1]. كان هذا في أول سنة ٥٨٧هـ، وكان جماعة قد أشاروا بإبقاء الحامية وتزويدها بالنفقات الزائدة والذخائر والأقوات، ويأمرهم بالمقام لأنهم مجرِّبون، فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل مما يحملهم على العجز.

وكان صاحب إربل قد حضر عنده ثم توفي (٨ رمضان) فاختار أخوه الانصراف دون إذن وصلاح الدين مريض، وأعاده تقي الدين عمر من جنوب حوران، ولكنه مع ذلك انصرف بعد قليل.

وفي مارس سنة ١١٩١ وصل لإمداد الفرنج ملك فرنسا فيليب أوغسطس (٢ ربيع الأول) وكان صلاح الدين يركب كل يوم للقتال، وأرسل إلى الأمير منقذ مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وشحنها بالمقاتلة ليمنع خروج الفرنج من عكا، فسيَّر إليه في البحر فصادفت خمس مراكب مملوءة بالرجال من أصحاب ملك إنكلترا قد سيرهم بين يديه وتأخر في قبرص ليملكها، فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوا ما فيها من المتاع والرجال[2]. وكتب صلاح الدين بمثل ذلك إلى نوابه القريبين.

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٥٥.
(٢) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٦٤.

أما الفرنج فلازموا عكا ونصبوا عليها سبعة مجانيق (٤جمادى الأولى) فلما رأى صلاح الدين ذلك تحوَّل بجيشه فاقترب منهم، وكان يقاتلهم من وراء خندقهم ليخف القتال عن أهل البلد. ثم وصل ملك إنكلترا ١٣ جمادى الأولى، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي منه المسلمون بالبداهية التي لا مثيل لها[١]. ولما علم صلاح الدين بذلك جهز بطسة كبيرة مملوءة بالرجال والأقوات والعدة، وسُيِّرَت من بيروت وفيها ٧٠٠ مقاتل، فلقيها ملك إنكلترا مصادفة، فقاتلها وصبر مَنْ فيها، فلما أيسوا نزل مقدمها يعقوب الحلبي ويعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقاً واسعاً وغرق بمن فيها وما فيها لئلا يأخذها الفرنج[٢].

وكانت عكا محتاجة للرجال، وقد عمل الفرنج دبابات زحفوا بها وكباش، فأحرق المسلمون بعضها ثم خرجوا يقاتلون خارج البلد وأخذوا الكباش، فلما رأى الفرنج كل ذلك لا ينفعهم عملوا تلاً من التراب مستطيلاً وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار التل على نصف غلوة فكانوا يستظلون به، ولم يكن للمسلمين معه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فعظمت المصيبة، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع.

وفي يوم الجمعة (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ / ٢٣ تموز سنة ١١٩١م) استولى الفرنج على مدينة عكا، وكان أول وهن دخل على الحامية. . فشل المشطوب وعدة من الأمراء في بذلهم تسليم البلد بالأمان فرفض ملك فرنسا ذلك، فعادوا متخاذلين؛ ثم إن أميرين هربا من عكا في الليل ومعهم غيرهم، فزاد الناس ضعفاً على ضعف. وأرسل الفرنج إلى صلاح الدين في تسليم البلد فأجابهم على أن يطلق من أسراهم بعدد مَنْ في البلد، وأن يسلمهم صليب

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) المصدر السابق ج ١٢، ص ٦٥.

الصلبوت، فلم يقنعوا وطلبوا إعادة مملكة القدس إلى ما كانت عليه قبل حطين! فأرسل إلى حامية عكا أن يخرجوا في حملة واحدة، ووعدهم التقدم من الجهة التي يخرجوا منها فشرعوا في ذلك، واشتغل كل منهم باستصحاب حاجاته، فلما فرغوا كان الصبح قد أسفر وفشل المشروع.. وعجز الناس عن حفظ البلد، في حين زحف الفرنج بحدِّهم وحديدهم، ووقف المسلمون على السور يلوحون بأعلامهم علامة الخطر، فضج المسلمون بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج ظناً منهم وصلاح الدين في أولهم يحرضهم بقصد إشغالهم عن دخول البلد؛ لكنهم اتجهوا إليها، وكان المسلمون ينزلون عليهم في خنادقهم، فوقع الصوت، وعاد الفرنج ومنعوا المسلمين[1].

ورأى المشطوب أن الهجمة لم تفد، فخرج إلى مونتفرات وقرر معه تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم على ذلك مئتي ألف دينار وخمسمئة أسير وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيز (دي منتفرات) صاحب صور. فأجابوه لذلك وحلفوا له عليه، وأن تكون مدة تحصيل المال والأسرى شهرين، وسمع صلاح الدين بذلك فأنكره إنكاراً عظيماً وعظم عليه الأمر[2]، وما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر على البلد[3].

فسلم إليه البلد ودخلوه سلماً، فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم فحبسوهم بحجَّة انتظار ما وعدوا به، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب.. فشرع بجمع المال وكان لا مال عنده، إنما يُخرج ما يصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول.. فلما اجتمع عنده مئة ألف دينار استشار الأمراء فأشاروا بألا يرسل شيئاً حتى يستحلفهم على إطلاق

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٦٧.
(٢) ابن شداد: ص ١٦٣.
(٣) أبو شامة: ج ٢، ص ١٨٨.

أصحابه ويضمن ذلك الداوية لأنهم أهل دين، فرفض الداوية أن يحلفوا؛ وقال الملوك: إذا سلمتم لنا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار في من عندنا. فأدرك صلاح الدين الغدر فلم يرسل شيئاً. . وعلم الناس من المفاوضات أنهم يريدون إطلاق غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يقرب له، ويحتفظوا بالأمراء وذوي الأموال للمغالاة في فدائهم.

وركب الفرنج (في ٢٧ رجب سنة ٥٨٨هـ تموز (يوليو) سنة ١١٩٢م) وخرجوا إلى ظاهر البلد، وركب المسلمون وقصدوهم، فانكشفوا عن موقعهم، وإذا أكثر ما عندهم من المسلمين قد قُتِلوا صبراً واستبقوا الأمراء والأغنياء؛ فتصرف صلاح الدين بالمال وردَّ الأسرى والصليب إلى دمشق[١].

كان لسقوط عكا بيد الفرنج رنة الفجيعة العظيمة، لا بسبب أهميتها التجارية والاستراتيجية، ولكن بسبب ما قدر المسلمون أنه سوف يتبعها من المصائب، ولهذا كان الدفاع الشرس والشديد الطويل عليها من المجاهدين. وقد ذكر ـ وهو شاهد عيان[٢] ومن المكان الذي يطلع به على كل شيء ـ أن قطعة من سور عكا وقعت (في ٢٧ ذي الحجة) وسد المجاهدون ثغرتها بأنفسهم حتى بنيت؛ وأن بعض الفرنج لجؤوا من الجوع إلى السلطان فأعطاهم السلطان مركباً، فهجموا به على مركب للفرنج وغنموا ما فيه وأتوا به إلى صلاح الدين فأعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيئاً؛ وذكر عدداً من الوقائع في الأشهر الأولى من سنة ٥٨٧هـ وذكر أن المركيز (دي مونتفرات) استشعر من ملك الإنكليز فهرب من عكا إلى صور، ولحقه بعد سقوطها ملك فرنسا، وذكر بدء المفاوضات؛ على أن أهم ما ذكره هو موقف صلاح الدين في تلك اللحظات أو الأيام الحرجة التي سبقت تسليم المدينة فهو يقول:

«لم يزالوا بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ويثقلوا أحجارها حتى خلخلوا

---

(١) ابن شداد ص ١٥٣ ـ ١٦٣.
(٢) المقصود: المؤرخ ابن شداد.

سور البلد وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم، حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن. ولما أحس العدو بذلك شرعوا (في الهجوم)... وعلم السطان بذلك بإخبار من شاهده وإظهار العلامة التي بيننا وبين البلد ـ وهي دق الكوس ـ فركب وركب العسكر بأسرهم... ووعدهم ورغّبهم وزحف على خنادق القوم (فدخلها) وكان **كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب ويحث الناس على الجهاد**، وينادي بنفسه يا للإسلام! وعيناه تذرفان بالدمع. وكلما نظر إلى عكا وما حلَّ بها من البلاء اشتد في الزحف والحث على القتال، **ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة**، وإنما شرب أقداح مشروب كان **يشير به الطبيب**... ولما هجم الليل عاد إلى الخيمة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، فنام...».

وعاود الكرَّة نفسها في اليوم التالي وفي هذا اليوم، وبعد أن كانت تصله كتب حامية عكا بالصمود؛ جاءه منها أن قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد (٨جمادى الآخرة) إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا. وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار أمراء العسكر وشجعان الإسلام... وأصاب السلطان من ذلك ما لم يصبه شيء غيره، وخيف على مزاجه التشوش، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً...

فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم، فصاح في العساكر واشتد الزحف، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم، فإن رجالة الفرنج وقفوا كالسور المحكم بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، ومعهم النساء

المحاربات. . . وتمكن الفرنج من سور البلد فنقبوه وأشعلوا النار فيه وسقطت منه بدنة» وخرج القائد المشطوب يفاوض على التسليم، فرفض ملك الفرنسيس، فأجابه: ما نسلم حتى نقتل جميعاً. وانقطع التفاوض، لكن البلد كان قد أشفى على الاستسلام لشدة هجمات الفرنجة، وكان صلاح الدين يوالي القتال وضرب الكوسات ليلاً ونهاراً، وهو كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب ويحث الناس على الجهاد.

وهرب من البلد بعض الأمراء، وسجن صلاح الدين من قبضه منهم، وأراد صلاح الدين الهجوم وطمر الخندق، فتخاذل الأمراء عن ذلك وقالوا: نخاطر بالإسلام كله ولا مصلحة لنا في ذلك. ووردت كتب من البلد بأنهم قد بايعوا على الموت ولا يسلمون البلد وهم أحياء! لكنهم في الوقت نفسه فاوضوا العدو على الخروج بالأمان مقابل صليب الصلبوت وأسرى بعدد حامية عكا ومئتي ألف دينار مع ١٤ ألفاً للمركيز الذي تولى المفاوضة، وأثناء المفاوضة وصل كتاب الحامية بعجزها عن الحفظ والدفع، ويقينها بأن البلد سيؤخذ عنوة بما فيه من الآلات والسلاح. **ولما وقف السلطان على كتبهم أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر** وجمع أرباب المشورة **فاضطربت به** آراؤه وتقسم فكره وتشوش حاله، **وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام في البحر وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه**. وهو في مثل هذا الحال، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد (ظهر الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ) وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد الحزن. . . وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه. وأقشعت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على ذلك. . . وجرَّ على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه. . . ». « ومثلت بخدمة السلطان وهو **أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى**، فسلّيته

بما تيسَّر وأذكرته الفكر في بلاد الساحل والقدس»[1].

وزاد من اللوعة منظر ثلاثة آلاف أسير حولتهم الفرنجة إلى أشلاء صرعى، فقد هجم المسلمون عليهم فانهزموا.. وانكشف من ورائهم صعيد واسع على تل البياضية جمع فيه الفرنج الأسرى مكتوفين بالحبال وقتلوهم بالسيوف صبراً وبالرماح، ولم يبقوا إلا من تأملوا بفدية كبيرة له؛ فتحطمت قلوب الناس لهذه المذبحة الهمجيّة والغدر السافر! وأبى صلاح الدين أن يرد على هذه الوحشية بمثلها فيقتل من كان لديه من أسرى الفرنج.. وانقطعت المفاوضة معهم وأُلغي الاتفاق السابق وعاد القتال...

في هذه الفترة بدأ الخلاف بين الفرنج، فأهل عكا الأصليون منهم طالبوا بمنازلهم وأموالهم، والجدد الذين فتحوا عكا أرادوا الاستئثار بكل شيء من الأموال والغنائم؛ ونزاع (دي مونتفرات) مع ملك القدس (غي لوسينيان) عاد إلى الظهور، واتسع بدخول قلب الأسد على الموضوع وتأييد لوسينيان (الذي أنجده بقوة على قبرص) في حين أيد الملك الفرنسي مونتفرات. وعقد الجميع مع أمرائهم مجلساً (٢٧ يوليو/ تموز ١١٩١م) لم يسفر عن شيء، وهرب مونتفرات إلى صور ثم لحق به فيليب أوغسطس الذي ما لبث أن اعتذر بالمرض وغادر صور (٣ آب/ أغسطس) إلى أنطاكية تاركاً المشكلة للملك الإنكليزي... وهناك غلبه المرض فتوفي.

ورأى هذا الملك أن يستفيد من الوقت والجند فيستولي على الساحل الجنوبي للشام، فخرج بجيشه الكبير بعد أن أمر الأسطول بمرافقته على سيف البحر، واتجه إلى حيفا ثم قيسارية وأرسوف ويافا. كان جيش صلاح الدين خلال هذه المسيرة دائم المعارك معه يناوشه ويضرب ساقته ويتخطف رجاله، ويتحيَّن فرصة وصوله إلى ميدان واسع للهجوم وإقامة معركة واسعة معه.. وبعث صلاح الدين بعض الأمراء يتقصَّون المواضع، لا سيما حين عرف أنه

(١) ابن شداد: ص ١٦٨ ـ ١٧١.

يقصد عسقلان! وهي عقدة الطريق مع مصر. كانت قلة المؤن لدى ريتشارد وشـدة الحرارة الرطبـة (أواخر آب/ أغسـطس) وخراب البـلاد والقـرى ترهق جنده، بالإضافة إلى الهجمات الصاعقة التي تنزل عليه، فبقي يلازم ساحل البحر، وأخذ قيسارية وهي خراب، ونازله المسلمون في المعركة، وأُصيب ريتشارد فيها بجروح وكاد يؤسر لولا أن افتداه بعض أمرائه، وقتل كونت كبير من جنده اسمه الكند جاك، فبعث يطلب المفاوضة على أساس إعادة مملكة القدس، فرفض طلبه، وإنما قبلت فكرة المفاوضة لأن صلاح الدين كان ينتظر وصول نجدة من جنوده التركمان.

وفي أرسوف كانت موقعة (٧ أيلول سبتمبر) كاد الفرنج ينتصرون فيها بفضل ثبات ريتشارد، ولكن صلاح الدين فوَّت عليه النصر الكامل فيها. ويعتبر مؤرخو الغرب معركة (أرسوف) نقطة تحول في تاريخ الصليبيات، لأن ميزان القوى بعد أن كان في جانب المسلمين منذ سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م بدأ يصبح متوازناً أو يميل لصالح الفرنجة. «وكان في قلب صلاح الدين من هذه الواقعة ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى.. والناس بين جريح الجسد وجريح القلب».

قسم ابن شداد هذه المرافقة العدائية للجيشين ما بين عكا حتى عسقلان إلـى ١١ منزلـة حسـب انتقال صلاح الدين من منزلـة إلى أخرى، وهو يراقب فرصة من الجيش الفرنجي، وما من منزلة إلا وذكر فيها ما وقع من مجالس التشاور ومن الهجمات على الفرنج ومن الأسرى وكبار القتلى من الطرفين؛ كأنما كان يكتب مذكراته.. وسجل كل تعبئة للجند على الطريق وكل حدث، وذكر من تكتيك الفرنج أنهم قسموا أنفسهم ثلاثة أقسام: الأول مع الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة، والانكتار والفرنسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة كبرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة وعلَمهم يسير أيضاً في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة». وكان النشاب ينزل عليهم كالمطر فلا يجيبون عليه ولا يتأثرون

بسبب الزرديات، ويرمون خيول المسلمين وخيالتهم. فكان قسم الرجالة عن الطرفين والخيالة في الوسط فمتى تعب المقاتلة وأخذتهم الجراح من جانب المسلمين حل محلهم القسم المستريح الذي يمشي على جانب البحر. . .[1].

هم يحفظون نظامهم حفظاً عظيماً[2] وفي شعراء أرسوف (أي عند شجرها الملتف) كانت معركة أرسوف[3] (١٤ شعبان سنة ٥٨٧هـ/ ٥ سبتمبر ١١٩١م) وكان المسلمون سبقوهم إليها فحملوا عليهم حملة منكرة وألحقوهم بالبحر، ودخله بعضهم فقتل كثير منهم؛ لكن فرسانهم حملوا على المسلمين حملة رجل واحد فانهزموا، وقتل منهم خلق كثير، والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنها هزيمة تبعوهم، وظنوها مكيدة، فعادوا؛ وقتل من الفرنج كند (كونت) كبير، ومن المسلمين. . وكانت قد وصلت الملك الإنكليزي نجدة من عكا من ثماني بطس كبار، فازدادت قوتهم بها، ثم وصلوا يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين وهي مهدمة، فملكوها.

كانت هذه الهزيمة كسراً لمعنويات الجيش الإسلامي الذي انسحب إلى الرملة وألقى بأثقاله هناك، وجمع صلاح الدين الأمراء فيما يفعل، فَقَرَّ رأيهم على أن العدو لا بد سائر إلى عسقلان، وقالوا: قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يقاتلوننا فينزلوا عليها، وإذا كان عدنا إلى ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا؛ لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا»[4].

وتذكر صلاح الدين في تلك اللحظات كيف كان يدور بين الأطلاب في أرسوف ومن الميمنة إلى الميسرة والنشاب فوقه، وكيف فر قلب الجيش فراراً

---

(١) ابن شداد: ص ١٧٥ ـ ١٨٦، وبخاصة ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٧٠.

(٤) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٧٠.

عظيماً وانهزمت الميسرة والميمنة معاً، وليس معه ثابتاً سوى ١٧ مقاتلاً لا غير مع الأعلام، ودق الكوسات حتى اجتمع إليه خجلاً منه جماعة تماسكوا.. وكيف عاد بالأسى يسليه بهاء الدين بن شداد فلا يقبل السلوى، وظلل عليه بمنديل، فسأله أن يطعم شيئاً فتناول شيئاً يسيراً... تذكر صور الأمس فسأل نفسه ما العمل؟ «وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس من جريح الجسد وجريح القلب». ومضى يومان وهو في كل يوم يضرب الكوسات وينظم جيشه للقتال فلا يخرج الفرنج، ثم أحدق بهم ورمى عليهم بالنشاب ما كاد أن يسد الأفق حتى يخرجوا فيحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم فسبقهم وبات في منزلة العوجا، وعرف من جواسيسه أنهم ربما أقاموا في يافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد، فقد كان ريتشارد يخشى الاندفاع نحو القدس من الداخل أو نحو الجنوب في عسقلان قبل أن يجد له قاعدة قوية على البحر أقرب من عكا لتلقّي النجدات من البحر.

وأحضر السلطان أرباب مشورته فكان رأيه الدفاع عن عسقلان، فلما انصرفوا من عنده علم أن عدداً منهم اجتمعوا وقالوا: إن أراد حفظها فليدخل معنا إليها أو بعض أولاده الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد.. وأصابه من ذلك جرح عميق في هيبته وفي مقاومته للأساليب العسكرية السائدة، ولم يجد وسيلة سوى تخريب المدينة ما دام لا يمكن الدفاع عنها؛ لئلا يستولي عليها الفرنج وهي عامرة فيقطعوا الطريق بين مصر والشام ويأخذوا بها القدس! وفوجئ صلاح الدين بالقرار فقد صدمه؛ لكنه علم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيماً بها.. وحين يكون الخيار بين عسقلان والقدس فالحكمة تقضي بحفظ القدس وادخار القوة في عسكر الإسلام لحفظها.

هكذا أمر بتحرك الثقل في نصف الليل نحو عسقلان فوصل (يبنى)، ثم تحرك إلى عسقلان وضرب خيمته شمالي البلد وبات مهموماً وما نام تلك الليلة إلا قليلاً؛

يقول ابن شداد: «وقد دعاني إلى خدمته سحراً، وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل، وبدأ الحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره، وطال الحديث في المعنى، ولقد قال لي: والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إلي من أن أهدم حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيَّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع؟. ثم استخار الله، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين»[1].

فاستحضر الوالي بها وأمره أن يضع فيها المعول (ليلة ١٩ شعبان) ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب.. وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوماً يخربونه». ووقع في البلد الضجيج والبكاء ولحق الناس حزن عظيم، وعظم عويل أهله وبيع ما فيه بأتفه الأثمان، وكان هو بنفسه يستعجل الناس في الخراب لئلا يسمع العدو بذلك فيحضر ويتعسر خرابها، وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب وتفرقوا بذراريهم؛ فبعض إلى مصر وبعض إلى الشام وقسم إلى البلاد المجاورة، وجرى أمور عظيمة، وأباح صلاح الدين الهرى (مخازن الحبوب) ثم أمر بحريق البلد وبيوته، وكتب إلى العادل الذي تركه يراقب العدو عند يافا أن يطيل في مفاوضات المصالحة التي طلبها الملك الإنكليزي ليفرغ من التخريب، وكان السور عظيم البناء بلغ عرضه أحياناً تسعة أو عشرة أذرع حتى أنهك الحجَّارين، وأحرق البرج الضخم الذي كان الاسبتارية قد بنوه هناك، ولم يكن بالإمكان هدمه إلا بعد إحراقه، فظلَّت النار تشتعل فيه يومين ثم انهار.. ومرض السلطان خلال ذلك بعد أن استمر الهدم ١٢ يوماً (١٨ شعبان ـ ١ رمضان) واستمر العمل بعد رحيله أيضاً يعمل فيه الحجارون وتدمره المعاول. وعاد بالجيش إلى الرملة ورتَّبه ميمنة وميسرة وقلباً، وأمر بتخريب قلعة الرملة فخُرِّبَت، وسار إلى لد (اللد) فأمر بمثل ذلك، وأمر المقيمين بالمكانين ـ وما كان فيهما إلا اليسير من السكان ـ بالانتقال إلى الأماكن العامرة في الجوار بعد

(١) ابن شداد: ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

أن أباح ما في الأهراء من التبن والشعير والحبوب للناس.

وفي الليل سار يتفقّد القدس، وخَلّف أخاه العادل يشرف على أعمال الهدم، وأقام يوماً في المدينة، وكانت في حاجة إلى الغلة والعدة والرجال[1]، فأمر بسد خلله، ثم عاد إلى معسكره في الرملة.. ورأى أنه شديد القرب من معسكر العدو، وأن الرملة واللدّ خراب، فانحاز إلى النطرون وهي قلعة بقرب القدس، فأمر بتخريبها.

وعرف صلاح الدين في خامس شوال أن الأسطول الإسلامي ظفر بمسطح فرنجي عليه أكثر من ٥٠٠ رجل، فانتعشت الآمال واجتمع في اليوم مع أرباب المشورة حين علم بأن الفرنج سيخرجون من يافا وأنهم في زهاء عشرة آلاف، فقرر النزول عليهم إلى الرملة؛ ولكن طلائع صلاح الدين انهزمت أمام طلائع الفرنج عند يازور.. ثم أمر السلطان (١٦ شوال) حلقته الخاصة أن تكمن في بطن بعض الوديان هناك، واستصحب جمعاً من العرب كان استأجرهم لسرقة جند الفرنج وأخذ المتطرفين منهم أسارى وقتل من يقتلون منهم.. ونشبت عند ذلك واقعة الكمين التي انتهت بقتل زهاء ستين نفراً من الفرنج وجرح وقتل جماعة من المسلمين. لم تكن هذه المعارك سوى وقعات محدودة الأثر والنتائج وكانت تزعج الفرنج وتدفعهم لطلب الصلح والمفاوضة، ولكنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تهدم آمالهم في العودة إلى احتلال القدس وفلسطين. وكان صلاح الدين يدرك ذلك بوضوح ولكنه لا يستطيع أن يطلب من جنده أكثر مما يستطيعون أو على الأقل ما يشفي الغليل.

أما الفرنج فلما سمعوا بتخريب عسقلان ندموا بعد أن أمضوا شهرين يعمرون يافا، ويقول ابن الأثير: إن المركيز مونتفرات ندد بملك إنكلترا لأنه لم يعاجل صلاح الدين ويملك المدينة عفواً «فما خربوها إلا لعجزهم عن

(١) ابن شداد: ص ١٨٩، وقد قبض اليزك على بعض السريان وهم يحملون صورة كُتُبِ الوالي إلى صلاح الدين بذلك؛ فقُتلوا لأنهم كانوا يريدون حملها إلى الفرنج.

حفظهاـ»[1]. أما صلاح الدين فلما رأى أن الفرنج لزموا يافا لا يفارقونها وشرعوا في عمارتها، عاد من منزلته إلى النطرون قرب القدس فجعل معسكره فيها، وعلم أنهم أظهروا العزم على قصد بيت المقدس، فسار جريدة إلى الرملة واقترب منهم، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم حتى وصلوا الرملة (٣ ذي القعدة) فعظم الخطب واشتد الحذر، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالنفير، فلقوا من ذلك شدة شديدة.

«ورأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم بأمطار متوالية والناس منها في ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها، فأذن لهم في العودة إلى بلادهم للاستراحة والإراحة، وسار هو إلى البيت المقدس في من بقي معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا، وقدم إليه عسكر من مصر عليهم أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين، وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون (٣ ذي الحجة) على عزم قصد القدس، فكانت بينهم وبين عسكر المسلمين وقعات أُسر في وقعة منها نيف وخمسون فارساً من مشهوري الفرنج. في حين كان صلاح الدين يعمل على عمارة السور وتجديد ما رثَّ منه، فأحكم المواضع وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج إلى أمير يتولى الدفاع عنه، وأرسل إليه أتابك الموصل جماعة من الحصاصين ممن له في قطع الصخراليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة، وكذلك جميع الأمراء. ثم إن الحجارة قلَّت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدي به العسكر، فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد ما يعملونه في عدة أيام. . . »[2].

على أن الفرنج كانوا قد عادوا إلى الرملة (في ٢٠ ذي الحجة)، لأن

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٧١.
(٢) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٧٤.

الأوحال والشتاء جعلت حركتهم شديدة الصعوبة. وقال ملك الإنكليز للفرنج الشاميين: صوِّروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها، فصوروها له، فرأى الوادي يحيط بها عدا موضع منها، فسأل عن عمقه، فقالوا: إنه عميق، فقال: هذه مدينة لا يمكن حصارها ما دام صلاح الدين حياً، وكلمة المسلمين مجتمعة؛ لأننا إن نزلنا من هذا الجانب بقيت الجوانب الأخرى غير محصورة وجمَع صلاح الدين عسكره وواقَع المحاصِرين (دون أن يستطيع الباقون إنجادهم) هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما نحتاج من العلوفات والأقوات، وقد يطول الحصار ولا ماء حول القدس بعد أن أُفسدت الحياض حولها، والميرة قليلة عندنا؛ ورأى أمراؤه صحة رأيه، فقرروا العودة إلى الرملة[1].

لم يلبث الفرنج إلا قليلاً في منزلهم حتى رحلوا إلى عسقلان ورأوا عماراتها بعد الخراب(محرم سنة ٥٨٨هـ) واضطروا إلى القتال الشديد أكثر من مرة مع سرايا المسلمين التي كان صلاح الدين يرسلها من مقره بالقدس، فتارة تقتل الجنود وتارة تقطع الميرة وتخرج على قوافل الفرنج فتغنم ما فيها؛ على أن الجيش الفرنجي تحمَّل كل ذلك، بل اتجه (٩ جمادى الأولى سنة ٥٨٨هـ) فحاصر الداروم وخربوه، لأنهم علموا أن صلاح الدين لن يخرج لهم بعد أن فرق عساكره الشرقية وغيرها للاستراحة في الشتاء ليحضر البدل، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزرية، وبقي من حلقته الخاصة بعض العساكر المصرية، فظنُّوا أنهم ينالون غرضاً فعادوا لذلك إلى بيت المقدس ونزلوا في بيت نوبة على فرسخين منه، فصب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا إرسال السرايا فبلي الفرنج منهم بما لا قبل لهم به، وعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن (وأنهم سوف يحاطون بالجند العائد لنجدتها من الجزيرة والشام ومصر) فرجعوا القهقرى

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٧٥؛ ولدى ابن شداد تفاصيل كثيرة عن تشاور الفرنج في هذه الفترة وقرارهم (ص ٢١٨).

وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام. . ولما أبعدوا عن يافا سيَّر صلاح الدين سرية من عسكره إليها، وكمنوا عندها لقافلة يحرسها فرسان الفرنج، فخرجوا الهم وغنموا القافلة وقتلوا وأسروا الفرسان. (آخر جمادى الأولى).

وبلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير يقوده أخو العادل لأمه ومعه عدة من الأمراء، فأسرى الفرنج إليهم في نواحي الخليل، فانهزم الجند وأخذ بعض القفل، وهرب الناجون فلم يتبعهم أحد، ولو لحقوهم نصف فرسخ لأبادوهم؛ لكن القفل تقطَّع وتشتت.

في تلك الفترة كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين في الجزيرة قد مات وتولى ابنه ناصر الدين محمد بعده، فطلب من صلاح الدين إقراره على بلاد أبيه مع إقطاعاته في الشام. ولم يرَ صلاح الدين مصلحة في تسليم البلاد إلى صبي فرفض، وتمرد الفتى فأرسل إليه ابنه الأفضل ثم أخاه العادل، وكتب إلى الأمراء هناك بإنفاذ العساكر، وخاف الفتى المتمرد، وتوسَّط العادل لإصلاح أمره مع صلاح الدين، فأعطاه إقطاع أبيه في الشام وأخذ صلاح الدين منه الجزيرة (حران، الرها، سميساط، حاني، ميامارقين) وأعطاها للعادل. . وطلب إليه أن يعيد الأفضل الذي كان وصل حلب، فعاد وتسلَّم العادل البلاد، وعاد بابن تقي الدين، ولحقت بهم العساكر الشرقية من الموصل وسنجار ودياربكر وغيرها. ورأى الفرنج ذلك فعلموا أن لا طاقة لهم بهذه الأجناد إن فارقوا البحر فرجعوا وفي عزمهم محاصرة بيروت. فلحق بهم صلاح الدين إلى مرج عيون، ولما علم أنهم استقروا في عكا عاد فحاصر يافا وملكها بالسيف عنوة ونهبها، وقتلوا الفرنج فيها وأسروا الكثير. . وكان بها معظم ما فقده القفل المصري المنهوب من المتاع. ووقف بعض مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة يأخذون من الجند منهوباتهم، وعصيت القلعة، فلما كادت تسقط خرج بعض حاميتها مع القسيس الكبير يستمهلون إلى الصباح التالي ليسلموها، وكان ذلك خدعة منهم لأنهم كانوا ينتظرون نجدة من عكا وصلتهم، وأدركهم ملك

الإنكليز فأخرج المسلمين من يافا وبرز وحده إلى خارج المدينة وحمل عليهم، فلم يتقدم إليه أحد ووقف بين الصفين وتناول طعامه.

وحين طلب صلاح الدين من جنده الهجوم قال له أحد القادة: قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات أن يتقدموا فيقاتلوا.. إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم؟ فغضب صلاح الدين وعاد فاقتلع خيمته وانسحب بالجيش إلى يازور وليس في الأمراء أحد يجرؤ على مخاطبته بكلمة. يقول ابن شداد: إنه حين نزل في خيمة صغيرة جاءه من الشام بعض الفاكهة فقال لابن شداد: قل للأمراء أن يأتوا فيأكلوا، فأتوا خائفين مترقبين، فلم يلم أحداً منهم وتبسَّط معهم، وخرجوا من عنده فرحين! ثم أمر بالرحيل إلى الرملة.

في العشرين من شعبان ٥٨٨هـ عقدت الهدنة بين المسلمين والفرنج، وهي التي عرفت بصلح الرملة. وقبل أن نبحث هذا الصلح نقف عند نقطتين:

الأولى: أننا ذكرنا ماذكرناه من المعارك بين صلاح الدين والفرنج مابين حطين والهدنة مختصرة من المصادر لأن السيد العالم الباحث الذي سبق ذكره من قبل كتب في كتابه مايلي (ص١٥٤):

«حياة صلاح الدين تقسم إلى قسمين؛ كان في بعضها محارباً حقاً فهو الذي حقق النصر في معركة حطين، والأقسام الأخرى **تناقض هذا القسم تمام المناقضة**، ولقد نسي بعض الناس -حقيقة صلاح الدين ولم يذكروا إلا دوراً واحداً من أدوار حياته، وذلك لعوامل لا أحب الآن ذكرها. فما هي حقيقة صلاح الدين؟ لقد انتصر في حطين وحرر القدس، **وكان المفروض أن يتابع الكفاح حتى تتحرر البلاد كلها**. ولكن صلاح الدين لم يفعل شيئاً من ذلك، بل فعل العكس تماماً فأقدم على أمر لا أدري **كيف يتجاهله كتَّابنا وكيف يسقطونه من حسابهم** وهم يتحدثون عن صلاح الدين، **لقد فضل صلاح الدين في هذا الدور من حياته الراحة على الجهاد وآثر الاستسلام للفرنج على مقاتلتهم**، بل

فعل أكثر من ذلك؛ لقد سلمهم البلاد سلماً بلا قتال.. نعم سلمهم البلاد سلماً بلا قتال...».

ترى أكانت هذه المعارك خمس سنوات لعباً ولهواً؟ وسلماً؟!.

ولا ندري أهو التعامي عن الحق أم الهوى الذي جعله يغمض العين عن خمس سنوات (٥٨٣ ـ ٥٨٨هـ) كاملة من القتال بذل فيها صلاح الدين حياته الباقية في فلسطين، ثم في شمال الشام، ثم أمام عكا، ثم في فلسطين مرة ثانية. وينكر الباحث ذلك كله ويتحدى بإنكاره الثَّقَلَين! فهل هذه المعارك كلها من أوهام المؤرخين؟ وهل هذه هي الأمانة التاريخية أيها السيد الأمين؟.

الثانية: أن السيد الباحث الذي اكتشف ما تجاهله المؤرخون ٨٠٠ سنة، وفضح به صلاح الدين: عمد إلى كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة بعد حطين وهو يفتخر بها، ثم ألصق وراءه مباشرة كتاباً من صلاح الدين بعد ثلاث سنوات بمناسبة وصول ملك الألمان وما جرى له، وقال فيه: إن الخادم (يعني نفسه) قائم بما يجب، ثم ألصق به مرة ثالثة كتاباً ثالثاً أرسله السلطان ـ بعد تخريب عسقلان ـ للخليفة يبدي فيه اعتذاره وعذره عن هزيمة عكا وضعف الجيش بعدها وتخريب عسقلان، ويذكر أنه «قد أنهك العسكر طول البيكار، وأضناه قتال الكفار بالليل والنهار، لا سيما في هذه السنين الأربع... وقد تكررت عليه الزحوف حتى سئم وملّ. وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد.. وأما العُدَد فقد فقدت بالكلية وعُدِمَتْ وتكسَّرَت، وأما النشاب فإنه قد فني وقد عدمت أشجاره في منابتها، وما تبرح الصناع من الممالك بمصر والشام يبرون ويريشون. واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال إلى أعمال كثيرة لا يفي بها الصناع، وخلت من ذخائرها الأماكن. هذا والخادم قائم بأداء هذا الفرض وحده (أي صلاح الدين) وما استمر على مساعدته إلا صاحبا الموصل وسنجار... فهو يحضر بنفسه وتارة بولده...».

والعجيب أن الباحث المكتشف لم يستطع أن يستنتج من هذه الكتب

الثلاثة سواء منها كتاب الاعتزاز بالنصر أم كتاب الصمود أم كتاب الاعتذار عن الضعف؛ إلا شيئاً واحداً هو محاولة صلاح الدين تثبيط عزيمة الخليفة عن قصد فلسطين لإنقاذها من الصليبيّين. وفهم الكتب الثلاثة بمعنى واحد هو خوف صلاح الدين من أن يصبح مجرد والٍ من الولاة، ولهذا استسلم للفرنج. ألم يكن لدى الخليفة من النخوة وقد وصله كتاب الضعف ما ينزله إلى ساحة القتال؟ لقد اعتذر عنه الباحث بأن صلاح الدين **لم يأذن له**، فهل يحتاج خليفة المسلمين وظل الله في الأرضين إلى إذن والٍ من ولاته؛ لينزل فيدافع عن أرض المسلمين، ويعلل الباحث الحصيف بأنه كان يخشى لو فعل أن يجر الأمر إلى **حرب أهلية** لأن صلاح الدين صمم على منعه ولو بالقوة[1]، ومتى جرت في جميع الحروب الصليبية حرب أهلية بين أميرين مسلمين يحاربان معاً الفرنج؟ وسبحان الله للأهواء ماذا تفعل بالعقول؟.

ولعلّنا نضيف هنا أن صلاح الدين يوم عقد صلح الرملة لم يكن بينه وبين القبر سوى ستة أشهر؛ فقد عقدت الهدنة في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ، ولحقته المنية في ٢٩ صفر سنة ٥٨٩ هـ! وقضى من هذه الأشهر شهرين في القدس يزيد في تحصينها ويبني بها عدداً من الأبنية الدينية. ثم طاف على القلاع الساحلية بأسرها ليسدّ خلَلها ويشحنها بالرجال والأجناد؛ فزار نابلس وطبرية وصفد وتبنين، وقصد بيروت قبل أن يرحل إلى دمشق فيدخلها في الخامس والعشرين من شوال. وبعد أربعة أشهر أصيب بآخرها «بحمى صفراء كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وكان مرضه في رأسه، وغلبه اليبس غلبة عظيمة حتى انتهى إلى غاية الضعف». وما زال مرضه يشتد حتى توفي يوم السبت (٦ آذار مارس سنة ١١٩٣م).

* * *

(١) انظر: كتاب صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميّين والصليبيّين ص ١١٥، ١١٦، ١١٨ حتى ١٢٠ واعجب!.



المُفَاوَضَةُ وَصُلْحُ الرَّمْلَةِ

أحداث السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين رواها في تفاصيلها وحضرها بنفسه رفيقه الملازم له ابن شداد وفيها الكثير من التفاصيل الحية. ومنها قصة المفاوضات مع الفرنج وقد استمرت خمسة عشر شهراً (٢٣ جمادى الأولى سنة ٥٨٧ حتى ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨هـ)، واقتضت ٤٢ وفداً ومفاوضة تنقطع وتتصل.. وكان البادئ في طلبها دوماً ملك الإنكليز ريتشارد:

١ ـ كان أولها في وقعة بين المسلمين والفرنج بعد وصول هذا الملك إلى عكا بعشرة أيام، فقد حدثه الفرنج عن صلاح الدين أنه شيطان رجيم وملاك رحيم في وقت واحد، فأراد أن يراه، وفي خلال المعركة أرسل رسولاً يطلب الاجتماع بالسلطان[1]، فأجاب صلاح الدين على الفور: الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، وما يحسن الحرب بينهم بعد الاجتماع والمؤاكلة، فلا بد من تقرير قاعدة ولا بد من ترجمان! كانت عكا لم تسقط بعد والحديث بين الجيشين في ظاهرها.

٢ ـ وانقطع الرسول ثم عاد وتحدث (في أواخر جمادى الأولى) مع الملك العادل يطلب الاجتماع معه في المرج وحدهما بين صفي العسكرين مع ترجمان. وأذن صلاح الدين، لكن الاجتماع لم يتم، ثم جاء الرسول يقول باسم الملك: لا تظن أني تأخرت لما شاع من إنكار الفرنج للاجتماع، فأنا أحكم ولا يحكم علي، ولكني مرضت، وعادة الملوك أن يتهادوا، وعندي

---

(١) ابن شداد: ص ١٦٣.

ما يصلح للسلطان فإن أذن أرسلته. . وقال العادل: بشرط قبول المجاراة على الهدية، فطلب بعض الدجاج لإطعام بعض الجوارح التي هزلت ويريد إهداءها للسلطان، وأدرك العادل أنها لطعام الملك فأحضر لـه منها، وقبل أن يغادر الرسول قال: ما الذي أردتم منا، إن كان لكم حديث نسمع، فأجابوه: نحن ما طلبناكم وأنتم طلبتمونا، فإن كان لكم حديث فهاتوه!.

٣ ـ بعد ستة أيام خرج رسول آخر مغربي أسير مسلم هدية للسلطان فقبله وأطلقه. «وكان غرضهم من تكرار إرسال الرسل تعرف قوة النفس لدينا، وغرضنا بقبولها تعرُّف ما عندهم»[١].

٤ ـ وحين قوي زحف الفرنج بشدة على البلد وخشيت الحامية سقوطها، خرج إليهم منها القائد سيف الدين المشطوب يطلب تسليم عكا بالأمان؛ فرفض ملك الفرنسيين ذلك، فأغلظ له المشطوب بالكلام؛ وقال: «ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى يقتل خمسين من كباركم»[٢].

٥ ـ وفيما ذلك اليوم في المساء وفيما كان صلاح الدين يهيِّئ هجوماً على المحاصرين لعكا ويتخاذل أمراؤه بحجة أنها مخاطرة بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك، وصل ثلاثة رسل من الملك الإنكليزي يطلبون له ثلجاً وفاكهة، وذكروا أن مقدم الأسبتارية يخرج في الغد ويتحدث معه في معنى الصلح. . . ودخلوا سوق العسكر يتفرجون ثم عادوا[٣].

٦ ـ بعد يومين (في ١٠ جمادى الآخرة خرج ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا ساعة زمانية وعادوا إلى أصحابهم. وفيما كان الفرنج في اليوم الثاني يستعدون للحرب خرج زهاء أربعين نفساً واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزبداني، فحضر العدل وجرى مبادئ حديث في

(١) ابن شداد: ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

معنى إطلاق العسكر الذي بعكا، واشتطوا فيما طلبوا في مقابل ذلك اشتطاطاً عظيماً وتصرم النهار ولم ينفصل حال[1].

٧ ـ ثم اشتد الحال على حامية عكا وضعف البلد وكثرت ثغر سوره، وجاهد المقيمون فيه، واشتد ثبات الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في يد المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم. وبذل لهم تسليم البلد بما فيه دون من فيه فلم يفعلوا، وبذل لهم في مقابل كل واحد في البلد واحد من أسراهم مقابله فلم يفعلوا، وبذل لهم مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا. واشتدَّ عتوُّهم واستفحل أمرهم. . .[2].

٨ ـ وفي ١٧ جمادى الآخرة خرج العوَّام من الثغر، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب. فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه ومئتي ألف دينار وألف وخمسمئة أسير مجاهيل الأحوال ومئة أسير معيَّنين من جانبهم يختارونهم وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة الخاصة بهم وذراريهم ونسائهم. وضمنوا للمركيز مونتفرات ـ الذي كان واسطة المفاوضة ـ عشرة آلاف دينار ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك. . .

ولما وقف السلطان على كتبهم أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم عليه هذا الأمر وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها (وهي عادته الدائمة) وعرَّفهم ذلك، واضطربت به آراؤه وتقسم فكره وتشوش حاله، وعزم أن يكتب في تلك الليلة مع العوَّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو في مثل

(١) ابن شداد، ص ١٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٠.

هذا الحال. فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد. (ظهر الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ) وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين. . . وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظٌّ من ذلك على قدر إيمانه[١]. . ومَثَلْتُ بخدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحَيْرى. . . وذكرته الفكر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد. . . ».

٩ ـ وفي سحر تلك الليلة خرج منهم (من الفرنج) ثلاثة نفر ومعهم الحاجب قوشي صاحب بهاء الدين قراقوش. . . مستنجزين ما وقع عليه من عقد الصلح من المال والأسرى. . . وساروا إلى دمشق (في ٢١ جمادى الآخرة) يبصرون الأسرى. وأنفذ السلطان رسولاً إلى الفرنج يسأل منهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما استقرت عليه الهدنة[٢].

١٠ ـ وجرت وقعة أخيرة أمام عكا بين صلاح الدين والفرنج كثر فيها القتال وانكسر فيها العدو وهزمت خيالته وأسلمت الرجالة، وجرح منهم خلق عظيم حتى انسحبوا إلى خنادقهم، وفي ذلك اليوم عاد الفرنج الذين أرسلوا إلى دمشق ومعهم من مميزي أسراهم أربعة نفر، ووصل منهم في العشية أيضاً رسل إلى السلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين في عكا. ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين.

١١ ـ حتى كان يوم ٩ رجب سنة ٥٨٧هـ إذ خرج فيه حسام الدين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب الانكتار فأخبره أن ملك الفرنسيس سار إلى

---

(١) ابن شداد، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

صور، وذكروا شيئاً عن تحرير أمر الأسرى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت، وهل في العسكر أم حمل إلى بغداد، فأُحضر الصليب وشاهدوه. . . ورموا نفوسهم إلى الأرض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم ير مثله، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يُدْفع في تروم (أي أقساط) ثلاثة، كل ترم شهر، ثم أرسل السلطان إلى الفرنسيس رسولاً سار إلى صور بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة. وعاد ابن باريك ورفيقاه إلى الانكتار.

١٢ ـ «ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم، وهو الصليب ومئة ألف دينار وألف وستمئة أسير، وأنفذوا ثقاتهم، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسرى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكلموهم حتى يحصلوا. . ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول فكان انقضاؤه في ١٨ رجب».

١٣ ـ «ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال السلطان: إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عُيِّن لكم في هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقي يصل إليكم في ترومكم الباقية، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تُخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا: لا نفعل، بل تسلمون ما يقتضيه هذا الترم وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم؛ فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلَّموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم، ويكون وهن الإسلام بذلك عظيماً لا يكاد ينجبر. . .»[1].

«ولما رأوه امتنع أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم (٢١ رجب) وكان الذي برز ملك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة والتركبيل. . .

(١) ابن شداد: ص ١٧٣.

وغدر بأسارى المسلمين، وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم. . . وأظهر ما كان أبطن، وفعل ما كان يريد. أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى ـ على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ـ وركب هو وجميع عسكر الفرنج حتى توسطوا المرج، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ـ وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم ـ في الحبال، وأوثقوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيوف، واليزك الإسلامي يشاهدهم ولا يعلم ما يصنعون لبعده عنهم. وأنفذ اليزك خبر التجمع إلى السلطان، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وجرت بين الطرفين معركة عظيمة دامت إلى الليل، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم، وغشي السلطان بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مقدماً أو قوياً أيّداً للعمل في عمائرهم، وذكر لقتلهم أسباب أنهم قتلوهم في مقابل من قتل منهم، وقيل: إن الانكتار كان عزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه!»[1]؛ وانقطع بذلك أمر هدنة عكا وعادت الحرب، فقد ركب الفرنج وأشعلوا النيران ـ في مستهل شعبان ـ كعادتهم عند الرحيل، واتجهوا جنوباً في ثلاث فرق: واحدة بجانب البحر، وواحدة في الوسط للفرسان، وواحدة من جانب المسلمين؛ في نظام واحد. . وساير المسلمون تحركهم، وكانت موقعة قيسارية، ثم موقعة أرسوف وما جرى بها.

١٤ ـ قبل هذه المعركة طلب العدو (في ١١ شعبان سنة ٥٨٧هـ) مقدم اليزك، وأرادوا منه الاجتماع بالملك العادل ليتحدثوا معه، وكان حاصل حديثهم: إننا قد طال بيننا القتال وأنه قتل من الجانبين الرجال الأبطال، وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم، وكل يرجع إلى مكانه»! وكتب العادل إلى السلطان رقعة بذلك، فأجابه: «إن قدرت أن تطاول

---

(١) ابن شداد: ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

الفرنج في الحديث فلعلهم يقومون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا» واجتمع ملك الانكتار بالعادل ذلك اليوم، وكان الترجمان بينهما ابن الهنفري[1]. وأذن السلطان للملك العادل بلقائهم... واجتمعا بنجوة من أصحابهما، وشرع الانكتار في ذكر الصلح، فقال العادل: أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان، فقال الانكتار: القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفون إلى بلادكم» فأخشن له الجواب، وجرت منافرة اقتضت أن رحلوا بعد انفصالهما، وانقطع الاتّصال بعد ذلك لتعود الحرب من جديد، وتكون موقعة أرسوف الخاسرة.

١٥ ـ وفيما كان صلاح الدين يخرب عسقلان وأخوه يراقب الفرنج على يافا، وصل منه كتاب يخبر السلطان أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وأنه خرج إليه ابن الهنفري وتحدث معه في هذا المعنى وأنه طلب جميع البلاد الساحلية. فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما رأى في نفوس الناس من الضجر والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث بذلك وفوضه إلى رأيه[2]. ولكن المفاوضات انقطعت بعد ذلك عشرين يوماً.

١٦ ـ خلال ذلك الوقت (وكان صلاح الدين في الرملة) وصل رسول من المركيز مونتفرات (الذي هرب إلى صور من كيد ملك الإنكليز)، يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر بالعداوة ويقصد عكا ويأخذها منهم، واشترط أن يبذل له السلطان اليمين على ذلك ابتداء. فسير إليه العدل النجيب، وحمل الإجابة إلى ملتمسه بقصد فصله عن الفرنج، فإنه كان خبيثاً ملعوناً، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده ـ وهي صور ـ منه، فانحاز عنهم واستعصم بها وهي منيعة فقبل هذا القول منه بهذا السبب. وسار النجيب

(١) ابن شداد، ص ١٨٢، ويضيف: «ولقد رأيته يوم الصلح وهو من فرنج الساحل؛ شاب حسن حليق على شعارهم».
(٢) المصدر السابق، ص ١٨٧.

مع رسوله (١٢رمضان)، واشترط عليه أن يبدأ بمحاصرة القوم في عكا وأخذها وإطلاق من بها ومن بصور من الأسرى وعند ذلك يسلم إليه الموضعان.

١٧ ـ وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول الانكتار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح. . . وترددت الرسل بين العادل والانكتار يذكرون عن السلطان أنه قد سلم أمر الصلح إلى العادل. وخرج من (الفرنج) عشرة أنفس إلى اليزك فأخبروه بأخبار طيبة، كتب بها إلى السلطان (١٧ رمضان) منها: موت ملك فرنسا، ومنها: عودة ملك إنكلترا إلى عكا. ثم عرف أنه مريض. وأن أهل عكا ضعفوا وقلت الميرة عندهم[1].

١٨ ـ وفي ٢٦ رمضان طلب الإنكليز رسولاً من عند العادل فأنفذ إليهم الصنيعة وهو كاتبه وكان شاباً حسناً، فوصل إلى ملك الإنكليز وهو في يازور ومعه جمع كثير قد انبثوا في تلك الأرض، فسيره معه وحدثه في معنى الصلح وقال: لا أرجع عن كلام تحدثت به مع أخي وصديقي ـ يعني العادل ـ، وذكر له كلاماً كتبه العادل في رقعة أنفذها إلى السلطان، وفيها بأنه يسلم عليه ويقول: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه. وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد؛ والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبقَ منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم.

ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة واستشارهم في جواب ذلك، والذي رآه السلطان في جوابها أنه قال: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصوَّر أن

(١) المصدر السابق، ص ١٩٣.

نتزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغلّه وننتفع به، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها، وسار الجواب مع الواصل منه»[١].

١٩ ـ «وهنا دخل ملك الإنكليز في مشروع مكر كان بالنسبة إليه بوصفه غريباً أمراً مألوفاً في حلّ النزاعات، فقد جاء رسوله يذكر أن الملك الإنكليزي اقترح ووافق على أن يتزوج العادل بأخت الملك (التي صحبها أخوها من صقلية بعد أن ترملت. وذكر العادل أنه قد استقرَّت القاعدة على أن يتزوج منها وأن يكون مستقر ملكهما بالقدس، وينزل لها أخوها عن بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، ويعطي السلطان إلى العادل جميع ما فيَ يده من الساحل ويجعله ملك الساحل مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع، ويسلم صليب الصلبوت، وتكون القرايا للداوية والاسبتارية والحصون لهما، وأسرانا يفك أسرهم، وكذلك أساراهم، ويرحل ملك الانكتار طالباً بلاده في البحر. . . ».

ويبدو أن هذا الحل الإنكليزي المقترح أخذ قسطاً من المفاوضة قبل أن يقبل به العادل ويُستدعى ابن شداد مع شخصيتين من الأمراء لحمل المشروع إلى السلطان، فإن وافق شهدوا عليه بذلك وتمَّ الصلح. يقول ابن شداد: «وتلوت عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقداً أن الملك الإنكليزي لا يوافق على ذلك أصلاً وأن هذا هزء منه ومكر»، «وكرر الرضا ثلاث مرات وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به»، فعدنا إلى الملك العادل وعرفناه بما تم. . .

(١) ابن شداد، ص ١٩٤.

٢٠ ـ كان ذلك ٢٩ رمضان، وفي ٢ شوال سار رسول من جانب السلطان والملك العادل إلى مخيم العدو، فأنفذ إليه الملك أن أخته حين عرفت الأمر تسخطت وغضبت بسببه، وأنكرت ذلك إنكاراً عظيماً، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لاتفعل ذلك. وقال الملك: إن كان العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك![1].

ومن الواضح أن الملك الإنكليزي ما كان ليقترح الاقتراح دون علم أخته وهي معه، وكان في ذهنه سلفاً نسفه إذا قبل، بأن يطلب تَنَصُّر العادل، وهو يعرف أن ذلك مستحيل لأنه يخرجه بذلك عن إمكان حكم القدس ويحل دمه كمرتد؛ ولكنه أراد الاستهزاء بالمسلمين وإظهار ترفعهم عن مستواهم وتفوقهم عليهم في التمسك بالعقيدة عليهم. وانتهى الأمر عند ذلك «وترك باب الكلام مفتوحاً» في حين أعلم العادل أخاه بذلك، وخرج الفرنج من يافا بجيوشهم إلى عسقلان.

٢١ ـ ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى وصل صاحب صيدا مرسلاً من صاحب صور «وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم» ووقعت أثناء ذلك واقعة الكمين»[2].

٢٢ ـ وخلال ذلك طلب الملك الإنكليزي الاجتماع بالعادل على مائدة طعام، فحمل العادل معه «من الأطعمة والتجملات والتحف ما جرت العادة بحمله من ملك إلى ملك، وهو إذا تجمل لا يغلب» وتفاصلا عن توادّ ومطايبة ومحبة أكيدة، وطلب الملك من العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماع به، ولما وصلت الرسالة إلى صلاح الدين بذلك وشاور بها جماعته فما منهم وقع

---

(١) ابن شداد: ص ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٢) ابن شداد، ص ١٩٩.

له ما وقع للسلطان الذي أجاب: «الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك، فإذا انتظم أمر حسُن الاجتماع، والاجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مهم، ولا بدَّ من ترجمان بيننا تثق به وأثق به، فليكن هذا الترجمان رسولاً حتى يستقر أمر وتستتبّ قاعدة، وعند ذلك يكون الاجتماع. قال الرسول: ولما سمع الانكتار ذلك استعظم الجواب، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرضه إلا بالدخول تحت المراضي السلطانية»[1].

٢٣ ـ واستمع السلطان (في ١٩ شوال) إلى صاحب صيدا مع جماعته. . . وكان حديثه حين خلا به أن يصالح السلطان المركيز الذي انضمَّ إليه جماعة من أكابر الفرنج ومنهم صاحب صيدا، ويذل له السلطان الموافقة على شروط قَصَدَ بها الإيقاع بينهم وأن ينغل بعضهم، ووعده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد.

٢٤ ـ في عشية اليوم نفسه وصل رسول الانكتار ابن الهنفري رسولاً وفي صحبته شيخ كبير منهم. . . فأحضره السلطان وكانت رسالته: أن الملك يقول: «إني أحب صداقتك ومودَّتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن تكون لنا علاقة بالقدس، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه ولا عليّ لوم من الفرنجية. . .»؛ «فأجابه في الحال بوعد جميل. . . وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى، وكان منفصلاً عن حديث الصلح، فقالوا: إن كان الصلح، فعلى الجميع، وإن لم يكن فلا يكون من حديث الأسارى شيء. وكان قصده أن يفسخ قاعدة الصلح، فإنه التفت إليّ بعد انفصالهم وقال لي: متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألاّ نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت.

(١) ابن شداد، ص ٢٠١.

هذا كان رأيه ولكنه غُلِب على الصلح»[١].

٢٥ ـ وبعد يومين جمع السلطان الأمراء وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيز، وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر ما التمسه من تقرير قاعدة الصلح، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية كلها مناصفة، ويكون لهم أقسام في بِيَع القدس وكنائسه. وكان الانكتار قد خيَّرنا بين هذين القسمين. فشرح ذلك واستنبط رأي (الأمراء) وفي ترجيح أحد الجانبين، فرأوا أنه إن كان الصلح فليكن مع الملك، فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة وغير مأمونة الغائلة. وانفض الناس وبقي الحديث متردِّداً في الصلح، والرسل تتواصل في تقرير قواعده.

٢٦ ـ «وكان آخر رسائل الملك أن النصارى أنكروا عليه تزويج أخته دون مشاورة البابا، وأنه يسيِّر رسولاً إليه يعود في ثلاثة أشهر، فإن أذن وإلا فإنه يزوج العادل ابنة أخته ولا يحتاج الإذن...»[٢]. هذا وسوق الحرب قائم والقتال ضربة لازب، وصاحب صيدا كان يركب مع العادل أحياناً ويشرف على القتال، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيز إلى المسلمين. واستشار صلاح الدين أمراءه في رسالة الملك الجديدة، وأحضر الرسل وكان ابن الهنفري يترجم بينه وبين البحريين، واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين، من جانبه واحد ومن جانب العادل الآخر؛ لأن الحديث

(١) ابن شداد، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) يعلِّل الملك ذلك بأنَّ الثيِّب تحتاج إذن البابا، والبكر يزوجها أهلها، وتتحكَّم في السيد الباحث الذي سبق ذكره عقدة الجنس؛ فيحكي عن غرام العادل بالشقراوات، وأنَّه يريد أن يضمّ إلى حريمه مع الكرديات والعربيّات والتركيات غادة يتميز بها تُلوِّن له مفاتن الجمال، فيجمع بين السمرة والشقرة، وبين الزرقة والسواد (ص ١٢٢ وص ١٩٨ وما بعدها). وهذا تَرَخُّصٌ في الكلام؛ ولو كان يريد ذلك، أما كانت البكر أفضل لديه من الثيب؟ فلماذا رفضها؟.

يتعلق به، وكان الجواب: إن كان عقد فيكون على الأخت لأنه سبق الحديث فيها ونحن لا نرجع عما قلناه، وإن لم يتهيأ فلا حاجة بنا إلى غير ذلك»[1]. وكان صلاح الدين يريد إحراج الملك الإنكليزي وإثارة البابا عليه، لأنه قدَّر أنه لا يمكن أن يرضى ويأذن، وكان ذلك جواباً على تعذُّر الملك وطلبه تنصُّر العادل المستحيل.. وانفصل الحال على ذلك... دون نتيجة، وتوقَّفت المفاوضة.

كان الشتاء قد حل بأمطاره وأوحاله، وعاد السلطان إلى القدس وأعطى العساكر دستوراً، وعاد العدو إلى يافا، وذهب الملك إلى عكا. وعقد السلطان مشورة اتفق الرأي فيها على أن يمضي العادل ليجتمع بعساكر الغور وصفد وكوكب وتلك النواحي؛ فإن فوتح في الصلح يقول: إن الحديث قد جرى بيننا مراراً وما أسفر عن مصلحة، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث، وأنا لا أجتمع بك إلا أن أرى ما يقارب فصل الحال» وقرر السلطان مع العادل أنه ما يمكن فصل الحال عليه فصله، وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف. والتمس العادل تذكرة في معنى فصل الحال، فكتب له تذكرة ذكرت فيها المناصفات، وذكر أمر بيروت أنه إن أصر على طلبها اشترط خرابها ولا تعمر وكذلك القابون، وإن التمسوا عمارة وغر أجيب، ويعطى صليب الصلبوت، ويكون لكنيسة القيامة قس، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح. وكان الحامل على ذلك ما أخذه الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان. فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب الدستور منه...»[2].

٢٧ـ وانقضت بعد ذلك أربعة أشهر دون مفاوضة، وقد سار في آخرها العادل من القدس إلى بيسان (٤ ربيع الأول سنة ٥٨٨هـ)، ثم وصل كتابه يخبر

(١) ابن شداد: ص ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٥.

أنه لقيه ابن الهنفري مع الحاجب أبي بكر رسولاً من الانكتار يقول: قد وافقنا على مقاسمة البلاد وأن كل من بيده شيء فهو له، فإن كان ما بأيدينا زائداً أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا ذلك، والقدس لنا، ولكم قبة الصخرة!.

فأوقف السلطان الأمراء على الخطاب، فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء السمين، ورأى الأمراء أنَّ مَن قال هذا المقال يوافق على ما مضى عليه الملك العادل وهو مصلحة. وسار الجواب بذلك إلى الملك العادل. ثم وصل الحاجب أبو بكر يخبر أن الانكتار سار إلى يافا من عكا، وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حاصلها نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة لنا، وأن لا يكون في البلد منهم مقدم مذكور وأن يكون قرايا القدس وباطنه مناصفة[١].

٢٨ ـ وجاء الخبر بعد ذلك أن الانكتار أغار على الداروم ونهب الغنم والمواشي، فعظم ذلك على السلطان، وسيَّر جماعة فلم يلحقوا بهم. ولكن غلاماً لصاحب صيدا اسمه يوسف وصل من جانب المركيز يلتمس الصلح مع المسلمين، فاشترط السلطان شروطاً منها: أن يقاتل جنسه ويباينهم، ومنها أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية بعد الصلح بانفراده تكون له، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين وغير ذلك من الأموال، ومنها أن يطلق لنا كل أسير من مملكته، ومنها أنه إن فوض إليه الانكتار أمر البلاد لأمر يجري بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ما عدا عسقلان وما بعدها فإنه لا يدخل في الصلح، فتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا، وما في

(١) ابن شداد، ص ٢٠٦.

الوسط يكون مناصفة، وسار رسوله على هذه القاعدة[1].

٢٩ ـ وفي ٦ ربيع الآخر وصل يوسف من جانب المركيز بصور يجدد حديث الصلح ويقول: قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية. فإن نجز في هذه الأيام سار الفرنسيسية في البحر، وإن تأخر بطل الحديث في الصلح مع المركيز بالكلية. فرأى السلطان الصلح مع المركيز مصلحة لاشتغال قلبه من جانب الشرق بتمرد ابن تقي الدين عليه وخوفه من أن يتصل ببكتمر فيحدث بذلك ما يشغل الخاطر عن الجهاد. فأجاب إلى ما يلتمس المركيز، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ماتقدم. وسار العدل في جواب يوسف الرسول (٩ربيع الآخر).

لكن بعد أسبوع وصل من العدل كتاب بأن المركيز قتل (في ١٣ ربيع الآخر) وذكر القاتلان (إن الانكتار وضعنا عليه)[2]!

وأعقب ذلك احتلال الانكتار للداروم مستغلّين إعطاء صلاح الدين دستوراً لعسكره. ثم نزلوا على (مجدل يابا) الحصن الحصين من الجنوب، فسير السلطان في طلب العساكر، فلما وصلت أرسلها وهو بالقدس لمرضه؛ فلما أحس العدو بدنو المسلمين انكفأ إلى عسقلان التي كان يبنيها.

ولم يلبث أن سمع بحشد الفرنج فرسانهم وراجلهم للهجوم على القدس، ثم أتى جيشهم ونزل على النطرون، ثم في بيت نوبة. وبعد عدة وقائع محدودة مع العسكر الإسلامي أخذ الفرنج قافلة ضخمة كانت قادمة من مصر. ووصل السلطان الخبر صباح (١١ جمادى الآخرة) «فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه. وأخذتُ ـ كما يقول ابن شداد ـ في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية...»[3].

---

(١) ابن شداد، ص ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

وإذا انسحب الانكتار عن القدس وعاد إلى الرملة فقد خافهم السلطان على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان الانكتار قد ذكر مثل هذا الحديث مراراً[1].

٣٠ ـ وحين فرغ بال السلطان برحيل العدو استحضر رسول الكندهري الذي وصله لسماع رسالته، فقال: إن الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي، فأعد علي بلادي كي أصالحك وأكون أحد أولادك. فغضب السلطان لذلك غضباً عظيماً بحيث أنه كاد يبطش به، فأقيم من يديه، فسأل أن يمثل حتى يقول كلمة أخرى، فأذن له في ذلك فقال: يقول إن البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها فانتهره وأقامه. ولما كان يوم ٢٣ جمادى الآخرة استحضر الرسول وكان جوابه: يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيز.

٣١ ـ ثم وصل بعد ذلك الحاجي يوسف صاحب المشطوب من الفرنج، وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له: تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، وأحضر مع الحاجي شخصين يسمعان الكلام من المشطوب. وكان ظاهر الكلام في معنى إطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه في معنى الصلح. وأخبر الحاجي أنهم رحلوا من الرملة قاصدين يافا وأنهم على غاية من الضعف والعجز عن قصد مكان؛ فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة فحضر، وكان الجواب: إن الكندهري قد أعطي عكا ونحن نصالحه على ما له ويتركنا والانكتار في بقية البلاد[2].

٣٢ ـ وبعد قرابة ثلاثة أشهر (في ٢٦جمادى الآخرة) عاد رسول الفرنج

---

(١) ابن شداد، ص ٢١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

بصحبة الحاجي يوسف، وقد حمل رسالة يؤديها بحضور صاحبه، وهي أن الملك (الانكتار) يقول إنه راغب في مودَّتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلّهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلّهم، وهذا ابن أختي الكندهري ملّكته هذه الديار، وسلّمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا. ويقول: إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة. وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبّلتها وقبلتها...».

سمع السلطان الرسالة وجميع أرباب المشورة لديه، وسألهم كيف يكون جوابها، فما منهم إلا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون، واستقر أنه يكون الجواب: «إذا دخلت هذا المدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان. ابن أختك يكون عنده (السلطان) كبعض أولاده. وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة (القيامة) وبقية البلاد نفسها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بين أيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم، فإن أردتم قراها تكون لكم. والذي كنت أكرهه حديث عسقلان» وانفصل الرسول طيب النفس[1].

ووصل في اليوم التالي خبر بأن الفرنج راحلون إلى القدس وأن البابا وصل القسطنطينية في زحف لا يعلم عدده إلا الله، وأن قطب الدين سلطان السلاجقة يستقدمه ليسلمه بلاده لأنه عجز عن حفظها، فلم يكترث السلطان لذلك كله[2].

---

(١) ابن شداد، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

٣٣ ـ وعاد رسول الفرنج ثالثاً (٢٩ جمادى الآخرة) مع الحاجي صاحب المشطوب وهو جفري رسول الملك وقال: إن الملك شكر أنعام السلطان وأن الذي يطلبه أن يكون للفرنج في قلعة القدس عشرون نفراً ومن يسكن البلد من الفرنج لا يتعرض له. وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم. وقال الرسول من عنده مناصحة: قد نزلوا عن القدس ما عدا الزيارة، وإنما يقولون ذلك تصنعاً، وأنهم راغبون في الصلح، وأن الانكتار لا بد له من الرواح إلى بلده. وكان معه في هذه الوقعة بازان هدية للسلطان الذي استحضر الأمراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون جواباً على هذه الرسالة، وانفصل الأمر على هذه الحال: إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة. فقال الرسول: وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم؟ فعلم من هذا القول الموافقة. وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه، فقال الرسول: قد خسر الملك على سورها مالاً جزيلاً، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له مقابل خسارته. فأجاب. وإن الداروم وغيره يخرب، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد من يافا إلى صور فيكون لهم بأعمالها، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة.

وسار الرسول في ٢ رجب ومعه الحاجي يوسف بالجواب، وكان قد طلب رسولاً مذكوراً يحلفه إن استقرت القاعدة، فأخر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة، وأرسل لهم هدية حسنة في جواب هديتهم وما كان يغلب في الهدايا[١].

٣٤ ـ وعاد الرسول (ليل ٣ رجب) يقول: إن الملك يسألك ويخضع لك أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك، وما سبب إصراره عليها والفرنج لم يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية . . . فتترك

(١) ابن شداد، ص ٢٢٠.

أنت له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً، لأنه إن لم ينتظم لا يمكنه الفرنج من الرواح، ولا يمكنه مخالفتهم، وكان مضطراً للرواح. واستشار السلطان أمراءه، وكان خلاصة الرأي: إن أهل إنطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم، فإذا عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا، وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسره عليه لُدّاً في الوطأة[1].

وعاد حاجي يوسف رابعاً (في ٧ رجب) وذكر أن الملك قال: لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك. وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها، وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء.

وعرف السلطان أن الفرنج خرجوا إلى بيروت، فرحل بالعسكر إلى الرملة وأشرف على يافا وجمع الأمراء يستشيرهم في النزول على يافا، وحاصرها ورتَّب الناس للقتال وأطلق على السور المجانيق والنقابين. وكان الملك الانكتار توجه إلى بيروت . ورغم كثرة النقوب ودوام العمل في الليل والنهار، وضعف العدو. وظهر رسول من يافا يطلب إنظارهم يوماً آخر، فرفض، ثم عاد يكرر الطلب، فأبى السلطان «وتفاتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل، وسكنوا إلى الدعة على جاري العادة» فأمر السلطان بحشو النقاب بالأخشاب والنار، ودافع الفرنجة عن المدينة ببسالة استدعت ابن شداد المقول: «لله درهم من رجال قتال ما أشدهم وأعظم بأسهم، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لها باباً وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب»[2] (أواخر تموز سنة ١١٩٢م).

وفصل الليل وضاق صدر السلطان وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم إلى الصلح. وبات تلك الليلة على أن يقيم خمسة مجانيق أخرى يضرب بها البدنة

(١) ابن شداد، ص ٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

لتدميرها؛ وتم ذلك في اليوم التالي فما كانت ساعتان حتى سقطت، لكن الناس رأوا هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم، وجاء الرسل يطلبون الأمان للبلد، ولما رفض السلطان انحازوا إلى القلعة ووصل الخبر بأن الانكتار حين علموا بالهجوم على يافا تركوا الهجوم على بيروت وعادوا نحوها. ولم يمضِ يوم وبعض يوم حتى سمع الناس بوقهم. يقول ابن شداد: «فعرفنا أن النجدة وصلت من البر والبحر» فأمره السلطان مع آخرين بإبلاغ الجند في داخل المدينة لينسحبوا. ولكن النهب أبطأ ببعضم على الرغم من هرب بعض حامية القلعة بالمراكب ليأسهم من النجدة، فقد بقي فيها أكثر الحامية حتى وصلت مراكب الفرنج في نيف وخمسين مركباً، وأول مركب نزل جنده كان مركب الملك الأحمر، فحملوا على المسلمين في الميناء وبدأ الفرار، وخرج إلى الملك حامية القلعة فازداد سواده، ولاحق الهاربين إلى يازور (أول آب سنة ١١٩٢م). ولم يتمالك ريتشارد نفسه من القول لأحد أمراء صلاح الدين: «هذا السلطان عظيم وما في هذه الأرض للإسلام أكبر وأعظم منه، كيف رحل بمجرد وصولي؟ والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومين[١]. ولم تكن القوة التي جاء بها ريتشارد كبيرة فهي ألفان منهم خمسمئة من الفرسان. وعاد صلاح الدين فهاجم البلد مرة أخرى (٥ آب) ولكنه لم يجد الاستجابة ولا التأييد من رجاله. وهكذا ساء موقفه وانسحب بخيبة أمل إلى يازور ثم النطرون.

٣٥ ـ ولم يلبث ريتشارد أن طلب بعض الأمراء المسلمين، وكان قد صادق بعض المماليك «ودخل معهم دخولاً عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة، وصادق جماعة من الأمراء فاجتمعوا إليه، وبين الجد والهزل قال: تسلمون على السلطان وتقولون له: بالله أجب على سؤالي في الصلح فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم. (كان هذا في ١٩ رجب) وكان الجواب بعد مشورة الأمراء: كنت طلبت الصلح

(١) ابن شداد: ص ٢٢٧؛ ونرى تفاصيل عديدة لديه.

أولاً على قاعدة، وكان حديث في يافا وعسقلان والآن خربت يافا فيكون لك من قيسارية إلى صور.

٣٦ ـ فردَّ الجواب مع رسول فرنجي إنه يقول (الملك): قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تابعاً له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت، وخدمتك كما تعلم خدمتي.

٣٧ ـ فكان جواب السلطان: حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن نجعل هذين البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما وراءها، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها[1]. ثم رحل السلطان مع الثقل، وأمر بخراب يازور وبيت دجن، وأتى الرملة فخيم.

٣٨ ـ وأتى الرسول مع الحاجب أبي بكر وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول: إنه إن وقع الصلح سار إلى بلاده وإلا فإنه يشتي ها هنا. فقال السلطان: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما الشتاء في هذه البلاد فلا بد منه لأنك استوليت على البلاد ومتى غبت أخذت بالضرورة. وإذا سهل عليك أن تشتي وتبعد وأنت شاب عن بلادك وهي على مسيرة شهرين، فأنا هنا في بلادي وبين أهلي وأولادي أشتي وأصيف ويأتي إلي ما أريده، وأنا شيخ كرهت لذّات الدنيا وأعتقد أنني

(١) لدى ابن شداد فيما بين الصفحتين (٢٢٧ ـ ٢٣٦)؛ تفاصيل كثيرة جداً، وقد اختصرناها في النهاية، وكان الغرض من إطالة الحديث بها قطع الطريق على مَن افترى على صلاح الدين وزعم أنَّه استسلم للفرنج لكي يمنع الخليفة الناصر من إنقاذ فلسطين؛ وهو افتراء تتضح صورته في استمرار المفاوضات مع الحرب للفرنج سنة وثلاثة أشهر، وفي ٤٤ محاولة كانت كلّها بمبادرة الفرنج. كما يتَّضح أنَّ ما أجبر صلاح الدين على المصالحة هو ضعف قوته تارة بعد أخرى، وأنها ثابتة. وأنَّ الفرنج كانت فرنسا وإنكلترا معاً مع أوروبا تنجدهم باستمرار بالرجال والمال والسلاح.

(بـالجهاد) من أعظم العبـادات، ولا أزال كذلـك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء. . .

وانصرف الرسول ليلقى الملك العادل في حين بلغ السلطان الخبر عن نجدة جاءت من عكا إلى يافا، فخرج إلى لقائها وفضل أن يواجهها بالهجوم قبل أن تلاحقه وهو منسحب، ومع أن الحملـة كانت قليلـة العدد إلا إن جنـد المسلمين رغم دوران صلاح الدين على الأطلاب لم يتحرك، فوجد في ذلك مَوْجدة عظيمة، وقال لـه أحد الأمراء الصغار: قـل لمماليكك الذين أخذوا الغنيمـة على باب يافـا وضربوهم أن يحملوا، فغضب وأعرض عن القتـال وانسحب إلى يازور، ولحقه العسكر، ثم رحل إلى القدس حيث قدمت إليه العساكر من الشرق ومن مصر. ودعا الأمراء للمشورة وقال: إن الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والفرنسيسية راجعون من البحر دون شك، ونفقاتهم قلّت، وأرى السيـر إلـى يـافـا، فـإن وجـدنـا فيهـا مطمعـاً بلغنـاه، وإلا ذهبنـا إلـى عسقلان. . .

«هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج له، وأوقع الله له في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمده بذلك، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، وعرف منهم أن الفرنسيين مغادرون حتماً ولا غرض لهم في عسقلان، وإنما غايتهم بعمارة سور البلد والقلعة في صور.

٣٩ ـ وطلب ملك الإنكليز الحاجب أبا بكر وحدثه، فعاد مع رسول من الملك يقول: إنه قال: قل لأخي ـ يعني الملك العادل ـ يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في الصلح ويستوهب منه عسقلان، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي مع الفرنجية، وإن لم ينزل عنها فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سـورها. . . وأسرَّ السـلطان إلى رجل ثقة عنده أنه إذا نزلـوا عن عسـقلان صالحهـم، فقد ضجـر العسـكر من ملازمته البيكـار، والنفقـات قد نفدت (١٧ شعبان).

٤٠ ـ وخرج خمسة من الفرنج إلى اليزك الصلاحي يطلبون الحديث مع قائده، فاستأذن، فكان حديثهم أن الملك نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها. فأعاده السلطان يطلب أن ينفذ إليه الملك رسولاً ثقة يذكر ذلك، لأنه جمع عساكره ولا يمكن أن يحدثه هذا الحديث إلا رجل ثقة فإنه لا يرجع دون ذلك.

٤١ ـ كتب رئيس اليزك إلى الملك العادل يخبره بما جرى وسار فأخذ التوثق على ما قيل، فأحضر السلطان الديوان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرملة منها ولُدّاً ويبنى ومجدل يابا، ثم قيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، والناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقة، وكتب الجواب إلى الرسول الذي جاءه لذلك، وقال: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتكم يدي، وينفذ الملك مِنْ عنده مَنْ يحلف ويكون ذلك في بكرة غد، وإلا فيعلم أن هذه تدفيع ومماطلة، ويكون الأمر قد انفصل بيننا.

٤٢ ـ وقرأ ملك الإنكليز الورقة فأنكر أنه تنازل عن العوض، فقال له الجماعة: بل تنازلت، فقال: إن كنت قلت ذلك رضيت بهذا، وقولوا للسلْطان: «رجعت إلي مروءتك فإن زدتني شيئاً فمن فضلك وإنعامك. .».

٤٣ ـ واجتمع أمراء صلاح الدين به وتقرر أن يُزاد على أرض الفرنج اللد والرملة. وسير السلطان الجواب بأنها لهم مناصفة ولايكون لهم حديث في الجبليات، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط دخول بلاد الإسماعلية في الصلح، واشترطوا دخول صاحب أنطاكية وطرابلس على قاعدة آخر صلح صالحهم عليه خشية أن يكون هذا الحديث من مناوراته المعروفة.

٤٤ ـ ولما وصل الرسل إلى الملك ريتشارد استحضرهم وهو مريض وقال: «لا طاقة لي بالوقوف على النسخة وأنا قد صالحت وهذه يدي! واعتذر

بأن الملوك لا يحلفون. فحلف الكندهري وباليان بن بارزان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر مقدمي الفرنج.

وتمَّ خراب سور عسقلان بأمر الملك، كما تم عقد الصلح في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ ٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١١٩٢ ، وقد قوبل الصلح من الجانبين بالارتياح التام إلا من قِبل السلطان الذي رضي به مرغماً لمصلحة المسلمين، بعد أن غشي الناس ما غشيهم من الضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان، ولما شاهده من تقاعدهم على يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا، فخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم، فرأى أن يجمعهم ويستريحوا ويتفرغ لعمارة البلاد التي خربت. وقد قال لصاحبه ابن شداد في بعض محاوراته حول الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قعد في رأس تلة ـ يعني حصنه ـ وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون! فهذا كلامه، وكان كما قال...».

لقد رأى صلاح الدين قبل موته مثلَه الأعلى في تحرير هذه الأرض الإسلامية يتحطم، ولا أخشى أن أقول: مات مُحْبَطاً. وكلّ ما استطاع إنقاذه بعد المفاوضات المريرة الطويلة، وبعد عجز الوسائل وإرهاق الفلاحين وفتور قوى الأمراء والجند، حدده صلاح الدين بنفسه في صلح الرملة:

أولاً: إنه ليس بصلح هذا الذي عاهد عليه، ولكنه هدنة لاسترجاع القوى، والصلح نهائي والهدنة محدودة، وقد حددها بالفعل بثلاث سنوات وثلاثة أشهر من تاريخها في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ، ثم مات ولم يمضِ على الهدنة ستة أشهر!.

ثانياً: ساوم الفرنج على الأرض شبراً شبراً حتى التوقيع الأخير، وكم من مرة انتهز فرصة الرفض لشروطهم كي يعاود الحرب لهم، وكم حاربهم ورسلهم عنده.

كل ذلك ليحصرهم في أضيق بقعة ممكنة، وهو مع ذلك كاره.

ثالثاً: ترك الفرنج في المنخفضات الساحلية (الوطاة) ولا يكون لهم حديث في الجبليات، لأنه أراد أن تبقى السيطرة الإسلامية كاملة على مواضع الفرنج.

رابعاً: ما اضطره إلى الصلح إلا مصلحة المسلمين، فكما كان يحارب لمصلحتهم، هادن لمصلحتهم أيضاً، والحرب لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. وبعد ست سنوات من الحرب المتصلة كان عليه أن يريح المنتجين والمحاربين على السواء.

خامساً: ما طلب مرة واحدة الصلح مع الفرنج، وكانت المبادرة دوماً من قبلهم، وقد بدأوا بأقصى ما يمكن أن يطلبوا، ثم بدأوا في التنازل درجة درجة، فيلينون تارة ويتشددون أخرى، وابن شداد يقول: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الفرص باللين تارة وبالخشونة أخرى.

سادساً: كان ما أعطاه في الهدنة هو الثمن الذي دفعه مرغماً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين، ومن حلمه البعيد في تطهير هذه الأرض من الفرنج.

سابعاً: حين حاول الملك الإنكليزي بالمكر أن تكون له يد في القدس بأن لا يزورها الحجاج إلا بإذنه، قطع صلاح الدين تلك اليد بالرفض، وقال: لا أستحل منع أحد.

ثامناً: وأخيراً كانت الأرض هي التي تهمه لا البشر.. الأرض المسلمة يجب أن تبقى للمسلمين.. لا تباع ولا تجري عليها ملكية أخرى، وإذا تنازل عنها فلمدة محددة، وإذا مات قبل أن ينقضي من المدة سدسها فهل الذنب ذنبه في أنَّ من أتوا بعده لم يجددوا الجهاد الذي بدأه؟ لقد اعتبر استراتيجية استرجاع التراب المسلم أمراً قدسياً إلهياً، وظل على هذه الاستراتيجية حتى النَّفَس الأخير.

إثر هذا الصلح عاد ريتشارد ملك الإنكليز إلى بلاده عن طريق ألمانيا، ولكنه أُسِرَ عاماً كاملاً هناك، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن جمع له رجال الكنيسة فديته الكبيرة. وأما صلاح الدين الذي لم يطمئن إلى نوايا الفرنج فقد عاد على الثغور يقوي حصونها بعد تقوية حصون القدس، ثم دخل دمشق بعد غياب أربع سنين، فكان لعودته ضجة فرح استمرت عدة أيام؛ لكن صحته كانت قد تدهورت بعدد من الأمراض أشدها في رأسه، فتوفي في ١٧ صفر سنة ٥٨٩هـ/ ٤ مارس آذار سنة ١١٩٣م.

وكما كان لوصوله إلى دمشق رنة الأعياد، كانت لوفاته أصداؤها الباكية في العالم الإسلامي كله؛ حتى خيِّل للناس أن الدنيا كلها تبكي بصوت واحد، وشيع بين الزفرات والعويل، وحمله العلماء على أعناقهم، فدفن في قلعة دمشق، ثم بنى له ابنه الأفضل قبراً خاصاً به على الباب الشمالي للجامع الأموي، مقابل رباط السميساطية، بنيت عليه قبة ما تزال قائمة، ونقل إليه سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م.

وترك موته فراغاً كبيراً لم يسده بعده لا في الخُلُق الأسمى ولا المبادئ ولا في الجهاد أحد من إخوته ولا أولاده، لأنه كان نموذجاً فريداً في الأمرين.. كانوا أقزاماً أمام ذكراه، ولم يشعر أحد منهم بالمذلة التي كان يشعر بها لاحتلال الفرنج أرض المسلمين، ولا قضى واحد منهم قرابة ثلاثين سنة من عمره على ظهر فرسه يحارب هؤلاء الأعداء، ولا شعر أحد منهم بالإحباط الذي شعر به وهو يهادن مرغماً حين انفجرت في جسده أمراضه وقضى وأصبح على الأيام بطلاً ورمزاً.

* * *

الهُدنة وحفظ المصالح

بقي أمر أخير يتصل الاتِّصال المباشر بتسامح صلاح الدين ومرونته، اتصاله في الوقت ذاته بمصالح المسلمين. ولم يكن صلاح الدين يجهل خطره ولا يغيب أثره عن فطنته، وقد عاش المشكلة الصليبية حتى الأعماق، وكما لم يعشها القليل جداً غيره. كان يدرك أن هذه الموجات الفرنجية لم تفد إلى الشرق بدافع التبرك بالحج إلى البيت المقدس، بل تكاثرت وتدافعت لمصالح تجارية مادية تريد الاستيلاء على التجارة العالمية من موانئها العربية مباشرة على البحر المتوسط، وإن ركبت الموج الديني، وحملت أشرعتها الحجاج والسلاح.

كانت أساطيل الإيطاليين بخاصة تتقاضى الثمن الغالي لهذه العملية المزدوجة، يأتون الإمارات الفرنجية، يبيعونها الرجال والسلاح، ويتقاضون مقابل ذلك الأرباح والامتيازات، ويحملون إلى الموانئ الإسلامية المواد الخام من الحديد والخشب والمعادن والأرقَّاء ويعودون بالتوابل الثمينة وحرائر المشرق. وقد توطدت هذه المصالح بالاحتلال الصليبي الذي امتد قبل صلاح الدين بزمن واستمر حتى حصار عكا تسعين سنة، فكيف يتركونها؟ إنهم سيظلون على الدفاع المرير عنها، وهذا يعني تجدُّد الحرب معهم إلى الأبد، فكيف السبيل إلى تأمين المصالح لهم دون التفريط بالأرض ودون احتلالها؟ ودون التهديد الدائم لها؟ لا سيما وهي مصالح تتصل من جهة أخرى بالمسلمين أنفسهم وبتجارتهم؛ فكيف التفريق بين هذه المصالح المزدوجة وبين الأمن والسلامة للأرض الإسلامية، في إطار استراتيجية صلاح الدين، وكيف يأمن

غائلة عودتهم المتكررة في المستقبل لو قطع علاقاتهم بتراً واقتداراً. ولو أنه استطاع ذلك اليوم، فمن ذا الذي يستطيع ضمان الغد؟ إن الأمر سيف ذو حدين يصيب مصالح المسلمين كما يصيب الفرنج، ولا يمكن قطع هذه العلاقات لأن في ذلك إفقاراً للمسلمين ولمدنهم الشاطئية على البحر المتوسط، بل تعطيلاً لتجارتها كلها، فكيف يمرر هذه المصالح من باب آخر لا يتصل بالاحتلال للأرض ويُبقي عليها سالمة للمسلمين؟.

كانت امتيازات الأساطيل التجارية الإيطالية(بيزا، البندقية، جنوا، باري) تتشكل من امتيازات تجارية تسمح لهم بالدخول الحر والبقاء في الموانئ ومغادرتها دون ضرائب، بل وامتلاك أسواق خاصة بهم ومخازن لبضائعهم، ومن امتيازات تملُّك تجعل لهم أحياء خاصة بهم وأبنية إدارية وكنائس وحمامات وأفران وشوارع وطواحين وأماكن للمغازل. ومن امتيازات قضائية تفضُّ حقوقهم ومنازعاتهم وفقاً لقوانينهم الخاصة وفي محاكمهم الخاصة.

وكانت بعض هذه الامتيازات ممنوحة للأساطيل التجارية الإيطالية في بعض الموانئ الإسلامية قبل الصليبيات بكثير، ولكنها توسعت وتقننت خلال الاحتلال الصليبي نتيجة المعونات التي قدمتها في الاحتلالات المختلفة للموانئ لا في عمليات الاحتلال فقط؛ ولكن أيضاً في نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤن والأسلحة إليها، وجاءت أيام صلاح الدين تهددها بأزمة خطيرة، وهذا ما يفسر سلسلة الامتيازات التي منحها الصليبيون في الحملة الثالثة للأساطيل الإيطالية، والدور الكبير الذي لعبته المدن الإيطالية التجارية في هذه الحملة بعد أن تراخى بعض الأمراء الصليبيّين في المشرق في تنفيذ تلك الامتيازات مستندين إلى الهيكل السياسي لدويلاتهم ونتيجة لفقد هؤلاء الأمراء الكثير من مواردهم بهذه الامتيازات.

إن جنوَا انتزِعَت منذ سنة ١٠٩٨م من إمارة أنطاكية كنيسة وسوقاً وبئراً وثلاثين بيتاً للتجارة، إضافة إلى الإعفاء من الرسوم والمكوس والضرائب في

جميع الإمارة[١]. وتم تجديد هذه الامتيازات مرات خلال القرن الثاني عشر، وصارت للجنويين محاكمهم الخاصة في أنطاكية واللاذقية. ونالوا من مملكة القدس منذ سنة ١٠٩٩م ثم سنة ١١١٠م الحق في الحصول على ثلث الأسلاب من أي مدينة يتم احتلالها، وامتلاك شارع خاص بهم؛ وهكذا كانت لهم هذه الشوارع في قيسارية وأرسوف، وكان لهم ثلث المدينتين، كما كان لهم ثلث دخل ميناء عكا[٢]، وملكوا كنيسة فيها، وشارعاً في المدينة، وإعفاءً كاملاً من المكوس والضرائب، كما امتلكوا شارعاً في القدس ويافا، وأُعطوا الأمان والحرية في بضائعهم، وأخذوا عهداً من الملك (بغدوين الأول) بأن يدفع لهم سنوياً /٣٠٠/ بيزيتاً!! وتحددت هذه الامتيازات أكثر من مرة؛ حتى إذا أتت أواخر القرن الثاني عشر أيام صلاح الدين كان للجنوية محاكمهم الخاصة في صور وعكا وبيروت ولهم ثلث مدينة جبيل[٣].

وكانت لبيزا ـ وهي الجماعة التجارية الثانية بعد جنوا ـ أحياء في كل من أنطاكية واللاذقية، وامتيازات تجددت حتى عهد صلاح الدين عدة مرات، امتلكوا بها أراضي جديدة وإعفاءات من الرسوم والضرائب وإن لم ينفذ بعضها. وامتلك البيازنة أراضٍ في القدس وخمسة بيوت في صور وربع مدينة يافا. وفي سنة ١١٥٦م منحهم بغدوين الثالث محكمة خاصة في صور، ثم منحهم عموري كونت يافا وعسقلان في السنة التالية منطقة في مدينة يافا لإقامتهم، وأعفاهم من نصف الرسوم الجمركية في الميناء[٤]. ثم جاء كونراد صاحب صور في سنة ١١٨٧م (وهي سنة حطين) فمنحهم امتيازات في صور وعكا ويافا أهمها قطع أرض لبناء البيوت قرب الموانئ، والحقَّ في بناء أفران

(١) انظر: Byrne: Genose Colonise in Syria P.141؛ وانظر Lamonte: Feudal Monarchy in the Latin Kingdom pp. 228, 266.

(٢) المصدران السابقان بالترتيب ص ١٤٨ وص ٢٦٦ بالإضافة إلى Anonymus: Piligrins, P.29.

(٣) انظر: ويليام الصوري William of tyre: V.1 PP: 353, 495- 8, 454- 6.

(٤) انظر: Lamont: Feadal Monarchy P: 267, 270.

وحمامـات، وفي استـخدام موازينهم ومكايلهم الخاصـة، وبأن يكون لهم الإشراف على جميع العمليات التجارية بينهم وبين غيرهم، والاشتراك في إدارة أحيائهم، وحماية ممتلكاتهم عند غرق سفنهم قرب الموانئ الصليبية، وأخذ البيازنة سنة ١١٧٩م من صاحب طرابلس بيتاً لهم في المدينة، وصارت لهم قبل أن ينتهي القرن الثاني عشر محكمتهم الخاصة، والإعفاء من الرسوم الجمركية، والإعفاء من المسؤولية عند حدوث أضرار منهم في الإمارة[١].

أما البندقية فنالت بدورها امتيازات مبكرة في إمارة أنطاكية، ثم طورتها فنالت سنة ١١٤٠م تخفيضاً في الرسوم الجمركية وحماية للبنادقة عند تحطم سفنهم أو غرقها، وحق التقاضي وفقاً لقوانينهم الخاصة، ثم منحهم أرناط (الفارس المعروف وهو في أنطاكيـة) تخفيضـاً آخر عن الرسـوم، ومحكمة خاصة، وألغى عنهم بوهميند الثالث نصف الرسوم والضرائب.

وكان للبنادقة في مملكة القدس ما هو أوفى من ذلك: فهم فيها معفون من الضرائب ويمتلكون الثلث في كل مدينة شاركوا في احتلالها، إضافة إلى سوق وكنيسة فيها، ولهم حق حماية ممتلكاتهم ومتاجرهم عند تحطم سفنهم مقابل إتاوة سنوية محددة. وفي سنة ١١١١م صار للبنادقة حي في عكا اشتمل على كنيسة وسوق وبيوت ولهم امتيازات أخرى فيها وفي القدس[٢].

وقد أمضى دوقات البندقية سنة ١١٢٤م مع مملكة القدس معاهدة واسعة امتلكـوا بها كنيسـة وشـارعاً وسـاحة وحماماً. وفرنـاً في كل مدينة من مدن المملكة. أما في عكا فلهم أيضاً فرن وطاحون وحمام، ولهم حق استخدام موازينهم ومكايلهم مع الإعفاء من الرسوم في كل مدينة إلا على سفن الحجاج.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٩ مع Tolkowsky: the Gate way of Palestine p:37؛ وانظر: تفاصيل الاتفاق في هذا المرجع الأخير ص ٤٤٨ ـ ٤٥٢.

(٢) وليام الصوري (بالإنكليزية)، ج ١، ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣.

ويأخذ الدوق البندقي من موارد صور ٣٠٠ بيزيتاً سنوياً، إضافة إلى حق البنادقة في محاكم خاصة مستقلة، وحقهم في إرث البنادقة، وفي ما ينقذون من سفنهم التي قد تتحطم، وفي امتلاك ثلث مدينتي صور وعسقلان إرثاً وراثياً إذا تم احتلالهما بمعونة البنادقة[١].

فماذا يفعل صلاح الدين تجاه هذا التجذُّر الإيطالي ـ التجاري العميق في إمارات الساحل الشامي؟ صحيح أن استرداده لنصف المدن والقلاع المحتلة قد هز التوازنات بين هذه الامتيازات وبين الإمارات، وخاصة في مدن مملكة القدس التي ضاع معظمها؛ ولكن صلاح الدين اعتمد على أمرين يدخلان بدورهما في إطار استراتيجيته العامة:

ـ استغلال التناقضات بين مصالح تجار المدن المختلفة في الساحل الشامي.

ـ توجيه الامتيازات بخاصة إلى ميناء الإسكندرية. وكان البنادقة خاصة والبيازنة والجنويين قديمي الاتصال بالمشرق الإسلامي وموانئه منذ العهد الفاطمي، وقد استمرت أساطيلهم في رحلاتهم التجارية ما بين الإسكندرية وعكا وصور والقسطنطينية خلال القرن الثاني عشر (الصليبي) حاملة الرقيق والحديد وأخشاب السفن إلى مصر، وناقلة منها التوابل الهندية والحرير الصيني والمنتجات المصرية، وإذا تعجب الرحالة ابن جبير أيام صلاح الدين مما يحدث «في الدنيا من أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين»[٢]. فإن البندقية خاصة وغيرها في الربع الأخير من القرن الثاني عشر كانت تلعب ـ وعن إغضاء من صلاح الدين ـ دوراً مزدوجاً: تمُدُّ يداً لعون الصليبيّين في المدن الصليبية الشامية، وتمُدّ الأخرى للمسلمين بنقل السلع والأخشاب وبخاصة الأسلحة وأدوات القتال إلى المسلمين في مصر والشام رضىً منهم بالموقف المرائي المزدوج، وهو يعلم، وكتب رسالة من

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٤٥.

القاضي الفاضل أشار إلى ذلك في رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فقال: «... ومن هؤلاء البنادقة والبياشنة والجَنَوِيَّة؛ كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده. وكلهم قد قررت معه المواصفة، وانتظمت معه المسالمة على ما نريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون...»[1].

وقد استمرَّت البندقية على علاقتها بالموانئ المصرية والشامية تنقل إليها الأسلحة والأخشاب والبضائع كما تثبت وثائق الجينيزا التي تعودإلى سنة ١٢٠٠م، واشتملت المعاهدة التي عقدتها مع السلطان الكامل، أخي صلاح الدين سنة ١٢٠٨م على منحها الفنادق وعلى تعهدها بالعمل على منع الصليبيين من التوجه إلى مصر. كما أبرمت معاهدة مماثلة مع غازي بن صلاح الدين في حلب سنة ١٢٠٧م. وهاتان المعاهدتان تجسدان ما كان صلاح الدين يرمي إليه من وراء التغاضي عن النشاط التجاري الإيطالي مع الموانئ الإسلامية، وتُعتبران متابعة وكشفاً لاستراتيجيته[2].

ولعبت بيزا دور البندقية المرائي نفسه، فقد كانت لها علاقة وطيدة مع الموانئ الفاطمية في العصر الصليبي رغم بعض الاضطراب الذي اعتور هذه العلاقات، وكانت ثَمَّ معاهدة تجارية بين البيازنة والفاطميين ورسائل متبادلة بين الطرفين وبخاصة سنة ١١٥٥ وسنة ١١٥٦م، أكد لهم فيها ابن رزيك الوزير الفاطمي العلاقات الودية وحماية التجارة كالسابق وحرية المتاجرة في مصر،

(١) نص الرسالة لدى القلقشندي في صبح الأعشى: ج ١٣، ص ٦٢١ ـ ٦٢٢؛ وانظر الروضتين لأبي شامة: ج ٢، ص ٣٧.

(٢) انظر Goitein في كتابه بالإنكليزية: مجتمع البحر الأبيض ج VI، ص ٣٠١؛ وبالإنكليزية أيضاً تجارة المشرق في العصور الوسطى، تأليف: W.Heyd، ص ٢٤١ حتى ٢٥٢.

شريطة عدم تعاون البيازنة مع الصليبيّين ضدها، في حين كان البيازنة في السنة ذاتها يتعهدون لملك بيت المقدس بألا ينقلوا إلى مصر الخشب والحديد والقار، ويؤكدون حق الصليبيّين في مصادرة هذه البضائع إن وجدت على سفنهم[١]. ولكنهم بعد أن انكشفوا وتضرروا بالاشتراك في الهجوم سنة ١١٦٩م على ثغر دمياط بعثوا سنة ١١٧٣ م سفيراً إلى القاهرة ليعقد معاهدة مع صلاح الدين تشمل حماية البيازنة ومتاجرهم وأموالهم في مصر، وحقهم في الإقامة بالإسكندرية، **وأن يكون لهم كنيسة وحمام بالإضافة إلى فندقهم فيها. وأن تكون لهم حرية العبادة واستخدام موازينهم ومكايلهم الخاصة، والإعفاء من جميع الرسوم المتعلقة باستيراد الذهب والفضة إلى مصر**، مقابل تعهدهم بالاستمرار في نقل متاجر الغرب من الحديد والخشب والقار إلى مصر . . . على أن هذه الامتيازات كانت خاصة بالإسكندرية، ولا تسمح للبيازنة بالتغلغل في البلاد، وتغلق عليهم الطريق إلى البحر الأحمر، فهو بحر إسلامي خالص[٢].

وكانت نتائج هذه المعاهدة **أن اشترك البيازنة في الدفاع عن الإسكندرية حين هاجمها النورمان من صقلية سنة ١١٧٤م**، وكافأهم صلاح الدين على ذلك بإعفائهم من بعض الضرائب ومن بعض المضايقات الأخرى. وتعاقبت سفارات بيزا إلى مصر حتى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، بالرغم من الأزمة التي حدثت قبل الحملة الصليبية الثالثة وخلالها حتى الهدنة في هذه الامتيازات؛ إلا أن النشاط التجاري للبيازنة في مصر وفي حلب أواخر القرن الثاني عشر يدل على أنها لم تنقطع أو أنهم على الأقل استردوها. ثم توسعوا بتجارتهم إلى قبرص وفي مصر بمعاهدة سنة ١٢٠٨م[٣].

أما تجارة جنوا مع موانئ المشرق الإسلامي فقد ازدهرت في النصف

---

(١) انظر: Amari: Diplomi Arabi del Aich. Florentino، ص ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٦ و٢٦٨؛ وانظر Heyd المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٧.

الثاني من القرن الثاني عشر وبخاصة مع الإسكندرية. وفي الربع الأخير من هذا القرن كانت سفن جنوا، رغم أزمات الحملة الصليبية الثالثة تنقل القمح من المغرب والأندلس إلى الإسكندرية، كما تنقل الحجاج المسلمين، وقد جاء ابن جبير الرحالة على إحدى هذه السفن. وقد وقّعت جنوا مع صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٢ م معاهدة تجارية ظلت أساساً لعلاقة الطرفين سنين طويلة. **وحوى ميناء الإسكندرية في شتاء سنتي ١١٨٧ ـ ١١٨٨ ـ أي عقب معركة حطين مباشرة وفي فترة الفتوح الصلاحية ـ سبعة وثلاثين مركباً تجارياً من جنوا وبيزا والبندقية، ولاشك أن ما كان يأتيها في مواسم الربيع والصيف والخريف كان أكثر عدداً** وأهم تجارة[(١)].

هذه **الورقـة الرابحة** لعبها صلاح الدين لتخفيف حدة التوتر مع العالم الغربي المعادي، ولمحاولة ضمان حياده باجتذاب الأساطيل التي تحمل محاربيه إلى المشرق، وسدّ منابعها بتحويلها من العمل الحربي إلى الربح التجاري. أما كان صلاح الدين يعلم أنه عملٌ طويلٌ هذا العمل؟ بلى!!. ولكنه أساسي في كسر شرة العداء الأوروبي للمشرق الإسلامي؛ وفي قطع طريق المحاربين إليه ليستبدل بهم التجار! أيمكن ألا نعتبر هذا العمل أحد الأسباب العميقة في تسامح صلاح الدين؟ وأحد الأعمال المتممة لسياسته في أخذ الفرنجة باللين تارة وبالسيف أخرى، لإبعاد شبح احتلالهم للأرض بتقريب المصالح المادية أمام أنوفهم؟ إنه كان يريد أن يقطع أسباب وصولهم إليه؛ فهدنة الرملة إنما كانت لئلا يعاودوا الرجوع إلى الأرض الإسلامية مقاتلين، والتسامح لتحييد القسم الأكبر منهم... والامتيازات لصرفهم عن احتلال الأرض بتأمين أقصى المصالح لهم فيها!... والسؤال الأخير الذي يقفز إلى الخاطر في النهاية: هل أخطأ صلاح الدين بهذا النوع من الاستراتيجية والتفكير؟.

* * *

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٢.

جُيُوشُ صَلَاحِ الدِّين

لم يكن لصلاح الدين جيش، ولكن كانت له جيوش تتبعه، هذه الحقيقة يجب أن تفهم أولاً لنستطيع إدراك مدى قوته وحدودها؛ فالإمارات التي توحدت تحت يديه كان لكل أمير فيها سواء منهم من أبقاه أميراً أو من خصه بإقطاع إمارة من أقاربه أو من الأبعدين القواد: جيشه الخاص الذي يكونه بنفسه وينفق عليه بنفسه من ريع إقطاعه. فإذا احتاج صلاح الدين إلى الجند لمعركة استدعى إليها من الأمراء من يحتاج معونته لينضمّ إليه هؤلاء الأمراء الأتباع ويعودون بعد المعركة بجيوشهم إلى إماراتهم.

وهذا النظام في التجنيد نظام سلجوقي، وكان نظام العصر، واستجابة كل أمير للقائد الأعلى (السلطان) تتفق مع علاقة الأمير معه، وقد تصل حد التلكؤ وحد التمرد، أو الاعتذار أو اللامبالاة؛ فلهذا الإقطاع العسكري مزاياه وله عيوبه.. ولكنه كان النظام المتعارف عليه حتى لدى الفرنجة الصليبيين. وكانت عدة هذه الجيوش وأنواعها في الإمارات المختلفة يختلف حسب سعة الإمارة وغناها، وحسب ما يفرضه السلطان (المقطِع) على الأمير من عدد الأمداد التي يُلزِمه بها من جند نظامي ومن فرسان، عدا من يلحق بالجيش (من العربان) والمُطَّوِّعة.. إن هذا يعني أن كتلة جيش صلاح الدين في المعارك لم تكن دوماً في يده، ولكن في يد أميرها الخاضع له، وولاؤها بدوره لهذا الأمير وليس لصلاح الدين، أي لمن يزودها بالرزق وليس لمن يقودها مع غيرها في المعركة.. وقد تسمى فرقة الأمير باسمه كالأسدية (نسبة لأسد الدين)، أو الصلاحية (نسبة للصلاح) وقد تسمى (حلقته). وتكوين جيوش الإمارات كان

بدوره يختلف حسب العناصر المتوفرة للإمارة، وإذا كانت الكثرة في مختلف هذه الجيوش هي من الترك والتركمان بحكم كونهم الموجة البشرية الأخيرة التي زحفت على المشرق الإسلامي بأعداد وفيرة واتخذت الجندية مورد رزق؛ فإن أعداداً كبيرة منها كانت من عناصر محلية: كردية، وعربية، ومن الأرمن أحياناً، والمتطوعين ارتزاقاً أو جهاداً في سبيل الله.

وكلمة إقطاع بالمعنى الإسلامي في المشرق كانت تختلف عن معنى الإقطاع الأوروبي في أمور عديدة، ومن الهام أن يتضح أن صاحب الإقطاع في العصر السلجوقي ـ الأيوبي وما بعده كان مسؤولاً عن رعاية إقطاعه، أي عن ريّه وسدوده وإصلاحه ومعونة فلاحيه والإشراف على حصاده، وعلى جمع الخراج نقداً أو عيناً من المحصول، وبالإضافة إلى هذا لا بدَّ أن نسجل أن جنود الجيش ـ أي جيش في ذلك الوقت ـ ليسوا بجنود نظاميين، بمعنى أنهم جنود يحترفون الجندية بصورة دائمة وأجور محددة، ولكنهم يجنَّدون لفترة معركة من المعارك في موسم محدد؛ فإن طال الأمر طلبوا (أو أعطوا) دستوراً (أي إذناً) للعودة إلى أهلهم، ثم الرجوع في الموسم القادم، فليست الحرب مستمرة بل متقطعة على غزوات، ويتم الانتقام لها على غزوات أيضاً في مواقع استراتيجية مختارة. (فالحشد) دوماً حشد مؤقت، وغالباً ما ينقطع أيام الشتاء إلا في حالات الضرورة والمباغتة. وكانت مدة الحملة تسمى (البيكار) ولا بد بعده من دستور. وحين تجري الدعوة للأمير من السلطان يبادر الأمير بتجنيد العدد المتفق عليه من الجند (فرساناً ومشاة)، ويوزع عليهم مخزون السلاح اللازم ويعطيهم النفقة اللازمة ـ حسب رتبهم وأنواعهم ـ لمدة الحملة، من مؤن للجند وأهليهم ومن علف لمركوباتهم، وهي كميات معروفة من النقد أو العين ـ من حبوب وتبن وشعير . . . ـ والأسلحة الموزعة ـ وبخاصة الدروع ـ تُلبس أثناء المعركة لأنها ثقيلة وتعيق التحرك السريع. وأما العُدد الكبيرة فكانت على الغالب تُصنع في موقع المعركة كالمجانيق والأبراج والدبابات، وتجري تدبير حاجياتها في الموقع نفسه بواسطة من يرافق الجيش من النجارين والحدادين

والنفاطين والنقابين والحجارين (الجاندرية) والصناع والخراسانية، هذا عدا المطوعة والعربان.

ضمن هذا الإطار العام نجد أن ثمة تفصيلات وتفرُّعات عديدة تتصل بكيفية الدعوة وكيفية الحركة وكيفية التنظيم وإصدار التعليمات. وهذه الأمور كلها يتلقاها الأمراء من السلطان طبقاً لموقع المعركة وللتكتيك الذي يراه، سواء قبل بدء القتال أو أثناءه.

ومن الصعب أن نذكر أرقاماً محددة بعدد المقاتلين والأجناد تحت إمرة صلاح الدين في معاركه المختلفة فقد كان لكل معركة أعدادها المناسبة. وقلما تنطبق أعداد معركة على أخرى، كما أن المؤرخين اعتادوا أن يقدِّروا الأعداد تقديراً تقريبياً، وقد يزيدون فيها أو ينقصون لاعتبارات لا علاقة لها بالواقع، ومع ذلك فيمكن أن نجد فيما يروون من الأخبار ميزاناً أو مقياساً يعطينا فكرة هي أقرب ما يكون إلى الصحة؛ ومن ذلك ما يذكره ابن الأثير حول تجهيز الحملة الثالثة إلى مصر، فقد منح قائده شيركوه مئتي ألف دينار استأجر بها ستة آلاف فارس من التركمان الذين كانوا قد توضعوا منذ زمن قريب حول حلب ويتبعون عين الدولة الياروقي، الذي رافقه إلى مصر، وأعطاه في الوقت نفسه انتقاء ألفي فارس من عسكره النظامي، أي من مماليكه المجنَّدين، بعد أن أعطى كل فارس منهم عشرين ديناراً لإنفاقها في تجهيز نفسه للحملة، وأخذ شيركوه معه فرقة حرسه المعروفة بالأسدية وهم ٥٠٠ فارس تركي وكردي؛ وهذا الخبر يعطينا فكرة عن عدة أمور:

١ ـ أجرة الفارس المجند للمسيرة من حلب إلى مصر هي حوالي ٣٣ ديناراً، وهؤلاء هم من التركمان والبدو. ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم أيضاً هو مبلغ استئجار الفارس البدوي العربي أو المتطوع للعملية نفسها. وطبيعي أن يكون المبلغ أقل من ذلك وربما إلى النصف إذا تم تجنيده للشام فقط.

٢ ـ أن الفرسان المماليك المجندين يعطَون لتجهيز أنفسهم مبلغاً محدداً، لكن تبقى نفقاتهم على حساب أميرهم، ولكل منهم (جامكية) أي عطاء معين أو حصص في الإقطاع؛ على الطريقة نفسها فعل صلاح الدين حين أرسل أخاه توران شاه سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م إلى اليمن، فقد زوَّده بجيش من ألف فارس، وبفرسان من (حلقته الخاصة)[1]، وهم الذين جنَّدهم من الترك والأكراد الوافدين إليه من مصر، والذين عرفوا بالصلاحية. وحين استغنى صلاح الدين عن ألف فارس وعدة مئات أخرى ليذهبوا إلى اليمن مع أخيه، فقد أبقى دون شك أضعافهم معه لحماية مصر، ولضمان مركزه كمسؤول عنها.

وقد ذكر المقريزي (نقلاً عن متجددات القاضي الفاضل) أن صلاح الدين أجرى عرضاً للجيش جميعه في مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١١٧م أيام العاضد بحضور رسل الروم والفرنجة، فكان العدد الإجمالي ١٧٤ طلباً وتغيب منه عشرون. (والطلب حسب الاصطلاح السلجوقي وحدة من الجيش تعد ما بين ٧٠ إلى ٢٠٠ فارس ولها علَمها وبوقها، فالمجموع حوالي ١٤ ألف فارس ونيف، وكان أكثرهم من الطواشية، وفيهم من القروغلامية[2]، والطواشي رزقه السنوي ما بين ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ دينار، وله برك (أي دواب) من عشرة رؤوس ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل، وله غلام يحمل سلاحه.

وأما القره غلامي فيعتبر أدنى مرتبة، ولعلَّهم فرق الفرسان من المصريين ومن غير المماليك.

ويذكر المقريزي مرة أخرى (نقلاً كذلك عن متجددات القاضي الفاضل) أن عدد الجيش استقرَّ سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨١م على ٨٦٤٠ فارساً؛ منهم الأمراء ١١١ أمير و٧٩٧٦ طواشياً و١٥٥٣ قره غلامي، والمستقر لهم جميعاً /٣٦٧٠٦٠٠/ دينار. وذلك خارج عن:

(١) أبو شامة: ج ١ ص ٢١٧.
(٢) المقريزي: الخطط ج ١ ص ٨٦.

١ ـ المحلولين من الأجناد الموسومين بالحوالة على العشر.

٢ ـ وعن عدة العربان المقطَعين بالشرقية والبحيرة. وهم من بني جذام الكنعانيـون، وكان عددهم في سـنة ٥٦٧هـ يبلغ ٧ آلاف فـارس، ثم استقر عددهم على ١٧٠٠، ومنهم العسقلانيون (العساقلة) الذين كانوا مسجلين من قبل في ديوان مصر، ورزقهم أقل من الطواشية ومن القره غلامية.

٣ ـ وعن المصريين (أي الجند المحلي الذي كان يجنده الفاطميون).

٤ ـ وعن الفقهاء والصوفية والقضاة.

ولا يقصر مجموع نفقات هؤلاء في المجموع عن ألف ألف دينار.

والملاحظ أن صلاح الدين، في الفترة الأولى من استلامه الحكم كان ينفق المال على الجيش بسعة كبيرة، وأن هذه الإنفاق تقلص بعد ذلك نتيجة لإنقاص عدد الجند فيه، ونتيجة لارتياب نور الدين في هذه النفقات وطلبه قبل موته بيان حساباتها. ومع ذلك فإن مؤسسة عسكرية ضخمة بهذا الحجم كانت في نظر صلاح الدين ضرورية جداً؛ لأن التهديد الفرنجي والبيزنطي كان قائماً على الدوام، وهذا على ما يبدو أساس الوحشة بين نور الدين وبينه؛ لأن نور الدين كان يرى ضرورة النفقات على العسكر الشامي المواجه للعدو، وليس إنفاقه على جيش (احتياطي) بعيد عن ميدان المعركة الأساسي.

وعلى أي حال فإن مبلغ أربعة ملايين دينار سنوية لم تكن بالشيء القليل في ذلك العهد، وكان من شأنها أن تثير الريبة لدى نور الدين عن حق.

وفي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م ـ حسب ما رواه المقريزي أيضاً في الخطط(١) ـ كانت إيرادات الدولة في مصر (أو ما كان يسمى استقرار العبرة يبلغ ٤٦٥٣٠١٩ ديناراً، ويكشف تفاصيلها أن منها ١١٩٠٩٢٣ ديناراً مخصصة

(١) المقريزي: الخطط ج ١، ص ٨٦.

للديوان السلطاني ولبعض الأغراض، وأن ٣٤٦٢٠٠٠ ديناراً تُصرف للجنود النظاميين.

وحين خرج صلاح الدين بجيشه إلى الشام بعد وفاة نور الدين ذكر أبو شامة أنه استصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحماية الحدود[١] في مصر خوفاً من هجمة مباغتة فرنجية. ويبدو أن عدد فرسانه كان حوالي أربعة آلاف؛ لأنه كان مع عسكر دمشق يبلغ ستة آلاف[٢]. وقد دخل بهذه الآلاف الأربعة دمشق التي كانت تحوي قسماً من جنود نور الدين الذين انفصلوا عن الجند الذي التحق بحلب. وكانوا بإمرة ابن المقدم الذي شمل إقطاعه أيضاً بعلبك، ولكن ابن المقدم تمرد وبقي في بعلبك، فأعطى صلاح الدين قيادة دمشق لابن أخيه فروخ شاه ، وأرسله في حملة ضد الفرنج لا تبلغ ألفاً من الجنود؛ وهذا يعني أن جند دمشق هم حوالي الألف إلى الألف وخمسمئة؛ علماً بأن ابن المقدم كان له جنده في بعلبك للدفاع، وليس من المعقول ـ حسب موارد هذا الإقطاع ـ أن يزيدوا على ٥٠٠ أو ٦٠٠، وربما كانوا أقل من ذلك.

ونعلم أن إقطاع حمص أيام شيركوه جنَّد ٥٠٠ مملوك ـ هم الأسدية ـ وهذه مع بعض الزيادة والنقص هي طاقة هذا الإقطاع في النفقات. ويمكن أن نعتبر أن هذه هي أيضاً طاقة حماة وشيزر، أما حلب فقد اجتمع فيها القسم الأكبر من جند نور الدين مع ابنه، وقد تم الاتفاق بين قادتهم وبين صلاح الدين، بعد المعارك، أن يقدموا له عند الحاجة سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م، ولما كانت إمارة حلب الزنكية قد قُلِّمت أطرافها وصغرت مساحتها، فإن جندها النظامي قد تضاءل بالطبع، ويمكن أن نعتبر أنه كان بعدد جند دمشق أو أكثر قليلاً، أي ما بين ١٥٠٠ إلى ألفين.

---

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ٢٧.
(٢) ابن الأثير: ج ١١ ص ٢٨٤.

وأما عسكر الموصل فقد ذكر ابن الأثير سنة ٥٧١ هـ حجم قواتها مع كل الولايات التابعة لها بما في ذلك حصن كيفا وماردين، فقال ـ وهو ينكر على كاتب صلاح الدين أن قواتها كانت ٢٠ ألفاً من المحاربين ـ: «إنها بلغت على التحقيق أقل من ٦٥٠٠ بقليل»، وأضاف: «فإنني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلباً وجاليشية وغير ذلك، وكان المتولي ذلك والكاتب له أخي مجد الدين، ثم ياليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس؟»[1].

ولما كانت إمارة الموصل مستقلة ولا يمكن أن تعاون صلاح الدين بكامل جيشها فإنها لم تقدم له حسب اتفاق سنة ٥٨١ هـ سوى قرابة ألفي جندي.

وأما منطقة الجزيرة وإماراتها الصغيرة التي دانت لصلاح الدين أو تعاونت معه بالموالاة، (مثل سنجار وآمد وميافارقين وحصن كيفا ونصيبين وماردين وديار بكر) فلا يمكن منطقياً وحسب مواردها أن تكون أجنادها تزيد على أربعة آلاف.

فماذا كان يمكن أن يتجمَّع لصلاح الدين من هذه الأرقام المذكورة ويكون تحت إمرته في الجهاد؟.

لدينا خبر أول يتحدث عن اجتماع للعسكر الذين طلبهم في مطالع سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م في جنوب حوران، فاجتمعوا وكان صلاح الدين غائباً مع حلقة حرسه، والعسكر المصري نحو الجنوب في حوالي ألف فارس وأربعة آلاف من الأجناد، وكان ابنه الأفضل يجمع الجنود عند (رأس الماء) وهي فرسان الجزيرة والشرقيين (الموصل)، ودياربكر بقيادة كوكبري، وعسكر حلب تحت إمرة دلدرم بن ياروق، وعسكر دمشق تحت راية قايماز النجمي؛ وقامت

(١) ابن الأثير: ج ١ ص ٢٨٤.

هذه الجيوش في غياب صلاح الدين بشنٍّ غارة على أرض طبرية. . وتقدر المصادر هذه القوة بسبعة آلاف. وعاد صلاح الدين فاجتمع بها وعرض القوة كلها، فبلغ عددها ١٢ ألفاً من الفرسان، عند عشترا؛ وكان فيها: ألف من الحرس الخاص لصلاح الدين، و٤ آلاف من العسكر المصري، وألف من كل من عسكر دمشق وحلب والشمال، وخمسة آلاف من الموصل والجزيرة وديار بكر. وهذه هي القوة التي دخل بها صلاح الدين معركة حطين، ودخلت معها قوات إضافية من:

١ ـ الياروقيين فرسان البدو التركمان، وقد أطلقهم صلاح الدين لتخريب الزروع، كما استخدمهم لهدم قلعة (مخاضة الأحزان) التي بناها الفرنج فلم يبق منها حجراً، واستخدمهم لقطع خطوط تموين القوات الصليبية في الحملة المعروفة بالثالثة، وكان ينفق عليهم بسخاء.

٢ ـ من الأكراد الذين تكاثروا في عهد صلاح الدين، ودخل بعضهم في العساكر النظامية، وصار لهم (جامكيات) كالعسكر المملوكي التركي، وكانت كثرتهم في جيشه المصري وفي جيوش الجزيرة؛ وكانوا من المرتزقة والمغامرين أو المتطوعين.

٣ ـ من العرب (العربان) ومعظمهم خيالة تجندوا في مصر ـ كعرب البحيرة ـ أو في الشام ـ كبني منقذ ـ وبدو منطقة الأردن وجنوب فلسطين، وكان يسيطر عليهم النهب أكثر من فكرة الجهاد، وقد استخدمهم صلاح الدين لهذه المهمة في أطراف الإمارات الصليبية.

٤ ـ المُطَّوِّعة. وهؤلاء لا يمكن تقدير عددهم ولا ثبات لهذا العدد، وكانوا يتطوعون للرزق كما يتطوعون حسبة لله.

٥ ـ الراجلون (المشاة) ودورهم الأساسي في الأعمال المساعدة للفرسان (في نقب الأسوار أو بناء الأبراج والكباش أو المجانيق، فمعظمهم من أصحاب المهن التي يحتاجها الجيش)، وكان لهم دورهم في عمليات الحصار أو عمليات الدفاع.

إن استعراض قوى صلاح الدين سواء في أعدادها أو في تكاليفها يكشف بوضوح عدة أمور:

أولاً: أن موارد مصر والشام والجزيرة والموصل مجتمعة ـ تكاد في عهد صلاح الدين تكفي نفقات جيش له أثره في دفع الغزاة الصليبيين، قوامه الأساسي ١٢ ألف فارس.

ثانياً ـ أن عمل صلاح الدين في جمع هذه القوى تحت إمرته لم يكن لغرض شخصي يُمكِّن له ملكه، فقد كان يكفيه أن يبقى في مصر ويجعلها مملكة، منيعة لولا أنه كان مأخوذاً بمَثَله الأعلى في الجهاد وتطهير الأرض المقدسة من المحتلين. وإنما كان يقاتل أنانيات الأمراء والحكام لحملهم على تبنّي هدفه، لأنه أدرك من الدرس الأول الذي تلقاه يوم هزم في الرملة سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م: أن الحمل أثقل من أن تحمله مصر وحدها، وأن السيطرة على الساحل الشامي وطرد الصليبيّين لابد أن يكون محمياً من وراء ظهره في العراق والجزيرة بأمراء يتفقون معه رغبة أو رهبة؛ فهم عمقه الاستراتيجي الضروري.

ثالثاً ـ يتبيَّن أنَّ جيش صلاح الدين لم يكن جيشه الخاص، ولكنه تجمَّع من جيوش الأمراء فيما بين دمشق وحلب والجزيرة والموصل بالإضافة إلى الجيش الذي كوَّنه في مصر.

أما تموين الجيش: فكان الجندي يعتمد في الدرجة الأولى على ما يحمله نفسه من المواد الغذائية، ثم على ما يغنمه بشكل عام؛ لكن الحملات الكبيرة الطويلة الأمد، التي كان يقودها صلاح الدين، كانت تجر وراءها قافلة ضخمة من الباعة والتجار والصناع لتأمين حاجات الجيش المتنوعة، وتخصص لكل مادة للبيع أو الأعمال مكانها من معسكر الجيش. وقد وصف الرحالة الفيلسوف والطبيب عبد اللطيف البغدادي ـ ت سنة٦٢٩هـ ـ السوق الذي كان يرافق

صلاح الدين في حصاره لعكا وصفاً واضحاً، فقال:

«إنه ذو مساحة فسيحة فيه /١٤٠/ دكان بيطار، ودكاكين للطباخين يملك واحدهم ما يقارب ٢٨ قدراً يتسع كل قدر لرأس غنم واحد، وعدد الدكاكين سبعة آلاف، كل واحدة منها تعادل مئة من دكاكين المدينة، وكان منها دكاكين لبيع البز القديم والجديد. وكان يرافق العسكر الحمامات وهي بسيطة عبارة عن سور من القماش والحصير وحفرة، وكان عدد الحمامات أكثر من ألف حمام، وأكثر ما يتولاها المغاربة؛ فقد كان يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، فيحفرون ذراعين فيخرج الماء، ثم يجعلون الحوض من الطين ويسترونه بالحطب والحصير، ويقطعون حطباً من البساتين حولهم ويجمعون الماء في قدور...»[1].

* * *

(١) المقريزي: السلوك قسم ١، ج ١، ص ٩٤، (ط. القاهرة ١٩١٤ م.

صَلاحُ الدِّين والخِلَافَةُ العَبَّاسِيَّةُ

كان صلاح الدين محارباً موفَّقاً، ولكنه كان ابن عصره تماماً. وإذا كان عصره يعتبر الخلافة العباسية في بغداد المرجع الديني الأعلى ويمنحها المقام الشبيه بالتقديس ـ كالبابوية على نحو ما ـ، ويرجو منها البركة ويقر لها بالمرجعية الشرعية في الحكم، فلم يكن لصلاح الدين أن يخرج بثقافته المحدودة عما أجمع عليه العالَم السنِّي في عصره من كل ذلك، ومن عداء من تعاديه هذه الخلافة ومسالمة من تسالم. وكان طبيعياً جداً أن يعتبر صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر نوعاً من القربى إلى الله وإلى الخليفة في الأرض، وإذا كانت أعماله أيام نور الدين تصل إلى بغداد من خلال هذا العاهل الكبير، فإنه من بعده صار يتصل مباشرة بالخليفة المستضيء بالله حتى توفي هذا سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م حين جاء الخليفة الناصر لدين الله. واستمر صلاح الدين كعادته يرسل البشائر له، أو يبدي أسباب تحركه وحروبه، أو يطلب المباركة منه والتأييد المعنوي.

ولم تكن الخلافة العباسية في بغداد ومنذ أواسط القرن الخامس للهجرة، مع وجود البويهيين ثم السلاجقة، أكثر من عباءة دينية واسعة ازدادت مع طول البقاء تقديساً من جهة، وسُلِبَتْ منها السلطة الفعلية من جهة أخرى.. وتضم في ثناياها أعداداً من دول المتسلطين وأصحاب الإمارات السنِّية التي تحدد علاقتها بالخلافة بثلاثة أمور: الخطبة للخليفة وولي عهده قبل الأمير، وضرب السكة باسمه، وإرسال بعض المال والهدايا السنوية إلى سدته.. ولها أن تتنافر وتتحد ويغزو بعضها بعضاً على هواها؛ ويبارك الخليفة بالبراءة الشرعية المنتصر ما دام يعلن الولاء له.

أما سلطان الخليفة نفسه فكان قد تقلص إلى رقعة من الأرض تمتد حول بغداد من جنوب تكريت إلى الحلة وواسط من قلب العراق، ومن أطراف الأنبار على الفرات إلى خانقين في السفوح الغربية لجبال زاغروس.. كانت قد أصبحت نتيجة أطماع المتغلبين مجرد إمارة صغيرة تحت النفوذ السلجوقي الأسمى، وكانت هيبتها الدينية الكبيرة وحدها هي التي تمنع أحياناً كثيرة من اقتحامها.. وصاحب بغداد أمير صغير ككل الأمراء لولا أنه «الخليفة». وكانت بغداد نفسها قد انتقلت كلياً إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة، وتتكون من ١٧ محلة، أربع منها كالمدن الصغيرة ولها أسوار، والباقي أشبه بالقرى ومجموع سكانها لا يزيد في التقدير على ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف نسمة، والكثرة من السكان كانت اجتذبتهم إليها شهرتها بالعلم والتجارة وأنها مقر الخلافة.. وهذه الشهرة جعلت بغداد مهوى العلماء؛ بعضهم يستقر فيها وبعضهم يسكنها عابراً لعدة سنوات، لكن لا بد لكل عالم من أن يأتيها طالباً للعلم أو للمال أو للشهرة العلمية في مدارسها الكثيرة.

وسلطة الخليفة الفعلية الدنيوية كانت تتمثل في قصر الخلافة الذي تزيد مساحته على ربع بغداد، والذي يضم جميع بني العباس مع زوجاتهم وذراريهم ويعدُّون بعشرات الألوف. ويدير الإمارة وزير لا يغادر القصر وأستاذ الدار الذي كان يخرج أحياناً في موكب من خمسين غلاماً يحملون السيوف، عدا جمهور الكتَّاب والحاشية. وعلى الرغم من احترام الناس «للدار العزيزية» فقد كانوا أحياناً يتحدونها في الأحداث الكبرى.. ونسمع عن تكسير منبر المسجد الجامع، وعن خروج الناس في هياج أثناء الأحداث الصليبية؛ وكانت بغداد تتعرض أحياناً أخرى لهجمات بدوية من بني خفاجة[1].

جاء الخليفة الناصر بعد موت أبيه سنة ٥٧٦هـ وعاصر الفترة الأخيرة من

---

(١) انظر وصف بغداد سنة ٥٨٠ هـ لدى ابن جبير: الرحلة ص ١٩٣ ـ ١٩٥ وص ٢٠٠ ـ ٢٠٥

عهد صلاح الدين الذي توفي سنة ٥٨٩هـ، واستمر يحكم بعد وفاته ٣٣ سنة حتى توفي سنة ٦٢٢ هـ، ويعتبر عهده أطول عهد لخليفة عباسي على الإطلاق، لأنه دام ستاً وأربعين سنة. وكانت علاقته بصلاح الدين حسنة دوماً ولم تتعكر إلا مرة واحدة بفعل الدسائس، وكان السلطان يعتبر الخليفة مولاه، ويكتب له دوماً ـ على كثرة ما كتب ـ أنه الخادم له الطالب للبركة والسعادة باسمه. كانت سن الخليفة يوم وصل «السدة العزيزية» أو الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ذا همة عالية وطموحات كبيرة، يريد أن يعيد إلى الخلافة مجدها القديم، وأنشأ جيشاً محدوداً يتفق دون شك مع موارد إمارته المحدودة، وأراد به «الفتوح» لأنه كان مقتنعاً تمام الاقتناع بقدسية ذاته، وبحقه العلوي على الأمراء والناس؛ لكنه كان مضطرب القرار «يفعل الشيء ثم يفعل ضده»، وله في كل فترة من فترات حياته هوايات وأهواء ينصرف بكليّته إليها، ثم يتركها إلى غيرها؛ فقد اتجه أيام صلاح الدين إلى تقليده في الحروب والتوسع في الإمارة الصغيرة، ثم انصرف إلى بناء بعض الأبنية الدينية والمساجد والأربطة، ومنها الرباط الذي أقامه لزوجته سلجوق خاتون ـ وهي أرملة نور الدين قره أرسلان وابنة السلطان مسعود صاحب سلاجقة الروم ـ وأقام موائد لإفطار الفقراء ثم ألغاها، وموائد للحجاج ثم أبطلها، وشغل بالفتوة ولباس الفتوة ثم منعه إلا على من يُلبسه منه. «وبالغ في الرسوم الجائرة. . . وكان قبيح السيرة في رعينه ظالماً، فخرب في أيامه العراق».

وعزم على التزهد وترك الخلافة، ثم عاد عن ذلك وشغف بالرمي بالبندق وبالطيور. وطلب الحديث النبوي حتى ألف فيه كتاباً، ثم تركه وانتهى في السنوات الثلاث الأخيرة عاطلاً عن الحركة بالكليّة، وقد ذهبت إحدى عينيه وعشيت الأخرى تماماً. . . ولم يعدم مؤرخاً منافقاً يكتب عنه خمس مجلدات باسم «الروض الناضر في أخبار الملك الناصر»[1].

---

(١) انظر ما كتبه ابن الأثير عنه: ج ١٢، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ بمناسبة وفاته سنة ٦٢٢، وابن الأثير معاصر له، وقد توفي سنة ٦٣٠.

ذكرنا هذا عن الخليفة الناصر لتتضح صورته التي جعلها بعض الباحثين أسطورة. فصوره اعتماداً على ابن كثير أنه صاحب «مملكة ضخمة من أقاصي العراق(؟) حتى خراسان شاملة ممالك ومقاطعات ومدناً. وعندما نعرف أن خراسان في اصطلاحات القدامى تمتد من إيران فتشمل معظم أفغانستان، وتظل ممتدة حتى تشمل أجزاء مما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، ومنها مدينة مرو عاصمة خراسان»[1] و«أن جيشه استحوذ على بلاد الري وأصبهان وهمذان وخوزستان وغيرها من البلاد» وابن كثير جاء بعد الناصر بمئة سنة أو تزيد. واعتمد الباحث أيضاً على كتاب من كتب الأنساب يذكر: أن الخليفة الناصر كان يركب عسكره في أيام المواسم في مئة وعشرين ألف فارس أجناد ما بين أتراك وأكراد ومتولدة خارجاً على العرب والتركمان والمتعجمين. هذا عسكر العراق لا غير...»

ونبدأ بقصة (المملكة الضخمة):

١ ـ استفاد الخليفة من خلاف صاحب الموصل مسعود الزنكي مع قائده قايماز[2] الذي كانت بلدة دقوقا من إقطاعه، فأرسل إليها الخليفة سنة ٥٧٩ هـ قوات حاصرتها وأخذتها، وهي في جبال العراق.

٢ ـ حاول الخليفة في ٣ صفر سنة ٥٨٤ هـ (بعد حطين بسنة) مساعدة قزل بن إيلدكز صاحب أذربيجان ليكف السلطان السلجوقي طغرل عن بلاده، وسار جيش الخليفة حتى قارب همذان فهزمه طغرل وأسر وزيره قائد الجيش

---

(١) من حديث نشره الأستاذ الباحث حسن الأمين في بعض الصحف رداً علي، ليبين «مقدار علمي بالتاريخ ونصيبي الفكري ومدى قدرتي». وأني «من أجهل الناس بالتاريخ ومن أقلهم نصيباً فكرياً وأبعدهم عن الحقائق التاريخية...» و«أني من الجهل المطبق» سامحه الله. فأنا جاهل وأعلم أني جاهل، وبعض الناس جاهلون ولا يعلمون أنهم يجهلون!.

(٢) ابن الأثير: ج ١١، ص ٥٠٠

جلال الدين بن يونس. وقد تنبأ صلاح الدين بالهزيمة سلفاً حين علم بمسير الجيش، لأن القائد غير عارف بالحرب ولا يطيعه جنده، ومَلَكَ طغرل همذان التي كانت تتبع إيلدكز[1].

٣ ـ وفي سنة ٥٨٥هـ في شوال ملك الخليفة تكريت لأن صاحبها قتله إخوته، فسيَّر إليهم الخليفة جيشه فحاصرها وأخذها، وأعطى أصحابها إقطاعاً[2].

٤ ـ وفي سنة ٥٨٥هـ في ربيع الأول حاصر جيش الخليفة (عانة)، فقاتل أهلها عليها قتالاً شديداً وقتل من الجانبين خلق كثير (وهم مسلمون)، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلموها على إقطاع عَيَّنوه، ووصل صاحبها وأهله إلى بغداد فأعطوا إقطاعاً فيها، ثم تفرق سكانها في البلاد حتى أصابهم العوز[3].

كان ذلك كله وجيش صلاح الدين يقاتل الصليبيين على عكا سنتين، ثم يقاتلهم بعدها سنة أخرى.

٥ ـ وفي سنة ٥٨٧ هـ في شوال وصل كتاب من ديوان الخلافة[4] يطلب من صلاح الدين ضبط تصرفات ابن أخيه تقي الدين عمر (ويدعى الملك المظفر) وإيفاد القاضي الفاضل لبغداد؛ فلبّى صلاح الدين الطلب، واعتذر بمرض الفاضل.

٦ ـ وفي سنة ٥٨٩ هـ (سنة وفاة صلاح الدين) ملك الخليفة قلعة في خوزستان، لأن صاحبها أساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم وقتلوه ونادوا لحماية أنفسهم بشعار الخليفة فأرسل إليها وملكها»[5]. وكان صاحب

---

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) االمصدر السابق: ج ١٢، ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق: ج ١٢، ص ٥٨ ـ ٥٩
(٤) ابن شداد: ص ١٩٨
(٥) ابن الأثير: ج ١٢، ص ١٠٤

خوزستان وهو سوسيان بن شملة تابعاً لعثمان بن إيلدكز ملك أران وأذربيجان وهمذان وأصفهان والري وما بينها.

٧ ـ وأطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان (السلجوقي) طغرل بن أرسلان . . . فاعتقله في بعض القلاع ودانت له البلاد . . . »[١].

٨ ـ وفي سنة ٥٩٠ هـ (بعد سنة من وفاة صلاح الدين) تولى وزارة الخليفة الناصر مؤيد الدين «ابن القصاب وحُكِّم في الولاية، وبرز في رمضان فسار إلى بلاد خوزستان (الأهواز) (لأنه كان قد خدم فيها ويعرفها)، فأشار على الخليفة أن يرسل عسكره ليملكها، وكان عزمه إذا أتى البلاد واستقر أن يستقل بها. واتفق أن صاحبها ابن شملة توفي واختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم ابن القصاب، فجهزت العساكر وسيرت معه إلى خوزستان، فوصلها سنة ٥٩١هـ، وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها، وملك مدينة تستر في المحرم، وملك غيرها وملك القلاع وغيرها من الحصون. وأنفذ بني شملة إلى بغداد»[٢].

وفي سنة ٥٩٠ هـ نفسها كان السلطان السلجوقي يحارب خوارزم شاه على الري، ووصل إلى خوارزم شاه رسول الخليفة في نيسابور بخراسان يشكو إليه من طغرل ويطلب قصد بلاده، فسار من نيسابور إلى الري (وفيها قتلغ إينانج فتلقاه بالطاعة، وساروا معه، فلما سمع السلطان السلجوقي طغرل بذلك وكان شجاعاً فذهب لمقاتلته قرب الري فقتل طغرل وأرسل خوارزم شاه رأسه إلى الخليفة، ثم سار إلى همذان وملكها، وسيَّر إلى الخليفة عسكراً وخلعاً، ولكنه اختلف مع الوزير ابن الزيات: من الذي يأتي إلى الآخر لاستلام الخلع. وقيل للخوارزمي: إنها حيلة ليقبض عليك، فجاء إلى الوزير يحاربه، فهرب في الجبال، ورجع خوارزم شاه فملك همذان وسلمها إلى قتلغ إينانج وإلى

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٧٥ ـ ٧٦

(٢) المصدر السابق: ج ١٢، ص ١٠٩

مماليكه. . .[1] (وقتلغ هو ابن البهلوان من آل إيلدكز أصحاب أذربيجان).

ثم جاء الوزير ابن القصاب وأخذ همذان، وما بعدها حتى الري (شوال سنة ٥٩١هـ) مطارداً الخوارزميين، ثم عاد. وجاءه رسول من هؤلاء ينكر عليه أخذ همذان فلم يجبه، وتوفي بعد ذلك، فحارب الخوارزميون عسكر الخليفة (شعبان سنة ٥٩٢هـ) فانهزم وملكوا همذان، ثم أتى خوارزم شاه من خراسان ما أوجب أن يعود إليها فعاد إلى خراسان. . .[2].

وفي سنة ٥٩٣هـ أرسل الخليفة أحد قواد صلاح الدين وهو أبو الهيجاء السمين ليأخذ همذان، فلم تكتمل مهمته. وتوفي. . .

هذه كانت (فتوحات) الخليفة الناصر، ووسع بها مملكته الضخمة(؟) إلى تكريت وعانة وتُسْتر وقلاعها في خوزستان(الأهواز)!.

أما جيش الخليفة التي يزعم النسَّابة أنه / ١٢٠/ ألف فارس عدا العرب والتركمان والمتعجمين، فهي مبالغة من رجل لا يقيم وزناً للمنطق؛ فلم يكن في المشرق كله (من أقاصي بلاد الجزيرة وسلاجقة الروم إلى الموصل إلى بلاد الشام ومصر كلها) ربع هذا الرقم من الفرسان. وقد دخل صلاح الدين معركة حطين بـ/ ١٢/ ألف فارس فقط، (وهي مجموعة القوى من الجزيرة والموصل إلى الشام وإلى مصر). وكانت كل قوى الموصل حسب جريدة العرض التي رآها ابن الأثير لا تزيد في عددها على ستة آلاف فارس غير ٥٠٠، وذلك في معرض رده على العماد الأصفهاني الذي ذكر أنها كانت / ٢٠/ ألف فارس سنة ٥٧١ هـ، وأضاف ابن الأثير: «ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس»[3]، ونحن نقول بدورنا: ليت شعري كم هي بغداد وإمارتها في تلك الفترة ليكون لها وفيها / ١٢٠/ ألف

(١) ابن الأثير: ج١٢، ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٢) المصدرا لسابق: ج ١٢، ص ١١٢

(٣) المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٢٩

فارس. وإذا كان لكل فارس خادم وإسطبل فأين كان يبيت / ١٢٠/ ألف خادم، وأين في بغداد ١٢٠ ألف إسطبل؛ عدا جند العرب وعدا التركمان والمتعجمين!!.

ومن أين للخليفة نفقات ١٢٠ ألف فارس وحصيلة ضرائب مصر كلها لم تكن تكفي نفقات عشرة آلاف فارس. خرج صلاح الدين بنصفها من مصر إلى الشام وترك الباقي لحماية مصر. ويتبين هزال رقم الجيش لدى الناصر من هزال فتوحاته: فهي تكريت في شمال بغداد، ودقوقا، ثم حديثة عانة على الفرات، وتُستر وقلاعها في خوزستان، وانهزم مرات أمام همذان!.

ونصل أخيراً إلى لُبِّ العلاقة بين صلاح الدين والخليفة الناصر، والتي اخترع لها السيد الباحث صاحب كتاب (صلاح الدين بين العباسيين والفاطميين والصليبيين) نظريته التي اتفق المؤرخون من أبي شامة وابن الأثير وابن أبي طي والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ـ أي منذ ٨٠٠ سنة إلى اليوم ـ على كتمانها وإخفائها. واكتشفها الباحث المدهش من كلمة عابرة في كتاب مسجوع أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين، وقد عتب على «أحداث ثَقُلَتْ، وأحاديث نُقِلَتْ، ووشايات... وسعايات»، والباحث الواسع الخيال والنظر الثاقب يترك كلمات «أحاديث ووشايات وسعايات»، ويتمسك بالكلمة الأولى: «أحداث ثقلت»؛ فيقول: «ويبدو أن» و«يبدو أن...»، والنظرية العتيدة هي أن الخليفة الناصر كان يريد أن يأتي بجيش الـ ١٢٠ ألف فارس إلى فلسطين لإنقاذها من الصليبيين، وأن صلاح الدين كان يثبط عزيمته، وكان يقول بأنه يمنعه ويحاربه إذا جاء، وأن الخليفة لم يذهب لأنه بحاجة إلى إذن صلاح الدين بالمجيء خوفاً على أرواح المسلمين من حدوث حرب أهلية، ثم تتحول الحبة إلى قبة في هذه النظرية؛ ولكنها وَهْمٌ يحاول صاحبه أن يحوِّله إلى حقيقة، دون سند تاريخي إطلاقاً، ويستنتج من الوهم نفسه أن صلاح الدين تحالف من الصليبيين واستسلم لهم ليدفع الخليفة.

وقبل أن نناقش هذا الوهم الخيالي ونفنِّد أسسه؛ نسجل أن الخليفة الناصر أرسل بعد هذا الكتاب العاتب الذي وصل في شوال سنة ٥٨٣ هـ ـ أي بعد فتح القدس بثلاثة أشهر ـ أرسل من عنده لوحة منقوشة عُلِّقت على باب بيت المقدس وفيها:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾

« الحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأقام خليفته القائم بحق الله، وسيِّد عترة رسول الله، وثمرة شجرته الطيبة المعرقة أبا العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، أسبغ الله ظله على الإسلام والمسلمين، وشد عضده بولده وولي عهده أبي نصر محمد عدة الدنيا والدين، وأعاد عليه تراثه، وأصار إليه ميراثه من البيت المقدس على رغم أنف المشركين. . وهو المحمود إلى أن أجرى هذا الفتح على يد محيي دولته، وسيف نصرته، والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته، والمجاهد تحت رايته: يوسف بن أيوب معين أمير المؤمنين. . . »[1]

وبصرف النظر عما يحاوله (لوح) الخليفة الناصر من جر النار إلى قرصه، وما يُظهر فيه من الإشادة بنفسه وإدعاء ما ليس له، فإنه شهادة لصلاح الدين واضحة بالولاء والطاعة والرضى من الخليفة عنه؛ بعد أن وسوست **السعايات والوشايات والأحاديث** في صدر الخليفة الناصر ما وسوست.

وثَمَّ كتاب ذكر نصه القلقشندي بتقليد صلاح الدين سلطنة الجزيرة والشام ومصر، يلقبه فيه الخليفةُ الناصر «بالملك الأجل السيد صلاح الدين ناصر الإسلام، عماد الدولة، جمال الأمة، فخر الملّة، صفي الخلافة، تاج

---

(١) انظر من الكتاب المذكور الصفحات ١١٤ حتى ١٣١، وفيها من الاتهام والتجريح الشديد والتحدي الفارغ ما لا يجوز أن يصدر عن مؤرخ يحترم نفسه أو باحث علمي يلتزم المنهج ويحترم الحق.
أما نص اللوحة فقد أورده ابن قنينو الكازروني في (الذهب المسبوك): ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

الملوك والسلاطين، قامع الكفر والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين، عز المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب أدام الله علوه على هذه السجايا مقبلاً . . . إلخ».

وعلى الرغم مما يقوله القلشندي من أن بدء الكتاب بجملة «إنَّ أولى من جادت رباعه سحب الاصطناع . . .» «لا يخاطب به إلا أصحاب الرتب السافلة التي لا تقارب رتبة الملك ولا ما دونها» فإن ما أسبغ على صلاح الدين من الصفات التي تزيد على العشرين، لا يدل إلا على التعظيم والرضى من قبل الخلافة له[1].

وثَمَّ قضية أخرى سبق ذكرها تكشف ولاء صلاح الدين للخليفة الناصر، وهي تنازله عن شهرزور للخليفة ترغيباً له من دعم الجهاد للصليبيين؛ وحين غضب أمراؤه ولاموه (حتى العماد الأصفهاني الكاتب. . .) بحجة أن ذلك سيجعل أمراء الجزيرة الذين طلبوها من قبل يغضبون. قال لهم السلطان: الخليفة ملك **الخليقة وهو مالك الحق والحقيقة**، فإن وصل إلينا (ويبدو أنه وعد بذلك) أعطيناه هذه البلاد، فكيف شهرزور؟.

ونسأل الآن: ماذا كان في كتاب العتب؟ وما قصته؟.

كان صلاح الدين لا يتحرك حركة إلا كتب بذلك إلى بغداد. والعماد يذكر أنه يوم فتح القدس كتب سبعين كتاب بشارة، كل كتابٍ بمعنى بديع، فمنها الكتاب إلى ديوان العزيز ببغداد. . وفيما كان صلاح الدين يستقبل المهنئين بكل مكان، ويستمع إلى الشعراء يأتون بمئات القصائد، ويتلقى وفود المهنِّئين من امبراطور بيزنطة، ومن رسول صاحب الري (قتلغ إينانج بن بهلوان)، ورسول قزل أرسلان بن إيلدكز ملك أذربيجان وأران وهمذان

(١) القلقشندي: مآثر الإنافة: ج ٣، ص ٨٦؛ وانظر كتاب صلاح الدين إلى الخليفة ببشرى حطين: ص ٣٠٢ ـ ٣٠٨.

وأصبهان (وكان قد خلف أباه سنة ٥٨٢هـ)، كانت الرسل عنده تتوالى إلى مختلف الجهات بالبشائر المتتالية.

وفي هذا البحران من الفتح والشعراء والنقلة وألوان الرسائل وقعت الحادثة التالية: فقد أمر السلطان العماد يوم حطين بإرسال أول بشارة إلى خليفة بغداد، ورأى العماد أن يحمل هذه الرسالة رجل ذو مقام فلا يوجه بهذه الكرامة إلا الوجيه الكريم، فقال صلاح الدين: هذه نصرةٌ مبتكرة بكَرَتْ، وموهبة بدرت، فنحن نعجل بها بشيراً، ونؤخر للإجلال كما ذكرت سفيراً. وكان في الخدمة شاب بغدادي من الأجناد نَبه بعد خموله، فسأل في البشارة إلى بغداد وزعم أنه يداوم الإغذاذ؛ وشفع له جماعة من الأكابر، حتى خص بأشرف البشائر، فقلت: هذا لا يحصل له وقع، والواجب أن يسير في هذا الخطير خطير، وفي هذه النصرة الكبرى كبير. ثم سار المندوب، وشغلَتْ عن إرسال سواه الفتوح والحروب. ولما فتح بيت المقدس أرسل ببشارته نجاب، ونفذ بها كتاب. ووصل البشير الجندي، فحقروه وما وقروه، وحبوه بما يليق من الرقة والعين ـ المال ـ، ونُقِمَ على السلطان إرسال مثله. وإنه لم ينصب المنصب ـ أي السفارة ـ في تلك الرسالة بأهله. وتسمح المندوب ـ لأنه استقل ما أعطوه ـ بكلام أخذ عليه، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه، وقال في سكره ما يُعرَض عن ذكره؛ فخيّل وموَّه وتنكَّر وتكره، وظن أن لكلامه أصلاً ولقطعه منا وصلاً، وأنهيت إلى العرض الأشرف ـ الخليفة ـ مقالاته وعلمت جهالاته، وتُجُنِّي على السلطان بإرساله وطُرِّق إلى هداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً، وطلبوا لشمل استسعاده (السلطان) بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل؛ وقالوا: **هذا يزعم أنه يقلب الدولة ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر نعت الإمام الناصر ـ أي الخليفة ـ ويدل بماله من القوة والعساكر**[1].

---

(١) انظر: الرسالة كاملة في الفتح القدسي ص ١٨٢ فما بعد. ولم نكن بحاجة إلى ذكر =

وقد ردَّ على كل ذلك. وليس في الرسالة إطلاقاً غير ذلك وبخاصة ما استنتجه أحد الباحثين من كلمة أتى بها العماد في العنوان الذي وضعه لها فقال: «رسالة في العتب على أحداث ثقلت» واستنتج منها أن الخليفة الناصر كتب فيها يطلب الإذن لجيشه العظيم بمشاركة السلطان في تخليص فلسطين، وأن صلاح الدين راوغه ورفض.. فمن أين هذا الخبر الذي لم يأت به مؤرخ منذ ٨٠٠ سنة إلى اليوم؟ وهل كان الباحث الرصين رابع الثلاثة الذين اجتمعوا يوم قراءة التذكرة (بين السلطان والعماد وأخيه)؟ وأين هي الكلمة التي قد توحي من قريب أو بعيد بمثل هذه النظرية العظمى؟ والكشف الذي عميت عنه عيون جميع المؤرخين إلى اليوم، ورأته عيون العالم الباحث؟ وفي أي كتاب قرأ «استعداد الخليفة العباسي الناصر لإمداد صلاح الدين بما يحتاج من جيوش جديدة تكفي للقضاء على الصليبيّين وإجلائهم عن آخر معقل لهم في بلاد العرب، ولكن صلاح الدين رفض وفضّل أن يهادنهم ويسلمهم البلاد...»[1] ثم خشي «إن أصر الناصر على إرسال الجيوش.. فعزم على مقاومتها، وليتفرغ لذلك هادن الصليبيّين؟...» وأين هي الهدنة ونحن في سنة ٥٨٣ هـ؟.

ونزيد السيد الباحث أموراً أخرى عن الرسالة والتُّهم لم يأتِ بها العماد وأتى بها غيره.. وهي في مجملها كسابقاتها نوع من الغَيْرة على النفوذ الديني من الخليفة الشاب الذي كان طموحه كبيراً، ويغار عليه لأنه الهيبة الوحيدة الباقية له من الخلافة. فقد اتهموا صلاح الدين عنده كما ذكر كتاب كتبه الصاحب قوام الدين ابن زيات من الديوان العزيز في بغداد إلى السلطان. وكان هذا الرجل أستاذ الدار العزيزة؛ يقول فيه:

«لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به والمنافسة فيه، لما جوهر العتاب ولما رفع دونه حجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله. وقد

(١) انظر: صلاح الدين الأيوبي للسيد حسن الأمين ص ١٥٥ (دار الجديد - بيروت ١٩٩٥م).

ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله، ليوعبها سمعه الكريم وينصف في استماعها والإجابة عنها، غير عارج على الجدل ولا مؤتم بالمراء؛ ثم ذكر من الأمور:

١ ـ أمر من انتفى من العراق بسبب من الأسباب لجأ إلى صلاح الدين، فوجد عنده الإقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه وتقريب من قربه(ويقصد النجاب الذي حمل البشارة).

٢ ـ مما أضحك بثغر الاعتبار ما انتهى عن العوام وأشباه الأنعام وطغام الشام من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشيع إلى اختلاق كل كاذب يقصد (الشهرزوري).

٣ ـ ما جرى من سيف الإسلام بالحجاز من إزعاج الحاج والإقدام على مناسك الله، وإيقاد سعير الفتنة فيها، وإحياء بدع القرامطة؛ ما مجه كل سمع . . فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرض سوابقه وأواخيه؟.

٤ ـ ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ما أوجب التلقيب باللقب الذي استأثر به أمير المؤمنين.

وقد ساوَقَ زمان الدولة العباسية ـ ثَبَّتَها الله ـ خوارج دَوَّخوا البلاد وأسرفوا في العناد، وأخافوا الممالك واستضاموا المسالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب. . .

٥ ـ مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد، ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم وفلِّ عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعية للعراق وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سلف (وهذه هي قصة شهرزور).

«هذا كله لا أقوله إنكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين ومشاهير مواقف

جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله عزه رجل وقته ونسيج وحده، والمُربي على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتي بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفا واستكفى فكفا؛ فكيف يجوز له أن يهجن مساعيه الغر المحجلة، ويخرج من مكانته المبجلة، ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة.. فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته بالتبصر أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة(؟) فينزون عليه بطراً، فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم إظفاراً وظفراً؛ كدأب آل طولون وآل سامان وآل بويه وآل سلجوق وقروناً بين ذلك كثيرة، فمن الذي زلزلوه فثبت؟».

وقال في آخره: «اللهمَّ قد بلغت، وللرأي الصلاحي ما يزيد علوه..». وذكر القادسي أن الجندي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي، وكان صبياً كثير الإدبار مشمراً في دروب بغداد، ثم توجه إلى الشام هارباً من الفقر.. فحين وصل إلى بغداد، رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الدين بالإنكار عليه، وقيل له: أما كان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الديوان، فاعتذر صلاح الدين ووصلت كتبه بالاعتذار، وقبل عذره؛ وأما ابن البوشنجي فإنه حين وصوله إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر ذلك عليه؛ فلما مضى الأسبوع جاءته نشابة فذبحته...».

والأسباب كلها واضحة، وليس فيها شيء عن الزحف الأعظم للخليفة الناصر على فلسطين.

وأما قصة الحج: فقد كان صلاح الدين جعل على الحاج الشامي قائده الأثير شمس الدين محمد بن المقدم، وهو غير راغب بمفارقته ـ سنة ٥٨٢هـ ـ قبيل موقعة حطين؛ فنصب الأمير أعلام صلاح الدين الصفراء يوم عرفة، وضرب على عادته بالطبول والكوسات، فاعترضه أمير الحاج العراقي طاشتكين،

واختلفا؛ لأن ذلك له ومن حقه وحده، وتهجم عسكر طاشتكين على العسكر الشامي، وكان قتل وجراح؛ وفيما كان ابن المقدم يفصل بين الطرفين جرح جراحاً أفضت إلى وفاته، فأخذ طاشتكين تواقيع كبار الحجاج بأن الحقَّ على ابن المقدم، فوقَّعوا مكرهين.. ورجع بها إلى بغداد، ولكن دار الخلافة عرفت بالواقع، فأُبعد طاشتكين وسجن مدة مديدة.

* * *

وَارِدَاتُ دَوْلَةِ صَلَاحِ الدِّين وَنَفَقَاتُهُ

المالية الصلاحية:

لم يكن غريباً ألا يوجد في خزانة صلاح الدين بعد وفاته سوى ٤٦ درهماً فضة، وديناراً ذهبياً واحداً؛ فقد كانت واردات دولته ضخمة، كما كانت نفقاته الحربية ضخمة.. وكلما كانت البلاد التي تقع في يده تزداد، كانت وارداته منها ونفقاته من أجلها تزداد بصورة مطَّردة؛ وكانت قاعدته الدائمة:

١ ـ إلغاء المكوس والضرائب غير الشرعية في جميع البلاد التي فتَح.

٢ ـ الاكتفاء بالموارد الشرعية من زكاة وجزية وخراج ومكس الخُمس والتجارة.

وكانت واردات مصر هي مصدره الأول، لأنه اعتبرها مملكته؛ ولذلك ألغى ما كان يأخذ فيها من رسوم الحج على المغاربة، وألغى المكوس على تجار اليمن، والضرائب المماثلة في دمشق حين فتحها، وفي حلب وسنجار والرقة.

وتظهر سياسته المالية في المنشور الذي نشره عند إسقاط مكوس الرقة: «إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسمَّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عُوِّضَهُ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا على سمن يؤكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها.. وقد أمرنا أن تُسد هذه الأبواب وتبطل، ويعفى خبر هذه

الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة مستمرة الأيام...».

وهكذا كان إسقاط الضرائب التي كان يحصلها الصليبيون من الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان، وكان الفرنج يأخذون نصف حاصلها، وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة ـ التي كان الفاطميون قد ألغوها ـ إيذاناً بعودة مذهب أهل السنة، وجعلها البديل عن المكوس والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها وأقام لها ديواناً تسلّمه (متولي الزكاة)، وكانت حصيلتها زهيدة؛ ففي ٥٨٦ ـ ٥٨٧هـ / ١١٩٠ ـ ١١٩١م كانت (١١٨٦١) ديناراً، وكان صلاح الدين في ضائقة مالية شديدة لسداد نفقاته الباهظة في حصار عكا. وتعهد له رجل يدعى ابن حمدان بجمع ٥٢ ألف دينار في سنة واحدة[(١)]، فنجمت عن ذلك مظالم كثيرة في مصر خاصة. وكانت الزكاة تؤخذ على الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية والمزروعات، مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم وبذورالكتان والزيتون والخضار.

وكانت ضريبة الخراج تجبى بنظامها وأوقاتها في مصر، فلما اقتضى الأمر تحويل السنة الشمسية القطبية إلى الهجرية سنة ٥٦٧ هـ لأن موعد الجباية صار يسبق موعد الإنتاج عدّل صلاح الدين ذلك. أما المناطق الأخرى في الشام والجزيرة فكان الخراج يؤخذ على مساحة الأرض بالفدان، وضريبة القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد. ويجمع المنتفعون الضريبة ثم يسددونها لديوان السلطان، وكان على الفول والحمص مثل ذلك، وثَمَّ ضرائب نقدية على بعض الحاصلات كالكروم وثمار الشجر، وتتراوح بين دينار وخمسة على الفدان، وفي السنة الثالثة لا تزيد على ثلاثة دنانير. ويدفع أهل الذمة الجزية، ويُعفى منها الصبية والنساء والرهبان، وتسمى ضريبة الجوالي (ح: جالية) وتختلف حسب أحوال الشخص. من دينار واحد إلى (٤,٥) دينار،

(١) انظر: ابن شداد ص ١٤٨ ـ ١٥٣.

إضافة إلى درهمين ونصف الدرهم عل الجميع كل سنة.

ولما كانت المعادن والأخشاب لازمة لصنع الأسلحة، فقد منع صلاح الدين أن يكون لأحد دخل فيها، وشدد على احتكار الدولة لها، فهو في حالة حرب مع الفرنجة، وعقوبة من يهرب بشيء منها كبيرة؛ وكانت ضريبتها تعرف في مصر باسم ضريبة(السنط).

ومن موارد الدولة ضريبة دار الضرب أو السكة، وتؤخذ لقاء سك الذهب، ومقدارها ٣٣ ديناراً على كل ألف دينار ذهبي؛ ورسم الفضة (١٤,٥) درهم عن كل ألف.

كانت حصيلة هذه الواردات في معظمها تذهب للحرب فهي:

- رواتب ومخصصات للجند المستأجَر، أو نفقات للجند المملوك، وتعويض الخيل النافقة.

- نفقات لأبنية التحصين من قلاع وأسوار في مختلف المدن، ولبناء الأساطيل.

- نفقات للأبنية العمرانية من مساجد، وأربطة، وخانات على الطرق، وزوايا.

- رواتب للعاملين في الدولة في الجباية والمال وفي الكتابة وفي القضاء وفي خدمة المواضع الدينية وفي العطايا، وفي الصدقات والخدم والموائد والشعراء.

وكان صلاح الدين مثقوب اليد لا تكاد تستقر الأموال في خزانته حتى ينفقها في سخاء يشبه الإسراف، وكان هذا هو السبب في الخلاف في النظر بينه وبين نور الدين.. وإذا قالوا: إنه أنفق أموال مصر في الشام وأموال الشام في الجزيرة وأموال الجميع في فتح الساحل - كما قال القاضي الفاضل[1] - فلأنه ما اكترث يوماً بالمال.. ووجد نفسه وهو على حصار عكا في ضائقة مالية لم

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ٤.

يحسب حسابها، فاقترض من أخيه وتشدَّد في جمع الزكاة، ولم يستطع الإتيان بشيء هام يسدد الضائقة أو يخففها، فتكاليف الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند الإضافي والنشاب والنفط والسيوف كانت تأتي على كل موارده، ولم يستطع أن يخفف الضائقة أيضاً على أمرائه الإقطاعيين الذين ركبتهم الديون وأرغمتهم الحاجة على إكراه فلاحيهم لاستخراج ما بأيديهم؛ مما يفسر إلى حد كبير تراخي هؤلاء الأمراء في الحرب، ومللهم منها، وفرحهم بالهدنة بعدها.

النزاع في نفس صلاح الدين كان بين خُلُقه المثالي، وبين ضعفه المادي؛ لم يستطع بمثاليته أن يرفع التسلح الخلقي لدى أمرائه للدرجة التي كان هو قد وصلها، ولم يستطع أُمراؤه أن يفهموا هذا الكرم الواسع الذي كان يتحلى به لمساندة هذا التسلح، ويغدقه لا على الأمراء فقط، ولكن على العلماء والشيوخ الذين كانوا عدته في الدعاء من جهة وفي الدعاية من جهة أخرى.. وهكذا استهلك العمل الحربي من جهة، والعمل الديني الدعائي ـ من جهة أخرى ـ كل ميزانيته المادية.

وكانت الحملة الصليبية الثالثة ـ التي لم يتوقع حدتها ـ هي الامتحان القاسي لأحلامه في تخليص الأرض الإسلامية من الفرنج.

وكان صراعه للعواصف المعاكسة له (من نقص المال ومن تراخي الأمراء) من أشدِّ الصراعات مرارةً وإيلاماً له، ولعلها أسهمت في تطور مرضه وموته المبكر.. وكان إنكاره لذاته وإخلاصه لمبادئه ورحمته حتى لأعدائه: عوامل إضافية لآلامه ولأوجاع رأسه الذي أودى به بعد أوجاع بدنه.

ولم يكن كرمه الواسع دون هدف أو معنى، ولكنه كان يرى في المال وسيلة لجمع القلوب حول أحلامه في طرد الفرنج، حتى في الأموال التي كان يمكنه أن يمنعها لم يكن يأبه لذهابها؛ وقد ذكر أبو شامة أن نواب دمشق كتبوا له أن الأموال تضيع في أغنياء يأخذون الصدقات ولا يستحقونها، وكانت تبلغ

أحد عشر ألف دينار، فأمره بإبقائها على أهلها وقال: لا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء[1]. وقد وصل الأمر بالقائمين على خزانته أنه كانوا يكتمون بعض المال عنه لئلا يطلبه فجأة منهم فلا يجدون لديهم ما يطلب.

وإذا لم تكن مثل هذه السياسة حكيمة في رأي الكثيرين من الأمراء في عهده وفي غير عهده، فقد كان يراها ضرورية لعملية الجهاد. وفي الإقطاعات التي كان يمنحها، وفي بلاد الموصل والجزيرة التي أبقاها لأصحابها؛ لم يكن يطلب منهم سوى تحمُّل نفقات الجند الذين يطلبهم للجهاد، ولهم التصرف التام في مواردهم؛ وإن كان يشترط عليهم عدم الظلم في الرعية.

ولم تكن لصلاح الدين سياسة مالية منظمة، وكان كجميع الأمراء في عهده ينفق ما يأتيه دون ميزانية، وإدارته المالية تتكون من: الديوان السلطاني، وديوان الجيش ـ وهو أهمها ـ ويبتلع معظم الواردات للجيش وأدواته ولوازمه وللقضاة والصوفية والعربان والسوقة الذين يرافقونه؛ وكانت مصروفات هذا الديوان مثلاً سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م تبلغ ثلاثة ملايين وخمسمئة وسبعين ألف دينار[2]، بالإضافة إلى مليون دينار آخر للعربان والقضاة والفقهاء والصوفية، ومصروفاته اليومية تزيد على أربعين ألف دينار[3].

وثمة دواوين أخرى: منها ديوان الأحباس ـ وهو فاطمي الأصل ـ وينفق من ريعه على أئمة الجوامع وخطبائها، وعلى المارستانات الثلاثة التي شيّدها صلاح الدين في القاهرة، وعلى المدارس الصلاحية.

العمران الصلاحي:

إذا كان الجهاد في سبيل الله هو الهم الأول لصلاح الدين، فقد كان همه

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ٥.
(٢) المقريزي: (السلوك) قسم ١ ج ١ ص ٧٥.
(٣) مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي: ج ٨، قسم ١، ص ٤١.

الثاني تثبيت مذهب السنة في مملكته.. كان يصدر في ذلك عن إيمان عفوي مطلق بأنه المذهب الحق، وبأن الخليفة العباسي في بغداد هو المثل الأعلى والأقدس لهذا المذهب. وإذا كان إلغاء الخلافة الفاطمية في نظره نوعاً من القربى لله وللخليفة على الأرض، فإنه لم يكن ليكتفي بذلك. وكما بذل المال والجهد لمدافعة الفرنج وتحرير القدس والأرض الإسلامية منهم، فقد بذل ذلك أيضاً لإنشاء المدارس السنية والأربطة والزوايا للعلماء والفقهاء والصوفية وطلاب العلم، وكانت مثل هذه المنشآت الدينية قد شاعت منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وصارت مثابة لتخريج المتعلمين من أهل السُّنَّة للوظائف المختلفة الدينية والمدنية في المشرق، وامتد أثرها إلى المغرب، وأضحت الأوقاف والأحباس عليها من وسائل القربى إلى الله.

وصلاح الدين في تقواه لم يكن لينسى هذا الذي يعتبره «واجباً» دينياً بالإضافة إلى ما يعطيه من السمعة الدينية والرضى العام، وألسنة الشيوخ كانت في ذلك الوقت أبواق الدعاية، وقد أنشأ صلاح الدين عدداً من المدارس في القاهرة وفي مصر، ومنها:

- المدرسة التي بناها بالقَرَافة الصغرى بجوار ضريح الإمام الشافعي للشافعية، وكانت مدرسة عظيمة زارها الرحالة الأندلسي ابن جبير فقال: «لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناءً، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته؛ بإزائها حمام... والنفقة عليها لا تحصى»[1]. وخصص صلاح الدين لها الأموال الطائلة، وأوقف عليها وعلى الحمَّام أوقافاً كثيرة وزراعات.

- المدرسة الأخرى بجوار مشهد الحسين.

- مدرسة في دار عباس الوزير الفاطمي السابق.

---

(١) ابن جبير - الرحلة - ص ٢٢ - ٢٣.

- مدرسة ابن زين النجار بجوار جامع عمرو بن العاص (وكانت تعرف بالمدرسة الناصرية)، ثم حملت اسم شيخها الذي درس فيها مدة طويلة وكان قاضي العسكر.

- مدرسة في القدس بعد فتحها سنة ٥٨٣ هـ، وفوض التدريس بها إلى ابن شدَّاد بهاء الدين.

- المدرسة السيوفية التي أنشأها سنة ٥٧٧ هـ للحنفية في مصر، وأوقف عليها ٣٢ دكاناً.

- المدرسة الصلاحية بدمشق قرب البيمارستان النوري.

يضاف إلى ذلك المدرسة التقوية بدمشق، وقد أنشأها ابن أخيه احتذاء به، وكانت تسمى نظامية الشام.

وأسس القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية في مصر سنة ٥٨٠هـ للشافعية والمالكية.

وكان لكل طالب غريب في كل مدرسة: مسكنه وطعامه وجرايته الشهرية، ولكل مدرسة مستشفى بأطباء وخدم ومساعدين.

وبنى صلاح الدين العديد من المساجد والخوانق (للصوفية) والخانات (للمسافرين على الطريق)، وكان في دمشق خان يسمى بخان الزنجاري ذي سمعة سيئة، فلما عرف صلاح الدين بذلك هدمه وحَوَّله جامعاً باسم جامع التوبة ما يزال قائماً معروفاً، كما جدد مسجدين في دمشق.

وعني صلاح الدين بالصوفية لأنه كان في تقواه أشبه الناس بهم، وقد حول دار سعيد السعداء (أحد خدم الفاطميين) إلى خانقاه سنة ٥٦٧هـ، وأوقف عليها، ورتب للمتصوفة فيها كل وسائل العيش، وبنى لهم حماماً بجوارها. وبنى في دمشق الخانقاه الناصرية خلف قيسارية الصرف، وكانت في الأصل داراً له. وقلدته أخته ست الشام فبنت الخانقاه الحسامية على اسم ابنها

حسام الدين في دمشق أيضاً.

وأنشأ صلاح الدين الخانات محطات للتجار والمسافرين عبر جزيرة سيناء إلى الشام والحجاز، وعمر الخانات على طريق دمشق ـ حمص، ومنها خان السلطان قرب النبك، وفيه الماء الحار والبارد على ما روى ابن جبير عدا خانين آخرين.

يضاف إلى هذا كله بناء قلعة القاهرة وسورها مع سور الإسكندرية ودمياط. وكان للعمارة الأيوبية طابعها الخاص الذي التزمه وطوَّره الأيوبيون بعد صلاح الدين، وأكثروا من بناء المدارس والخوانق مع ازدياد الطلب على العلم وعلى التصوف.

* * *

مُطَارَدَةُ السَّرَابْ

وأخيراً لا بدَّ من كلمة ينتهي بها هذا الجدل الذي أثاره كتاب الباحث السيد حسن الأمين. لأنه كما قال تعالى: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾، ولو تواضع هو وأمثاله لله وللعلم وخضعوا للحق، لتبيَّن لهم ﴿ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾. واتهام صلاح الدين على الظن لا يغير الواقع. و﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ صدق الله العظيم.

إن اتهام صلاح الدين بالتأويل الواهم والاستنتاج من وراء المنطق يخرج عن نطاق التاريخ الحق ليدخل باب الأوهام. والمناقشة العلمية هي التي تفصل بين الحق والباطل ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾، ولولا كتاب هذا الباحث ما كنا لنزيد على الكتب الكثيرة حول صلاح الدين كتاباً آخر.. ولكن اتهام الناس بالجهل والتآمر والعمى وكتم الحقائق والتحدي لهم بالشتائم، لا يجوز أن يبقى دون رد.

إنا نقول بكل تواضع ما قال الله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، وما قال أيضاً من أنّ ﴿ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾. ثم إن الاعتماد في تحقيق التاريخ على المصادر المغرضة ليس بالسبيل الصحيح للوصول إلى الحقيقة، وأن الاعتماد على مصدر واحد مع وجود غيره نهج أعور العين ولو كان بصيراً. ثم إن تقويل المصادر ما لم تقله ضرب من الدونكيشوتية، ومن التعسف الذي لا يليق بالباحث المحترم بَلْهَ تحدي الناس في ذلك وتجهيلهم. ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾! صدق الله العظيم. وإذا كان للسيد الباحث

عذره في أنه وجد نظرية كبرى وغلطة عظمى في التاريخ، فهو يبالغ في الدفاع عنها، ويفرح بها كما يفعل كل أصحاب النظريات المستجدة، فإن نقبه هذه المرة جاء على صخر، ولا يجوز التجاوز عنه على حساب الواقع والحق. . أما الشتائم التي حشا بها ردوده كلها فإننا نَرْبَأُ به وبالبحث العلمي عنها، لأنها تفضح ضعف الحجة، ولا تزيد رأيه إلا ضعفاً. وتسفيه الناس من أبي شامة وابـن كثير إلى آخر مجموعـة المؤرخين المعاصرين الآن، ونعتهم بالجهـل والغباء والتفاهة والبذاءة، والزعم بإلقامهم الحجارة؛ فهذه أمـور نغفرها لـه لأننا نحترم كل صاحب علم. ولعلها من سقطات اللسان التي نرجو أن يربأ بنفسـه عنها؛ لأنها تخرج به من ميدان العلم لتـدخل ميدان الأزقـة، وأعيـذ صاحب النظرية العصماء ثم أعيذه من مثل هذا الموقف.

في ميدان العلم ناقشـنا من قبل بعضاً من كلام السيد حسن بن السـيد عبد المحسن الأمين، هذا المجتهد الأكبر الذي نُجِلُّ ونحترم. وقد ناقشناها عَرَضاً أثناء هذه السيرة الصلاحية إيضاحاً لا رداً وتصويباً لا جَدَلاً.

ـ ومنها تحاملات ابن الأثير الشخصية على صلاح الدين وتحيزه لحزبه الموصلي الزنكي بشكل لا يليق به.

ـ ومنها قصة قتل الصوفي الشهرزوري.

ـ ومنها دسائس ابن أبي طي الذي نأسف كل الأسف أن كتبه البالغة خمسة عشر كتاباً في التاريخ، والتي منها كتاب تاريخي موسوعي على الأحرف الأبجدية، وكتب أخرى عن تاريخ المغرب واليمن وغيرها. . . كل هذه الكتب لم تصلنا لأن المؤرخين من السـنيين أهملوها تعصباً منهم فلم يستنسـخوها، فضاعت؛ وضاع بضياعها علم غزير ومؤرخ من أبرز المؤرخين المسلمين.

ـ ومنها ما ذكرناه مطولاً حول استراتيجية صلاح الدين في صلح الرملة في الفصل السابق.

وتبقى بعد ذلك أمور أخرى عديدة، فالكتاب ـ فما يتعلق بنصفه الثاني

المخصص لصلاح الدين ـ لا يترك نعتاً يهينه ويشتمه إلا استخدمه صاحب الكتاب. . فهو «مخادع» «استسلامي» للصليبيين، «عظيم الجريرة» وأنه «مجرم» بتقسيم البلاد . . . إلخ، «ويستحق القتل». . ونحن ندع هذه الأوصاف لأن صاحبها نفسه قد يتفق معنا بأنها سوقية، لا يليق بعالم باحث إطلاقها ولا نقف على نصب نفسه قاضياً، وعلى رأيه أنه «لو امتدت الحياة بنور الدين لكان تم تأديب صلاح الدين، وأقل ما كان يناله هو القتل لأنه هو وحده جزاء من يحتمي بأعداء الأمة»[1]. . وهذا كله غيض من فيض نتركه لنناقش بهدوء السيد الباحث فقرة فقرة في جوهر نظريته:

الكتاب كلّه بما بين دفتيه مهرجان أماديح للفاطميين ثم البويهيين، ومن خلال ذلك للحمدانين، وأي مختصٌ بعلم التاريخ الإسلامي يعلم من حسنات هؤلاء الكثير الكثير، ومن أخبارهم الرائعة المزيد، كما يعلم المساوئ وما إليها. . ولا مجال للنقاش في هذا، فأي دولة هي براء من ذلك؟ ولكن النصف الثاني من الكتاب إشادة متعمدة بالخليفة العباسي الناصر لدين الله ذات غرض محدد، وتأسُّف على الوحدة العربية التي ضيعها صلاح الدين. ويمهد الباحث لأفكاره التي يريد طرحها بتمزيق الصورة التي تقوم في أذهان الناس عن هذا الرجل، مثل قوله:

ـ «إن صلاح الدين كان سكِّيراً مدمناً للخمر قبل توليه الوزارة (تولاها وعمره ٣٢ سنة) للفاطميين، فالله يعلم هل تاب أم لا، لا سيما إذا عرفنا أنه لم يكن يومذاك ـ كما هو اليوم ـ مصحات لمعالجة المدمنين، وإعادتهم إلى الصواب؛ فالمدمن يومذاك لا علاج لإدمانه» (ص ١٧٨). والسيد الأمين يعلم دون شك معنى الإدمان ومعنى السكير. . وهو يضيف أنه كان منهمكاً في الشهوات عاكفاً على شرب الخمر؛ وقد استنتج كل ذلك من جملة رواها ابن شداد

---

(١) انظر من ذلك كله من الكتاب المذكور الصفحات: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١ و١٥١ وغيرها، وص ١٧٥ خاصة.

صديق صلاح الدين قال فيها بالحرف: «وتاب صلاح الدين بعد الوزارة عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو». أهذا القول مثل الذي رواه السيد الأمين؟ وهل هذه هي الأمانة التاريخية، وهو الأمين؟.

ـ مجموعة الاتهامات بالخدع والاستسلام للعدو والاتفاق معه والعمالة وخيانة المبادئ، وهي مبثوثة هنا وهناك في الكتاب لتجعل من صلاح الدين «خائناً» «جديراً «بالقتل»[1]. وهكذا يخلق الجو الملائم لقبول النظرية.. فما هي هذه النظرية؟ التي يصفها صاحبها نفسه بأنها ليست غضاً من صلاح الدين ولكنها تجريح وضربات واتهام[2].

خلاصتها: أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله، الذي تولّى الخلافة في بغداد سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨١ م، واستمرَّ ٤٧ سنة فيها «والذي كان يركب عسكره في أيام المواسم مئة وعشرين ألف فارس، أجناده ما بين أتراك وأكراد ومتولّدة، خارجاً عن العرب والتركمان والمتعجّمين. هذا عسكر العراق لا غير، الذي سلطانه بها..» والذي «استحوذ على بلاد الري وأصبهان وهمدان وخوزستان، وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها إلى ديوان الخلافة...» والذي ـ كما يلخّص الباحث ـ كوّن مملكة ضخمة تمتد من أقاصي العراق(؟) حتى خراسان، شاملةً ما ذكره ابن كثير من ممالك ومقاطعات ومدن، ومنها خراسان. وعندما نعرف أن خراسان في اصطلاح القدامى تمتد من إيران، فتشمل معظم أفغانستان، وتظل تمتد حتى تشمل أجزاء مما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، ومنها مدينة مرو عاصمة خراسان...» وهذا الخليفة الذي امتلك / ١٢٠/ ألف فارس، عدا العرب والتركمان والمتعجّمين «وخاض بهذا الجيش معارك كثيرة خلال ٤٧ سنة، وأسقط فيها دولاً، وأنشأ

(١) انظر الكتاب: ص ١٧٥ وص ١٥١.
(٢) انظر الكتاب: ص ١٨٣.

دولاً، واحتل مدناً، وأغاث إمارات وممالك وولايات»[1]. هذا الخليفة المدهش اتجهت أنظاره لدحر الصليبيّين، ولإنقاذ البلاد الشامية، وكان لا بد من استئذان صلاح الدين في ذلك[2]، فهل كان خليفة المسلمين، وظلُّ الله في الأرَضين، ومالك الدنيا والدين في حاجة إلى استئذان أحد أتباعه، ليدخل الحرب في أرض يمدّ ظله عليها؟ وهل كان لا بدّ من استئذان صلاح الدين، والأمر يتعلّق باحتلال الفرنجة لأرض الإسلام؟ ومن أين أتى هذا الإلزام؟ ومن ذا الذي قال به؟ أو طلبه؟ وما وجه التردُّد في إقامة الجهاد، وهو فريضة، وأول من تلزمه هذه الفريضة هو الخليفة؟.

ثم لماذا لم يقرأ الأستاذ الباحث النصَّين إلى آخرهما، وفي آخر الأول كلمة: «عساكر العراق وحده الذي سلطانه بها». وفي آخر الثاني «أنه أعاد رساتيق كثيرة... إلى ديوان الخلافة». ومعنى الجملة الأولى واضح كل الوضوح؛ بأن سلطانه في العراق فقط. ومعنى الثانية أنه أعاد الرساتيق إلى الديوان، أي إلى دفع الإتاوة السنوية للخليفة، وليس إلى (مملكة) الخليفة! ويقول الأستاذ الباحث من عنده، ودون نصّ تاريخي: إن صلاح الدين رفض تدخُّل الخليفة، ويعلل هذا الرفض بالحجة ذاتها، وبقوله أكثر من مرة وفي إسهاب واستشهادات من هنا وهناك: إنه كان يخشى أن يصبح والياً من الولاة فحسب (لا سلطاناً) إذا جاء الخليفة العباسي بقواه الساحقة إلى محق الصليبيّين. ولذلك احتمى صلاح الدين بالوجود الصليبي وهادنه، واتفق معه على التنازل عن قسم من بلاده، وهنا تصلُ النظرية إلى قمتها؛ فهي الخيانة والعمالة والاستسلام واستحقاق القتل[3]، لاسيما وأنَّ صلاح الدين هدَّد

---

(١) الكتاب ص ١٨٥. وأما الكلمة السابقة فهي من حديث أدلى به ونشره في ٨ تموز ١٩٩٥، ومن ص ١٨٦ في الكتاب.

(٢) انظر الكتاب: ص ١١٥، ويكرر ذلك مرة أخرى ص ١٨٥: «لا بدَّ من استئذان صلاح الدين».

(٣) انظر الكتاب: ص ١٦٦ وص ١٨٥ وص ١٨٦ وص ١١٥.

الخليفة الناصر في مجالسه، وتوعَّده بأن يقلب الدولة، ويغلب الصولة، ويدلّ بما له من قوة عسكرية. . . » ولكنه رأى (أي صلاح الدين) «أن يؤخر الصدام بالخليفة»[1]، ويكذب عليه ويخدعه بالرسائل ويحتمي بالصليبيّين، وهذا من «أفظع الجرائم».

ومن الهام قبل البدء بالمناقشة أن نشير إلى بعض الهنات التاريخية عرضاً:

كقولـه في تهوين فتح القدس: «إننا إذا استثنينا الميزة القدسية لمدينة القدس، فهي مدينة ككل المدن الفلسطينية، لا يعدو فتحُها فتحَ أي مدينة من تلك المدن، فإذا كانت القدس قد فُتحت؛ فإن القسم الكبير من فلسطين وغير فلسطين كان لايزال محتلاً، فالوقوف عند فتح القدس . . . وتمجيد الفاتحين معناه التغاضي عما كان لايزال محتلاً من البلاد، وعن وجود الصليبيّين سادة لتلك البلاد . . .»[2]. وإذا كانت قيمة القدس التي قامت من أجل الوصول إليها الحروب الصليبية مجرد وجهة نظر، فإن القول بأن القسم الكبير من فلسطين وغير فلسطين كان محتلاً خطأ تاريخي كبير، والمعروف أن صلاح الدين فتح فلسطين كلها، وقضى على معظم أملاك الإمارات اللاتينية قبل فتح القدس. وأن التنازل كان بعد أربع سنوات وبعد عجزه عن دفع الحملة الصليبية الثالثة، دون أن ينجده أحد.

ـ وقوله: « فهذا ابن شداد (صاحب الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة) والذي هو ربيب صلاح الدين وأحد رجال بلاطه، وصاحب المنصب القضائي في حكومته يعدّد لنا المدن التي أعادها صلاح الدين للصليبيّين. . . ». إن الباحث المدقق يخلط ما بين:

ـ بهاء الدين بن شداد، وهو قاضٍ لدى صلاح الدين، وليس بربيبه، فقد

---

(١) الكتاب: ص ١٤٦ وص ١٥٧.
(٢) الكتاب: ص ١١٥.

كان يصغر صلاح الدين بسبع سنوات فقط، وهو الذي كتب (النوادر السلطانية) أي سيرة صلاح الدين، ثم توفي بعده بكثير سنة ٦٣٢ هـ/ ١١٣٦م (توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م).

ـ وبين عز الدين بن شداد صاحب (الأعلاق الخطيرة) والمتوفى (سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٤م)[١].

ـ وقوله: «إن الأيوبيين خانوا وسلَّموا القدس مجاناً للصليبيّين»[٢]؛ فالباحث الحصيف يريد أن يكون صلاح الدين مسؤولاً عن عمل قام به ابن أخيه بعد موته بأربعين سنة، وهو تعسُّف في الحكم. ومن ذا الذي يدافع عن أعمال خلفاء صلاح الدين؟ ومن ذا الذي يعتبر ميتاً في قبره مسؤولاً عن خيانات من جاء من أسرته بعده بأربعين وخمسين سنة؛ إلا أن يكون (الغرض) هو تجريحه، وسحق سمعته بالحق وبالباطل؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

ـ ويأخذ على صلاح الدين أنه اتخذ من ابن ميمون اليهودي الأندلسي طبيباً له. وينسى أن نصف الأطباء في ذلك العهد كانوا من الذمّيين، وأنه لم يكن طبيب صلاح الدين الوحيد، فأمراض السلطان عديدة، ويأخذ عليه أنه أغضى بعد إسلامه عن عودته لليهودية، وإنما أغضى بفتوى شرعية. وأنه لم يحاسبه وأصمّ أذنيه عن كتابه (دليل الحائرين)، الذي يشكّك في عقيدة الخلود الجسمي، وينسى أنّ اليهود كانت لهم كنسهم وربابنتهم في بغداد العباسيّين، وفي قاهرة الفاطميين على السواء، وكان منهم وزراء في هذه الدولة أيضاً. فالتسامح الإسلامي كان يشملهم، فلماذا يطلب من صلاح الدين ما لا يطلبه من الفاطميين جميعاً ومن العباسيين؟. هذه الأمور ندعها مع ذلك لأنها هامشية وثانوية. ولننظر في بناء النظرية:

---

(١) الكتاب: ص ١٨٧.
(٢) الكتاب: ص ١٣٢.

ـ يصل في شوال سنة ٥٨٣ هـ إلى صلاح الدين رسول من الخليفة الناصر، أي بعد فتح القدس بثلاثة أشهر في العتب على «أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثَّرت، وسعايات في السلطان عثت في الأحوال وتشعَّثت». فماذا حدث من جديد الدواعي لمثل هذه الرسالة؟ الأمر واضح في الرسالة نفسها، أنها وشايات وسعايات جعلت الخليفة يغضب. ولكن الأستاذ الأمين لا يقف منها إلا عند الكلمة الأولى: «أحداث ثقلت»، وأنها «كانت رسالة خشنة شديدة، فيها غلظة»؛ وأما صلاح الدين فعلَّق عليها بقوله: «قد كان أمكن إيداع هذه المعاني في أرقّ منها لفظاً وأرفق. وعرض الرسالة على أكابر جماعته ليروا رأيهم». وذلك أمر بديهي بالنسبة لرجل في خلق صلاح الدين، الذي رأينا من قبل. لكن الباحث الأمين يرى خلاف ذلك: ويفسر الباحث كلمة «أحداث ثقلت» بأنّ: «الهوة بين الرجلين عميقة، وأن صلاح الدين اشتدت نقمته، وأراد أن يمهد في النفوس لتبرير تمرده على الخليفة، فتظاهر بالسكوت. ورأى عرض الرسالة على من سماهم أكابر القوم، ليكونوا هم البادئين بالتمرُّد، وليتظاهر بأنه محمول على التمرُّد. بمعنى أنه يختبئ وراءهم! ونسأل هل يحتاج صاحب معركة حطين وفاتح القدس إلى الاختباء من الخليفة؟ وهل تحتاج السعايات فوراً إلى الجواب عليها بالتمرّد؟ الأمر الطبيعي أن يرسل صلاح الدين رسالة إيضاح، تفضح الوشاية والسعاية بعد أن «وجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقاً، ولفَّقوا أباطيل، وقالوا: «هذا يزعم أنه يقلب الدولة ويغلب الصولة، وأنه يُنعت بالملك الناصر نعْت الإمام (الخليفة) الناصر، ويدلّ بما لهُ من القوة العسكرية». وهذه هي الإيضاحات التي ذكرها العماد الأصفهاني عن مضمون الرسالة.

وعلى الرغم من أن جماعة صلاح الدين علَّقوا على الرسالة قائلين ـ حسب ما يذكر الأصفهاني نفسه ـ: إن الخليفة «نسب حقّك إلى البطلان ورميت **بالبهتان**، ولمحت **طاعتك** بعين العصيان، فكيف. . . **ألفتَ** وما أنفتَ،

وأعتبت لما عوتبت. . ». فقد تقبَّل صلاح الدين الرسالة بصدر سمح على عادته الدائمة. ولا ننسى أنه منذ ألغى الخلافة الفاطمية كان يرسل الرسائل المتتالية، يخبر فيها دار الخلافة بما يستجدّ لديه؛ لا خوفاً ولا تملُّقاً، ولكن ولاءً ورعاية لهذه القمّة الدينية، التي تجمع المسلمين ولو بالشكل والاسم.

وعلى العادة أرسل رسالة إيضاح، ونفي للسعايات والوشايات، قائلاً: «أما فتحُناه مصر، وقد باضت بها بيضة الدعيّ وفرَّخت. أما استأنفْنا بها تاريخ الدولة العباسية، بعد أن كانت سنين بسداها أرخت؟. أما استخلصتُ اليمن للدعي بها داع، وللهدى فيها ناعٍ، وللضلال فيها راع. . .» وفيها من اللين والمراوغة الكثير. وهي عتب مقابل عتب، وتذكير بالولاء وليست منّة ولا تهديد، وذلك واضح في نصوصها[1]. وذلك بدوره نابع من طيبة صلاح الدين المعتادة، وخلقه الواضح المعروف بالملاينة وتجاوز الإساءة لا سيما مع الخليفة.

ولنلاحظ هنا أن صلاح الدين قد أعطي لقب الناصر أو الملك الناصر من قبل الفاطميين، ولُقِّب بالسلطان على العادة الفاطمية الدارجة سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، وأن الخليفة الناصر اتخذ هذا اللقب لنفسه سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م عند خلافته، أي بعد صلاح الدين بعشر سنوات، فهو الذي أخذ اللقب عنه، وليس العكس، ولكن السعاية لا تقف عند حد. . وحتى الآن أين التمرُّد؟ وأين مظاهره؟ وهل الرسالة اللينة تعبر عنه؟ على أي حال يركِّب الباحث الأستاذ الأمين الأحداث على الشكل التالي ويقول ـ الحديث بعد حطين بأشهر معدودة ـ: «. . . لذلك (أي لأنَّ القسم الكبير من فلسطين وغير فلسطين لا يزال محتلاً[2]) عزم الخليفة الناصر، الذي كان قد تخلَّص من سيطرة السلاجقة، **واستقل** برقعة كبيرة من الأرض الإسلامية، تشمل العراق وبعض ما يتصل به. . .». ونقف عند هذه

---

(١) انظر من هذه النصوص كلها: الصفحات: ١١٣ حتى ١١٧، وحتى ١٢١.

(٢) كل ما يرد بين النصوص من جمل مطوَّقة بقوسين كبيرين فهو من أسئلتنا ومن تعليقاتنا.

النقطة لحظة، لنقول: إن ذلك كان بعد طرد السلطان السلجوقي الأخير طغرل الثالث بن أرسلان شاه سنة ٥٩٠هـ، أي بعد وفاة صلاح الدين نفسه بسنة كاملة. ولم يتم إزاحة سيطرة السلاجقة عن العراق وغربي فارس على يد الخليفة الناصر، وجيشه البالغ ١٢٠ ألف فارس، عدا العربان والتركمان، ولكن على يد الخوارزمية ودولة خوارزم! فلم يكن لديه من القوة إلا جيش الفتوّة المتطوّعين!.

ونتابع الباحث الذي يقول: «كان (الخليفة الناصر) قد بنى جيشاً قوياً، وعزم على أن يرسل جيشه إلى فلسطين، للتعاون مع جيش صلاح الدين في ذلك، ولكن صلاح الدين... رفض قدوم جيش الخلافة لقتال الصليبيّين والقضاء عليهم، لأنه اعتقد أنه سيصبح والياً من ولاة الخليفة تابعاً له...». ونسأل هنا: ألم يكن صلاح الدين بالفعل والعمل يعتبر نفسه والياً للخليفة وتابعاً وخادماً له؟ وإن لم يكن ذلك حقاً، فما الذي يمنعه من التمرد عليه؟ أهو الخوف من جيش الـ ١٢٠ ألف فارس، جيش الاستعراض الموهوم؟ ولماذا يداهنه ويرائيه إن كان بالفعل يريد التمرُّد، ولماذا ظل صلاح الدين حتى وفاته مخلصاً للخليفة، يكاتبه وينسب إليه أعماله وفتوحاته، وأنها تمَّت ببركته؟ وهل كان صلاح الدين من الخداع الخفي بحيث يخفي حتى الموت خبيئة نفسه؟ إنا لا نطالب الأستاذ الباحث إلا بالنص التاريخي الحاسم، وإلا الإنصاف والرجوع إلى الحق.

إن نظريته كلها تتهافت عند هذه الدعوى: دعوى أن الخليفة الناصر أسس جيشاً قوياً، وعزم أن يرسل جيشه إلى فلسطين **للتعاون** مع جيش صلاح الدين، ورفض ذلك صلاح الدين...

١ ـ لم يكن لدى الخليفة الناصر أبداً جيش قوي، بل شبه جيش سنة ٥٨٣هـ، سنة فتح القدس، ولا كان قد تخلَّص من السلاجقة (فذلك تم سنة ٥٩٠هـ بعد موت صلاح الدين بسنة)، وإنما قوي الخليفة بعض القوة حين أنفق

بعض النفقات على جيش محدود مقلّداً صلاح الدين. فلما توفي هذا الرجل أهمل الجيش، كما أهمل غيره، واهتمَّ بالطيور ورمي البندق.

٢ ـ لم يكن المشرق العربي كله يستطيع تجنيد / ١٢٠/ ألف فارس ولا عشر هذا الرقم. إن صلاح الدين في منتهى جهوده لإقامة الجبهة الإسلامية لم يجمع ـ مما بين مصر والشام والعراق أكثر من / ١٢/ ألف فارس، وجمعها بالجهد، بعد أن أنفق من أموال في سبيلها ما يعادل ارتفاعها جميعاً خلال ١٢ سنة! .

٣ـ إن تجنيد/ ١٢٠/ ألف فارس يحتاج إلى عدد يماثلهم من الخدم وإلى اسطبلات تتّسع للخيل أيضاً، وكان في بغداد سنة ٥٨٠ هـ (وانظر رحلة ابن جبير) ١٧ محلة، ومعظمها خراب، فإذا افترضنا أن في كل محلة ٣٠ ألفاً (وهو رقم مبالغ فيه) فعدد سكان المدينة لا يزيد على نصف مليون، فهل كان أكثر من نصف بغداد مجرَّد سكن وإقامة لجيش الخليفة المزعوم؟.

٤ ـ إن تكاليف إعداد جيش صلاح الدين بلغ في التقدير ٦ ـ ٧ ملايين دينار، فما هو دخل الخليفة الناصر سنة ٥٨٠ حتى ٥٩٠ هـ ليكون نفقته على الفرسان ٦٠ إلى ٧٠ مليون دينار؟.

٥ ـ وأهم من كل هذا فإن أحداً من المؤرِّخين منذ ٨٠٠ سنة إلى اليوم (بما فيهم ابن الأثير، الذي لا يطيق صلاح الدين، وابن أبي طي) لم يذكر خبر رغبة الخليفة في التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيّين، ورفْض السلطان ذلك، فمن أين تلقّف الأستاذ الباحث هذا الخبر المدهش بعد ٨٠٠ سنة؟ صحيح كل الصحة أن صلاح الدين بعد وقعة حطين وبعد فتح القدس مباشرة وصف للخليفة الناصر الموقعة الكبرى وبلاء الجيش وقوته بتفصيل كثير وحماسة، عبرت عنها رسالته بكتابة العماد الأصفهاني وبلاغته المطوّلة، فما معنى أن يأتي الخليفة بجيشه إلى فلسطين، وقد انهارت المقاومة الصليبية وفتحت البلاد؟ علماً بأن خلفاء بغداد ظلّوا قبل حطين ٨٧ سنة يضعون أصابعهم في آذانهم، ولا يستطيعون إرسال جندي واحد للدفاع عن ساحل

الشام؟ وأن الخليفة الناصر نفسه بقي حيّاً ٣٣ سنة بعد موت صلاح الدين، ولم يتحرَّك بفارس إلى الشام والصليبيون فيه مقيمون، وأكثر من ذلك فما من خليفة عباسي ساهم بإرسال جندي واحد على الإطلاق لحرب الصليبيّين. فأين الأمانة للحقّ والتاريخ يا أستاذنا العلامة الأمين؟.

وعلى أي حال فلنتابع حديث الأستاذ الباحث الذي يقول: «**ويبدو** (وهذا تخمين من عنده سيتكرر فيما بعد) أنه بدرت من صلاح الدين بوادر **تهديد** للخليفة بلغ خبرها مسامعه (أي قصة قلب الدولة وقصة لقب الناصر) **ويبدو** (مرة أخرى) أن صلاح الدين تباهى (بلقبه) على الخليفة، **وقرر في نفسه التمرّد** إلى حد قتال جيشه (ومن قال ذلك؟ وما مصدر الباحث في هذا سوى التوهُّم؟) إذا أصرَّ على إرساله إلى فلسطين، ثم راح في مجالسه الخاصة(هل كان السيد الباحث حاضراً بتلك المجالس) بين أتباعه وأكابره يتحدث أحاديث كلها استثارة وتهديد ووعيد»! ومع ذلك فقد رأى أن يؤخر الصدام بالخليفة وأن لا يعجل في استفزازه (لأنه إن استفزه فالعياذ بالله!!) قبل أن يهيئ وسائل المقاومة ويرتّب المحالفات. لذلك كان جوابه على رسالة الخليفة «جواباً غير شديد بل هو أقرب إلى اللين والموادعة..» فهل كان الأستاذ الباحث مقيماً في صدر صلاح الدين، ليذكر أنه **قرَّر التمرد في نفسه**. أم كان له جواسيسه الخاصون في مجلس صلاح الدين، فنقلوا إليه خبر التهديد والوعيد. أم أن له مصادر سرية نقلت إليه وحده بعد ٨٠٠ سنة هذا الخبر الفريد؟ كما نقلت له ما هو أهم من ذلك بكثير وهو:

«ثم جاء رسول آخر، يبلغ صلاح الدين أن الخليفة الناصر أعلن ابنه أبا النصر محمداً وليّاً للعهد، وكانت هذه العادة المتبعة دوماً من الخلفاء منذ قرون». ولكن الباحث الحصيف يأبى إلا أن يجعل لهذه الرسالة مهمة أخرى. فالإخبار بولاية العهد لا يقتضي في رأيه إرسال رسول. وهذه المهمة الأخرى لا يعرف الناس مؤداها، وقد استنتجها الباحث **استنتاجاً بعد أن أخفاها كاتب**

صلاح الدين، ولم ينشرها وكتمها. وهي تتعلق بإصرار الخليفة على إرسال جيشه إلى فلسطين!! يستدل على ذلك من أن صلاح الدين هوَّن في رسائله ـ من قبل ـ من أمر الصليبيّين قائلاً: «لم يبقَ من المدن المنيعة إلا صور وطرابلس ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة (سنة ٥٨٣هـ سنة حطين) تدرس. وأما أنطاكية فهي بالعراء منبوذة. على أن حدود العزائم إليها بعد انقضاء هدنتها مشحوذة...». وسبب هذا التهوين في رأي الباحث خوف صلاح الدين من إرسال جيش الخليفة!.. فهل سبق أن جاء جيش ورفض؟ وهل الرسالة التي تطمِّن الخليفة، والتي أرسلت كالعادة لإطلاعه على تطورات الأمور أولاً بأول تحمل معنى الرفض للتدخل في أمر الساحل الشامي. وهو الأمر الذي ما خطر ببال خليفة قبل الناصر، ولا خطر ببال الناصر نفسه. وإلا فما الذي كان يمنعه منه، ولا سيما بعد وفاة صلاح الدين وبقاء الخليفة الناصر ثلاثاً وثلاثين سنة بعده يجترّ الأحلام؟ ويقول الباحث: ثم جاءت الأخبار بقدوم حملة ألمانية كبيرة اجتازت القسطنطينية، فحالفها الملك السلجوقي في بلاد الروم قلج أرسلان، ورافقها في العبور». ويضيف الباحث:

«هنا انتبه صلاح الدين وعلم أن أخبار هذه الحملة الضخمة ستصل إلى الخليفة الناصر، وسيكون ذلك حافزاً له على التأهُّب لدخول فلسطين، لذلك استبق الأمور(؟) ولم ينتظر رسولاً من الخليفة (وكيف ينتظر وهو المسؤول الأول؟) وأرسل رسالة إلى الخليفة يهون فيها أمر الحملة ناسباً تقدُّمها إلى خيانة قلج أرسلان، ثم يطمّن الخليفة قائلاً: «والخادم منفرد في عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه. وإن الذي يستبعد من النظر القريب يتّسق، ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله».

ويقفز الباحث الدقيق هنا مرة واحدة، ويلغي خمس سنوات من الكفاح المرير، الذي قضاه صلاح الدين في مواجهة الحملة الصليبيّة الثالثة. وبخاصة

تلك السنوات الثلاث التي طوّقت بها هذه الحملة مدينة عكا بأعنف الحصار والقتـال، وجـاء صـلاح الـديـن بجيشـه المحـدود يطـوّق الصليبيّيـن أنفسهـم ويضايقهم حول المدينة ليفك الحصار عنها.

الجيوش التي قادها صلاح الدين في حطين كانت قد عادت مع أمرائها، وبقي صلاح الدين في جيشه الخاص وحده، يستنجد دون أن يجد من ينجده، ويطلب النفقات من الأمراء، وليس من يدفع. ولا يستطع ترك المواجهة للعدو على عكا والذهاب إلى حلب والجزيرة لتأديب الأمراء على تخاذلهم، وليس في وسعه إجبارهم على مشاركته الدفاع الأليم، لأنهم ـ في عهده نفسه ـ مستقلون بإقطاعاتهم، وليس له عليهم إلا دعوة جندهم للجهاد.

في هذا الوقت أرسل الرسل إلى مختلف الأمراء تترى، وأرسل إلى الخليفة الناصر أن يلقي بوزنه في المعركة، وأن يحث الأمراء على معونة صلاح الدين، فاشترط الخليفة أن يعطي صلاح الدين منطقة شهرزور، وعاد الرسول من بغداد بهذا الشرط وصلاح الدين في أزمته، وقال له: «فكن للإمام يكن لك، واقبل أمره ليقبلك». وجمع السلطان الأمراء للمشورة، وعرض الأمر عليهم وقال: قد وعدتُ الخليفةَ على لسان الشهرزوري بشهرزور، واستدعيت عسكره المنصور وربما قدم إلينا بالحضور، فيكمل لنا النصر والحبور». على حد قول العماد الأصفهاني. وأعطاه شهرزور (ولو كانت لدى الخليفة تلك القوى المزعومة، فهل كان يطلب شهرزور طلباً؟) وصلاح الدين طلب في الوقت نفسه المدد من الخليفة بالجند، لكن الخليفة أرسل إليه حملين من النفط وخمسة نفَّاطين وتحويلاً على التجار بعشرين ألف دينار!! وهذا كان مدى معونته، وصلاح الدين يحاصر الفرنج في خنادقهم حول عكا سنة ٥٨٥هـ، وتقبَّل صلاح الدين النفط، واعتذر عن تحويل المال لأنه ينفق في اليوم الواحد أربعين ألف دينار.

على أن الباحث الأمين لا يرى ذلك، ويخمِّن من عنده أن الرسول القادم من الخليفـة اجتمع بالسـلطان «وندَّمه على ماقدمه، وأعلمه بما علمه». ويرى

أن مهمة رسول صلاح الدين إلى الخليفة هي محاولة إقناعه بعدم إرسال جيشه إلى فلسطين (؟) فكان جواب الخليفة أنه بغير إنفاذ هذا الأمر (أي قبول وصول الجيش الخلافي) فعلى صلاح الدين ألا يطمع برضا الخليفة!!. ووازن صلاح الدين بين الحالين، فلم يتردَّد في اختيار غضب الخليفة، لأن وصوله سيقضي على الصليبيين فيها، وبذلك تدخل فلسطين (أهي وحدها المهمة أم الساحل الشامي كله؟) في حكم الخلافة العباسية. ففضل بقاء الصليبيّين بما احتلوه من أرض الشام على رضى الخليفة، وجعل رفضه ناجماً عن الأمراء لا عنه . . . وراح يمهِّد لإنهاء الحرب مع الصليبيين والتسليم باحتلالهم، ليتفرَّغ لقتال جيش الخليفة إذا جاء!. وللمرء أن يستغرب هذا الإصرار من الأستاذ الباحث على هذا الاتهام وقلب الحقائق لتأييد فكرته. لا سيما إذا قرأنا بقية ما جرى في مجلس الأمراء الصلاحيين الذين استغربوا التسليم بشهرزور وأنكروه[1]. وقالوا: «هذا رأي رائب وشأو شائب». فقال السلطان: «السلطان الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف بشهرزور؟»[2] وقد وجَّه العماد نقده لصلاح الدين على هذا.

ويرى الأستاذ ـ الباحث الأمين ـ أن هذا الموقف من صلاح الدين في التسليم بشهرزور مجرد «تظاهر» بتنفيذ مطالب الخليفة، وأنه راح يمهد لإنهاء الحرب مع الصليبيّين. أهكذا يا أستاذنا الأمين تكون الأمانة التاريخية؟ الحملة الصليبية الثالثة كلها بآلامها وجهادها وسهر الليل وجَرحاها وشهدائها تُلغى مرة واحدة، ويلغى نضال ثلاث سنوات متصلة دون إشارة إليها، مجرد إشارة!! يقفز من فوقها كلها الأستاذ الأمين ويلغيها، وهي إحدى الوقائع الكبرى لصلاح الدين، والوقائع الحاسمة في التاريخ الإسلامي ـ الصليبي؛ لمجرد أن يثبت نظريته. ولماذا إذاً قاوم صلاح الدين حول عكا ومن بعدها خمس سنوات

(١) انظر الفتح القدسي.
(٢) المصدر السابق نفسه.

ونصف، والخليفة العظيم نائم في بغداد؟ وإذا كان التمرُّد هو مطلبه ألم يكن بإمكانه المصالحة مع العدو منذ وصلت طلائع الحملة الثالثة ودون قتاله؟ ليتفرغ ـ كما يريد الأستاذ الباحث ـ لقتال الخليفة. وماالذي كان يمنعه، بل ما الذي كان يمنع الخليفة الغاضب على صلاح الدين من غزو أملاكه في الجزيرة والعراق، وهو مشلول الحركة أمام عكا؟ ولماذا استنجد بصلاح الدين على أتباعه في هذا الظرف نفسه، ولم يقمعهم الخليفة بجيشه العظيم؟ ويقفز الأستاذ الباحث بعدها رأساً إلى الكتاب الذي أرسله صلاح الدين للخليفة، يعتذر بعد سقوط عكا عن سقوطها، أي بعد أربع سنوات من حطين، فيورد نص الكتاب، وقد ناقشناه فيما مضى ولكن...

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ولسنا نتهم الأستاذ الباحث بسقم الفهم ـ معاذ الله ـ ولكنَّا بلى! نتهمه بتعمد الفهم الخاطئ، لهوى في نفسه. وهذا الكتاب واضح المضمون جداً، وهو كتاب اعتذار واستنجاد وبيان العذر في الكلال الذي أصاب الجند. وهؤلاء لم يكن لقيادة غير قيادة صلاح الدين أن تحتجزهم على جبهة عكا ثلاث سنوات متتالية، وهم الذين اعتادوا العودة بعد كل معركة وفي مواسم محددة إلى بيوتهم بغنائمهم أو هزائمهم. إلا أنَّ الأستاذ ـ الأمين ـ يرى في هذه الرسالة أيضاً مظهراً من مظاهر الخداع الصلاحي، يرى أنها «محاولة تثبيط لعزيمة الخليفة على إرسال جيشه لقتال الصليبيّين! وصلاح الدين الذي أرسل هذه الرسالة التي يعلن بها العجز عن الحرب كان في الوقت نفسه يعد لحرب لا على الصليبيّين بل على المسلمين».

وتعليقنا هنا أن الخليفة الناصر لو كان صادق العزم حقاً لكانت هذه الرسالة تحفزه بدلاً من أن تثبط عزيمته، وتثير فيه الحمية لإرسال جيشه من الـ ١٢٠ ألف فارس أو نصفه أو ربعه، لولا أن القضية كلها نسجت من أوهام

«القعدة»، إنـه لم يقل أبداً: اذهـب أنت وربـك فحاربا إنا معكما مقاتلـون، ولكن: اذهب أنت وربك فحاربا إنا هاهنـا قاعدون!! ونحن نسأل الأسـتاذ الأمين الرفق بعقول الناس. وما إلى هذا الحد تبلغ الرغبة في الإساءة، درجة قلب الحقائق، لتنسجم مع النظرية العتيدة! فالله في الحق وأنت تنشده، وما هكذا يا سعد تورد الإبل!.

تبقى كلمة الأستاذ الأمين في آخر النص السابق من أن «صلاح الدين كان يعد لحرب على المسـلمين» إنـه يستند فيها إلى ابن الأثير، الذي يقـول وهو يتحدث عن وفاة صلاح الدين:

« وكان قد أحضر قبل مرضـه ولده الأفضل علياً وأخاه الملـك العـادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد تفرَّغنا من الفرنج، وليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط، لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه. وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قليج أرسلان، وقال: هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً، وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كلاكما مقصر ناقص الهمة، بل أقصد أنا بلد الروم. وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العساكر وتقصد خلاط، فإذا فرغتُ أنا من بلد الروم جئت إليكم، وندخل منها أذربيجان ونتصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها. ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك وكانت له، وقال له: فجهِّز واحضر لنسير... فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عودته... »[1]. وقد وافقـت هذه الحكايـة هوى في نفس الأسـتاذ الباحث، فضمها إلى أسانيده ضد صلاح الدين، ولـم يستعمل منطقه السديد في نقدها، فإن ابن الأثير عنده مصدَّق مادام يقدم له دليلاً إضافياً لنظريته، ولكن من ذا

(١) ابن الأثير: ج ١٢، ص ٩٥.

الذي حضر هذه الجلسة السرية بين الأب وابنه وأخيه وروى هذا المخطط؟ وانفرد ابن الأثير وحده بروايته؟ أم كان ابن الأثير شاهد هذه الجلسة، وفضح مخطط الهجوم على المسلمين؟ إن ابن الأثير ما غفر لصلاح الدين حتى بعد وفاته أنه ألزم الزنكيين إلزاماً بالجهاد، وأجبرهم بالرغم منهم على الوقوف معه في جبهة القتال... أغريب أن يسجل أية «فرية» لإلصاقها بصلاح الدين؟ ولو كانت تخالف كل نهج حياته وسلوكه!.

وتتحكم عقدة الجنس بالباحث الجليل وهو يتحدث عن صلح الرملة فيقول[1]: «ومن الطريف، وربما هو من المحزن أن العادل المندوب المفاوض لم يكتفِ بزوجاته المسلمات، ولم يشغله الأمر الخطير القادم عليه، بل طار به الخيال إلى الجمال الأوروبي والأنوثة الإنكليزية، فرآها فرصة سانحة ليدخل في حريمه إلى جانب الكرديات والعربيات والتركيات ـ غادة إنجليزية تلوّن مفاتن الجمال، فيجمع بين السمرة والشقرة وبين الزرقة والسواد. لذلك حاول إغراء ملك الإنكليز بأن يزوجه أخته، وجعل ذلك من مقوِّمات عقد الصلح، وبهذه المصاهرة يصبح الإنكليز من ذوي القربى، فتتوحَّد المصالح وتتمازج الأهداف...» وينسى الباحث أن هذه القضية إنما عرضها ريتشارد ملك الإنكليز على العادل وليس العكس، وأن هذا النوع من المصالحات كان مألوفاً في أوروبة بين الأخصام، وإذا اقترحه الملك فقد كان الأمر عادياً بالنسبة إليه، ولم يجعله أحد شرطاً من شروط الصلح ومقوماته، ولكنه تأكيد على الصلح، لا أكثر ولا أقل. وانتهى المشروع على أي حال بالفشل، لأن القُسس تدخَّلوا وأثاروا مخاوفها الدينية. «فرهبت بعدما رغبت. وبطلت بعدما طلبت. وسَلت بعدما سألت. وكرهت وكانت شرهت».

وتبقى في هذه الناحية من العلاقة بين صلاح الدين والخليفة العباسي الناصر عدة أسئلة:

---

(١) الكتاب نفسه، ص١٢٢.

ـ لو كان المئة والعشرون ألف فارس الذين كان يخرج بهم الخليفة للاستعراض ـ عدا العربان والتركمان والمتعجّمين ـ موجودين فعلاً، فأين كانوا يبيتون؟ إنهم يحتاجون إلى مثل عددهم من الخدم ومثل عددهم من الخيل، وبغداد كانت قد انتقلت إلى الضفة الشرقية من دجلة، وقد تهدم الكثير من مبانيها، ولم يكن تعداد من فيها يزيد. حسب التحقيقات والتقديرات الأخيرة على ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف. فهل كان نصف بغداد جنوداً ياترى؟.

ـ وإذا كان نصف بغداد جنوداً وفيهم ١٢٠ ألف فارس فلماذا لم يصل فارس واحد منهم إلى ساحل الشام لمقاومة الصليبيّين، وقد بقي الخليفة الناصر في الخلافة ٤٧ سنة؟ ولماذا لم ينتهز فرصة وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وهو «الخائن»، «المستسلم»، «المجرم»، «المستحق للقتل»، وفرصة تمزُّق مملكته من بعده واختلاف الإمارات الأيوبية بعضها مع بعض، ليضرب الخليفة الناصر العظيم ضربته لهم وللفرنجة معهم في الشام، وهو الذي خاض بجيشه معارك كثيرة وأسقط فيها دولاً وأنشأ دولاً واحتل مدناً وأغاث إمارات وممالك وولايات؟ أيخاف محاربة المسلمين في الشام؟ إذاً فلماذا حارب المسلمين في فارس وإيران؟.

ـ وإذا كان ابن الأثير في معرض التخفيض من جيش الموصل (جواباً على كلمة العماد الأصفهاني أنه كان في عشرين ألف فارس) يا ليت شعري كم يكون دخل الموصل ليكون جيشها بهذا العدد، وقرر أنه لا يزيد على ستة آلاف فارس. فيا ليت شعري كم يكون دخل الخليفة الناصر في إمارته العراقية حول بغداد، ليكون لديه ١٢٠ ألف فارس ولا تقل نفقاتها (قياساً إلى نفقات الجيش الصلاحي في مصر) عن سبعة أو ثمانية ملايين دينار؟.

ـ ولماذا يا ترى اختار الناصر أن يمشي بجيشه نحو الجنوب إلى خوزستان (الأهواز) ونحو الشرق شرق العراق جبال زاغروس بقممها ووديانها، واختار المسير إلى الري ـ وهو في قلب جبال البورز العصيّة الثلجية ـ

ويصف نفسه على الدوام بالخادم، ويلحّ في طلب المشورة أو في استعجال الرأي، أو في بسط العذر أو في البشارة.

٣ ـ ولدينا ما هو أهم من هذا وذاك؛ سيرته الفعلية وسلوكه في الحرب والسلم وفي الظفر والهزيمة، وهي الكاشف الأساسي لشخصيته.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالَها تَخْفى على الناس تُعلم.

إن صلاح يشترك مع مولاه نور الدين في الإيمان بأربعة مبادئ:

(١) سيادة المذهب السني. (٢) التسلح الخلقي. (٣) الجهاد في سبيل الله. (٤) ضرورة الجبهة الإسلامية الواحدة، لإنجاز هذا الجهاد وتحرير القدس من الفرنجة.

وقد ذهب نور الدين بسمعة المبدأ الأول (أي إلغاء الخلافة الفاطمية، وهو من إنجاز صلاح الدين في الواقع) واشترك الاثنان في سمعتَي الجهاد والتسلُّح الخُلقي على السواء، وبدأ ظهور الجبهة الإسلامية الواحدة في عهد نور الدين، ثم قصر به العمر، فاستمر صلاح الدين في تحقيقها اثني عشر عاماً حتى نجح.

ولكن هناك فرقاً بين البطلَين: فنور الدين هو ابن مؤسسة عسكرية تركية قائمة، وكانت جاهزة لخدمته يوم وفاة أبيه، وربيب بُنيةٍ سياسية مستقرة من قبله، سلجوقية التكوين، تتَّصف بتنافس الأمراء ـ حتى لو كانوا إخوة ـ في التوسع بالإقطاع والتباهي بكثرة الجيش وباكتناز الأموال.

وكثرة الجيش مرتبطة بالمال، لا في الإنفاق عليه، ولكن في شراء أفراده المماليك وتدريبهم على الحرب. فلا ولاء لهم إلا لمن يملك رقابهم والنفقة عليهم، وهم يحاربون في مواسم محددة ثم يعودون لإقطاعاتهم يتمتعون بها، والقاعدة أن يمنحهم سيدهم «الدستور» لهذه الراحة الواجبة. والتركمان منهم أو البدو يحاربون ما دامت هناك غنائم.

مثل هذا الواقع خرج صلاح الدين عن جانب منه في أنه لم يكن سلجوقياً، ولكنه شكَّل مع أفراد أسرته مؤسسة عسكرية تحت ظل نور الدين، وبدعمٍ منه

تمكنت من إضافة مصر إلى المملكة النورية، وأنه ألَّف جيشه من المماليك من جهة، وجند من مصر (جماعات شعبية من المرتزقة)، كما جنَّد أو توسَّع في تجنيد البدو النهَّابين لإرهاق الصليبيين، واستخدم البحر جبهة إضافية بجانب الجبهتَين البريَّتين في مصر والشام، لا في البحر المتوسط فقط ولكن في البحر الأحمر أيضاً.

وقد تميَّز نـور الدين دون سابقيـه من الأمـراء السلاجقة بالنزاهة والتُّقى والإخـلاص والتسـامح والعدل، حتى رفعتـه هذه المناقـب لدرجـة الخلفـاء الراشدين، وصار ثالث العمرَين عند الناس، وصار يدعى بالشهيد ولو أنه مات على فراشه، وقد بدأ عهده بعناق أخيه الذي تقاسم معه مملكة أبيه بين دهشة الناس، الذين كانوا ينتظرون كما هي العادة وقوع الحرب بينهما. وكان له من رعايته للأتقياء والشيوخ والمتصوِّفة جيش من الدعاة له، يدعون لدولته في كل مكان، ويشيدون بشمائله.

وحين توفي نور الدين لم يشكّ أحد من الناس في أن صلاح الدين واحد من أولئك الأمراء الذين يودون اغتصاب إرث نور الدين من وريثه الصالح، فقد كانت هذه العادة المتبعة، فما الذي غيَّر رأي الناس فيه، ودفع حتى أعدائه من الفرنجة إلى التسليم بصدقه وإخلاصه لما يعلن من المبادئ؟.

سيرته العملية كانت أقوى الأدلة وأصحها كشفاً عنه.

ذكر أبو شامة[1]: أنه لما وصل الملك العادل عند السلطان صلاح الدين عند الكرك، وكان قد استدعاه بأهله وماله وجميع الجند، قلَّت الأموال عند السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلاً وقال: أريد أن تقرضني مئة وخمسين ألف دينار إلى الميسور. فقال: السمع والطاعة. وخرج من عنده وكتب إليه يقول: أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحلّ هذا المال إلى خدمة السلطان، ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها.

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ٥٠.

فأجابه السلطان: إنّني والله ما أقدمتك إلا لأولّيك حلب. وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ما عندي. فلما أصبح العادل أنفذ، وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً والمال على (ما هو) له. فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع؟. أوما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم؟ أوما علمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء؟. ثم قرر له السلطان ولاية حلب وأعمالها وكتب له التوقيع، وقرر عليه مالاً يحمله برسم الزردخانات وخزانة الجهاد ورجاله من الحلبيين.

وحين وفاته وتوزيع مملكته بين أولاده وأولاد أخيه لم يكن في باله إذن أن يعطيها أملاكاً، وإنما كان يعطيها إقطاعاً ليعيشوا، وإنما وزعها بنفسه لأنهم حتى في حياته تنافسوا وتحاسدوا على إقطاعاتها سعة وغنى. وإذا أساؤوا التصرف من بعده فمن هو الميت الذي يُسأل عن سوء تصرف ورثته؟ ثم من ذا الذي يدافع عن تخاذلهم وحرب بعضهم لبعض وتعاهدهم مع الصليبيين واحداً ضد الآخر؟ أليس من الظلم لصاحب حطين أن نحمل عليه ذنوب وأسواء أحفاده وأحفاد إخوته، لمجرد الإساءة إليه والتجريح فيه؟ لقد عقد صلحاً محدود الزمن لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، فهل كان عليه أن يُبعث من قبره ليتابع الجهاد عند نهاية الصلح إذا لم يبادر أخوه أو ابنه بذلك؟ وهل كان باستطاعته وهو يموت أن يحرم أولاده وأهله، وكان تقسيم الملك هو القاعدة المتَّبعة في الشرق ذلك العصر، وقد طبقها قبله السلاجقة جميعاً والزنكيون وصغار الإمراء وكبارهم، وهل كان عليه أن يتجاوز عصره وتقاليده؟!.

كان الرجل صاحب مثل أعلى يلاحقه ويقلق ضميره، ولقد عبَّر عنه في مختلف الرسائل إلى الخلافة العباسية، ولخَّصه في إحدى هذه الرسائل بمقاصد ثلاثة: «وهذه المقاصد الثلاثة هي: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد

الله، والطاعة لخليفة الله؛ هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا ملكها، والله العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش، ولا لغضب يملأ العيان من نَزَق ولا طيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسَّم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يسطر في الصحيفة ويُرْقم. . . وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب. . . »[1]. وقد ذكر عن تسلُّمه حلب للخليفة: «أنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير. ولا نختار إلا أن تكون جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها. . . »[2].

لقد كان صلاح الدين بتقاه، ببساطة فكره، بكرمه، بوفائه بالعهود حتى للأعداء، بمثاليّته؛ نموذجاً خاصاًمن رجال الحرب والسياسة. ومع أنه كان يدرك أن طرائقه في الحكم وفي أهداف الحرب لم تكن تتفق مع واقع عصره، فقد جاهد طويلاً لإقرارها كمبادئ لدولته. ولم تكن مشكلته سياسية فحسب، ولكنها كانت خُلقية أيضاً، ومع ذلك فقد استطاع في النهاية ورغم كل المعوقات أن يحقّق بعضاً من الأهداف التي وضعها لنفسه، وكسب بذلك ـ رغم انتقاد أعدائه ـ احترام الجميع من أعداء وأصدقاء، بأنه في التاريخ الإسلامي أحدُ رموز الجهاد البارزة مهما حاول «المغرضون» تحطيم الفُتات من تمثاله في النفوس، وهو نسر ضخم لا يضيره أبداً أن تُنسل بِضْعُ ريشات من جناحه الممدود.

* * *

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ٤٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *